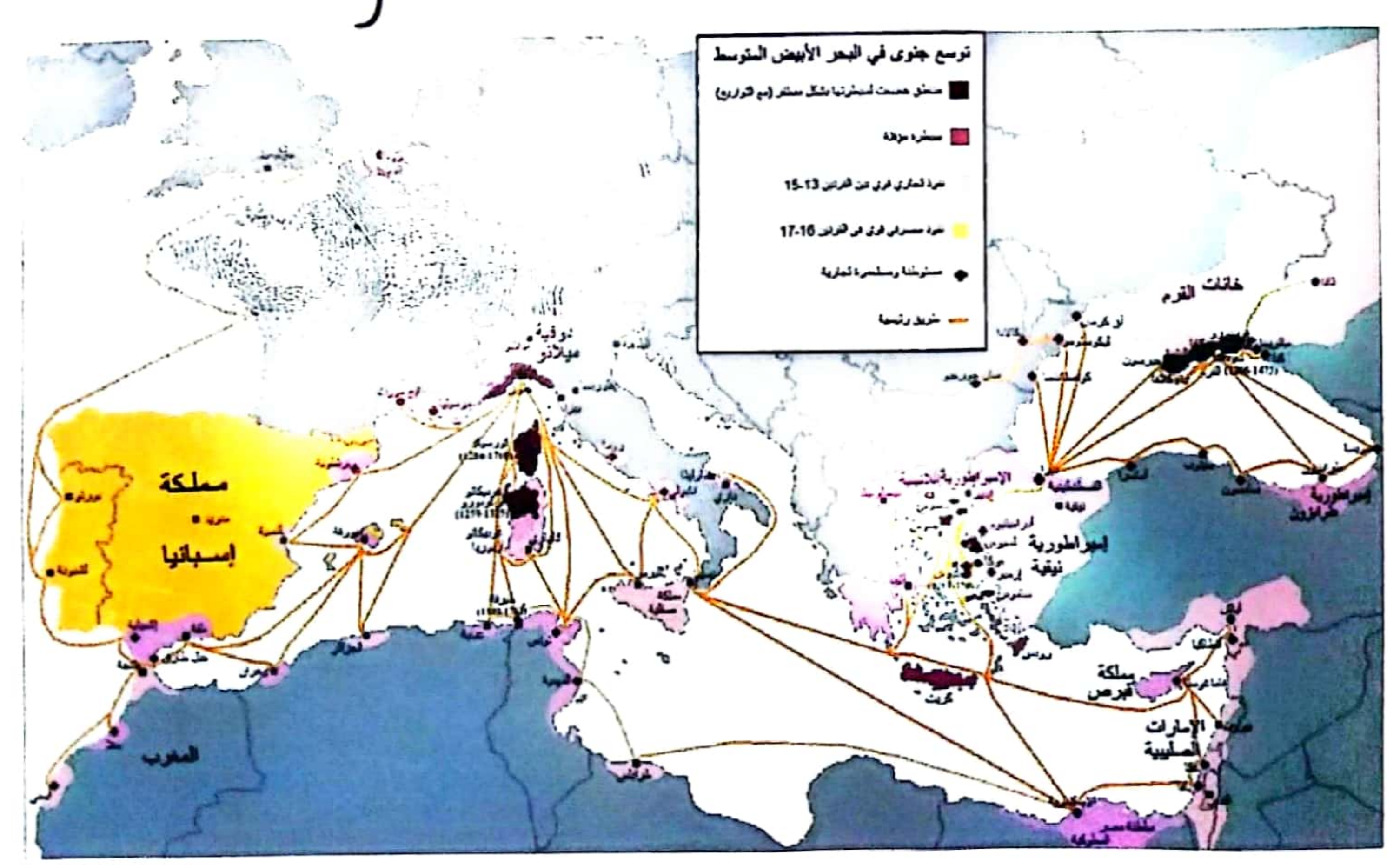
مصطفى نشاط

جنوة وبلاد المغرب

من سنة 609هـ/ 1212م
إلى سنة 759هـ/1358م



مساهمة في دراسة العلاقات الإيطالية المغربية أواخر العصر الوسيط

جنوة وبلاد المغرب

من سنة 609هـ/ 1212م إلى سنة 759هـ/ 1358م:

مساهمة في دراسة العلاقات الإيطالية المغربية أواخر العصر الوسيط

الإيداع القانوني :

2014 MO 3876

ردمك :

978-9954-34-592-4

الطبع



Av. Hassan II Cité Al Manar n° 6/3 - Rabat
05 37 20 46 32 - 06 61 20 37 76
imprimerierabatnet@gmail.com

صورتا الغلاف :

1 – التجارة الجنوية في القرنين 7 و 8 هـ/ 13 و 14 م
2 – عقد جنوي لاستيراد الكتان من سبتة
(عقود الموثقين المجهولين .Not. Ignoti. B3. Fram 32 n° 100 . 18 يناير 1251م)

4- بصدد المنهج:

أخرنا الحديث عن المنهج الذي اعتمده البحث لاقتناع قوامه أن المنهج يجب أن يستتبع الموضوع، وليس العكس. فالمنهج ليس بالوصفة الجاهزة والصالحة لكل موضوع. لقد تحكم في البحث مقصدان أساسيان، يتمثل أولهما في الكشف عن الخطوط العريضة لمسارات العلاقات المغربية الجنوية في القرنين 7و8هـ/ 13 و14م، ونعترف بأن عدة بياضات بها لم تتمكن الدراسة من ردمها، وأما المقصد الثاني فرام رصد بعض الظواهر الناتئة في تلك العلاقات، والتأمل فيها، أو طرح علامات استفهام عليها.

وانسجاما مع هذين المقصدين، تم الاعتماد في البحث على طريقتين . فمن أجل تتبع مسارات العلاقات الجنوية المغربية، حضرت طريقة الوصف التي تدخل ضمن ما تعارف عليه المهتمون بالتاريخ الحدثي، حيث عملنا على التقاط الإشارات التي تهم تلك العلاقات. وبعد جمع شتاتها، قدمناها في تسلسلها الكرنولوجي، كمحاولة لإعادة بنائها. وسمحت هذه العملية ببروز ظواهر تطرح نفسها كقضايا تحتاج إلى أن تحلل أو تؤول، وحينها استندت الدراسة إلى أداة التأمل التي تدخل في صميم التاريخ الإشكالي، علما بأن مطلب المزج بين الطريقتين وارد بحكم عدم وجود فواصل مصطنعة بين التاريخ الحدثي والتاريخ الإشكالي.

وقد فرضت الوقائع التاريخية على الدراسة أن تنتقل بين اختيارين منهجيين في مراقبة العلاقات بين جنوة وبلاد المغرب. فإذا كانت الوحدة السياسية قد تحققت ببلاد المغرب مع دولة الموحدين، فإن المرحلة المدروسة تزامنت مع واقع التجزئة السياسية بهذه البلاد ببروز ثلاث دول، كانت لها اختيارات خارجية مختلفة عن بعضها البعض. ودون إغفال هذا المعطى في تتبع مسارات العلاقات السياسية والعسكرية في العلاقات الجنوية المغربية، فقد تبين لنا أن الجنويين في مبادلاتهم التجارية مع بلاد المغرب، لم يميزوا في كثير من الأحايين بين دول بني مرين وبني زيان وبني حفص، وعادة ما كانت الرحلة التجارية تستهدف كل الفضاء الممتد من سبتة إلى طرابلس.

البـــاب الأول

الإطار السياسي والقانوني للعلاقات المغربية الجنوية

نقصد بالإطار السياسي والقانوني للعلاقات المغربية الجنوية مختلف الصيغ غير التجارية التي اتخذتها تلك العلاقات، سواء أكانت ساخنة ممثلة في الاصطدام العسكري، أم سلمية من خلال تبادل السفارات والتوقيع على معاهدات الهدنة والتجارة. وبعد جمع شتات الإشارات التي تصب في هذا الإطار، أمكن تقطيع الفترة المدروسة إلى ثلاث مراحل تروم إبراز منحنيات التفاعل السياسي بين الطرفين، مع استجلاء ما يميز كل مرحلة عن الأخرى.

لقد غلب البعد التجاري على العلاقات الجنوية المغربية، ولاغرو أن يشغل باب العلاقات التجارية ثلثي الموضوع المدروس تقريبا. غير أنه لرصد هذه العلاقات ، يستوجب الأمر معرفة الوعاء السياسي الذي تحركت فيه، نظرا للتلازم الحاصل بين ما هو سياسي وقانوني من جهة، وما هو تجاري من جهة أخرى.

وقبل الوقوف على المراحل الثلاثة التي مرّت بها العلاقات الجنوية المغربية، نقدم لها بفرشة تاريخية تسمح بتأشيرة المرور، والدخول إلى رصد تلك العلاقات في أهم أبعادها.

الفصل الأول

العلاقات الجنوية المغربية خلال النصف الأول من القرن7هـ/ 13م: محاولة تكريس التفوق الجنوي

1- في البحث عن الجذور:

مرحلة "اكتشاف" الجنويين لبلاد المغرب في القرن6هـ/ 12م

أ- صعوبة تتبع العلاقات الجنوية المغربية قبل القرن6هـ/ 12م:

يصعب على المهتم بتاريخ العلاقات الجنوية المغربية أن يتتبعها قبل القرن6هـ/12م، ولا يمكن الحديث عن علاقات منتظمة بين الطرفين قبل هذا القرن[1]، وذلك لسببين أساسيين، وهما:

- إن العلاقات المغربية الجنوية ظلت آنذاك ضعيفة إذ الفترة تعد امتدادا للحروب الصليبية، وما انجر عنها من نفور بين المسلمين والمسيحيين، مما جعل كل طرف يأخذ تصورا مسبقا وسلبيا عن الطرف الآخر. ويتجسد هذا الموقف من خلال الأوصاف التي تقدمها المصادر عن بعضها البعض. فالجنويون باعتبارهم نصارى هم في المصادر المغربية "كفار" و"مارقون " ...وأما صفات المغاربة في الحوليات الجنوية فتتميز بالغدر"perfidia" وبقذارة الوثنيين " Sporcizia dei pagani"[2] . ويبدو أن الموقف العدائي ظل ثابتا في العلاقات الجنوية المغربية، ولم يتم تكسير حاجز انعدام الثقة بين الطرفين إلا مع توقيع الجنويين والمرابطين لمعاهدة هدنة وتجارة سنة 1137 أو 1135م، والتي دامت صلاحيتها مدة عشر سنوات[3].

- ترتبط صعوبة تتبع العلاقات المغربية الجنوية قبل القرن 6هـ/ 12م كذلك بنقص فادح في المادة المصدرية المتوافرة عنها. وهذا النقص واضح أكثر بالمصادر

---

[1]. Balletto(Laura), Famiglie Genovesi nel nord-Africa, in Dibattito su Grandi Famiglie, p50.

[2]. Pistarino(G.), Genova e l'Islam nel mediterraneo occidentale, Anuario de studios medievale, Barcelona, T10, 1980, pp202-203

[3] [illegible] A.G. op.cit, T1, p28-1137 [illegible] Trattati, op.cit, p7 [illegible]

العربية، حيث يلاحظ أن الحديث عن "الآخر المسيحي" يتسم بشح كبير. بل إن هذا الشح مسجل كذلك بالمصادر العربية للقرنين 7و8هـ التي تغطي فترة الدراسة[1]، وذلك على الرغم من أنها شهدت تطورا في العلاقات المغربية الأوربية. ومن حسن حظ المهتم بها أن الحوليات الجنوية احتفظت ببعض الإشارات عن العلاقات الجنوية المغربية مع بدايات القرن6هـ/ 12م. أما ما هو معروف عن الموثقين الجنويين، فإنه لا يرقى إلى ما قبل هذا القرن، وتشكل عقود الموثق" جيوفاني سكريبا"[2] التي تغطي المرحلة الممتدة من 1154 إلى 1191م أقدم العقود المعروفة- حسب علمنا - التي أرخت للعلاقات المغربية الجنوية . ويمكن القول بأن الوثائق لن تصبح متوافرة عن تلك العلاقات إلا مع بدايات القرن13م.[3] ولعل مما له دلالته في هذا السياق أن "كنال" الذي وضع تاريخا لجنوة في العصر الوسيط، بما فيه تاريخ القرن 12م، تحدث عن علاقاتها التجارية مع البحر الأسود وسوريا واسبانيا المسيحية، بينما غابت أي إشارة لديه عن صلاتها ببلاد المغرب خلال ذلك القرن.

ب: أهم محطات الاصطدام الجنوي المغربي:

تأثرت العلاقات الجنوية المغربية قبل القرن 6هـ/ 12م بالأجواء التي انجرت عن الصراع الذي طبع العلاقات بين "دار السلم" و"دار الحرب" منذ بضعة قرون سابقة. وتجلى ذلك في حدوث اصطدامات بين الطرفين، سواء من خلال الهجوم على الطرف الآخر في عقر داره، أم من خلال تبادل عمليات القرصنة.

لما كان الفاطميون بصدد الطور المغربي من دولتهم، هاجموا جنوة سنة931م، ودمروها- حسب الحوليات الجنوية-.[4] وفي سنة 480هـ/ 1087م، ساهم الجنويون

---

[1]. وقفنا على ما يربو عشر معاهدات هدنة وتجارة وقعتها السلطة المغربية مع الدول والمدن الأوربية بحوض المتوسطي، غير أن المصادر المغربية لم تشر سوى إلى اثنتين منها [illegible] ... 684هـ/1285م [illegible] ص359 [illegible] ص433 [illegible] ص30 [illegible] في العصر المريني [illegible] 1999، ج2.

[2]. Il Cartolare di Giovanni Scriba, edition Chiaudano(M.) Moresco(M.), Turin 1935.

[3]. Mascarello(A.), Quelques aspects des activités italiennes dans le maghreb médieval, R.H.C.M, n5, 1968, p65

[4]. A.G. T8, p16

[illegible] سنة 935م [illegible] ج4 [illegible]

بأمر من البابا فكتور الثالث إلى جانب البيزيين في هجوم على المهدية بعدّة قوامها 300 مركبا وثلاثون ألف مقاتل، و دمر الجنويون المدينة باستثناء قلعتها حيث اعتصم الأمير تميم، وأفضى كل ذلك إلى قبوله لصلح مشروط مع الجنويين.[1] وما بين سنتي 1136 و1137م، تعرضت بجاية لهجوم الجنويين بواسطة 12 مركبا، واستولوا بها على عدة مراكب مغربية محملة بالسلع،[2] وحصل كل مركب في هذا الهجوم على 700 ليرة[3].

كما تشير المصادر إلى تبادل الجنويين والمغاربة لعمليات قرصنة بحرية. ففي سنة 1136م، استولى بعض البجائيين على مراكب جنوية.[4] وفي سنة 1156 م، أسر الجنويان "درودو" و"بونو جيوفاني" بتونس، وقدمت جنوة مبلغ ثمانين دينارا ذهبيا مقابل افتدائهما[5]. ولعل أهم عملية قرصنة تحدثت عنها الحوليات الجنوية، هي التي تمت سنة 1154م إثر إيقاف المغاربة لمركب جنوي قرب جزيرة ساردينيا بعد عودته من الإسكندرية. وهنا تضخم الحوليات الجنوية من أهمية ردود الفعل التي أبداها الجنويون، فقد تمكنوا من استرجاع ممتلكاتهم بفعل شجاعتهم، وأجبروا المغاربة على الاعتذار لهم بعد أن تأكدوا من هوية المركب الجنوي. و بالرغم من مبالغة "كافرو" صاحب الجزء الأول من الحوليات الجنوية في إبراز بطولة مواطنيه، فإن "لوبيز" يرى أن هذا الحدث يدل على تنامي قوة جنوة بالبحر المتوسط الغربي[6].

إن الطابع العدائي الذي ميز العلاقات المغربية الجنوية قبل القرن 6هـ/ 12م، لم يمنع من وجود صيغ للتعامل السلمي بين الطرفين. ويبدو أنه منذ الهجوم الجنوي على المهدية سنة 480هـ/ 1087م، أصبحت مواقف الجنويين تتجه أكثر نحو استعمال الأدوات السلمية في علاقاتهم مع بلاد المغرب. ذلك بأن التجار مارسوا الضغوط على كومونة جنوة لتوقيع معاهدات هدنة وتجارة تؤمّن تحركاتهم بتلك المنطقة وتضمن لهم امتيازات بها.[7] ويستفاد من عقود الموثق "جيوفاني سكريبا"، وعقود "وليام كسنسي" التي تغطي سنوات 1190و1192م، وعقود الموثق "جيوفاني دي كويبرتو" التي تهم

1- أحرق الجنويون المدينة خلال هذا الهجوم، ولم ينسحبوا منها إلا بعد أن دفع لهم أمير المدينة مائة ألف دينار ذهبي، كما سمح للجنويين والبيزيين بحرية الدخول إلى المهدية وإلى إمارة تونس كلها. انظر: ابن خلدون، العبر، ج6، ص 160. والوزير السراج، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، المجلد 1، دار الغرب الإسلامي، 1984، ص 449.

2 - Krueger, op. cit, p378.

3 - AG, T1, p 28

4 - Mascarello, op. cit, p65.

5 - Schaube, op. cit, p345.

6 - Lopez, Studi, op. cit, p11.

7 - Balbi, Il trattato, op. cit, p 298.

الفترة المتراوحة ما بين 1200و1206م، ثم سنة 1211م بأن بلاد المغرب لم تكن غائبة عن اهتمامات التجار الجنويين، وإن كانت دون مستوى تجارة الجنويين مع المشرق. ومن خلال مجموعة من الوثائق عن توزيع نسب الاستثمارات الجنوية في التجارة الخارجية ما بين 1158 و1160 م التي أوردها" داوود أبوالعافية"[1]، يمكن الظفر بالجدول التالي:

السنة	صقلية	سوريا و مصر	بجاية	باقي بلاد المغرب
1158	34%	37%	3.6%	7.4%
1160	16.4%	25.3%	11.8%	19.5%
1161	13.5%	48.8%	2.8%	9.7%

ج: بنية المبادلات المغربية الجنوية وأهم خصائصها قبل القرن 6هـ/ 12م:

يمكن أن نستنتج من خلال العقود المتوافرة عن العلاقات التجارية بين جنوة وبلاد المغرب ما قبل القرن 6هـ/ 12م، أنها ظلت قائمة على نفس المواد التي كانت محل تصدير واستيراد بين الطرفين طيلة العصر الوسيط. فقد صدرت بلاد المغرب إلى جنوة الجلود[2] والشب[3] والمرجان[4] والتبر[5]. بينما نقل الجنويون إلى بلاد المغرب التوابل المشرقية، مثل الفلفل[6] والزعفران وجوزة الطيب[7] أو اللآلىء[8]، كما حملوا إليها بعض

1- Abulafia(David), The Two Italies : Economic Relations between the Norman Kingdom of Sicily and the Northern Communes, Cambridge, 1977, p111, p113, p119.

2- من ذلك عقد مؤرخ بسنة 1163م بموجبه استورد "بلانكرنيوس"، وهو أحد يهود جنوة كمية من جلود الماعز من بلاد المغرب إلى جانب مواد أخرى، وشكل مجموع المواد المستوردة 19 ليرة و8 قطع وتبرا واحدا. انظر: Krueger.op.cit.p 389.

3- قدم "Guglielmo Malone" قراضا لـ"Bongiovanni Lercario" لاستيراد الشب من بجاية Cartolario di Giovanni Scriba.op.cit.acteN812(16-04-1161).

وبموجب العقد السابق الذي يشير إلى "بلانكرنيوس" استورد من بلاد المغرب 107 وثلثي قنطار من الشب

4- يشير أحد عقود الموثق "جيوفاني سكريبا" إلى أن الجنوي "أنسلمو انتي" استورد سنة 1164 كمية من المرجان تقدر بقنطارين ونصف من سبتة، ويتحدث عقد آخر عن استيراد "دي لوكا" المرجان من تونس سنة 1163م، وقد بلغت قيمة القراض 35 ليرة.

5- يتحدث عقد من عقود "سكريبا" عن استيراد أحد الجنويين سنة 1162-1163التبر من سبتة، ونقل إليها النحاس والأقمشة كما كانت بجاية من المراسي المغربية التي استورد الجنويون التبر منها في القرن12م.

6- حسب عقد مؤرخ بشتنبر 1201م اكترى مجموعة من التجار الجنويين مركبا حملوا عليه كمية من السلع، من ضمنها الفلفل متجها نحو بجاية. انظر: Dufourcq(Ch), Aperçu sur le commerce entre Gênes et le Maghrib au 13 siecle, in Mélanges offerts à E. Perroy, Paris,1973,p 724.

ويتحدث أحد عقود "سكريبا" عن إرسال الجنوي "وليام فنتورى" ستة قناطير من الفلفل إلى سبتة بنفسه سنة 1164م

7- نقل أحد الجنويين الزعفران إلى سبتة سنة 1160 على مركب يدعى "Tanto" انظر

-Il cartolario di Giovanni Scriba,op.cit,acte N 910(20-09-1161).

وحمل "وليام ليشو" كميات من الزعفران إلى سلا، انظر

Schaube, p 343

8 -Il cartolario, op. cit, acte N 910 (20-09-1161).

المنسوجات المصنوعة بمناطق أخرى، مثل الأقمشة[1] والحرير المجلوب من اسبانيا والزرابي البغدادية[2]. وتتحدث عقود الموثق "جيوفاني سكريبا" عن تزويد جنوة بلاد المغرب خلال القرن 12م بالقنب[3]. وقد شكل النحاس أهم معدن نقله الجنويون إلى بلاد المغرب آنذاك[4]. وبما أن المجال – هنا- ليس هو تقديم جرد شامل بالسلع التي تكونت منها بنية المبادلات الجنوية المغربية ما قبل القرن 12م. / 6هـ، فيمكن التأكيد على أهم الخصائص التي ميزتها، ومنها:

- **ضعف الاستثمار:** لم تحظ بلاد المغرب سوى باهتمام ثانوي من لدن التجار الجنويين لأن معظم الرحلات التي كانوا يقومون بها باتجاه بلاد المغرب، كانت تصادف فترة رجوع مراكبهم من المشرق[5]. ولكي نعبر عن هذه الوضعية بالأرقام- لما لها من بعد حضاري- نشير إلى أنه منذ سنة 1155م، وإلى حدود تكوين الدولة الحفصية سنة 1228م، لم تتجاوز نسبة الأموال الموجهة للتجارة الجنوية مع تونس نسبة 5 ٪ من مجموع الأموال التي خصصها الجنويون للتجارة مع حوض البحر المتوسط[6].

- **تجارة مفتوحة في وجه الجميع:** لم تكن التجارة مع بلاد المغرب قبل القرن 12م/ 6هـ حكرا على فئة أو أسرة معينة من جنوة. فبما أن هذه التجارة لم تكن تحتاج إلى رؤوس أموال كبيرة، فإنها لم تشهد منافسة بين الأسر الجنوية الكبرى، وذلك على عكس التجارة الجنوية مع المشرق[7]. لقد كانت التجارة الجنوية مع بلاد المغرب – حسب تعبير "لوبيز"- تجارة الفقراء[8]. ومع ذلك، فإن العقود التي حررها الموثق "جيوفاني سكريبا" تسمح بملاحظة أسماء أسر جنوية كبيرة برزت في التجارة مع بلاد المغرب في القرن 6هـ/12م، مثل "دي البيرشيس" و"مالونو" و"سبينولا"

1- نقل الجنوي "وليام ملتوس" إلى بجاية عشرة قطع من القماش الاسباني، ويبلغ طولها 43 ذراعا. انظر:
Schaube. op. cit. p 344.
5- حمل "تلتروتوس" زرابي بغدادية إلى سبتة خريف سنة 1163م:
Ibid. op. cit. p 342.
- نقل "تلطا ألفونسو" صيف 1161 القنب إلى بجاية، وفي سنة 1164 خصص أحد الجنويين مبلغا 84 إلى المدينة نفسها قيمته 44 ليرة لنقل القنب إلى المدينة نفسها.
Ibid. op. cit. p 344-344.
6- توصلت سبتة سنة 1162م من أحد الجنويين بعشرة قناطير من النحاس بلغت قيمتها بما في ذلك سعر استئجار المركب 16 ليرة ونصف الليرة:
- Ibid. op. cit. p 342
وصل "روستو نيكو" كمية من النحاس إلى طرابلس سنة 1164 مقدارها ستة قناطير:
- Ibid. op. cit.p 346
5 - Lopez. Studi. p 22.
6 -Balard (Michel). Notes sur le commerce ...CT, 1991, p 371.
7 -Krueger. op. cit. p 388.
8 - Lopez (Robert). Storia delle colonie genovesi nel mediterraneo, Bolonia. 1938. p 134.

و"ليركري" و"ديلا فولتا". والملاحظ أن بعض نساء جنوة ساهمن في الاستثمار في التجارة مع بلاد المغرب، ومن ذلك أن "Simone Buontommaso" جمعه عقد مع زوجته للتجارة مع سبتة، وقد نص العقد على امكانية التوجه إلى الاسكندرية، ثم العودة من جديد إلى سبتة[1].

- **تغير مراكز الاهتمام التجاري للجنويين ببلاد المغرب:** استنتج "كرويغير" ومن بعده "لوبيز" ملاحظة مفادها أنه إلى حدود سنة 1160م، ظلت الرحلات الجنوية إلى بلاد المغرب مقتصرة على طرابلس وتونس وبجاية، وأصبحت بجاية بعد توقيع عبد المومن الموحدي معاهدة 1161م مع جنوة أهم مرسى ببلاد المغرب يتردد عليه التجار الجنويون[2]. ولا شك في أن موقع بجاية ساهم في تزايد أهميتها لدى الجنويين، إذ إن بجاية وجنوة توجدان على خط بحري مستقيم، ولا تتعدى المسافة بينهما 120 ميلا[3]. وشغلت تونس المركز الثاني ضمن اهتمامات تجار جنوة ببلاد المغرب آنذاك[4]. وترد بعقود الموثقين الجنويين مراسي أخرى من المنطقة تردد عليها أولئك التجار، مثل قابس وطرابلس ووهران[5]. وقد توصل مرسى وهران بما قدره 1234 ليرة ما بين سنتي 1155-1165م من عمليات لتجار جنوة حسب عقود الموثق "سكريبا"، وتوصلت تلمسان ب33 ليرة من هذا القدر، وهي المدينة الوحيدة التي تعامل معها الجنويون بداخل بلاد المغرب خلال تلك المرحلة[6]. وتوضح العقود ذاتها أن سبتة مع نهاية القرن 12م/ 6هـ، أصبحت مرسى مفضلا لدى الجنويين، وقد استقطبت خلال الربع الأخير من هذا القرن أكثر من نصف الأموال التي خصصها الجنويون للتجارة مع بلاد المغرب[7]، فتجاوزت بذلك بجاية ضمن اهتمام الجنويين

1 -Il cartolare di Ciovanni Scriba,op.cit,acte N 136(15-10-1186).
2 - Krueger. op. cit. p380.
- Lopez. Studi. op. cit. p 20.
3 - Schaube. op. cit. p 343.
4 - Ibid. p 343.
5- تاجر بعض الجنويين مع وهران سنة 1179. انظر:
Dufourcq. L'Espagne catalane. op.cit.p 134.note2.
6 -Krueger. op. cit. p 382.
7 - Lopez .Studi.op.cit.p 21.
- أول عقد يشير إليه الموثق "جيوفاني سكريبا" عن تجارة الجنويين مع سبتة عثرة على قراض مؤرخ بـ 11 يوليوز 1160، وعقد "أوبرتو سبينولا" مع "وليام لوكو" قيمته 50 ليرة. وقد شهدت سنة 1163 تراجعا في تعامل الجنويين مع سبتة، وانعدمت تلك العقود عن أي تعامل للجنويين مع المشرق آنذاك نظرا للحرب التي خاضتها جنوة مع غريمتها بيزة، ولهذا فضل الجنويون تخصيص أموالهم في التجارة مع بلاد المغرب. انظر: Krueger.op.cit.p 381.

[illegible]

[illegible]

Schaade op.cit. p.[illegible]

Schaade op.cit. p.[illegible]

[illegible]

Caillé op.cit. p.[illegible]

[illegible]

[illegible] Schaade op.cit. p.[illegible]

[illegible]

Schaade op.cit. p.342

[illegible]

Schaade op.cit. p.342

[illegible]

Baudicour [illegible] Diario Castela [illegible]

[illegible]

د. الشروط التاريخية المساعدة على تحرير العلاقات الجوية المغربية في الفترة المدروسة

[illegible]

AG. 72 p.129

AG. 72 p.[illegible]

[illegible] op.cit. p.[illegible]

AG. 72 p.[illegible]

[illegible] op.cit. p.279

Schaade op.cit. p.279

بالمنطقة. وقد سمحت معاهدة 1161[1] للجنويين بتوسيع أفق تجارتهم بالسواحل الأطلسية المغربية، وكانت سلا آخر مركز وصلت إليه المراكب الجنوية في القرن 12م/ 6هـ[2]، ويبدو أن السفير الجنوي "اوتبونو" الذي وقع المعاهدة مع عبد المومن، كان أول جنوي يخصص أمواله للتجارة مع سلا[3].

لقد كرست معاهدة 1161م تفوق الجنويين ببلاد المغرب على حساب منافسيهم من البيزيين[4]. ذلك بأنها نصّت على إمكانية تعامل الجنويين مع كافة المناطق الخاضعة للنفوذ الموحدي، بينما حدّدت معاهدة 1186م التي وقعها البيزيون مع الموحدين المراسي التي وجب على تجار بيزة التعامل معها، وهي سبتة ووهران وبجاية وتونس(فضلا عن المرية بالأندلس)، مع العلم بأنه كان للبيزيين حضور أقدم بالمنطقة، فبيزة تعتبر أول جمهورية بحرية إيطالية وقعت معاهدة هدنة وتجارة مع المرابطين، وذلك منذ سنة 1133م. وقد لوحظ على الجنويين تكثيف تحركاتهم الدبلوماسية لتمتين علاقاتهم مع بلاد المغرب. وفي هذا السياق، بعثوا إحدى الشخصيات المرموقة بجنوة، وهو "كريالدو" سفيرا إلى الموحدين سنة 1169م، ثم بسفارة ثانية سنة

1- نصت المعاهدة على تقليص الضرائب المفروضة على تجار جنوة ببلاد المغرب من 10بالمائة إلى 8 بالمائة باستثناء بجاية حيث استمروا في دفع 10بالمائة. كما نصت على أن يستفيد الجنويون من خمس الضرائب المستخلصة من مرسى بجاية. وقد صحح "شوب" بعض الأخطاء الواردة عن المعاهدة عند "دو ماس لاتري" إذ يتحدث عن سنة 1160عوض 1161 كما أن "كفارو" صاحب الحوليات الجنوية يسمي السفير الجنوي " نكولتي" عوض "نوفولني" ويتحدث عن نسبة الربع عوض الخمس.انظر:

-Schaube. op.cit.p 339.note 1

2- Schaube. op. cit. p 340.

3 - حسب عقد تم في 13 يونيو 1162 أبرمه هذا السفير مع "انفرنكو بيس كبالي" لينقل لفائدته بعض السلع إلى سلا.انظر:

Ciasca. op. cit. p 445.

4- تجلى المنافسة البيزية الجنوية في عدة مواجهات ومن محطاتها:

- هجوم الجنويين على البيزيين بالمراسي الإفريقية .انظر:

- Doumerc.Venise et la Barbarie :op.cit.p 31.

- في سنة 1164 استولى البيزيون على مركب جنوية وأغرقوها شمال غرب سردينيا بعد عودتها من رحلة تجارية من سبتة.انظر:

-Schaube. op. cit.p 342.

- في سنة 1165 غنم الجنويون 1400ليرة بعد استيلائهم على مركب بيزي بمياه مارسيليا بعد رحلة تجارية ببجاية.انظر: AG.T1.p186.

- في سنة 1166 هاجم البيزيون ثلاثة مراكب جنوية كانت عائدة من الغرب، ويقصد بها في الحوليات الجنوية المنطقة الشمالية الغربية من بلاد المغرب كما يقصد بها منطقة المغرب الأقصى ككل.انظر

Schaube. op. cit. p 342.

في سنة 1200م هوجم مركب جنوي بمرسى تونس من لدن مراكب بيزية وهي:

- Baccanera - Pavona-Diana- Castella

1176م، رغم أن العمل ببنود معاهدة 1161 لم ينته بعد، لأن صلاحيتها دامت 15 سنة[1]. وقد نجح الطرفان في تجديد المعاهدة سنة 1176 ليمتد العمل بها مدة 15 عاما أيضا. وبادرت جنوة سنة 1191 إلى إرسال "وليام زربينو" و"اوبرتو نيكرو" سفيرين إلى الخليفة الموحدي[2]، مما يؤشر على تحسن العلاقات بين الموحدين والجنويين، ويمكن القول بأن الجنويين نجحوا في كسب ثقة الموحدين أكثر مما كانت عليه علاقاتهم مع المرابطين[3]. واستمرت جنوة في سياستها للتقرب أكثر من الموحدين مع مطلع القرن 13م/ 6هـ إذ بعثت "نيكولو مالونو" و"انريكو ديتسلاف" إلى الخليفة الموحدي سنة 1208 للتوقيع على معاهدة هدنة وتجارة لمدة ستين[4]. والغالب على الظن أن لتقليص مدة العمل بهذه المعاهدة، علاقة بحالة الحرب التي دخلت فيها جنوة ضد منافسيها من البيزيين والمارسيليين[5].

د- الشروط التاريخية المساعدة على تعزيز العلاقات الجنوية المغربية في الفترة المدروسة:

امتدادا للتراكمات الإيجابية التي شهدتها العلاقات الجنوية المغربية خلال القرن 12م/ 6هـ، تطورت نحو الأفضل في القرن الموالي وفي النصف الأول من القرن 14م/ 8هـ وهي الفترة التي يغطيها موضوع الدراسة. وقد أسهمت في هذا التطور معطيات مرتبطة بالتحولات التي مسّت مختلف مناحي الحياة بالغرب الأوربي، ولا سيما بالمدن الإيطالية. وبما أن هذا الموضوع مطروق بكثرة، فإننا نكتفي بتقديم عرض شديد التلخيص عن أهم مظاهر هذا التطور، والتي لا شك كانت لها انعكاسات ايجابية على العلاقات الجنوية المغربية.

- التطور التقني : تكاد تجمع الدراسات المتخصصة على أنه إذا كان القرن 14م، وخاصة بعد انتشار الطاعون الأسود، قرن أزمات في التاريخ الأوربي، فإن القرن

---

1 -AG. T2. p 128.

2 - AG. T2. p 379.

3 -Krueger. Genoese. op. cit.p 379.

4 - AG. T3. p 55

- Di Tucci. op. cit. p 278.

5 - Schaube. op. cit. p 278.

13م كان قرن تطور بامتياز[1]. ويلخص "جاك لوكوف" الوضعية المشجعة على العطاء التي أصبح عليها الغرب الأوربي آنذاك من خلال حديثه عن "أوربا الجميلة".[2] فقد تطورت التقنية البحرية ما بين 1250و1350م، حتى إن "لان" يتحدث عن حدوث الثورة التقنية الأولى بالبحر المتوسط[3]. ومن أهم مظاهر التطور التقني الذي استفادت منه جنوة في تجارتها مع الخارج، أنها شرعت منذ أواخر القرن 13م في استخدام البوصلة، ومن الممكن أن الأوربيين اطلعوا على الإسطرلاب منذ القرن 12م[4]. وشمل التطور مجال الخرائط البحرية، مما سمح بمعرفة أفضل بمنعرجات السواحل وأعماق البحار وحركتي المد والجزر[5]. وارتفعت حمولة السفن حتى إن بعضها وصل إلى 4900 "سالما"[6]، وهي زنة سادت بالحوض المتوسطي، ويمكن تحديد وزنها في 150 كلغ لكل واحدة منها. وتحسنت إمكانية مواجهة الرياح بفضل استخدام السفن للدفة الخلفية المركبة بمؤخرتها[7]. لقد كانت جنوة رائدة في مختلف التحولات التقنية التي عرفتها أوربا في القرن 13م، ويمكن أن نتساءل مع أحد المتخصصين عمّا إذا لم تكن إيطاليا البلد الأكثر تقدما بأوربا عصرئذ؟[8] ولاشك في أن جنوة كانت من أكثر المناطق اشعاعا في صناعة السفن بحكم توافر منطقة ليغوريا على ثروة خشبية متنوعة حتى لإن مركز "Varazze" بضواحي جنوة كانت نسبة 30 بالمائة من سكانها تتعاطى لتلك الصناعة[9].

-التطور السياسي: اختلف التطور السياسي لإيطاليا كثيرا عن التطور الذي شهدته دول أوربية أخرى، مثل فرنسا وانجلترا واسبانيا التي تمكنت من تحقيق وحدتها الوطنية -على فترات متباعدة- في إطار سلطة ملكية مركزية. أما إيطاليا، فلم تحقق وحدتها إلا في فترة حديثة، وظلت مجزأة إلى جمهوريات مستقلة عن بعضها البعض.

[1] [illegible]
Genicot L., Le 13e siècle européen, Nouvelle clio, PUF, Paris 1968
[2] Le Goff Jacques, L'Europe, op.cit., p.135
[3] Lane Frederic C., Progrès et productivité dans les transports maritimes, RH, 1974, p.287
[4] Chaunu P., L'expansion européenne du 13e au 15e siècle, PUF, 1969, pp.97-98
[5] Lane, op.cit., p.287
Chaunu, op.cit., pp.291-296-307
[6] Bresc H., [illegible] monde méditerranéen, [illegible] p.317
Braudel F., Civilisation matérielle, économie et capitalisme, Armand Colin, 1979, t.1
[7] Braudel F., [illegible] grammaire des civilisations, Flammarion, [illegible] p.[illegible]
[8] [illegible] Les chantiers navals en Ligurie du moyen âge à l'époque moderne, Cahiers de la Méditerranée, N84, 2012, pp.259-271

ومن المعلوم أن المدن الشمالية لإيطاليا عرفت تطورا مؤسساتيا جديدا تبلور منذ القرن 11م ضمن ما يعرف بنظام الكومونات[1]. وقد أفضى هذا التطور إلى حصول تحول في الاهتمامات الاقتصادية لعدد من النبلاء الذين انضموا إلى الفئة المتعاطية للتجارة والأعمال. ومنذ سنة 1190م، حلّ حكم "البودستا" محل حكم القناصلة بجنوة[2]. وقد أعطى هذا الانتقال نوعا من التوازن السياسي بجنوة بعد صراع مرير بين حزبي "جبلان" و"جيلف"[1]، وشجع بالتالي الجنويين على ممارسة التجارة مع الخارج.

- التطور الاجتماعي: ارتفع عدد سكان الغرب الأوربي بشكل ملحوظ في القرن 13م في ارتباط مع تحسن التقنيات الفلاحية وتوسع عمليات الاستصلاح الزراعي[4]. لقد وصلت ساكنة أوربا في هذا القرن إلى مستوى يشابه المستوى الذي عرفته فيما بعد خلال القرن 16م[5]. وكانت جنوة من بين المدن التي احتضنت 100 ألف نسمة قبل انتشار الطاعون الأسود بأوربا[6]، ولربما فاقت هذا العدد في القرن 13م[7]. قد لا تثيرنا هذه الأرقام حاليا، ولكن إذا أخذنا بعين الاعتبار بأنه حوالي سنة 1000م، لم تكن توجد بأوربا مدينة يصل عدد سكانها إلى 10 ألف نسمة، فإنه يمكن أن نقارن النمو السكاني بها في نهاية القرن 13م، بما شهدته الولايات الأميركية في نفس الإطار خلال القرن 18و19م[8].

إن ارتفاع عدد سكان جنوة في القرن 13م وضعف مواردها المحلية، دفع بهم إلى أن يديروا وجههم أكثر نحو الخارج لتلبية حاجياتهم المتزايدة. وفي خضم التحولات التي عرفها الغرب الأوربي، تحولت الوظيفة الأساسية للمدينة من الوظيفة العسكرية إلى الاقتصادية، وغدا السوق هو مركز المدينة[9].

[1] [illegible]
[2] [illegible]
De Cherrier, Histoire de la lutte des Papes et des empereurs de la maison de Souabe, Paris 1841
[4] Duby G., L'économie rurale et la vie des campagnes dans l'occident médiéval, édition Gallimard, 1962, 2vol
[5] Chaunu, L'expansion, op.cit., p.[illegible]
[6] Renouard Yves, Études d'histoire médiévale, S.E.V.P.E.N., Paris, t.1, p.419
Lopez R., [illegible]
[7] Lopez R., [illegible]
Le Goff, L'Europe, [illegible]

وفي ظل هذه المعطيات الجديدة التي أفرزها القرن 13م بجنوة، ازداد تكوين جيل جديد يركب البحر مستفيدين في ذلك من تحسن التقنيات والوسائل التجارية[1]. لقد أصبحت هناك شرائح من المجتمع الجنوي تتعاطى للتجارة، وساهم في هذا التحول [illegible] ذهنية جديدة بمجتمع الغرب الأوروبي تمجد ممارسة التجارة وتدعو إليها. فقد أصبحت التجارة المهنية ضرورية يبتغيها الله وتنسجم مع قدرته"[2]. ويمكن أن نختزل ملامح هذه التجارة الجديدة من خلال شخصيتين نموذجيتين معبرتين، وهما "كفارو" أحد مؤرخي حوليات جنوة الذي عاش ما بين 1080 و1166م، إذ اعتبر التاجر الذي يركب البحر ويتجر من أجل تنمية رأسماله مواطنا صالحا، و"دي فوراجين" "Jacques de Voragine" الأسقف الذي عاش ما بين 1230 و1298م، والذي [illegible] تاريخ عن جنوة وذهب إلى أن نجاح أي مدينة متوقف على نشاطها التجاري[3]، ولا غرو أن اعتبر "سابتينو" البحر بمثابة "وطن للجنويين"[4].

وعلى الرغم من أن الحرب كانت هي الحالة الطبيعية السائدة في علاقات المسلمين بالمسيحيين في غرب البحر المتوسط، فإن ظرفية القرن 13م/ 7هـ أفرزت أجواء جديدة، تأسست على منطق الربح التجاري، ولا سيما من جانب الجنويين[5]. هذه الأجواء الجديدة هي التي نجد "دوفورك" يؤكد عليها في اشتغاله الطويل على العلاقات الخارجية مع بلاد المغرب في فترة الدراسة. فالانشغالات "المركنتيلية" للمدن البحرية الإيطالية والقطلونية، كانت كفيلة بالتخفيف من تداعيات الحروب الصليبية.

---

[1] - إن هذه العلاقة [illegible] موضوع التقنيات والوسائل التجارية الأوروبية في العصر الوسيط مطروق جدا. [illegible]

- Lopez. La révolution.op .cit.

-Sapori(A). Le marchand Italien au moyen âge (1952).

- Renouard(Y). Les hommes d'affaires italiens au moyen âge(1968).

[2] - Le Goff. L'Europe . op cit .p .156.

[3]-Airaldi(G). Aspetti dell'espansione mediterranea genovese.L'Italia ed i paesi mediterranei.Vie di communicazione.scambi commerciali e culturali al tempo delle repubbliche marittime, Pisa, 1988, pp 38-39.

وقد قدم مؤرخ جنوي مجهول [illegible] نصائح [illegible] لأبنائه تحثهم على ممارسة التجارة، وفيما يلي مقتطفات منها: [illegible] يجب عليك أن تتمتع بعقل راجح... ولكن [illegible] ولكن [illegible] في طرق السفر... ولكن [illegible] أي عملية تقوم بها في الحال... ولكن [illegible]

- Lopez S. Medieval trade in the Mediterranean world.London,1955 doc 207 p 424.

[4] -Dibattito su Grandi Famiglie del mondo Genovese fra Mediterraneo ed Atlantico.Genova,1997.p 12.

[5] -Schaube. op. cit. p 357.

وظل التبادل التجاري ثابتا في علاقات مسيحيي غرب أوروبا بمسلمي بلاد المغرب، بالرغم من التوترات السياسية وأعمال القرصنة[1].

ولا شك في أن الهموم التجارية طغت على العلاقات الجنوية المغربية، وذلك على عكس العلاقات بين بلاد المغرب وإسبانيا المسيحية التي كانت على تماس مباشر مع دار الإسلام بالأندلس. وليس من باب الصدفة ألا نسجل أي استقبال لبلاد المغرب أو جنوة واحتضانها للعناصر الثائرة أو المتمردة على الطرف الآخر.

2- آثار معركة العقاب في الحضور الجنوي ببلاد المغرب:

رأى "شوب" أن تآكل الإمبراطورية الموحدية بعد هزيمة العقاب أفضى إلى أزمة في التجارة الجنوية ببلاد المغرب، وخاصة بسبتة[2]. وذهب "بوتيه" إلى أنه بعد تفكك دولة الموحدين، لم يعد الاستقرار السياسي قائما بالمغرب الأقصى، ما دفع الجنويين إلى تحويل ثقل تجارتهم ببلاد المغرب من سبتة وسلا باتجاه بجاية وتونس.[3] وقد غدا رأي "بوتيه" بمثابة مسلّمة لدى بعض المهتمين بالعلاقات المغربية الإيطالية في العصر الوسيط. أما "جيهل" فيرى أن سبتة لم تغب نهائيا عن الانشغالات التجارية للجنويين بعد هزيمة العقاب، وأن اهتمامهم بتونس سابق لهذا الحدث، خاصة أن سبتة محطة رئيسة في التجارة مع المشرق. وإذا ما حصل تحول في ثقل التجارة الجنوية من سبتة وسلا باتجاه بجاية وتونس بعد معركة العقاب، فإنه لا يجب ربطه بهذه المعركة، بل يجب البحث عنه في الواقع الذي شهدته محاور تجارة القوافل المؤدية إلى مصادر الذهب بفعل انحرافها من سجلماسة إلى تونس[4].

---

[1] - Dufourcq(CH). L'Espagne. op. cit. p 92.p86.p149.p187.p370.p406.

وعبر المؤلف في دراسة أخرى عن سيادة هذه العقلية الجانحة إلى تغليب منطق الربح والتجارة على حساب الخلافات الدينية والسياسية لدى مسيحيي ومسلمي غرب البحر المتوسط. ومن القرائن التي يقدمها عن ذلك، الأسلوب الذي تحاور به السلطان المريني وملك أراغون إحدى المشاكل التي طرأت على علاقتهما من جراء عملية قرصنة متنقلة النظر:

-Dufourcq (CH) Commerce du maghreb médiéval avec l'europe chrétienne et marine musulmane. données connues et problèmes en suspens. R.H.E.M. Tunis. 1979.T1.pp 186-187.

[2]- Schaube. op. cit. p 348.

[3]- Bautier (R.H). Les grands problèmes politiques et economiques de la Méditerranée médiévale. R.H. 1965. p16

[4] - Jehel(G). Les Génois en méditerranée occidentale. op. cit.pp70-71.

لا شك في وجود تلازم بين الوضع الأمني السائد ودرجة الإشعاع التجاري.
لكننا نعتقد أن آثار هزيمة العقاب، لم تنعكس سلبا على المغرب الأقصى فقط، بل انتفى الأمن من كل المناطق الخاضعة للدولة الموحدية. وقد تكون المناطق البعيدة عن مركز حكم الموحدين، هي التي تعرضت للفتن أكثر [1]. ولا ننسى أن الخليفة الموحدي المأمون وابنه السعيد تمكنا من السيطرة على الوضع– ولو إلى حين –بالمغرب الأقصى لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الصرح الموحدي. كما أنه لا يجب أن يعزب عنّا ما جرى من تضخيم للآثار السلبية المتمخضة عن هزيمة العقاب من لدن المصادر الرسمية المرينية، مثل القرطاس والذخيرة السنية لإضفاء الشرعية على بدايات الحركة المرينية بالمغرب الأقصى [2].

إن أي حديث عن انتقال الثقل التجاري من مركز إلى مركز آخر، يستدعي مراقبة حجم النشاط التجاري بكل مركز. ومن خلال استغلال أولي لبعض الوثائق المحفوظة بأرشيف جنوة عن الفترة المتراوحة ما بين 1222و1226م، توصل "ديفورك" إلى أن سبتة كانت أهم مرسى ببلاد المغرب تعامل معه الجنويون آنذاك [3]. واعتمدت "باليطو" على الوثائق نفسها، وأضافت إليها عقودا أخرى عن الفترة، وبعد عمليات حسابية عن مجموع الأموال التي وظفها الجنويون في التجارة مع بلاد المغرب، انتهت إلى ترتيب المراسي المغربية حسب قيمة تلك التجارة على الشكل التالي [4]:

- سبتة: 4864 ليرة جنوية.
- تونس: 1223 ليرة جنوية و 8 فلسا و 6 دنانير جنوية.
- بجاية: 779 ليرة جنوية و 16 فلسا.

و رصدت الباحثة ذاتها مجموعة من الأسر الجنوية التي عرفت بتعاطي أفرادها للتجارة مع سبتة، مثل أسرة "Mallono"، ومنهم "Bartolomeo Mallono" و"Oglerio Mallono" و"Lanfranco Mallono" وابنه "Andriolo" وأسرة "Volta" ومنهم "Bonifacio" و"Lanfranco" و"Raimondo" و"Ugo". فضلا عن بعض النساء مثل "Roaxia" زوجة "Guglielmo di Castello" و"Alda" أرملة "Filippo

[1]- يمكن الرجوع في هذا الشأن إلى الزركشي في تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، المكتبة العتيقة، تونس، 1966.
[2]-Kably (M). Société. op. cit. p1 et suivantes.
[3]- Dufourcq. Aperçu.op.cit.p 728.
[4]- Balletto(Laura). Da Genova al Maghrib 1222-1226.Archivio storico Sardo di Sassari. Moderna Sassari.1982.
ترجمة مصطفى نشاط مجلة أمل، عدد 5، 1994، ص 6.

Embriaco" و"Aidela" زوجة "Guglielmo" [1]. كما أن سبتة ظلت حاضرة ضمن اهتمامات تجار جنوة الذين تعاملوا مع مراكز أخرى من بلاد المغرب، مثل "Giacomo Mallono" الذي كان يتاجر مع بجاية وسبتة في الآن نفسه [2].

ومن مظاهر حرص جنوة للحفاظ على مصالحها بسبتة، أنها سارعت إلى تجديد المعاهدة التي كانت قد أبرمتها مع الموحدين سنة 1208م، بأن بعثت "نيكولو امبرنو" و"انريكو مولسنا" سنة 1223 إلى الخليفة الموحدي. وتبين العقود التي جمعها "فريطو" بما لا يدع مجالا للشك أن الجنويين استمروا في التردد على مرسى سبتة خلال الفترة الموالية لمعركة العقاب. وبعملية حسابية للعقود الواردة لديه عن تجارة الجنويين مع بلاد المغرب ما بين 1222 و1226م، تبيّن أن سبتة حظيت ب 12 عقدا وتونس بتسعة عقود وبجاية بعقدين. وفيما يلي جدول عن أنشطة الجنويين بسبتة اعتمادا على أهم تلك العقود:

تاريخ إنجاز العقد	مضمون العملية التجارية	المصدر
9ماي 1216	توصل "جيوفاني دي بونرمولي" بقراض من "جيوفاني دي غوالينا" قيمته 20 ليرة لتوظيفها في التجارة مع سبتة.	Ferretto, Codice T1,p 6.
14يونيو 1216	توصل "ركوردنو" و"بونسيوري" بقراض من " برناردبو باركنو" قيمته 39 ليرة جنوية للتجارة مع سبتة وبجاية.	Ferretto, Codice,T1, p211.
22 يناير 1222	وجه " جيوفاني بوسكارنو" قراضا للتجارة مع سبتة قيمته 3 ليرات.	Ferretto, Liber magistri, p 22.
15 ابريل 1222	وجه " وليام بتفنونو " قراضا مبلغه 22 ليرة و 15 فلسا للتجارة مع سبتة.	Ferretto, Liber, p 71.
12 مايو 1222	توصل "رولاندو دي البازيو" بقراض قيمته 8 ليرات للتجارة مع سبتة.	Ferretto, Liber, p 93.
28 مايو 1222	قام التاجر المغربي محمد بن المعلم بعملية تجارية مهمة ونقل مجموعة من السلع من سبتة إلى جنوة.	Ferretto, Liber, p 100.
31 يوليو 1222	قراض حمله " غويرادو دي فالنزا" قيمته 55 ليرة للتجارة مع سبتة	Ferretto, Liber, p 158.

[1]- Balletto(Laura).Tra Genovesi e Musulmani nel 13 secolo.Mésogeios.7.2000.p 158.
[2] - Balletto.Tra Genovesi.op.cit.p 159.

Ferretto, Liber, p234.	قراض مبلغه 10ليرات توصل به " كزاريو مارشزيو" للتجارة مع سبتة	21 أكتوبر 1222
Ferretto, Liber, p255.	توصل " جيوفاني بللو" من ميلان من أحد الجنويين بجلود اشتراها بسبتة	16 نونبر 1222
Ferretto, Liber, p. 376.	قراض استمره "بلدوينو دي سلزا" للتجارة بسبتة	29 أبريل 1224
Ferretto, Liber, p 376.	توصل " مغريدو بلليريو " من " دي ايرنو غراسو " بقراض قيمته 4 ليرات و 4 فلسا للتجارة مع سبتة	1 مايو 1224
Ferretto, Liber, p 467.	استمر " بتروس دي فرديرتو" قراضا مبلغه 10 ليرات في التجارة مع سبتة.	10 مايو 1224
Ferretto, Liber, p 467.	.توصل "وليام" ابن" ستريو غندولفو " بقراض هو عبارة عن 17 قنة من الكتان وغطائين حملهما إلى سبتة.	24 مايو 1224

وفضلا عن هذه العقود، ثمة عقود أخرى أوردها "فريطو" عن الأنشطة التجارية للجنويين بالغرب، والغرب يعني في الوثائق الجنوية المغرب الأقصى في مفهومه الشامل، وقد يعني الجهة الشمالية الغربية منه، وهو على كل حال يغطي المجال الذي يندرج فيه مرسى سبتة[1]. كما يستفاد من بعض عمليات القرصنة التي لحقت بالجنويين في النصف الأول من القرن 13م/ 7هـ أن سبتة ظلت دائما حاضرة ضمن اهتماماتهم التجارية[2].

وثمة ملاحظة تصب في الإتجاه نفسه، وتتعلق بأهمية المبالغ التي خصصها بعض الجنويين للتجارة مع سبتة آنذاك. ويمكن أن نستحضر هنا أنموذجين، وهما "Pasquale Margono" و"Iacopo de Volta" ابن" Bonifacio de Volta". فقد استثمر الأول حسب عقد مؤرخ ب 11 اكتوبر 1224 في التجارة مع سبتة قراضا مبلغه 32 ليرة، وما بين 7 و11 مي 1225 خصّ هذه المدينة بست عمليات قيمتها

1- من [illegible]
- عقد مؤرخ ب 19 [illegible] 1222 [illegible]
- عقد مؤرخ ب 13 أبريل 1222 [illegible]

Ferretto, Liber, p 19 et p 66

2- من [illegible] 1242 [illegible]

Schaube, p [illegible]

الإجمالية 848 ليرة و11 فلسا، وفي 20 و26 شتنبر من السنة ذاتها، خصّها بقراضين، وكان مبلغ الأول 80 ليرة و4 فلسا وستة دنانير، ومبلغ الثاني 200 ليرة.[1] أما "جاكوبو دي فولتا" فقد استثمر ما بين 10و 14 اكتوبر 1224 للتجارة مع سبتة مبلغا قيمته 625 ليرة و19 فلسا[2].

وكيفما كان الأمر، يبدو من خلال مراقبة مكانة سبتة ضمن التجارة الخارجية لجنوة في النصف الأول من القرن 13م/ 7هـ أن هذا المرسى لم يفقد من أهميته لدى التجار الجنويين. فقد أثرت الحملة الصليبية لسنوات 1218-1221 في الحضور التجاري للجنويين بالأسواق الشرقية، ولاحظت "باليطو" من خلال عقود الموثقين الجنويين الذين اعتمدت عليهم في الفترة الممتدة ما بين 1222 و1226 أن بلاد المغرب استقطبت آنذاك 57.5% من مجموع الاستثمارات الجنوية بالخارج[3]. الشيء الذي -لربما- ساهم في ارتفاع العمليات التجارية للجنويين بسبتة عوض تراجعها، ويمكن القول بأن سبتة استمرت في جلب تجار جنوة على الأقل إلى حدود سنة 1240[4]. ولتأكيد ما نذهب إليه نستعين بجدول آخر أورده "بالار" في إحدى دراساته[5]. ويتعلق بأهم الموانئ التي تعامل معها الجنويون بالبحر المتوسط استنادا إلى عدة عقود تغطي الفترة المتراوحة ما بين 1233 و1262. ونكتفي هنا بإيراد الشطر الأول من الجدول الذي ينتهي بسنة 1252، انسجاما مع سياق القضية المطروحة عن مدى تأثير معركة العقاب في التجارة الجنوية ببلاد المغرب. فهل أحدثت تحولا في ثقلها من المغرب الأقصى إلى تونس وبجاية؟

أهم مواطن الاستثمارات الجنوية في تجارة الحوض المتوسطي وسنة رؤوس الأموال المستثمرة بها

Balletto, Tra Genova e [illegible], p 161

Ibid, p 166

3- تقول "Balletto" [illegible]

4- Valerian, Bougie, p 62

5- Balard M, La mer noire et la Romanie génoise du 13e au 15e siècle, Edition Variorum Reprints London 1989, p 62

المنطقة	سنة 1233	1239	1248	1251	1252
مناطق البحر الأسود	71%	48%	41%	41%	67%
بجاية	2%	6%	6%	5%	7%
سبتة	4%	15%	29%	11%	5%
تونس	20%	24%		16%	9%
بروفانسا	1%	5%	23%	11%	4%
صقلية				1%	4%
إسبانيا					1%

يمكننا أن نستنتج من هذا الجدول الملاحظات التالية:

- ارتفاع نسبة العلميات التجارية للجنويين مع سبتة بصفة ملحوظة ما بين سنتي 1233 و1248 من مجموع العمليات التجارية التي قاموا بها بموانئ المتوسط، وقد استقطبت في سنة 1248 نسبة 29% من العمليات التجارية للجنويين بهذه المنطقة، أي ما يمثل ثلثها تقريبا.

- لم تتجاوز بجاية إلى حدود سنة 1251 الأهمية التي حظيت بها سبتة لدى التجار الجنويين. ولعل هذا ما يضعف الطرح القائل بحدوث تحول في ثقل التجارة الجنوية ببلاد المغرب من سبتة وسلا، نحو بجاية وتونس بعد معركة العقاب -على الأقل من خلال العقود المعتمدة في الاستنتاج-. ويبدو أنه لو حصل مثل هذا التحول، لاستفادت منه بجاية بحكم قربها من تونس مقارنة مع سبتة، وبحكم خضوعها للحكم الحفصي.

- رغم أن تونس نالت أكبر قسط من الاستثمارات التجارية للجنويين ببلاد المغرب منذ 1233، فإن فارق الاستثمارات بينها وتلك التي حظيت بها سبتة، لا يبدو كبيرا، باستثناء ما كان عليه سنة 1233. ومن المعلوم أنه خلال هذه السنة كانت سبتة خاضعة لحكم ابن هود ممثلا في الغشتي الذي تتحدث المصادر عن رفض أهل المدينة له، وما صاحب هذا الرفض من أحداث أفقدت المدينة أمنها السياسي [1].

[1] - فضلا عن هذه الأحداث، اضطربت الأوضاع بسبتة بعد أن توترت علاقتها بجنوة ما بين 1233-1236 -كما سنرى في المحور اللاحق-، ولربما لهذا الأمر أصبحت تونس تستقطب الجنويين أكثر، وتجلى ذلك في توقيع الطرفين الحفصي والجنوي على معاهدة سلم وتجارة سنة 1236.

إن تحول الريادة التجارية للجنويين ببلاد المغرب لصالح تونس منذ سنة 1233، لا يعني حدوث قطيعة في أنشطتهم التجارية بسبتة. ومما له دلالته في هذا السياق، أن عقدا مؤرخا بسنة 1253 نصّ على أن تتم الرحلة التجارية نحو مالقة وبلاد المغرب، على أن يكون التوقف قصيرا بمالقة، ولا يتجاوز ثلاثة أيام، وعلى أن يتم جمع المعلومات التجارية بها عن سبتة [1]. ولعله من المفيد الإشارة في هذا الشأن إلى معطى آخر له دلالته يورده "بالار" Balard في الشطر الثاني من جدوله. ذلك بأنه في سنة 1254، حظيت سبتة بنسبة 12% من مجموع الاستثمارات التجارية للجنويين بالبحر المتوسط، بينما حظيت تونس ب4% منها فقط [2].

ويبقى أن نقف عند التفسير الذي قدمه "جيهل" عن مسألة إمكانية تحول الثقل التجاري للجنويين عقب العقاب من سبتة إلى تونس وبجاية. فرغم أنه يقول بوجود استمرارية في التعامل التجاري للجنويين مع سبتة طيلة القرن 13م، فإنه يعزي الريادة التي أصبحت عليها تونس على مستوى التجارة الجنوية ببلاد المغرب آنذاك، إلى تحول الطرق القافلية الغربية من سجلماسة إلى تونس.

الواقع أن هذا التفسير يبدو مغريا، لكن شريطة أن يتوافر على مادة إحصائية عن التجارة القوافلية، وخاصة تجارة الذهب منها، تؤكد فعلا حصول انحراف في طرقها باتجاه الشرق. وما نخشاه أن يصبح اللجوء إلى مسألة انحراف الطرق عملية "ميكانيكية" يلجأ إليها المهتم بتاريخ المغرب الوسيط، كلما أثارته هذه الظاهرة أو تلك. لقد لاحظ "ديفورك" بحق أن التفسير القائم على انحراف الطرق التجارية العابرة للصحراء استهوى عددا من الباحثين المعاصرين، وكأنه تفسير مسلّم به، دون أن يحتجّوا عليه ببراهين تاريخية [3].

مصداق هذه الملاحظة ما أثبته إحدى الدراسات التي اعتمدت على نميات سبتة، ودراسة أخرى قامت على مقاربة كمية للذهب المضروب بالغرب الإسلامي ما بين سنتي 450-830هـ / 1050-1427م. فقد توصلت الدراستان إلى أن " سبتة لم تضرب كمية كبيرة من العملة الذهبية بالقدر الذي ضربته على عهد أبي حفص عمر

[1] - Byrne.Genoese Shipping.op.cit.pp 120-124.
[2] -Balard. La mer noire. op cit.
[3] -Dufourcq(ch). la place du Maghreb dans l'expansion de la couronne d'Aragon, la route Maghrébine pa rapport à celle des iles et des épices. Secondo Congreso international des Estudios sobre las culturas del Mediterraneo occidental. Barcelone. p279.

المرتضى. إذ سكت 2853 كلغ من الذهب على شكل المثقال ونصف المثقال وربعه ما بين سنتي 645-667هـ/ 1248-1269. ومن المعلوم أن المرينيين ضربوا بكثرة عملتهم الذهبية خلال نفس الفترة"[1]. لهذا كله، لا نعتقد بحصول إهمال نهائي من جانب الجنويين للتجارة مع سبتة، بل استمروا في التعامل معها. وفي الوقت نفسه، وسعوا من أفق تجارتهم ببلاد المغرب باتجاه بجاية وتونس، خاصة بعد أن وقعوا معاهدة سلم وتجارة مع الحفصيين عام 1236.

وأخيرا لابد من استحضار عامل أرغم الجنويين على تنويع أسواقهم ببلاد المغرب عوض التركيز أكثر على سبتة، ويتعلق ببروز القوة التجارية لكطالونيا منذ هذه الفترة كمنافس للجنويين بسبتة، وبقناة المانش عموما، ولاسيما بعد استيلائها على جزر البليار سنة 1229-1230.

يذهب أحد الباحثين إلى أن الأحداث التي شهدتها سبتة سنة 1234، وما استتبعها من حصار جنوي لها، يرتبط مباشرة بالمنافسة الكطلانية الشديدة التي أصبح الجنويون يواجهونها في تجارتهم مع سبتة[2].

لقد شكلت الحملة الجنوية على سبتة في 1234م إحدى أبرز محطات التوتر في العلاقات المغربية الجنوية، فما هي حيثياتها؟ وما هي تفاعلاتها وآثارها على الحضور الجنوي بالمنطقة؟

3-الحملة الجنوية على سبتة سنة 1234م/ 632هـ

وصف ابن سعيد المغربي سبتة بما يلي: "هي ركاب البحرين، شبه الإسكندرية في كثرة الحط والإقلاع، وفيها التجار الأغنياء الذين يتاعون المركب بما فيه من بضائع الهند وغيرها في صفقة واحدة"[3]. وهي عند باحث معاصر بمثابة "مفتاح المضيق"[4]. وذهبت باحثة أخرى إلى المقارنة بين سبتة والبندقية، فقد كانت البندقية تحتفل سنويا

---

[1] -Lorente (K.I) et Ibn Hafiz Ibrahim. numismatica de Ceuta- pp 43-44
-Benhaim Mesmoudi S. Approche quantitative de l'or mamaye en occident musulman (450/1058-59 à 830/1426-27). Thèse – Paris. I. 1994. pp598-603. in Rosenberger (B). Le contrôle du détroit de Gibraltar aux 12-13 siecle. Colloque l'occident musulman et l'occident chrétien au moyen âge. Rabat. 1995-pp31-32 note 102

[2] -Dufourcq (Ch). La question de Ceuta au 13è siecle. Hes . 1955-Tome XLII. pp67-127.

[3] ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، منشورات المكتب التجاري، ط1، بيروت 1970.

[4] -Chaunu. op cit. p125

بأعراسها مع البحر، كما أن سبتة "تزوجت" به، وكان سكانها مقتنعين بأن غناهم مرهون بالبحر[1].

لهذا كله، لم تكن سبتة لتنفلت من اهتمامات القوى التجارية الكبرى بالبحر المتوسط أواخر العصر الوسيط، وعلى رأسها جنوة التي أكدت حضورها القوي بالمدينة سواء بالتجارة معها، أم بالمساهمة الفعلية في أحداثها السياسية[2]. وتشكل الحملة البحرية التي قامت بها جنوة على سبتة سنة 1234/ 632، أهم مظهر من مظاهر تدخلها العسكري بالمغرب الأقصى أواخر العصر الوسيط. غير أنه رغم أهمية هذا الحدث، فإن الغموض مازال يلف بمعظم حلقاته، خاصة وأن المصادر المغربية – باستثناء البيان المغرب- لم تخصص له سوى مجرد شذرات.

أ-ما قبل الحملة:

يذهب "لوبيز" – دون أن يحدد مصدره- إلى أن عملية التدخل الجنوي في الشؤون السياسية لسبتة، انطلقت منذ سنة 1231م لما أشعرت كومونة جنوة –خطأ- بضرورة تدخلها بالمدينة لحماية رعاياها بها، غير أن الأسطول الذي بعثت به، لم يقم بأي عمليات عسكرية بسبتة[3]. ويبدو أن فرصة التدخل الجنوي قد تأتت حينما اشتد الصراع بين الخليفة الموحدي المامون وابن أخيه أبي موسى على حكم المدينة. وتجدر الإشارة إلى أنه إذا كانت المصادر والمراجع العربية قد دققت في أحداث هذا الصراع[4]، فإن الدراسات الأجنبية كثيرا ما وقعت في بعض الأخطاء[5].

---

[1] -Mosquera Merino (M) . Ceuta y Genova. incidencias bélicas siglo XIII. Actas del Congreso international - El estrecho de Gibraltar - Ceuta. 1987. Madrid 1988. p232.

[2] -Amari (M). Nuovi ricordi arabici sulla storia di Genova .A.S.L.S.P .Tome IV. 1873. pp562

[3] -Lopez. Studi. .p12.

[4]- انظر مثلا أطروحة الأستاذة حليمة فرحات:
Ferhat(H). Sabta des origines au XIV siècle. Rabat. 1994.

[5]- من بين هذه الأخطاء، يمكننا أن نذكر ما يلي:
- يذكر Di Tucci (p278) أن المأمون كان ملكا على موريتانيا عوض أن يقول بأنه كان خليفة الموحدين سنة، ويقول بأن المأمون لم يتمكن من حصار سبتة سنة 1234، علما بأنه توفي في ذي الحجة 629هـ/1231م (17 أكتوبر).
- يذكر لوبيز Lopez "أن أهل سبتة ثاروا على المأمون سنة 1232، بينما هو توفي كما سبقت الإشارة في 1231
- يخلط جيهل Jehel " في الأحداث التي عرفتها سبتة بين المأمون وعبد المؤمن، كما يخلط بين لقبي أمير المؤمنين وأمير المسلمين لما ترجم أمير المسلمين بـ "le chef des croyants" (p68)، وانظر كذلك
Di Tucci (p278)

ورغم أن المامون ضرب حصارا على سبتة لمدة ثلاثة أشهر، فإنه عجز عن الدخول إليها لسبب بنيوي يرتبط بمورفولوجية المدينة التي يشهد التاريخ بأنها لم تخضع قط لحصار بري. فلم يكن بإمكان المامون أن يدخلها، ولو حاصرها " لمدة أعوام لأن عيش أهلها إنما هو من جهة البحر"[1]. وقد رفع المامون الحصار مكرها لمواجهة ثورة ابن أخيه يحي بن الناصر. ومرت سبتة بفترة اضطراب سياسي بفعل ذلك الصراع الذي استغله ابن هود، ونصب نائبه الغشتي – تسميه المصادر الجنوية" Al Agostino Kastin"- حاكما على سبتة. ويبدو أن حكم الغشتي قد فرض على أهل سبتة، ولم يكن هؤلاء يرون فيه الشخص المؤهل للدفاع عن مصالح مدينتهم التجارية[2]. لهذا خلعوا عنهم طاعة ابن هود وبايعوا شيخا من أشياخهم هو الحاج أبو العباس اليانشتي الذي تلقب سنة 630هـ/ 1233بالموفق، ومع اليانشتي بدأ التدخل الفعلي للجنويين في شؤون سبتة بشكل صريح.

حاول الموحدون عقب وفاة المامون ومبايعة الرشيد استرجاع سبتة[3]، وإبان الصراع بين الرشيد واليانشتي، بعث الجنويون "يعقوب دي مرينو " سفيرا إليها سنة 1233[4]. غير أن الحوليات الجنوية لا تفصح عن الهدف من هذه السفارة. وفي الغالب أنها كانت ذات صلة بوضعية الجنويين بسبتة في ظل الصراع الذي تجدّد بين الموحدين وأهل سبتة الذين التفوا حول اليانشتي[5].

1. ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين – ص ص297-298.

2. يصفه ابن عذاري بما يلي: "كان الغشتي رجلا حواسا – أي لصا باللهجة المحلية- وتحت يده جماعة كبيرة من أراذل الناس السقاة الضعاف، وصاروا له أعوانا وجلساء، فكان يقطع بهم الطرقات في تلك النواحي والجهات." البيان، قسم الموحدين، ص276، وتجدر الإشارة إلى أنه على إثر دخول سبتة تحت نفوذ ابن هود، استقبل سفارة جنوية أسهبت الحوليات الجنوية في مظاهر الحفاوة التي تمت فيها، كما تحدثت عن إهداء ابن هود للجنويين 18 ألف دينارا ذهبيا وفرسا مزينا بالذهب والفضة، أنظر AG.T3-p56، لهذا نتساءل عما إذا لم يكن الجنويون قد ساهموا في سيطرة ابن هود على سبتة؟ أنظر هذا التساؤل عند :

Dufourcq .La quesiton… p85 et 87.

3. جاء عند" لوبيز" أن حصار الرشيد لسبتة تم سنة 1254، والأصح سنة 1234، وفي الغالب أن الأمر يتعلق بمجرد خطأ مطبعي.Studi, p12

4. -A.G. T4-p114, et Pistarino, Genova. p203.

5. -Di Tucci- p278.

وقد ورد عند Latrie Traités…p 150 اسم الياشتي عوض اليانشتي.

ب-هجوم" كلكريني" Calcurini على سبتة:

غموض في تاريخ العلاقات المغربية الجنوية:

يبدو أن سبتة قد نعمت بفترة استقرار وازدهار على عهد اليانشتي الذي كان من كبار تجار المدينة وأغنيائها[1]. غير أن المدينة فوجئت في هذه الفترة بهجوم أسطول مسيحي يرد ذكر أصحابه بالمصادر اللاتينية تحت اسم "كلكريني" Calcurini. وقد تم الهجوم حسب الحوليات الجنوية في منتصف غشت 1234/ 632هـ[2]. وتجدر الإشارة إلى أن هذا الاسم لم يرد البتة في المصادر العربية، كما أن المصادر الجنوية وحدها تحدثت عنه. لقد شكل هذا الهجوم على سبتة أول وآخر مرة نسمع فيها عن كلكريني، إذ بعد انسحابهم من المدينة انسحبوا كلية من ذكر التاريخ ! ولربما تشكل هذه الحلقة التي ارتبط فيها اسم كلكريني بسبتة أغمض حلقة في تاريخ العلاقات المغربية الخارجية خلال العصر الوسيط ! لقد حاول "ديفورك" جاهدا أن يقدم افتراضات عن هوية " كلكريني" في دراسة له عنونها "بمسألة" أو "قضية سبتة"[3]. ونظرا لطول الدراسة، يمكننا أن نستعرض أهم معطياتها ضمن ما يلي:

- يذهب البعض إلى أن "كلكريني" عناصر من المرتزقة النصارى الذين كانوا يعملون في جيش الرشيد الموحدي، وقد قاموا بالهجوم على سبتة لإعادة إدماجها تحت النفود الموحدي[4]. غير أن هذا المذهب يبقى مهزوزا إذا علمنا أن نفوذ الرشيد الموحدي لم يكن يتجاوز آنذاك جنوب المغرب، ثم لأن الهجوم على سبتة كان يستوجب أسطولا قويا، لاشك أن الموحدين كانوا مفتقرين إليه خلال تلك الفترة[5]. ويمكن أن نضيف عنصرا آخر لتزكية رأي "ديفورك"، ذلك بأن دخول اليانشتي – فيما بعد- تحت النفود الموحدي ، لم يأت بفعل أي حملة موحدية على سبتة، وإنما فضل الياشتي أن يبايع الموحدين نزولا عند رغبة أهل سبتة الذين دعوا إلى توحيد البيعة للموحدين، بعد أن بايعهم أهل إشبيلية[6].

1. البيان، قسم الموحدين – ص294.

2. -Di Tucci- p 279.

3. -Dufourcq (ch).La question de Ceuta

ولا يخفي المؤلف في مقالة أخرى تحفظاته حول اعتقاده بأن "كلكريني" كانوا كطلانيين. أنظر:

-A propos de l'Espagne catalane. p50

4. -Amari. Ricordi. p575. et Pistarino. Genova… p203.

5. تكفي للدلالة على مشكل الأسطول الموحدي ، الإشارة إلى أن الخليفة السعيد ، لجأ بفعل نقص الخشب إلى استعمال خشب مسجد حسان. أنظر الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، ص62.

6. أنظر تفاصيل ذلك في البيان، ص344.

- افترض البعض الآخر أن "كلكريني" فرقة من الفرق العسكرية القشتالية[1] ويرى "ديفورك" أن هذا الرأي لا يصمد كثيرا، لأن قشتالة لم تكن متوافرة على أسطول قوي بإمكانه الهجوم على سبتة، قبل إنشاء ملكها "سان فردناند "سنة 1243 لمواجهة مملكة مورسيا. بينما تعتقد "موسكرا مرينو" أن هوية "كلكريني" برتغالية وتدعم رأيها بعدة حيثيات، من بينها القرب الجغرافي وتزايد الشعور لدى البرتغاليين بمواصلة الحروب الصليبية ومساهمتهم في عدة مناسبات في الحرب ضد مسلمي الأندلس، كما هو في سنة 1226، واستجابتهم لدعوة البابا غريغوار التاسع للمساهمة في 21 اكتوبر 1234 في مواجهة المسلمين بالأندلس[2]. وقد لاحظ "ديفورك" أن البرتغال كانت عاجزة عن استئناف مغامراتها البحرية قبل عهد الملك "دونيس" Denis (1279-1325)[3].

- يفترض "ديفورك" أن يكون "كلكريني"تابعين لكطلونيا التي كانت قوتها التجارية آخذة آنذاك في التنامي، ولا يعدو الهجوم على سبتة أن يكون حلقة من مشروع كطلاني كبير استهدف السيطرة على "قناة المانش"، خاصة بعد أن نجح الكطلانيون في السيطرة على جزر البليار. كما أنه استهدف الحيلولة دون تقديم مسلمي المغرب الأقصى مساعدات لمسلمي جزر البليار[4]. وإلى جانب الافتراض الذي قدمه "ديفورك" عن هوية "كلكريني"، تجدر الإشارة إلى ما كان قد كتبه "جيوستنياني": "وفي هذه السنة (أي 1234)، جرى حدث له علاقة بشعب "كلكريني"، ولربما هم غاليون أو باسكيون أو نافاريون، وهو أمر يبعث على التشكك، لأنني لم أتوصل إلى أي إشارة تحدد هوية "كلكريني"[5]. وقد تبنى هذا الرأي مؤرخون فيما بعد، مثل "دوماص لاتري" والمؤرخ الجنوي "كنال"[6].

---

[1] -Mas Latrie, Traités…p 150.

[2] -Mosquera Merino.La Senoria de Ceuta.pp 107-111.

[3] - Dufourcq. La question de Ceuta, p94.

[4] - Ibid.

رغم أهمية العناصر التاريخية التي وطن "ديفورك" بها طرحه، فالظاهر أن الموحدين لم يكونوا مؤهلين آنذاك لتقديم مساعدات لمسلمي جزر البليار. ويمكن القول بأن المشاكل الداخلية وتسويتها كانت من أولويات الحكم الموحدي. فقد واجه الرشيد وغيره من الخلفاء الموحدين عدة مشاكل، لا يبدو أنها تركت لهم الفرصة للاهتمام بالشؤون الخارجية. ومن هذه المشاكل: ثورة يحي بن الناصر - ثورة ابن وقاريط - التهيؤ من أجل العودة إلى المذهب التومرتي - ثورة مسعود بن حميدان الخلطي وحصار الخلط لمراكش - فضلا عن آثار مجاعة 632 التي يقول ابن عذاري في شأنها "تنكرت الدنيا باستيلاء المجاعة" البيان - ص632.

[5] - A.G.2 Volumes (1470-1536) édition sportorno. Gênes 1854.

[6] - Canale (M). Nuova Istoria .T2 ; p 62

لا شك في أن غياب نصوص حاسمة، يفسح المجال لافتراضات أخرى لتفسير هذا اللغز التاريخي المتعلق بهوية "كلكريني"، غير أنه منذ أن كتب "ديفورك" مقالته سنة 1955، حيث دافع عن الاعتقاد القائل بأنهم كطلانيون، لم يعر المهتمون اهتماما كبيرا إلى الموضوع، ما دفعه في إحدى مقالاته الأخيرة إلى أن يتقدم بدعوة ملحّة إلى الباحثين لفك هذا اللغز التاريخي[1].

إن إعادة قراءة أهم المصادر التي تحدثت عن هجوم "كلكريني" على سبتة يجعلنا - في غياب نصوص حاسمة حول هذا الموضوع- نجازف بافتراض آخر لعلّه يساهم في الدفع أكثر من أجل الكشف عن حقيقة هويتهم ، ودور جنوة في الأحداث. أما أهم المصادر فتتمثل في الحوليات الجنوية، وفي النص الذي أورده ابن عذاري في بيانه عنها. وأما الافتراض الذي نقترحه فقوامه أن "كلكريني" مجرد فرقة من الفرق العسكرية الجنوية، ويتأسس هذا الافتراض على المؤشرات التالية:

- ذهب المؤرخ الإيطالي "دي توتشي" إلى القول بأن الرخاء الاقتصادي الذي شهدته سبتة آنذاك ، كان مدينا إلى حد كبير للأنشطة التجارية التي مارسها الجنويون بالمدينة، والذين منذ هذه الفترة المبكرة أخذوا بأساليب تمتّ إلى "الاستعمار الاقتصادي" لربط خيرات سبتة مباشرة بجنوة[2]. وإذا استحضرنا المضايقة التي أصبح الجنويون يعانون منها بهذا الميناء الحيوي بفعل تزايد القوة التجارية لكطلونيا، لربما أدركنا لماذا حرصت جنوة على إخضاع سبتة، أو على الأقل على أن تخضع لطرف يدور في فلكها التجاري، ويبدو أنه في هذا السياق يمكن أن نضع مساعدة جنوة لابن هود للسيطرة على سبتة سنة 1231. ويظهر كذلك أن جنوة قد استدرجت الياشتي ليدخل معها في صراع يمكنها بفعل قوة أسطولها من إخضاع المدينة، أو على الأقل ضمان تفوقها التجاري بها. يكشف نص ابن عذاري بما لا يدع مجالا للشك على أن نيات الجنويين كانت تتجه نحو السيطرة على المدينة. جاء في النص: "وذلك أنهم لما وصلوا إلى سبتة في مراكبهم برسم محاولات تجاراتهم، فاجتمع منهم في ديوانها وربضها عدد كثير، فراموا التغلب عليها بتحيلاتهم وإراداتهم فخيّب الله سعيهم فيما راموا من التحيلات"[3]. ويخيل لي أن تحيلات الجنويين تمثلت في هجوم إحدى فرقهم المتمثلة في "كلكريني" على سبتة، وفرار البعض الآخر منهم للتظاهر بأنهم قاموا بذلك خوفا من

---

[1]- Dufourcq (Ch). Vers la méditerranée orientale et l'Afrique. in Variorum. 1990. p20.

[2]- Di Tucci. op cit. pp281-282 note2…..

[3]- البيان ، ص350.

هجوم خارجي. ونعلم أن أسلوب الحيل العسكرية كان من الأساليب المتداولة لدى الجنويين، فسيطرتهم على طرابلس سنة 1355 – كما سيأتي- تمّ بواسطة حيلة عسكرية، ولربما ليس اعتباطا أن يقول الحميري، وقبله الإدريسي عن أهل جنوة بأن لهم "اسطول ومعرفة بالحيل الحربية"[1]. ونستغرب هنا لماذا قلّلت بعض الدراسات الغربية من أهمية رواية ابن عذاري، مع ما يشهد له من تثبت وتحقق[2]، فرغم أن إمكانية رغبة الجنويين في السيطرة على سبتة واردة، فإنها تبقى غير محتملة كثيرا، لأن مصالح جنوة كانت تقتضي منها أن تحافظ على علاقات حسنة مع سبتة[3].

– نعتقد بحكم الحضور القوي للجنويين بسبتة بأنه لم يكن ثمة طرف أوربي مؤهلا للهجوم على المدينة أكثر من الجنويين. فقد كانوا على بينة من مواردها وشؤونها الداخلية. ومن المفيد الإشارة على مستوى خطة الهجوم إلى أنها انبنت على عنصر المفاجأة. والظاهر أن تبني هذا العنصر في غياب معرفة دقيقة بالمنطقة، يبقى ضربا من المغامرة.

– تحدثت الحوليات الجنوية عن تردد الجنويين الموجودين بسبتة في مواجهة "كلكريني" باعتبارهم مسيحيين يحملون شارة الصليب[4]. وإذا ما استحضرنا أهمية المصالح التجارية للجنويين بسبتة، فإن الوضع كان يستدعي الدفاع عن المدينة عوض التردد في ذلك، لأن أي هجوم عليها، معناه إضعاف لمصالحهم التجارية بها، بغض النظر عما إذا كان المهاجم مسيحيا أم غير مسيحي. وتثبت الأحداث أن الجنويين لم يتوانوا عن الدخول في صراعات دموية بموانئ بلاد المغرب، كلّما مسّت مصالحهم التجارية بها من لدن باقي المسيحيين، كالبيزيين والبنادقة والكطلانيين، فهل تردد الجنويين في مواجهة "كلكريني" مرده إلى أن هؤلاء كانوا جنويين بدورهم؟

1- الحميري، الروض المعطار..تحقيق إحسان عباس، بيروت 1975، ص173.

2- نشير مثلا إلى أن الأستاذ محمد الطالبي لم يخف اعجابه واستفادته في إنجاز أطروحته عن الأغالبة من ابن عذاري اكثر من ابن خلدون، أنظر كتابه منهجية ابن خلدون التاريخية، دار الحداثة، ط1، 1981، ص58.
كما أن اطمئنان محمد القبلي في رصده بأطروحته للتاريخ السياسي للدولة المرينية والأستاذة فرحات حليمة في أطروحتها عن سبتة لرواية ابن عذاري، تبدو واضحة مقارنة مع رواية باقي المصادر.

3 -Rosenberger. Le contrôle. op cit. p28.
كما أن" Pistarino" في دراسته Genova...p203 لا يبدو متحمسا لفكرة عزم الجنويين على إخضاع سبتة والملاحظ أن" لوبيز" في إحدى كتبه القيمة عن تاريخ المراكز الجنوية فضل – لربما بفعل الغموض الذي يكتنف موضوع كلكيريني – عدم إثارة هويتهم بالمرة. بينما تشكك بدوره في رواية ابن عذاري، أنظر:
Lopez. Storia delle colonie genovese.... pp 173-174.
كما استبعد "جيهل" رواية ابن عذاري مثيرا الحمية التي تتصف بها المصادر العربية بصفة عامة، أنظر:
Jehel, Les relations...p116.

4 -A.G. T4.p 119.

– جاء بالحوليات الجنوية أن "كلكريني" ألقوا القبض على بعض المراكب الجنوية قرب قادس وبالمضيق. وبعد أن جهز جنويو سبتة عشرة مراكب، التزم كلكيريني "بإرجاع الأسرى الجنويين، ومن بينهم" وليام نيغروني "Guglielmo Negrone" و"بلدوينو سبينو" Balduino Spiono . ولم يفت الحوليات الجنوية أن تنوه بخصلة احترام "كلكيريني" لوعودهم :

"Essi Calcurini ebbero buone parole"[1]

ومع ذلك، نتساءل لماذا لم يدخل الجنويون في مواجهة مع "كلكريني"؟ ولماذا سارع هؤلاء إلى اطلاق سراح الجنويين؟

– ورد بالحوليات الجنوية ان "كلكريني" انسحبوا من سبتة قبل وصول الأسطول الجنوي إلى المضيق، ولا يسعنا هنا سوى أن نطرح بعض الأسئلة التي يبدو أن الجواب عنها، قد لا يبرئ ذمة الجنويين في كل الأحداث التي شهدتها سبتة 632/1234.

فلو فرضنا أن "كلكريني" فرقة عسكرية كطلانية، لربما تحسبت كل طارئ، واتخذت كل الاستعدادات التي تسمح لها بمواجهة الجنويين باعتبارهم أقوى قوة تجارية وعسكرية بالحوض الغربي للمتوسط آنذاك. ثم ألا يعبر هذا الانسحاب عن رغبة في الخروج من الخطة أو "التحيلات" كما عبر عنها ابن عذاري، بأقل ما يمكن من الخسائر والأضرار؟ ومن أشعر "كلكيريني" بمقدم أسطول جنوي مجهز؟ ولماذا لم يذكر "كلكيريني" بعد هذا الانسحاب في التاريخ؟

ونحن نطرح هذه الأسئلة، يبدو لنا أنهم لو كانوا كطلانيين، لما ترددت دولتهم في تسجيل محاولتهم للسيطرة على سبتة. فالمحاولة وإن كانت قد انتهت بالفشل، فإنها زعزعت الحضور الجنوي بسبتة، وهذا أقصى ما كانت تبتغيه كطلونيا في المراحل الأولى من تشكيل قوتها التجارية لتنافس جنوة بالمنطقة، ولو صحّ أن "كلكريني" كطلانيون، لكانت المصادر الإسبانية قد سجلت ذلك بماء الذهب، لأنها اهتمت بتسجيل أحداث خارجية أخرى عن تحركات الكطلانيين، دون أن تصل إلى الأهمية التي اكتساها حدث هجوم "كلكريني" على سبتة.

1 -A.G. T4 .p 120.

- من الأمور الملاحظة في الحملة الجنوية على سبتة بعد توتر العلاقات بين اليانشتي والجنويين: أهمية الأسطول الذي جهزته من أجل هذا الغرض. تتحدث الحوليات الجنوية عن 70 مركبا كبيرا و 30 صغيرا و20 شينيا، وعن استمرار الحصار ليلا ونهارا، مما دفع سبتة إلى قبول الصلح وتقديم تعويضات لجنوة مقابل رفع الحصار[1]. وللمقارنة فقط، نذكر أن مساهمة جنوة في الحملة الصليبية الثامنة التي قادها ملك فرنسا لويس التاسع على تونس، قدرت ب55 مركبا كبيرا، وبعض المراكب الصغيرة، علما بأن جنوة تحملت تجهيز القسط الأعظم من هذه الحملة. فهل مجرد "الانتقام لكرامتها" بعد أحداث الفندق الجنوي بسبتة، كان كافيا لأن يدفع كومونة جنوة لتجهيز مثل ذلك الأسطول القوي، لو لم تكن لها أهداف أو "أطماع" -حسب تعبير "موسكيرا مرينو" - أخرى ترومها من وراء الحملة؟

- تساءلت الباحثة نفسها عن سبب عدم تقديم عقود الموثقين الجنويين لمعطيات إضافية عن اسم "كلكريني"، ورجحت أن يكون الاسم حاملا لاشتقاق إيطالي[2]. ومن المثير أن عدد هذه العقود التي نشرها "دي توتشي" عن "معونة" سبتة - سيتم الوقوف عندها لاحقا- يبلغ 94 عقدا، غير أن اسم "كلكريني" ورد في وثيقة واحدة تحمل تاريخ 25 فبراير 1237[3]. لربما يكون غياب هذا الاسم من الوثائق التي تغطي سنة 1235 أمرا مقبولا، لأنها مست موضوع تمويل الحملة الجنوية على سبتة عقب الأحداث التي تعرض لها فندق الجنويين بالمدينة بفعل هجوم القبائل المحلية. غير أن ما يثير الاستغراب، هو غياب اسم "كلكريني" نهائيا من وثائق سنة 1234، علما بأنها همت موضوع الاستعدادات التي قامت بها كومونة جنوة لتقديم المساعدة إلى اليانشتي عقب هجوم "كلكريني" على سبتة.

- أخيرا يذكر صاحب القرطاس أن حصار الجنويين لسبتة تم سنة 632هـ[4]، وهذا التاريخ يتوافق مع ما جاء بعقود الموثقين الجنويين التي تتحدث عن "معونة" سبتة. إذ إن أوخا حرر في شتنبر 1234م[5] . أما صاحب البيان فإنه غير متأكد من سنة الحصار الجنوي لسبتة "وكان ذلك عام ثلاثة وثلاثين وستمائة وقيل في سنة ستة

[1] -Canale .Nuova istoria... T2. p 63.

[2] Mosquera, Ceuta y Genova, p240.

[3] -Di Tucci, op cit, p338 (Doc N31.)

[4] ابن أبي زرع، القرطاس، ص276، تقول الإشارة: "وفيها نزل الجنويون سبتة بأجفان لا تحصى، ونصبوا عليها منجنيقات فلم يخرجوا منها على شيء".

[5] -Mosquera Merino, op cit, p236, note13.



وثلاثين"[1]. تدفعنا هاتان الإشارتان إلى طرح سؤالين، وهما : إذا كان هجوم "كلكريني" على سبتة قد تم في نفس السنة التي حاصر خلالها الجنويون المدينة، أي سنة 632/ 1234، وإذا كان ابن أبي زرع قد اقتصر على ذكر الحصار الثاني، أفلا يحيل ذلك ضمنيا على أن المهاجم كان واحدا؟ ثم إن عدم تأكد ابن عذاري من سنة حصار سبتة من لدن الجنويين، وترجيحه لسنتين، هل يعني كذلك أن المهاجم في كلتا السنتين كان واحدا؟.

لقد ذهب "بسترينو" - أحد أكبر المتخصصين في تاريخ جنوة - إلى أن قضية مساهمة جنوة في الأحداث التي شهدتها سبتة عام 1234 شبيهة إلى حد كبير بفصول رواية أو قصة مغامرة. ويبدو أنه في غياب نصوص حاسمة حول هوية "كلكريني"، فإن المجال يبقى مفتوحا لافتراضات أخرى تحول المهتم في تعامله مع الوثيقة من مجال الرواية التاريخية إلى مجال "الرواية البوليسية". وتبقى كل الافتراضات التي قدمت حول هوية "كلكيرني" مجرد اجتهاد مؤقت، في انتظار الكشف عن مصادر جديدة حول هذا الموضوع، وإجراء أبحاث لسانية حول كلمة "كلكيرني"، كما دعا إلى ذلك ديفورك في آخر مقال له - فيما أعلم- حول ذات الموضوع الذي كان قد أثاره حوالي ربع قرن قبل ذلك[2].

ج-حصار الجنويين لسبتة سنة 1234/ 632

انسحب كلكريني من سبتة قبل وصول امدادات الأسطول الجنوي بطلب من اليانشتي، وانتهت بذلك "أسطورة" كلكريني، إذ لم يرد لهم ذكر في التاريخ بعد هذه العملية. واشتط الجنويون بعد انسحابهم في مطالبة اليانشتي بالتعويض عن الخسائر التي لحقت بهم من جراء مساهمتهم في انقاذ المدينة، والتكاليف التي وفروها من أجل ذلك[3]، علما بأنهم استرجعوا المراكب التي احتجزها الموحدون إبان الصراع بين

[1] .ابن عذاري، البيان، ص350.

[2] -Dufourcq (Ch), Vers la Méditerranée...

[3] - بعد هجوم "كلكريني "على سبتة، فر بعض الجنويين إلى مالقة ومنها جهزوا أسطولا مكونا من 600 شخصا على متن سفينتين بتجاه سبتة، وبطلب من اليانشتي الذي دخل في صراع جديد مع الموحدين حول حكم المدينة، بادرت جنوة بإرسال اسطول يتكون من 18 سفينة من نوع الشواني، أربع منها وضعت قيادة Lanfianco Spinola "لنفركو سبنولا" وعشر تحت قيادة Ottobone di Camilla "أطوبوني دي كاميا "وأربع تحت قيادة Ingone Bonifacie delle Volta "اينغوني بونفاسيو دي لا فولتا"، والتزم اليانشتي بتقديم نصف تكاليف الحملة الجنوية. انظر:

-Canale, Nuova, T2, p62

-Di Tucci p 247 et suivantes

الينشتي والجيوش الموحدية، كما أن الأسطول الجنوي لم يدخل في مواجهة مباشرة مع الموحدين أو غيرهم، لأن الجيوش الموحدية "تراجعت عن المدينة"[1].

ويبدو أن الينشتي تخوف من عواقب حضور الأسطول الجنوي بتلك الكثافة على استقلال المدينة[2]، ولربما اقتنع بسوء نيات الجنويين من أجل السيطرة عليها "بتحيلاتهم"، ولذلك استنفر القبائل المحلية التي احرقت فنادق الجنويين بسبتة، وألحقت بهم أضرارا جسيمة[3].

تتحدث الحوليات الجنوية عن لجوء جنوة إلى الوسائل السلمية لتطويق الخلاف، إذ بعثت "كاربوني مالشللو" Carbone Malocello سنة 1235 سفيرا للتفاوض مع الينشتي الذي تصفه نفس الحوليات بالتصلب[4]، ومن الأمور المثيرة أن المفاوضات كانت تجري بين الينشتي والجنويين بتزامن مع حصارهم للمدينة[5]. لقد توجه "مالشللو" إلى إشبيلية لإعداد حملة على سبتة، كما أرسل لطلب الإمدادات من جنوة التي انتهت الاستعدادات بها للحملة أواخر شهر مارس 1235[6]. وكان قوام الأسطول الجنوي في هذه الحملة 70 سفينة كبيرة من نوع البطسة – سيتم التعريف بها في فصل لاحق- و30 بطسة صغيرة و20 شينيا وعدة مراكب صغيرة[7]. وعهدت بقيادة الأسطول إلى "أوغو لركري" Ugo Lercari الذي تصفه عدة دراسات انطلاقا من "فيتالي"، ومرورا ب "لوبيز"، ووصولا إلى "جيهل"، بالمتخصص في الشؤون المغربية، إذ إنه كان قد قاد الأسطول الذي وجهته جنوة إلى سبتة سنة 1231، وعاد إليها سنة 1235 بصفته سفيرا وأميرالا[8]. وتطلعنا عقود الموثقين الجنويين المتعلقة

---

[1] -Lopez. Storia…p173.

[2] -Jehel (G). Les relations entre Gênes et le Maghreb. op cit. p117.

[3] يتطابق نص ابن عذاري مع ما جاء في الحوليات الجنوية بخصوص تلك الخسائر. يصف ابن عذاري المواجهة بما يلي: "...عند خروج ولد صاحب سبتة إليهم -أي أبو الحسن ابن الينشتي- فهم النصارى أن الدائرة عليهم، فأبرموا أمرهم طامعين فيما أملوه، ورجعوا بجموعهم إلى البلد لعلهم يملكونه، فبينما هم بمقربة من الباب يحاولون إليه التسور إذ لم يبق بينهم وبينه إلا شيء يسير، إذ قلت عليهم عسكر البربر داخلين على الباب فكسروهم وقتل كل واحد منهم من قتل من الروم وما صبر وما تبر، فقتل النصارى في ذلك اليوم قتلا ذريعا وقطعوا تقطيعا، وتحكمت السيوف والرماح من كل مفرق لهم ونحر، ومن سلم من القتل رمى بنفسه عائما على الأجفان في البحر، وانتهبت أموالهم التي في فنادقهم أي انتهاب، وانتهبت النار في سلعهم وسلاحهم كل انتهاب، واحتوت البربر والسوقة وغزاة البحر وغيرهم على جميع ما كان في الفنادق من أمتعتهم، ما خلص للنيران من أموالهم.." ص350.

[4] - Di Tucci, p281

[5] - Ibid.

[6] - Dufourcq (Ch), La question…p 101.

[7] - AG T4, p125.

[8] للملاحظ أن الرقم الذي يقدمه ابن عذاري -وهو 100 مركب- يقترب من العدد الوارد بالحوليات الجنوية.
أنظر: Vitale, Breviario T1-p67 ؛ Lopez studi… p8 ؛ Jehel, les Génois-p71

"بمعونة" سبتة بأن معظم المدن المجاورة لجنوة ساهمت في تجهيز الحملة، وهي: "Val Bisagno" و"Val Polcevera" و"Sestri" و"Chiavari" و"Recco" و"Albenga" و"Ventimiglia" و"Portmauzio" و"Portovenere" و"Vernaza". كما ساهمت مدن أخرى في مد الحملة بالرجال، وهي "Novi" و"Bobbio" و"بيزة" و"مدينا"[1]، وتكشف النصوص التي نشرها "فريطو" أن فلورنسا بدورها ساهمت في تجهيز الحملة بالسفن[2]. وقد ساهمت في الحملة مراكب في ملكية جنويين عرفوا بممارستهم للنشاط البحري، مثل "Lanfranco Spinola" و"Oglerio di Baldovino" و"Rolando Lavaggi" وشركاؤه "Anfasso" و"Cancellire Mignardi" و"Bonavia"[3].

حاصر الجنويون سبتة ونصبوا المجانيق عليها إلى أن قبل الينشتي شروط المتفاوض الجنوي "سوزيو بيفري" Suzio Pevere. وقد تمثلت في انسحاب الجنويين من المدينة مقابل تقديم الينشتي لهم تعويضات مالية، لم يحددها ابن عذاري وباقي المؤرخين المغاربة، بينما جعلها صاحب القرطاس 400 ألف دينارا[4]. وبعد توقيع الصلح، انسحب الأسطول الجنوي من سبتة ووصل جنوة في يوم الخميس 13 دجنبر 1235، وبقيت بعض السفن الجنوية بسبتة، واتجهت أخرى إلى تونس وإلى اتجاهات أخرى[5]. أما سبتة، فإنها احتاجت لعدة سنوات لتقديم تلك التعويضات[6]. وقد اثبتت السفارة الجنوية التي قادها "وليام شبو" و" جيوفاني أوغلنو" إلى العزفيين في 6 شتنبر 1262، أن سبتة ظلت عاجزة عن تسديد التعويضات التي فرضتها جنوة عليها، بعد حملتها سنة 1234-1235، إذ استمرت في مطالبتها بتقديم نفس التعويضات[7]. وإذا كان الجنويون قد فشلوا في التغلب على سبتة "بتحيلاتهم"، فإنهم نجحوا بعد فرض الصلح على الينشتي في تكريس هيمنتهم على تجارة هذا الميناء الحيوي[8]. وقد كشفت

---

[1] -Di Tucci, op cit. p285.

[2] -Ferretto, Codice. T1. pp224-225

[3] -Di Tucci, p285

[4] يرجح "ديفورك" أن تكون 400 ألف دينار التي قدمها الينشتي إلى الجنويين فضية وليس ذهبية. Dufourcq, La question, p101
أما فرحات فترجح رقم 40 ألف دينار ذهبي لأنه أقرب إلى الواقع، خاصة وأن سبتة بعد سنوات من الحملة الجنوية أدت لقشتالة نفس المبلغ، أنظر: Ferhat, Sabta p 217 note1
ونشير إلى أن الينشتي هو الذي دفع التعويضات، وليس الخليفة الموحدي الرشيد كما اعتقد "Mercier" أنظر:
Mercier, Histoire de l'Afrique septentrionale, Paris, 1888, T2, p154

[5] -A.G. T4, p126.

[6] -Schaube, op cit. p350

[7] -Lisciandrelli, Trattati, op cit, pp76-77.

[8] -Schaube, op cit, p350.

[illegible] سياسة خارجية جديدة ويتمثل في تبني [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الأحداث التي [illegible] في [illegible] [illegible] [illegible].

كانت "معونة" [illegible] "معونة" [illegible] [illegible] جديدة. [illegible] "معونة" [illegible] في [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] "معونة" [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible].

[illegible] "Marina" و "Madonna". [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] جوية [illegible] [illegible] عسكرية.

[illegible] "Marina" [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible].

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] Monsieur [illegible]

[illegible]

ولم تكن "معونة [illegible]" نسبية [illegible] [illegible] التي [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] "معونة [illegible]" التي [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] منها:

- [illegible] [illegible] التي [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] "[illegible]".

- [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible].

- [illegible] [illegible] التي [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible].

ونظرًا للأرباح التي [illegible] بـ "معونة [illegible]"، [illegible] [illegible] Fromont [illegible] [illegible] "معونة" [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] Gugliemi [illegible] "معونة" [illegible] [illegible] [illegible] [illegible].

[illegible] Gugliemi [illegible] [illegible] [illegible] [illegible].

[illegible] [illegible] في معونة [illegible] [illegible].

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

أنا "وليام" لدي 150 دينارا فضيا في معونة سبتة و15 دينارا فضيا بمثابة قرض على ذمة السلطان.

المجموع هو 316 دينارا فضيا. فوضنا لك كامل الحقوق للتصرف فيها كما تشاء.

تم بجنوة بمنزل "اينغو" Ingo في 14 شتنبر 1236، الإشارة رقم 8، الشهود "سيمون سيفانون" Simon Sivagno و" أوطو أدالاردو" Otto Adalardo ".

إنه نموذج للعقود الكثيرة التي حررها الموثقون الجنويون في موضوع "معونة" سبتة ، والتي خولت لهم أرباحا لاشك أنها استنزفت خزينة سبتة ، وافقدتها استفادتها التامة من أهم مورد مالي كانت تعول عليه المدينة. فالتعويضات لم تقدمها سبتة دفعة واحدة كما جاء عند ابن أبي زرع، بل أصبحت تستخلص من موارد جمارك الميناء[1].

لقد شكلت سنة 1236 محطة مهمة في تاريخ العلاقات المغربية الجنوية. ففضلا على أنها أنهت التوتر الذي شهدته العلاقات بين جنوة وسبتة بشروط هدنة، كانت معظم جوانبها في صالح جنوة، فإنها سجلت توقيع أول معاهدة هدنة وتجارة بين الدولة الحفصية الناشئة وجنوة. فما هي الملابسات التي أدت إلى توقيع هذه المعاهدة، وما هي انعكاساتها على الحضور الجنوي ببلاد المغرب؟

4- معاهدة 1236 بين جنوة وتونس الحفصية:

انسجاما مع استراتيجية الجنويين للهيمنة على أهم "مفاتيح" التجارة بالحوض الغربي للمتوسط منذ مطلع القرن 13م/ 7هـ، بادروا إلى توقيع معاهدة هدنة وتجارة مع الدولة الحفصية، ولمّا يمض على تأسيسها بضع سنوات.

لقد سارت جنوة إلى تقنين علاقتها التجارية مع تونس الحفصية نظرا لفعل عدة عوامل، منها أنها تكتسي أهمية قصوى كمحطة للتجارة مع الشرق، كما أنها نعمت بجو أمني نسبي مقارنة مع المغرب الأقصى، حيث كان الصراع على أشده بين الدولة الموحدية المتهالكة والحركة المرينية الناشئة، أو المغرب الأوسط حيث كان يغمراسن بن زيان يصارع عدة أطراف لتوقيع ميلاد الدولة العبدوادية. كما أن توقيع معاهدة هدنة

[1]- Lopez, Studi, op cit, p14 et Di Tucci, op cit, p318.

وتجارة مع تونس الحفصية، كان من شأنه أن يسمح للجنويين بمنافسة البيزيين الذين كانوا قبل ذلك قد حصلوا على عدة امتيازات بالمنطقة، ولاغرو أن عرقل البيزيون حصول أي تقارب بين الجنويين وتونس الحفصية[1].

أ- ما قبل توقيع المعاهدة:

سبقت الإشارة – في فصل سابق- إلى أن الاهتمام الجنوي بتونس وبجاية قد تزايد منذ سنة 1233، حسب ما تفيده عقود الموثقين الجنويين. وتبرز عقود الموثق "لنفرنكو" أن العشرينات من القرن 13م/ 7هـ، شهدت إقبالا واضحا للتجار الجنويين على تونس وبجاية، مقارنة مع السنوات السابقة من القرن نفسه[2].

غير أنه تجدر الإشارة إلى حادثة طبعت العلاقات بين تونس وجنوة في سنة 1223، كادت أن تعصف بتلك الوتيرة الإيجابية التي كانت تسير عليها العلاقات بين الطرفين. وخلاصة هذه الحادثة – التي يسميها "جيهل" بمسألة Rainaldo Archanto "أركانتو"[3] – كما أوردتها الحوليات الجنوية، أن "أركانتو" أحد أثرياء جنوة غادر تونس باتجاه إسبانيا على سفينته التي سافر عليها أيضا بعض التجار التونسيين، كما أنه حمل معه مبلغا ماليا قدمه إياه حاكم تونس لاستثماره في التجارة مع إسبانيا. غير أنه نظرا لسوء تفاهم كان حاصلا بين المارسليين والجنويين حول تطبيق بنود معاهدة جرت بينهما منذ سنة 1211، وبما أن المارسليين كانوا يعتبرون مسلمي بلاد المغرب أعداء لهم آنذاك، لعدم سريان أي معاهدة هدنة تجمعهم، فإنهم استولوا على السفينة وسجنوا "أركانتو". وقد أفضى هذا الموقف إلى تبادل أعمال القرصنة بين المارسليين والجنويين، قبل أن يفرج عن "اركانتو" الذي عاد إلى جنوة، دون أن تحدثنا الحوليات الجنوية عن مآل المهمة التي كلفه بها حاكم تونس[4].

سارعت جنوة إلى تطويق هذه القضية بأن أرسلت إلى حاكم تونس أبي العلا مبعوثين هما "سيمون دي بولغارو" Simone di Bulgaro و"ماركيزيو سكريبا"

[1] - Doumerc, op cit, p32.

[2]- حرر الموثق "لنفرانكو" Lanfranco ما بين 17 شتنبر و 1 نونبر 1225 مجموعا من العقود يقدر ب115 عقدا يهم التجارة مع تونس، وتبلغ قيمتها الإجمالية 500 ليرة جنوية، أنظر:

Dufourcq, Aperçu, op cit, p73

[3] - Jehel, les Génois, op cit, p64.

[4] - A.G. TII, pp188-189.

Scriba March[1]. ورغم أننا نعلم بأن الطرفين توصلا إلى توقيع معاهدة سلم وتجارة في نفس السنة – أي سنة 1223– فإننا نجهل تفاصيلها، وكل ما نعلمه أن المعاهدة خوّلت للجنويين الاستفادة بتونس من خدمات الفندق والحمام والفرن، وذلك على غرار ما كان عليه البيزيون بها[2].

لقد كشفت الحادثة عن أهمية التعاون بين الجنويين والتونسيين في التجارة البحرية، كما تؤشر على رغبة الجنويين في توسيع أفق تجارتهم بالأجزاء الشرقية من الإمبراطورية الموحدية، وفي تجاوز كل ما من شأنه أن يؤثر على علاقاتهم ببلاد المغرب. وتوضح فعلا بعض العقود التي اعتمدها "بالار" في إحدى دراساته أن السوق التونسية أصبحت تحظى باهتمام متزايد من لدن التجار الجنويين. فقد ارتفعت نسبة استثماراتهم بها منذ سنة 1225 إلى 6,48٪ من مجموع الاستثمارات الجنوية في التجارة مع موانئ البحر المتوسط[3]. وموازاة مع توسيع الجنويين لأفق تجارتهم بشرق الدولة الموحدية، أصبحت السوق البجائية بدورها تستقطب اهتماماتهم. وتثبت عقود الموثق "لنفرنكو" أن بجاية كانت ثاني أهم مرسى تردد عليه الجنويون بعد تونس بالمناطق الشرقية من الدولة الموحدية المتآكلة في النصف الأول من القرن 13م/ 7هـ[4].

وبادرت جنوة لتعزيز حضورها بتونس الحفصية، إلى إرسال "وليام دي نيغرون" Guglielmo di Negrone سفيرا لدى الحفصيين في شتاء 1235. غير أن الرحلة لم تتم نظرا لسوء الأحوال المناخية، مما أجبر السفير على العودة إلى جنوة[5]. وقد تساءل "جيهل" عن الهدف الاستعجالي من وراء إرسال مبعوث جنوي إلى تونس شتاء؟[6].

[1]-Ibid.
والملاحظ أن الحوليات الجنوية تسميه ملك تونس" Rex Tunesis "علما بأن الحفصيين مازالوا لم يستقلوا بعد آنئذ عن الخلافة الموحدية.

[2]-A.G. T2 – p192.
[3]-Balard, Notes… p372.
[4]- أورد الموثق الجنوي"Lanfranco" ستة عقود تغطي الفترة المتراوحة ما بين يونيو – يوليوز من سنة 1216 تهم التجارة مع بجاية. وقد بلغت قيمتها 200ليرة، وحرر نفس الموثق في الفترة المتراوحة ما بين شهري أبريل ودجنبر سنة 1225، 20 عقدا قيمتها 600 ليرة، تهم التجارة مع تونس وبجاية في آن واحد، أنظر : Dufourcq, Aperçu, op cit, p726

[5]-A.G. T4 –p127.
يشير "دفورك" في ص 723 من دراسته _ Aperçu إلى أن السفارة تمت سنة 1232-1233، والأصح أنها تمت سنة 1235.

[6]-Jehel, Les Génois, p65.

ويبدو أنه لتلمس أبعاد هذه السفارة، لابد من الأخذ بعين الاعتبار مجموعة من الحيثيات تساعدنا على توطينها. فعلى الرغم من تزايد اهتمام الجنويين بإفريقية عقب معركة العقاب، فالظاهر أنهم لم يستفيدوا بنفس الامتيازات التي تمتع بها بتونس منافسوهم من البيزيين والبنادقة. فمن المعلوم أن البندقية كانت أول جمهورية إيطالية وقعت مع تونس الحفصية معاهدة هدنة وتجارة منذ سنة 1231، ثم تبعتها في ذلك بيزة سنة 1234. كما أن الجنويين عانوا من مضايقات وأعمال القرصنة بالمراسي الإفريقية، حتى إن كومونة جنوة اضطرت إلى إرسال خمس سفن لرعاية مصالح رعاياها، والدفاع عنهم بتونس سنة 1232[1]. وإذا راعينا هذه الوضعية، وكذلك ملاءمة المعطيات الخارجية ممثلة في إنهاء جنوة لتوترها مع سبتة في شتاء 1235، وفي تدهور العلاقات الكطلانية الحفصية آنذاك[2]، أدركنا لهذا كله، لماذا استعجلت جنوة لتقنين علاقاتها مع تونس الحفصية التي ظهرت كأقوى كيان سياسي ببلاد المغرب[3]. وقد نجحت في مسعاها بعد توقيع مبعوثها "كرادو دي كاسترو" Corrado di Castro[4] معاهدة مع السلطة الحفصية في يونيو 1236، ودامت صلاحية العمل بها عشر سنوات.

ب-أهم نصوص المعاهدة:

تشكل هذه المعاهدة إلى جانب المعاهدتين اللتين أبرمتهما تونس الحفصية مع البندقية سنة 1231 وبيزة سنة 1234، مرجعا لكل المعاهدات التي وقعتها تونس مع الجمهوريات البحرية الإيطالية مع نهاية العصر الوسيط. وعلى الرغم من أن المعاهدات التي جرت بين جنوة والحفصيين بعد معاهدة 1236، عرفت إضافة أو حذف بعض البنود، فإنه غالبا ما تم الاحتفاظ بالإطار العام لهذه المعاهدة[5]. ويرى "شوب" أن معاهدة 1236، جاءت في خطوطها العريضة تكرارا لمعاهدة 1223 التي وقعتها جنوة وتونس عقب الأحداث المترتبة عن قضية "أركانتو"، والتي مازالت مفقودة[6].

[1]برنشفيك، ج1، ص57 هامش 1.
[2] -Dufourcq, L'espagne, op cit.
[3] -Lopez, Studi, op cit, p14.
[4]- يتوهم "كنل" لما ذكر أن السفير الجنوي هو"Corrado di Castello " Nuova T2 p331... ومرة أخرى لما ذكر أن المعاهدة تمت سنة 1216، وذلك بين طرابلس؛ وجنوة أنظر:
Tripoli e Genova, p4 et suivantes.

[5]برنشفيك، ج1، ص56.
[6] -Schaube, p351.

تتألف معاهدة 1236 من عشرة بنود، ويمكننا أن نميز فيها بين بنود اعترفت للجنويين بحقوقهم في تونس الحفصية، وهي قليلة، وبنود أوجبت عليهم واجبات بها، وهي كثيرة. فبالنسبة للحقوق التي خولتها المعاهدة للجنويين بتونس، نذكر التزام السلطات الحفصية بتقديم المساعدات لأي جنوي في حالة غرق، وتزويد جنوة بالحبوب في حالة وجود نقص لها بجنوة، وفي حالة وفرتها بإفريقية، وعدم تجاوز سعر القفيز من القمح بها 3.5 دينارا ذهبيا. وقد احتفظت معاهدتا 1250 و1272 اللتان وقعتهما جنوة مع تونس الحفصية بنفس البند[1].

ولاشك في أن لجوء السلطة الحفصية إلى تقنين تصديرها من الحبوب إلى جنوة وغيرها من الجمهوريات الإيطالية، ينم عن وجود "استراتيجية" لديها للحفاظ على إمكانيات السوق المحلية من هذه المادة الحيوية التي كان إنتاجها معرضا من حين لآخر إلى التراجع بفعل العوامل المناخية، مما كان يجبر إفريقية على استيرادها من صقلية أو من كطلونيا[2].

أما بالنسبة للواجبات التي أصبحت مفروضة على الجنويين بمقتضى معاهدة 1236، فتمثلت في حصر أنشطتهم بإفريقية بمراسي معينة. وقد لجأت دول بلاد المغرب الوسيط بصفة عامة إلى تبني الأسلوب نفسه، ليس بهدف التضييق على التجار الأوروبيين، ولكن للتمكن من استخلاص الضرائب الجمركية المفروضة على أنشطتهم، ولمنع عملية التهريب، وقد نص – فعلا– البند الثالث من المعاهدة على منع الجنويين من ادخال النقود الناقصة إلى تونس.

وعلى مستوى محاربة القرصنة، فرضت المعاهدة على الجنويين ألا يحملوا على سفنهم المسلمين الذين تكون دولهم في حالة حرب مع تونس، وألزمت كومونة جنوة متابعة مواطنيها الذين يلحقون أضرارا بالأشخاص الخاضعين لسلطان إفريقية[3]. كما خوّلت المعاهدة للسلطة الحفصية حقّ الاستفادة من ثلث السفن الجنوية الراسية بميناء تونس بعد أداء قيمة استنجارها. وأخيرا حددت المعاهدة قيمة الضرائب الواجب على الجنويين أداؤها لصالح الجمارك الحفصية، كما سمحت للسلطة الحفصية بمراقبة الأنشطة التجارية للجنويين، سواء ما تم منها بالمزاد العلني "Galega" أم بدونه[4].

1- De Mas Latrie, Traités, op. cit.

2- ينظر الفصل المتعلق بواردات تونس الحفصية.

3- De Mas Latrie, Traités, op.cit.

4- De Mas Latrie, Traités, op. cit .

لاحظ "برنشفيك" أن السلطان الحفصي أبا زكرياء لم يخول للجنويين عبر هذه المعاهدة امتيازات كثيرة مقارنة مع الامتيازات التي خص بها بيزة والبندقية[1]. ويمكننا أن نلاحظ ذلك الاختلاف ضمن ما يلي:

– لم تنص معاهدة 1236 على حضور قناصل جنويين بتونس يدافعون عن حقوق مواطنيهم لدى السلطة الحفصية. فعلى الرغم من أنها سمحت لهم برفع شكاواهم لديها، فإن الجنويين لم يتوفروا بتونس على ممثل رسمي تعترف به السلطة الحفصية ليقوم بهذا الدور، وذلك على عكس البيزيين – مثلا– الذين كان بإمكان قنصلهم أن يجتمع بالسلطان الحفصي مرة كل شهر.

– حددت معاهدة 1236 كميات الحبوب التي يمكن لجنوة أن تستفيد منها في حالة حدوث مجاعة في خمس سفن، بينما سمحت معاهدة 1231 التي عقدتها البندقية مع الحفصيين بإمكانية تزود البنادقة بثمان سفن من حبوب إفريقية في نفس الظروف.

– قلّصت معاهدة 1236 من عدد المراسي التي كان بإمكان الجنويين التردد عليها، بينما وسعت معاهدة 1234 التي أبرمتها تونس مع بيزة من أفق تجارة البيزيين بالمنطقة ، لما سمحت لهم بالإقامة والتجارة مع بجاية وعنابة والمهدية وصفاقس وقابس وطرابلس.

– يبدو أن الامتيازات التي استفاد منها الجنويون على المستوى الضرائبي حسب معاهدة 1236 سجلت تراجعا مقارنة مع الامتيازات التي مكنتهم منها معاهدة 1161 التي وقعوها سابقا مع عبد المومن. فإذا كانت معاهدة 1161 قد حددت نسبة الضرائب التي يقدمها الجنويون للموحدين ببجاية في 8٪، وسمحت لجنوة بالاستفادة من خمس الضرائب المستخلصة من هذا المرسى، فإن الجنويين أصبحوا مجبرين بمقتضى معاهدة 1236 على أن يؤدوا نسبة 10٪ بكل البلاد الخاضعة للحفصيين.

وكيفما كان الأمر، فالظاهر أن السلطة الحفصية كانت تطمئن للتعامل مع البيزيين والبنادقة أكثر من الجنويين. وتطلعنا الحوليات الجنوية بأنه مباشرة بعد سنة من توقيع معاهدة 1236، وصلت سفارة تونسية رسمية إلى جنوة، غير أن الحوليات الجنوية – كما الدراسات التي اعتمدت عليها– لا تقف عند أسباب هذه السفارة. ولا يسعنا سوى أن نتساءل عما إذا لم تكن للسفارة علاقة مباشرة بمعاهدة 1236؟ ثم هل

1- برنشفيك، ج1.

حاولت جنوة أن تستغلها للضغط على السلطة الحفصية للحصول على مزيد من الامتيازات؟ لقد حاولت جنوة أن تجدد مع تونس العمل بمعاهدة 1236، بعد انصرام مدة أجلها في سنة 1246، غير أن السلطان الحفصي أبا زكرياء (1229-1249م) لم يبد رغبة في تجديد المعاهدة، ولم تنجح جنوة في مسعاها إلا في عهد المستنصر (1249-1277م)، لما وقع قنصلها "روبالدو ماشيا" Rubaldo Macia معاهدة 1250 مع السلطة الحفصية عقب سفارة "وليام شبو" Guglielmo Cebo، والتي لم تغير إلا قليلا من معاهدة 1236.

هكذا يبدو أن معاهدة 1236، بقدر ما خدمت السلطة الحفصية الناشئة، وسمحت لها بالتحكم في علاقاتها مع جنوة، فإنها حدّت من الامتيازات الجنوية بالدولة الحفصية، وذلك على عكس ما حققته جنوة بالمغرب الأقصى، ولاسيما بعد حملتها على سبتة، فما هي الخطوات التي قامت بها جنوة في الصنف الثاني من ق13م/ 7هـ لتأكيد حضورها ببلاد المغرب؟

الفصل الثاني:

في النصف الثاني من القرن 13/ 7: تأكيد التفوق الجنوي

1-معاهدة 1250 ووضعية الثقل التجاري الجنوي ببلاد المغرب

فشلت جنوة في تجديد معاهدة 1236 مع تونس مباشرة بعد انتهاء مدة صلاحيتها، وانتظرت يوم 18 أكتوبر 1250 لتجددها مع الخليفة المستنصر[1]. وعلى وجه العموم، فإن هذه المعاهدة لم تختلف في نصوصها عن المعاهدات السابقة. فقد دامت صلاحيتها مدة عشر سنين، وألزمت جنوة بنفس الواجبات السابقة كضرورة ملاحقة القراصنة الذين يهددون تونس الحفصية، ولو كانوا جنويين، وحصرت أنشطتهم التجارية بمراسي حفصية معينة[2]. ويمكن القول بأن المعطى الجديد الذي نصت عليه معاهدة 1250، يكمن في أنها سمحت لأول مرة للجنويين بالتوافر على قنصل لهم بعاصمة الدولة الحفصية[3].

واجتنابا للتكرار- لأن نصوص المعاهدة درست من طرف عدة باحثين منذ أن نشرها "دو ماص لاتري"، كما أنها استحضرت في الغالب نصوص معاهدة 1236 التي شكلت مرجعا لباقي المعاهدات التي وقعتها جنوة مع إفريقية الحفصية – فإننا لا نقف عند بنودها، و نكتفي بطرح السؤال التالي: هل غير التوقيع على معاهدة 1250 من موقع الاهتمامات التجارية للجنويين ببلاد المغرب، وهل شكلت مرحلة ما بعد 1250 امتدادا للمرحلة التي تلت معركة العقاب، حيث انتقل ثقل التجارة الجنوية من المغرب الأقصى إلى افريقية، كما اعتقد "بوتييه" في إحدى دراساته ؟[4]

---

[1]- ورد عند برنشفيك أن المعاهدة وقعت سنة 1251، ج1، ص73.

[2]-Latrie. Traités. p : 235 et suivantes.

[3]-Schaube. p353.

[4]-Bautier R. les relations commerciales entre l'Europe et l'Afrique du Nord et l'équilibre méditerraneen du 12 au 14 siecle. dans Bulletin philoglogique et historique du Comité des travaux scientifiques et historiques. 1953 et 1954. Paris 1955. p411-413.

لقد ذهب إلى أن الجنويين أجبروا على نقل ثقل تجارتهم من المغرب الأقصى إلى تونس وبجاية بفعل غياب الأمن الذي رافق سقوط الدولة الموحدية بالمغرب الأقصى. وتبنى الطرح نفسه عدة باحثين مثل"ديفورك" و"بونو" و"بالار"[1]، وأما "جيهل" فيرى أن سبتة لم تغب عن اهتمامات التجار الجنويين بعد 1250، ويتساءل لماذا لم يكن نقص الأمن معرقلا لنشاط البيزيين بها؟[2]

أثبتت دراسات مغربية حديثة عن سبتة أن الأوربيين لم ينفروا من التعامل التجاري معها بعد 1250 بحجة غياب الأمن، وخاصة المارسليين منهم، والذين نظمت قوانين مدينتهم تجارتها مع المدينة المغربية في سنة 1255[3]. وإذا ما حصل تراجع في التجارة الجنوية مع سبتة بعد 1250، فيبدو أنه لا يرتبط بغياب الأمن، بل له علاقة بالتغيرات التي أصابت محاور التجارة القافلية[4]. غير أن هذا التفسير المستند على العنصر النقدي، وإن كان يصمد أمام تفسير "بوتييه "، فإنه يبقى مرتبطا بوضع ظرفي أكثر منه بنيويا.

ونعتقد – مرة أخرى– أن الأمر لا يعدو أن يكون توسيعا لأفق التجارة الجنوية باتجاه إفريقية، خاصة وأن الجنويين كانوا مجبرين على مواجهة منافسيهم من الإيطاليين والكطلانيين. وتدفعنا عدة قرائن إلى القول بأن المغرب الأقصى – ومن ضمنه سبتة– لم يغب عن اهتمامات التجار الجنويين ما بعد سنة 1250. ومن هذه القرائن ما يلي:

– تتضمن عقود الموثقين عدة إشارات لأنشطة الجنويين التجارية بسبتة في النصف الثاني من القرن 13/ 7. ففي سنة 1250 حقق بعض الجنويين أرباحا مهمة

[1]- ديفورك في دراسته 722-721: Aperçu :. pp
- Bono(s) Relazioni commerciali fra i paesi del Maghrebe l'Italia nel medio evo, in quaderni de l'Istituto italiano di cultura di tripoli, n°4, 1967, p12.
- Balard, Notes… p : 372.
[2] -Jehel, Les Génois, p : 372.

[3]-انظر أطروحة فرحات .Ferhat, Sapta.op.cit
-الشريف محمد، سبتة الإسلامية، تطوان 1995، ص:82.

[4]- يقدم "جيهل" للاستدلال على رأيه وضعية المغرب المريني على عهد أبي الحسن لما انحرفت الطرق التجارية المؤدية إلى مصادر الذهب من سجلماسة نحو ورغلة وبجاية، بينما كثرت هداياه الذهبية إلى مصر المملوكية سنة 1337: Jehel , Les Génois p333. غير أنه إذا كانت كل القرائن توحي بوجود أزمة تجارة قوافلية بالمغرب آنذاك بسبب انحراف طرقها نحو الشرق، فالظاهر أن تقديم هدايا ذهبية كثيرة من جانب المرينيين إلى المماليك، ليس كافيا للقول بوفرة الذهب بالمغرب آنذاك، إذ لا يجب تجريد أي فعل من شروطه التاريخية العامة التي أفرزته.
في هذا الصدد نعتقد أن الاكثار من الهدايا المقدمة إلى المماليك وغيرهم على عهد أبي الحسن، كان بغرض الاستهلاك الخارجي الذي يمكن المرينيين من المشروعية الدينية والسياسية. ولا ننسى أن تزييف العملة بسبب نقص الذهب، استشرى كثيرا على عهد أبي الحسن، كما أنه في نفس العهد ألف الحكيم كتابه اللوحة المتشبكة الذي يتمحور حول أسباب الأزمة النقدية بالمغرب وطرق علاجها.

بعد عودتهم من رحلة تجارية إلى سبتة[1]. وفي سنة 1253 قامت سفينة"La Stella" لصاحبها "Giovanni Dentuto" برحلة مماثلة إلى سبتة[2]. وفي سنة 1254 توجهت إليها السفينة المسماة "Sant Ambrogio" لصاحبيها "Oberti di Savignome" و"Nicoloso"[3]. وفي سنة 1262 توصل تاجر من سافونا الواقعة قرب جنوة بكشف حساب لعملية تجارية تمت بسبتة[4]. وفي 1269 توصل الجنوي "Simone di Levanto" بقراض يهم التجارة مع المدينة المغربية قيمته 351 ونصف دينار ذهبي[5]. وأورد "فريطو" عقدا مؤرخا ب8 ماي 1278 يتعلق بالنشاط التجاري لثلاثة جنويين بها، وهم "Raimondo Sozoper" و""Giacomo Foldrata "وLarfranco Lona"[6]. كما قام بعض الجنويين برحلة تجارية إليها سنة 1286[7]. ومن خلال العقود التي اعتمدها "جيهل" عن الفترة المتراوحة ما بين 1250 و1290، استخلص أن سبتة آنذاك استقطبت من 26 إلى 27٪ من مجموع الاستثمارات التجارية الجنوية ببلاد المغرب[8].

– صادف النصف الثاني من القرن 13/ 7 فترة توسيع الجنويين لأفق تجارتهم بالمغرب الأقصى. فمن المعلوم أن أسرة "Fieschi" "استثمرت أموالا لها في سنة 1253 للتجارة مع أسفي، وقد بلغت قيمة قراض العملية 200 ليرة جنوية[9]. كما أنه في سنة 1291، تتحدث الحوليات الجنوية عن تجاوز الأخوين "فيفالدي" Vivaldi لما وراء السواحل الجنوبية لأسفي.

ولا نعتقد أن اهتمام الجنويين بالسواحل الأطلسية الجنوبية للمغرب الأقصى، قد تم في غياب تكثيف علمياتهم التجارية بالمنطقة، ولا سيما بسبتة.

– لا شك في أن سبتة حققت استقرارها السياسي منذ سنة 647هـ، لما وصلت الأسرة العزفية إلى حكمها[10] بعد فترة اضطرابات ناتجة عن الصراع بين اليانشتي والموحدين، وذلك بعد خضوع المدينة – ولو مؤقتا– للسيطرة الحفصية. ويبدو أن

[1] - Byrne, Genoese, pp :42-43
[2] - Lopez, L'attivita economica di Genova nel marzo 1253, secondo gli atti notarili del tempo, Gênes, 1935.
[3] - Canale, Nuova, T2, pp : 349-350.
[4] - Jehel, Les Génois, p : 333.
[5] - Ibid.
[6] - Ferretto, Codice, T2, p247.
[7] - Jehel, p333.
[8] - Ibid.
[9] - Lopez, L'attivita, op cit, p: 214.
[10]- عن وضعية سبتة تحت السيطرة الحفصية وتحت حكم الأسرة العزفية، راجع ابن عذاري، ص ص:397-398.

الجنويين قد أطمأنوا للتعامل مع سبتة، خاصة بعد سفارتهم إليها في 6 شتنبر 1262، لما أكد السفير الجنوي على ضرورة احترام الروابط السابقة بين الطرفين[1]. وليس من المستبعد أن الجو الأمني الذي ساد سبتة في العهد العزفي، قد ساعد كذلك المارسليين والكطلانيين الذين وقعوا معها معاهدة في سنة 1269، من أجل التوافد على الميناء المغربي.

– يبدو أنه منذ انهزام البيزيين أمام الجنويين في معركة "ملوريا" Meloria سنة 1284، ضعفت المنافسة التجارية للبيزيين لغرمائهم من الجنويين بالأسواق المتوسطية، وكان على الجنويين مواجهة منافسة واحدة بسبتة مصدرها التجار الكطلانيون، الشيء الذي رفع من إمكانيات تعامل الجنويين مع هذا الميناء في غياب المنافسة البيزية.

يبقى أن نشير إلى أن الرأي القائل بانتقال ثقل التجارة الجنوية من المغرب الأقصى نحو إفريقية بسبب تحول طرق التجارة القوافلية، يحتاج – كما أسلفنا الذكر في محور سابق– إلى مادة إحصائية عن تجارة الذهب، وهو أمر ما زال غائبا لحد الآن نظرا لنقص الإشارات عن هذه التجارة التي كانت تمارس في جو من الكتمان والسرية. ورغم كل ذلك، يظهر أن المغرب الأقصى في النصف الثاني من القرن 13/ 7، لم يفقد مراقبته لطرق التجارة القافلية الغربية، حسب ما يستنتج من عدة قرائن[2].

لقد ظل الحضور التجاري للجنويين في القرن 13م/ 7هـ مركزا على ثلاثة مراسي، وهي سبتة وبجاية وتونس، والتي استقطبت 98٪ من عملياتهم التجارية ببلاد المغرب، بينما لم تذكر وهران سوى مرتين بالعقود الجنوية لبداية هذا القرن[3]. ويمكن القول – على وجه العموم – بأن بلاد المغرب، أصبحت من المناطق المفضلة لدى تجار جنوة في منتصف القرن 13م/ 7هـ، ويتجلى ذلك من خلال مجموع الاستثمارات التي

[1] -Lsciandrelli, Trattati, op cit, pp : 76-77.

[2]- تؤكد المصادر المرينية أن المرينيين سيطروا على مجال سجلماسة منذ عهد أبي بكر سنة 1257/655 حيث "تامنت البلاد وانقمع أهل الفساد وكثرت العمارات "القرطاس ص296 والذخيرة السنية ص83. وأثبت لافوا La voix وبنحيان مصمودي Benhain Mesmoudi (نقلا عن Rosenberger. Le contrôle..op cit, p :102) أن المرينيين ضربوا عدة نقود ذهبية في النصف الثاني من القرن 7/13. كما يتبين من خلال رحلة العبدري أن مصداقية النقد المريني الذهبي تجاوزت المغرب الأقصى. أنظر الرحلة المغربية، ص12.

[3]- Gourdin(P), Les Etats européens du nord de la Méditerranée occidentae et le Maghreb au 13 siècle : des relations entre égaux ou des rapports de dépendance, Mésogeios, n7, 2000, p120.

وظفوها في التجارة مع العالم الخارجي. ويمكن أن نستأنس في هذا السياق بما أورده الموثق "Angelino de Sigestro" عن سنة 1257، والتي ننقلها ضمن الجدول التالي[1]:

الوجهة	عدد العقود	المبلغ
ما وراء البحار	30	54 ليرة تقريبا
افريقيا الشمالية	25	أكثر من 67 ليرة
صقلية	19	أكثر من 53 ليرة
ميورقة والساحل الشرقي لاسبانيا	16	أكثر من 25 ليرة
فرنسا الغربية	16	19 ليرة تقريبا
غير محددة	10	35 ليرة
ساردينيا وكورسيكا	10	أكثر من 16 ليرة ونصف الليرة
نابولي	4	92 ليرة ونصف الليرة
لوكا	1	48 ليرة

لقد ذهب بعض الباحثين إلى أنه من مظاهر اهتمام الجنويين بالمغرب الأقصى ما بعد 1250، شنّهم لهجوم على سلا 1260، فهل تمّ هذا الهجوم فعلا ؟

2–هل هاجم الجنويون سلا في سنة 1260؟

تم طرح السؤال بشكل استفهامي بما يحتمله الجواب عنه من تأكيد أو نفي لهذا الحادث. وتتحدث عدة كتابات أوربية عن حدوث الهجوم فعلا. ويبدو أن هذه الكتابات تأخذ مرجعيتها مما أورده بعض مؤلفي تاريخ المغرب في القرن التاسع عشر، ونخص بالذكر "مرسيي" Mercier (E)، فقد ورد عنده ما يلي: "استنجد يعقوب بن عبد الحق بالمسيحيين من أجل السيطرة على سلا، وبدون شك فإن الأمر يتعلق بالجنويين أو البيزيين الذين كانت تربطهم علاقات تجارية مع مرسى سلا"[2]. كما احتمل "اماري" أن يكون الجنويون وراء الهجوم الذي تعرضت له سلا عام 1260[3].

[1]- Balletto.Tra Genovesi.pp 164-165.

[2] -Mercier (E) Histoire de l'Afrique septentrionale, . Paris, 1891, T2, p :177.
والواقع أن الأمر يتعلق بيعقوب بن عبد الله ابن أخ السلطان أبي يوسف يعقوب وليس بيعقوب بن عبد الحق.

[3] -Amari (M), Ricordi arabi.. p578-579.

ويذهب "لوبيز" إلى أبعد من ذلك لما قارن بين هجوم الجنويين على سبتة عام 1234ـ 1235 والهجوم على سلا. فإذا كان الهجوم الأول قد كلل بالنجاح "وانتقم الجنويون لكرامتهم". فإن هجوم 1260 على سلا حقق في بداية الأمر بعض النجاح، غير أن الجنويين أضاعوه لأنهم لربما كانوا منشغلين بمشاكل الشرق، وبعد أن أكد "لوبيز" على الطابع الدموي للهجوم الجنوي على سلا، خلص إلى أن هذا الحادث أثر في العلاقات الودية السائدة بين الجنويين وهذه المدينة[1]. وشدّد على أن هجوم الجنويين على سلا سنة 1260. سمح لهم بالسيطرة عليها لبضعة أيام[2].

الواقع أن الهجوم الذي تعرضت له سلا خلال هذه السنة كان من لدن القشتاليين، وليس من الجنويين. ولا تتحدث الحوليات الجنوية البتة عن مثل هذا الهجوم، وهي التي حرصت على تسجيل كل كبيرة وصغيرة تهم الانتصارات الجنوية. ولربما ذهبت الكتابات الأوروبية التي قالت بحدوث هجوم جنوي على سلا في 1260 إلى ذلك، من خلال تأويل غير صحيح للفظة الروم أو المسيحيين، والتي كثيرا ما ترد دون تخصيص بالمصادر العربية. غير أن رواية ابن عذاري عن الهجوم الذي عانت منه سلا في هذه السنة واضحة، رغم أنه يتحدث فيها عن الروم، تقول الرواية: "...وكتب إلى ملك قشتالة أن يبعث له بمثين من الروم، يركبون ويسيرون معه ويستعين بهم في يوم... ولما وصل إلى ملك قشتالة .... كتب يعقوب بن عبد الله، أدركه الطمع في دخول كفرته إليها واستيلائهم عليها"[3].

وبعد حصار الرباطيين للمدينة عدة أيام، غادرها القشتاليون محملين بعدد كبير من أسرى سلا[4]. لقد تبين بأن الجنويين لم يهاجموا سلا في 1260. لكنهم بعد عشر سنوات من ذلك، ساهموا في أكبر حملة صليبية استهدفت بلاد المغرب بقيادة ملك فرنسا لويس التاسع أو "لويس القديس" كما يسميه مؤرخه "جوانفيل".

---

[1] Lopez: Storia delle Colonie, p.188

[2] Lopez: Storia delle Colonie, p.188

[3] ابن عذاري، ص [illegible] [illegible] سلا [illegible] 658 [illegible] 659 [illegible]
Kably, p.[illegible]

[4] [illegible]، ص 422

3-الحملة الصليبية الثامنة على تونس ومساهمة الجنويين فيها سنة 1270/ 669:

كتب عن الحملة الصليبية التي قادها ملك فرنسا لويس التاسع على تونس الحفصية الشيء الكثير[1]. لهذا لن نقف طويلا عندها، بما هي حملة مسيحية قادها ملك فرنسا، بقدر ما يهمنا – انسجاما مع الموضوع- أن نقف عند المساهمة الجنوية فيها. فلماذا ساهم الجنويون في هذه الحملة، وما هي طبيعة مساهمتهم، وإلى أي حد أثر ذلك في الحضور الجنوي بالدولة الحفصية؟

أ-لماذا ساهم الجنويون في الحملة الصليبية الثامنة على تونس سنة1270؟

لم يخف "لوبيز" استغرابه لموقف الجنويين لما ساهموا في الحملة الصليبية الثامنة على تونس، حيث كانوا قد حصلوا على امتيازات تجارية منذ أكثر من قرن قبل سنة 1270[2]. وذهب "بستزينو" إلى أن جنوة لم تكن على علم بأن هدف الحملة الصليبية سيتحول من سوريا إلى تونس، ولما علم الجنويون بذلك أثناء السفر، لم يخفوا تحسرهم واعتبروا الحملة على تونس عملية غير مجدية[3]. وحاولت الحوليات الجنوية قبل ذلك أن تبرئ ساحة الجنويين من المسؤولية المباشرة عن هذه الحملة[4].

تفيد مختلف العقود التي حررها الموثقون الجنويون قبيل الحملة الصليبية على تونس 1270 بأن مسار التجار الجنويين اتخذ وجهة سوريا، وليس وجهة تونس. ويعتقد البعض بأن الملك الفرنسي كان قد اتخذ قرار الهجوم على تونس منذ البداية، غير أنه لم يفصح عن مشروعه إلا بعد أن وصلت الجيوش إلى كالياري بسردينيا. فهل "تورط" الجنويون فعلا في عملية لم يقدروا عواقبها، خاصة وأنه كانت لهم مصالح

---

[1] [illegible]

[illegible] J. [illegible] de Saint Louis [illegible]

[illegible]

[2] [illegible]

[3] [illegible]

[4] [illegible]

تجارية بتونس؟[1] ثم لماذا لم يساهم الأراغونيون في نفس الحملة، علما بأنهم كانت تجمعهم بدورهم مصالح تجارية بتونس الحفصية؟ هل كان الجنويون يجهلون فعلا بأن وجهة الحملة الصليبية ستكون تونس وليس سوريا، خاصة وأن جنوة وفرنسا كانتا تجمعهما معاهدات تحالف؟ وأخيرا لماذا كان الجنويون أول المهاجمين على قصر قرطاج، قبل أن تلحق بهم جيوش لويس التاسع؟ بل إن "لوبيز" يعتبر أن الانتصار الوحيد الذي حققته الجيوش المسيحية في حملتها تلك، تمّ على أكتاف الجنويين[2].

نطرح هذه الأسئلة "غير البرينة" – خاصة وأن كل فعل غير بريء في التاريخ- في غياب إشارات مباشرة عن أسباب مساهمة الجنويين في حملة لويس التاسع على تونس سواء بالمصادر الأوروبية، أم بالمصادر العربية، علما بأنها غائبة ببعض الدراسات التي أرّخت لهذا الحدث[3].

يبدو أنه لرصد بعض المرامي لمساهمة الجنويين في تلك الحملة، لابد من استحضار بعض المعطيات التي ميزت العلاقات الجنوية الحفصية سابقا. فقد لاحظنا أن جنوة فشلت بتونس في تحقيق ما نجحت فيه بالمغرب الأقصى عقب حملتها البحرية على سبتة 1234–1235، ورغم أنها وقعت معاهدتين مع تونس الحفصية، فإنها لم تحظ بنفس الامتيازات التي حظي بها البيزيون والبنادقة. فأبو زكرياء وقع معاهدة 1236 – ربما على مضض- ولم يجددها بعد انتهاء العمل بها، والمستنصر وقع معاهدة 1250، دون أن يمنح الجنويين امتيازات كثيرة، أو يمس بروح معاهدة 1236. لهذا نتساءل عما إذا لم تكن مساهمة الجنويين في حملة لويس التاسع ملك فرنسا على تونس، ردّا منهم لتحقيق ما عجزوا عن تحقيقه بالوسائل السلمية، مع الإشارة إلى أن الجنويين لم يتوانوا عن الدخول في أي عملية عسكرية تضمن لهم مصالحهم التجارية؟

وكيفما كان الحال، فإن السبب المباشر الذي دعا ملك فرنسا إلى حملته تلك على تونس، لم يكن كافيا لحمل الجنويين على المساهمة فيها، بالنظر إلى أهمية مصالحهم

1. تتحدث الوثائق عن وجود مصالح مشتركة بين الجنويين والتونسيين في فترة الهجوم على تونس، فمثلا استولى الجنوي "بلترام" Beltrame على سفينة لأحد التونسيين يدعى "Masclats" ؟ أثناء الهجوم الجنوي على تونس، وعلى نفس السفينة وجدت سلع للتاجر الجنوي Domenico Rosso "دمنكو روسو". أنظر

Ferretto, Codice, T1, p :224.

2. Lopez, Storia delle Colonie, p : 224

3. أحسن نموذج عن ذلك دراسة "جبل" Jebel، les Génois..، علما بأن بعض المصادر العربية [illegible] مثل تاريخ ابن خلدون، ونعتقد أن ما ذكره ابن أبي دينار عن استهزاء المستنصر بلويس التاسع [illegible] الحملة إلى تونس، يحتاج إلى أن يحقق، خاصة وأنه المصدر الوحيد – فيما نعلم- الذي ذكر هذا الأمر. أنظر ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ص129.

التجارية بها[1]. ورغم أن فرنسا قد تعودت على الاقتراض من العائلات الجنوية الكبيرة للقيام بحملاتها الصليبية[2]، فإن مبادرة جنوة بتمويل جزء مهم من الحملة على تونس، تنطوي على كثير من المفارقة، لأن مصالح الجنويين التجارية بتونس، ونصوص معاهدتي 1236 و1250، لم تكن توحي بأن يهاجم الجنويون تونس، ولربما هذا ما جعل السلطان الحفصي يعطي أوامره بعدم تعريض التجار الجنويين الموجودين ببلاده للأذى، لأنه كان يعتقد بأن الهجوم على تونس كان من تدبير أطراف أخرى، ولم يكن من تدبير الجنويين[3].

ب-طبيعة المساهمة الجنوية:

انطلقت الحملة الصليبية الثامنة في يوليوز 1270 / آخر ذي القعدة 668هـ. وتوقفت الجيوش الصليبية بكغلياري بساردينيا، قبل أن تواصل طريقها نحو تونس. وقد شارك في هذه الحملة ستة آلاف فارس وثلاثون ألف من الرجالة، وأسطول مكون من ثلاثمائة مائة مركب بين كبار وصغار[4]. ويهمنا في هذا السياق أن نقف عند طبيعة المساهمة الجنوية. فقد ساهم في الحملة 10 ألف راجل و55 سفينة[5]. وعين لويس التاسع القائد " لركري" Ugo Lercari على رأس إحدى الفرق العسكرية. ونذكر بأن هذا القائد كان قد ترأس فرقة من الفرق البحرية التي هاجمت سبتة. في إطار الحملة

1. [illegible] 1250 [illegible] 300 [illegible]

Documents relatifs à la croisade de Saint Louis contre Tunis, in C.T XXV N°99-100, 1977, pp. 245-262

و 300 [illegible] ص291.

2. Lopez, Storia delle colonie, p 221

3. A.G. T7 p64

4. [illegible]

A.G. T1, p63

5. [illegible]

Manfroni C., Storia della marina Italiana, Livorno 1902, T1, p47

[illegible]

Caffaro, Nuova T2, p188

الجنوية سنة 1234-1235. فالأمر يتعلق -مرة أخرى- بأحد المتخصصين في الحروب ببلاد المغرب.

وكان الجنويون أول من هاجم قرطاج في 10 يوليوز 1270، وتمكنوا من السيطرة عليها قبل أن تلحق بهم جيوش لويس التاسع. ويمكن اعتبار هذه العملية الانتصار الوحيد الذي حققته الجيوش المسيحية بتونس قبل انسحابها منها[1]، وذلك عقب احتلال دام ثلاثة أشهر ونصف[2]. وقد وقع الصلح بين الطرفين في ربيع الأول 669/ 1271، وغادرت الجيوش الصليبية تونس في 7 فبراير 1271، بعد أن التزم السلطان الحفصي بدفع 10 ألف قنطار من الفضة إلى المسيحيين[3]، و بتقديم ما عليه من ديون لفائدة جنوة[4]. ولدينا النسخة العربية للمعاهدة التي أبرمت بين السلطان الحفصي وشارل دانجو(شارل دي أنجو) أخ الملك لويس التاسع، وقد دققت في البنود ، بما فيها الغرامات الواجب على السلطان الحفصي تقديمها للمسيحيين، ومبلغها " مائتا ألف أوقية ذهبا وعشر آلاف أوقية، كل أوقية منها يقبض عنها من الفضة ما قدره خمسون درهما من دراهمهم في الوزن... يعجل لهم منها نصف العدد محضرا ، والنصف الثاني مقسط بين عامين من تاريخه، نصف المقسط يقبض آخر كل عام من العامين المذكورين...."[5]

[1] -Lopez, Storia delle colonie, p224.

[2]- فكر الصليبيون في الانسحاب من تونس عقب وفاة لويس التاسع بها في 25 غشت 1270، وتختلف المصادر حول سبب وفاته، هل قتل بسهم في المعركة أم بسيف مسموم بعثه إليه السلطان الحفصي، أم بالوباء؟ أنظر ابن خلدون، ج6، ص293. ويرى "لاتري" أن فشل الحملة الصليبية على تونس يعود إلى عقاب إلهي للمسيحيين الذين حولوا اتجاه الحملة، والتي كان يجب أن توجه مباشرة إلى الأراضي المقدسة Latrie, Traités, p246 . وكيفما كان الأمر، فلا يجب أن نغفل عامل الصراع الذي كان بين شارل بن لويس التاسع – وليس دمياط كما ورد عند ابن خلدون- وشقيقه" شارل الأنجوي " Charles d'Anjou ملك صقلية. كما يجب أن نستحضر عامل المواجهة التي أبدتها الجيوش الحفصية المستنجدة بجيوش بلاد المغرب.
وتجدر الإشارة إلى أن القبلي ذهب إلى أن حكام فاس وتلمسان سارعوا إلى التخلص من التزاماتهم تجاه السلطان الحفصي رغم تبعيتهم له أثناء الحملة الصليبية على تونس (Kably, Société, p70) ، بينما يفهم من كلام ابن خلدون أن سلاطين المنطقة ساعدوا الحفصيين "حتى أمده ملوك المغرب من زناتة" ص293، وبعد انسحاب الجيوش الصليبية من تونس "خاطب السلطان صاحب المغرب وملوك النواحي بالخبر " ص294.

[3] ابن قنفذ، الفارسية ص ص 131-132.

[4]- A.G, T7, p69.

[5]- Talbi(M), Documents divers relatifs à la croisade de Saint Louis contre Tunis(1270), CT. T25, 3 et 4 Trimestre, N 99-100, 1977.

ج-آثار المساهمة الجنوية في العلاقات الجنوية الحفصية:

يذهب الباحثون المحدثون مذهبين في تقويم المضاعفات التي جنيت الجنويين بإفريقية، عقب مساهمتهم في الحملة الصليبية الثامنة على تونس.

يستند أصحاب الرأي الأول القائل بحصول شرخ في تلك العلاقات عقب الحملة على ما ورد بالحوليات الجنوية، إذ بعد عشر سنوات على مرورها، قليل هم المسيحيون الذين أصبحوا يتاجرون مع منطقة جيجل وبجاية باستثناء البيزيين[1]، ومن الآخذين بهذا الرأي "لوبيز" الذي رأى أن المساهمة الجنوية في الحملة الصليبية خلقت جوا من الضغينة بين تونس وجنوة. وقد قوبل الجنويون في إفريقية بحقد كبير حيث أصبح ينظر إليهم، وكأنهم المسؤولون عن تلك الحملة[2]، ورغم أن الجنويين حافظوا بعد الحملة على فندقهم بتونس، وألزموا السلطان الحفصي بضرورة تقديمهم تعويضات عن الخسائر التي لحقتهم بفعل القراصنة البيزيين، فإنه على بعد بضع كلمترات من تونس، عانى الجنويون من المضايقات، وأما البيزيون فكانوا يمارسون تجارتهم بها بكل طمأنينة[3]. وإلى الرأي نفسه ذهبت "مسكرللو" التي اعتبرت الحملة الصليبية على تونس 1270، أكثر الحملات التي أثرت في الحضور التجاري للأوربيين ببلاد المغرب، وخاصة بالنسبة للجنويين الذين ساهموا فيها بالجنود وبالسفن[4]. ويرى "فالريان" أن الحملة الفرنسية أدت إلى أزمة أثرت في حضور الأوربيين بمراسي الدولة الحفصية، واستدعت من جنوة أن تبعث برجلي دين إلى بجاية، حسب عقد مؤرخ ب 12/ 2/ 1271، هما" Nicolo " و"Giacomino".[5]

أما الرأي الثاني فيقول بحدوث تأثير ثانوي في حضور الجنويين التجاري بإفريقية بعد مساهمتهم في تلك الحملة، ومن القائلين بهذا الرأي "بالبي" التي ذهبت إلى أن الحملة أخلّت لمدة قصيرة بالعلاقات الجنوية الحفصية[6]. ورغم أن "جيهل" يصف مساهمة الجنويين في الحملة الفرنسية على تونس بالموقف "المتهور" بحكم أهمية مصالحهم التجارية بها، فإنه يقول بهامشية التأثير الذي خلقته تلك المساهمة، واستدل على ذلك بوجود عدة عقود حررها الموثقون الجنويون تهم التجارة مع تونس عقب

[1]- Ibid.

[2]- Lopez, Studi...p15.

[3]- Lopez, Storia delle colonie, p225.

[4]- Mascarello, Quelques aspects, p68.

[5]- Valerian, Bougie, p 609.

[6]- Balbi (P), Il trattato, 298

بالحملة وبتوقيع جنوة معاهدة صلح وتجارة مع تونس في سنة 1272[1]. ومن المعلوم أن جنوة بعث "أدلاردو" Opizzon Adalardo سفيرا إلى السلطان الحفصي الذي وقع معه معاهدة 6 نوفمبر 1272، وقد استعادت تقريبا بنود معاهدتي 1250 و1236[2].

ويبدو أنه من الصعب نفي التأثيرات العميقة التي أحدثتها المساهمة الجنوية في الحملة على العلاقات الجنوية الحفصية، لأن الأمر يتعلق بحملة صليبية. ومن الصعب حدوث تجاوز سريع لأي موقف يترسخ بالذاكرة الجماعية. وفي غياب إشارات مباشرة عن موقف المجتمع الحفصي –وخاصة العامة منه– من الجنويين بعد مساهمتهم في تلك الحملة – لأن التاريخ السائد في الاسطغرافية المغربية بصفة عامة هو تاريخ النخبة الحاكمة– يمكننا القول بأن مبادرة السلطان المستنصر لحماية الجنويين وممتلكاتهم، لها ما يبررها، ولربما تفصح عن وجود موقف معادي اتخذه المجتمع من الجنويين[3]. ومن الجدير بالإشارة إلى أن مساهمة جنوة في تلك الحملة كانت لها انعكاسات سلبية على الوضعية الداخلية بها، إذ ساهمت في تحيد حزب "الجيلف" من الحكم لصالح حزب "جيلان" التي كانت تضم عائلات جنوية نبيلة، مثل عائلة "سبينولا" Spinola و"دوريا" D'oria[4].

وبما أن الحدث ومنى تقل فعله التاريخي يقرأ من خلال ذيوله، فإننا نعتقد بأن المساهمة الجنوية في الحملة أحدثت شرخا في العلاقات الجنوية المغربية، وذلك انطلاقا من العناصر التالية:

- نلاحظ أن معاهدة 6 نوفمبر 1272 لم تقدم امتيازات كثيرة للجنويين ولم تضف إلى النص القديم سوى حالتين من حالات الإعفاء من الأداءات الجمركية بإفريقية، وتتمثلان في ما نص عليه البندان الثامن والعاشر منه بخصوص إمكانية بيع السفن، ولو للمسلمين، وإمكانية بيع أي بضاعة أخرى تباع في المشترى[5]. ولربما أن

[1] Jehel, Les Gen[illegible] p65

[2] Canale, Nuova [illegible] p191

[3] [illegible]

[4] Manfroni, [illegible]

[5] [illegible] ج2، ص970

الامتياز الوحيد الذي خولته معاهدة 1272 للجنويين أنها سمحت لهم بالتوافر على فنادق –بصيغة الجمع– بإفريقية، عوض الفندق الوحيد الذي كان لهم بها[1].

- انسحب الصليبيون من تونس بعد قبول الخليفة المستنصر دفع تعويضات إليهم. وإذا ما أخذنا بقيمة التعويضات التي تذكرها المصادر العربية، وما جاء في شأنها بالمصادر الأوروبية، وخاصة أن بعضها يتحدث عن ضرورة دفعها مضاعفة للجنويين[2]، أدركنا أنها أرهقت خزينة الدولة الحفصية. والظاهر أنها عجزت عن تسديدها في أوانها، بدليل أن السفير الجنوي Giacomo D'oria "دوريا وليام" إلى السلطان الحفصي سنة 1287، ذكره بضرورة دفع ما عليه من ديون وتعويضات مترتبة عن حملة سنة 1270[3]. ونعتقد أن هذا الجو المشحون بضغط جنوة على تونس، لم يكن ليساعد في الغالب على إجراء مبادلات تجارية كثيفة بينهما.

- قليلة هي عقود الموثقين الجنويين التي تحدثت عن نشاط تجاري بإفريقية الحفصية بعد الحملة الصليبية الثامنة، أما الوثائق التي حاول "جيهل" أن يستدل من خلالها على استمرارية المبادلات التجارية بين جنوة وتونس بشكل عادي، فإنها لا ترتبط بمرحلة ما بعد الحملة، بل جرت في فترة حصار تونس. ذلك بأن معظم تلك العقود مؤرخ ب 3 يناير 1271. ونحن نعلم أن الجيوش الصليبية لم تنسحب من تونس إلا في يوم 7 فبراير 1271. ويبدو من خلال العقود التي نشرها "فريطو" أن الجنويين أصبحوا يفضلون بجاية عوض تونس ما بعد الحملة[4]. وقد تأكد توجه الجنويين نحو بجاية، خاصة بعد إعلان إمارة بجاية عن استقلالها عن السلطة الحفصية في 1284.

[1] Jehel, les Genois, p67

[2] [illegible] 1275 [illegible] Ferretto, Codice, T1, p315-349-394; T2 p42-116

[3] [illegible] Canale, Nuova, T2, pp 188-89

[3] Lechandrelli, op cit, p910

[4] [illegible]

- عقد 13 [illegible] 1276 Ferretto, Codice T2, p[illegible]
- عقد [illegible] 1276 Ferretto, Codice T2, p[illegible]
- عقد 26 [illegible] 1278 Ferretto, Codice T2, p24[illegible]
- عقد 27 [illegible] 12[illegible] Ferretto, Codice T2, p[illegible]
- عقد 27 و29 [illegible] 128[illegible] Ferretto, Codice T2, p[illegible]
- عقد 1 [illegible] 1286 Ferretto, Codice T2, p[illegible]

- لا يبدو ان الحر... ـرية ما بعد الحملة الصليبية الثامنة على تونس، شجعت الجنويين على تكثيف علاقاتهم التجارية مع إفريقية الحفصية آنذاك. فقد حاولت جنوة أن توسع من أفق تجارتها بالمغرب الأوسط حيث نجحت -لأول مرة- في توقيع اتفاق مع يغمراسن في 13 أبريل 1272[1]، الشيء الذي مكّن من تنويع الأسواق الجنوية ببلاد المغرب. كما أن اهتمام الجنويين بالسوق النصرية تزايد ما بعد الحملة الصليبية على تونس، وقد توجت جنوة حسن علاقاتها مع الدولة النصرية بتوقيع معاهدة 18أبريل 1279، والتي منحت التجار الجنويين عدة امتيازات.[2]

- كما أبدت جنوة خلال هذه المرحلة اهتماما متزايدا بالأسواق الشرقية، وخاصة أسواق البحر الأسود، وقد اثبت "بالار" هذه الوضعية من خلال مقارنة عدد العقود التي حررها الموثقون الجنويون عن التجارة مع إفريقية الحفصية، وعن التجارة مع أسواق البحر الأسود. فبينما حرر الموثق "باتفليو" 131 عقدا يهم التجارة مع تونس، وجلس أمامه لأجل هذا الغرض 327 شخصا عن الفترة المتراوحة ما بين دجنبر 1288 ويونيو 1289، أي خلال مدة ستة أشهر، نلاحظ أن الموثق "Gabrielle Di Predone دي بريدوني" حرر في سنة 1280 مجموعة من العقود تبلغ 330، وجلس أمامه 637 شخصا عن التجارة مع مركز "Pera" بالبحر الأسود، خلال ثلاثة أشهر ونصف، وأخيرا حرر الموثق "Lamberto De Sambuceto سمبوشتو" 430 عقدا عن التجارة مع مركز "Caffa" خلال أربعة أشهر من سنة 1289[3]. وقد استفادت من هذه الوضعية التي أصبحت عليها العلاقات الجنوية الحفصية أطراف أخرى مثل البيزيين. فقد غادروا إفريقية عند انطلاق الحملة الصليبية على تونس خوفا من غضب العامة. وبعد انسحاب الجيوش المسيحية عنها، عادوا إلى بجاية حيث كانوا منذ ربيع سنة 1271 وحدهم من بين المسيحيين الموجودين بها[4]. كما استفاد البنادقة من الوضعية ذاتها إذ وقعوا معاهدة

[1]-Ferretto, Codice. T1, p260.
[2]- Arié (R), l'Espagne musulmane au temps des Nassides, p361.
ومن بين هذه الامتيازات أنها فرضت على التجار الجنويين تقديم نسبة 6,5% على البضائع التي يصدرونها من مملكة غرناطة، وللمقارنة نذكر أن التجار الكطلانيين كانوا يدفعون بها 8%. ومن المعلوم أن مملكة غرناطة، كانت مزودة للجنويين بمواد حيوية في تجارتهم البعيدة، مثل الفواكه والسكر والحرير، أنظر للمزيد:
- Heers (J), Royaume de Grenade et marchands de Gènes, in société et économie à Gènes au 14 et 15 siècle, p119.
[3]-Balard, Notes…p379.
[4]-Ferretto, Codice. T1, p249.

سلم وتجارة مع المستنصر في نفس السنة التي انسحب فيها المسيحيون من تونس (1271)، وقد خوّلت لهم عدة امتيازات، وسمحت لهم بالتجارة مع إفريقية بكل اطمئنان[1]. وأخيرا استفاد منها الأراغونيون بصفة خاصة، فقد كانوا وحدهم من بين المسيحيين الذين لم يغادروا إفريقية عند انطلاق الحملة الصليبية الثامنة عليها واستغلوا موقفهم المحايد من هذا الحدث ليكرسوا حضورهم بالمنطقة[2].

لقد بادرت جنوة إلى إرسال"كرشيو"Nicolo Guercio سفيرا إلى تونس سنة 1280، غير أن المصادر لا تفصح عن أهداف هذه السفارة. ولا يسعنا سوى أن نتساءل عما إذا لم تكن لها علاقة بتراجع الحضور الجنوي بإفريقية، عقب مساهمة جنوة في الحملة الصليبية عليها؟ وبعد عدة محاولات ، بعث الجنويون "بينيولي" Lucheto Pignoli على رأس سفارة أخرى إلى تونس حيث استقبلوا على حد تعبير "دومرك" - "ببرودة"، رغم أنهم وقعوا معها معاهدة في 9 يونيو 1287[3]. ويمكن القول على وجه العموم بأن هذه المعاهدة، لم تحسن من الحضور التجاري للجنويين بإفريقية، فقد أصبح وكلاء الجمارك بها يستخلصون الضرائب على السلع التي ينقلها الجنويون إليها عينا، كما أصبح مجموع الضرائب يستخلص من القيمة المقدرة للسلعة، وليس على المداخيل الحقيقية لبيعها[4]، وهذا الإجراء أضرّ بدون شك بمصالح التجار الجنويين بتونس[5].

4-سفارة جنوية إلى الدولة العبدوادية في سنة 1272:

أبدت الدولة العبدوادية اهتماما خاصا بالتجارة مع مملكة أراغون، بدليل أن المعاهدتين الوحيدتين المعروفتين اللتين أبرمتها تلمسان، تمّتا مع مملكة أراغون سنتي

ولعل مما يؤشر على تزايد أهمية الحضور البيزي بإفريقية على حساب الجنويين، أن بعض البيزيين استخدموا من لدن السلطة الحفصية في مهمات دبلوماسية. فقد بعث الواثق في سنة 1278 البيزي "Alberto Roncha" للتفاوض مع ملك أراغون "بيير" Pierre IIII، وليجدد معه معاهدة 1271. وبعد أن قام نفس الملك الأراغوني بحملة على "Collo" سنة 1282، وفرّ سكانها نحو الجبال، توسط تاجر بيزي بينه والسلطة الحفصية لتقديم ضريبة له، مقابل انسحابه من المدينة، أنظر.Dufourcq, l'Espagne, op cit. p241 et p257
[1] -Doumerc, Venise, op cit, p37.
[2]- مما يدل على ذلك أنه في هذه الفترة، طالب الملك الأراغوني السلطة الحفصية بأن يدخل كل المستقرين بتونس – بما فيهم الجنويون- تحت سلطة القنصل الأراغوني بها. أنظر: Dufourcq, l'Espagne, p122 et. p382
[3]- حول هذه المعاهدة أنظر برنشفيك ج1، ص123.
-Caro, T2, p82.
[4]- Latrie, Traités, p 299.
[5]- Doumerc, p 42.

1285 و1362. غير أنه بعد الآثار السلبية التي خلفتها المساهمة الجنوية في الحملة الصليبية الثامنة على الحضور التجاري الجنوي بإفريقية، ونظرا لتزايد المنافسة الأراغونية، يبدو أن الجنويين أصبحوا مجبرين على تنويع أسواقهم ببلاد المغرب.

لقد عرفت جنوة ظرفية صعبة سنة 1272 بفعل حاجياتها المتزايدة إلى الحبوب، لهذا أرسلت "دوريا" Lamba D'oria و"سكوارشيفكو" Enrico Squarcifico مبعوثين إلى يغمراسن "Gamarasen" سلطان تلمسان "Tremsen" في 13 أبريل 1272 ليوقعا معه معاهدة سلم وتجارة، وللحصول على 8000 "مين" من الحبوب[1].

لا نعلم النتائج التي أسفرت عنها السفارة لأن الوثيقة التي أشارت إليها تكتفي بالإعلان عن توجهها من جنوة إلى تلمسان[2]. ونسجل أن هذا الحدث يمثل أول مظهر من مظاهر التعامل السياسي والدبلوماسي بين الدولة العبدوانية وجنوة، وإذا ما تمت المعاهدة، فإنها تشكل أول معاهدة – فيما نعلم – وقعتها الدولة العبدوادية مع الدول الأوربية[3]، كما تؤشر على رغبة مبكرة لتأكيد شخصيتها ببلاد المغرب، في فترة اشتد فيها الصراع بين العبداويين والمرينيين الذين حاولوا جاهدين السيطرة على العاصمة تلمسان.

5-أول سفارة جنوية إلى المغرب المريني 691/ 1291:

انتهينا في محور سابق إلى أن الحملة الجنوية على سبتة 1234 كرست من أهمية الحضور الجنوي بالمغرب الأقصى، وأن الجنويين استمروا في التعامل مع هذه المنطقة، بالرغم من أنهم أبدوا اهتماما أكبر بعد سنة 1250 بسوق إفريقية. ومن المظاهر التي تدل على رغبة الجنويين في الإبقاء على علاقات مستمرة ومقننة مع المغرب الأقصى، أنها بعثت سفارة إلى سبتة في 6 شتنبر 1262 يقودها "شبو" Guglielmo Cibo[4]. ولا شك

[1]- زنة من موازين الحبوب والملح، وتتراوح ما بين 105 رطلا و82 كلغ، أنظر:
Schaube, op cit, p977.
[2]- Ferretto, Codice, T1, p260
[3]-لا تشير دراسات" دهينا" المتخصصة في تاريخ الدولة العبداودية إلى هذه المعاهدة، أنظر
Dhina (A), Les Etats de l'occident Musulman, op cit.
كما أن المعاهدة غائبة بباقي دراساته عنها، مثل رسالته عن الدولة العبداودية في عهد أبي حمو.
[4]- Lisciandrelli, Trattati, pp :76-77.
وليس سنة 1263، كما جاء عند" ديفورك". Dufourcq, Aperçu, p 727 -

في أن هذه السفارة قد بعثت إلى العزفيين حكام سبتة، في فترة كانت الدولة الموحدية تعيش أواخر سنواتها، وكان المرينيون يستعدون للسيطرة على عاصمتها مراكش. غير أن "جيهل" يرى أن الحضور الجنوي بسبتة والمغرب الأقصى عموما، تراجع بعد سنة 1275 نظرا لتزايد الاهتمام المريني بالمضيق وبشؤون الأندلس، وذلك بعد أن أنهى المرينيون صراعاتهم مع الموحدين التي تمحورت حول المناطق الجنوبية من المغرب الأقصى[1].

ويبدو أن هذا الحكم يحتاج إلى مراجعة نظرا لعدة اعتبارات سبق تقديم بعضها في محور سابق، ونضيف إليها هنا بعض الاعتبارات الأخرى. فالواقع أن التجارة الجنوية بصفة عامة شهدت نوعا من التراجع خلال الربع الأخير من القرن 13/ 7هـ، نظرا لاحتداد الصراعات الداخلية بجنوة. وقد لاحظ "بالار" أن الجنويين لم يتمكنوا من العودة إلى تعزيز سيطرتهم على أسواق البحر الأسود، إلا بعد تصفية جنوة لمشاكلها الداخلية أواخر نفس القرن[2]. كما أن منافسة الكطلانيين للجنويين على التجارة المغربية، ازدادت في الفترة ذاتها. أما بالنسبة للعامل الذي ذكره "جيهل" والمرتبط بتزايد الاهتمامات المرينية بالمضيق وبالأندلس، فالظاهر أن ضعف الأسطول المريني قد حال دون تشكيل المرينيين لأخطار كبيرة على الحضور التجاري للجنويين بالمنطقة، ولعل استنجاد المرينيين أثناء جوازاتهم إلى الأندلس بالأسطول العزفي، وطلبهم غير ما مرة المساعدة البحرية من أراغون لضم سبتة، يؤكد أن الأسطول المريني لم يكن ليهدد الأسطول الجنوي بالمضيق، فجنوة آنذاك، كانت تمتلك بدون منازع أقوى أسطول بالحوض الغربي للمتوسط.

ولعل من أهم المظاهر التي تبرز رغبة جنوة في تعزيز علاقاتها بالمغرب الأقصى مع نهاية القرن 7/ 13، إرسالها لسفارة إلى السلطان المريني سنة 691هـ1292م، جاء عند ابن أبي زرع ما يلي: "قدم على أمير المسلمين –أبو يوسف يعقوب– وهو بتازوطة رومي جنوي من صاحب جنوة بهدية جليلة، فيها شجرة مموهة بالذهب عليها أطيار تصوت بحركات هندسية مثل التي صنعت للمتوكل العباسي"[3].

[1]- Jehel, Les Génois, p 434.
[2]- Balard (M), Gênes et la mer noire, R.H. 1983.
[3]- ابن أبي زرع القرطاس، ص 382، وكما يبدو من الإشارة أن الأمر يتعلق بمبعوث واحد وليس "بمبعوثين جنويين" بصفة الجمع كما جاء عند "دولار نسيير " من خلال اعتماده على ترجمة" بوميي" Baumier لكتاب القرطاس، أنظر:

وبغض النظر عن أهمية الهدية التي قدمها السفير الجنوي إلى السلطان المريني، فلا نعلم اسم السفير ولا الهدف من سفارته، وقد حاول "لوبيز" أن يخمن عن الهدف من السفارة بموضعتها داخل الإطار العام للعلاقات المغربية الجنوية، فالسفارة لها علاقة بمساهمة الأميرال الجنوي "بندتو زكرياء" Benedetto Zaccaria في إلحاق هزيمة بحرية بالأسطول المريني بمنطقة طريف[2]، والتي فقدها المرينيون في 02 ماي 1292، بعد تحالف ساهمت فيه قشتالة وأراغون وبنو الأحمر وبنو عبد الواد. وتذكر الحوليات الجنوية عن هذا الحدث أن "بندتو زكرياء" كان يقود 12 شينيا ساعد بها الأسطول القشتالي النصري، وأن الأسطول المريني كان مكونا من 20 شينيا وثماني مراكب صغيرة، وتتحدث الحوليات نفسها عن استيلاء "بندتو زكرياء" على 12 منها، دون أن تحدد ما إذا كانت شينيا أم مركبا، بينما فرّت قطع الأسطول الباقية[3]. ولا ندري ما مصدر إشارتها إلى أن القشتاليين بمساعدة الجنويين، تمكنوا بعد ذلك من السيطرة على الرباط "Rebato"[4].

وليس من المستبعد أن يكون السفير الذي التقى بالسلطان المريني بتازوطا مبعوثا من لدن "بندتو زكرياء" للتفاوض معه حول إمكانية عقد الصلح بين جنوة والمغرب المريني، أو لربما بعثه كومونة جنوة مباشرة لتبرئة ذمتها مما قام به "بندتو زكرياء"[5].

ونعتقد أنه من أجل توطين هذه السفارة، لابد من استحضار بعض المعطيات المرتبطة بتجارة الذهب بين بلاد المغرب وأوروبا مع نهاية القرن 7هـ/ 13م. فقد نجح المرينيون في تحويل جزء مهم من التجارة العابرة للصحراء نحو المغرب الأقصى بعد

Delaroncière (ch). Découverte de l'Afrique au Moyen âge, cartographie et explorateurs, la Caire, 1924, T1, p112.

وقد وردت الملاحظة عند:

-Lopez, Studi, p50, note 1.

[1]- يعتبر "بندتو زكرياء" Zaccaria من أكبر رحالات البحر الغربي للمتوسط أواخر القرن 7/13. دخل في خدمة قشتالة سنة 1285 وسنة 1291. وساهم في عدة حروب خاضتها جنوة بالبحر المتوسط وعلى السواحل المغربية. [illegible] الأسطول الجنوي الذي هزم الكطلانيين، وفي سنة 1286 لاحق السفن البيزية بشاطئ المغرب. فضلا عن كل هذا كان تاجرا ومغامرا. أنظر:

-AG, T9 : p77.

-Dufourcq, l'Espagne, p 222 – p :226 – p289.

[3]- Lopez, Studi, p50.

[4]- A.G, T9, p 77 – Canale, Nuova, T3, p197.

- يبدو في حكم المحقق أن الأمر يتعلق بشريط الشبكة المغربية، ولربما الأصح بمنطقة طريف، اللهم إذا كان هناك خلط مع حدث سبيلة، التشتالي على سلا سنة 1260.

[1]- Lopez, Studi, p50.

الحصار الذي ضربوه على تلمسان سنة 689هـ. كما أنهم ضمنوا تبعية سبتة لهم بعد اعتراف العزفيين بسلطتهم، وأخضعوا سجلماسة باعتبارها محطة أساسية على الطرق المؤدية إلى السودان الغربي. ولربما لهذه الاعتبارات، كان الجنويون في حاجة إلى التقرب من الدولة المرينية لتلبية حاجياتهم من الذهب. فقد عادت جنوة إلى ضرب عملتها على أساس ذهبي منذ 1252، وأبدت اهتماما ملحوظا بأسفي والسواحل الأطلسية المغربية منذ 1253. واجتاز الأخوان "فيفالدي" Vivaldi ما وراء أسفي سنة 1291، ولربما جاءت سفارة الجنويين إلى السلطان أبي يعقوب في تازوطا 691/ 1292، لتؤكد هذا الاهتمام المتزايد بالمغرب الأقصى باعتباره محطة مهمة في تجارة الذهب الرابطة بين السودان الغربي وأوروبا المتوسطية. ولا نعلم نوعية النتائج التي أسفرت عنها سفارة الجنويين إلى السلطان المريني، ويذكر "دولارونسيير" أن "هدية الجنويين قد أتت أكلها"[1]، مما قد يدل على أن السفارة ساهمت في تحسين علاقات جنوة بالدولة المرينية.

[1]- Delaroncière, Découvertes, T1, p 112.

الفصل الثالث:

في النصف الأول من القرن 14/ 8 : نجاح الدبلوماسية الجنوية

إذا كانت جنوة قد لجأت خلال القرن 13 م / 7هـ إلى استعمال القوة في علاقاتها مع بلاد المغرب غير ما مرة، فإنها تبنت في النصف الأول من القرن 14/ 8 الأسلوب الدبلوماسي والسلمي في علاقاتها معها. وإلى حدود نهاية الستينات من هذا القرن- حيث ينتهي موضوع الدراسة- سجلنا محطة ساخنة واحدة في تلك العلاقات، وتتمثل في الهجوم الجنوي على طرابلس سنة 1355 .

ومن خلال تتبع المعطيات التي شكلت الإطار السياسي والقانوني للعلاقات المغربية الجنوية طيلة النصف الأول من القرن 14/ 8، وإلى حدود نهاية عقده الخامس، أمكننا ملاحظة ثلاث مراحل مختلفة: مرحلة تغطي العقود الثلاثة الأولى من ذلك القرن، تمّ الحفاظ فيها على ما كانت عليه العلاقات المغربية الجنوية في السابق. ومرحلة طبعت بتكثيف السفارات الجنوية إلى بلاد المغرب، وتوقيع معاهدات سلم وتجارة بين الطرفين، وقد غطت الأربعينات والخمسينات من القرن. وأخيرا مرحلة يبرز فيها الهجوم الجنوي على طرابلس بعد حملة لويس التاسع على تونس سنة 1270، كأهم محطة ساخنة في العلاقات الجنوية المغربية في القرن 14/ 8.

1-مرحلة الثلث الأول من ق 14/ 8 والإبقاء على الواقع السابق للعلاقات الجنوية المغربية:

لم تعرف هذه المرحلة أي اصطدام عسكري بين جنوة وبلاد المغرب، كما لم يوقع الطرفان أي معاهدة سلم وتجارة بينهما. ويبدو أنهما اكتفيا بإبقاء علاقاتهما على واقع ما كانت عليه، دونما حاجة إلى تجديدها على المستوى القانوني الذي تحركت فيه.

سبقت الإشارة إلى أن جنوة بعثت سفارة إلى السلطان العبدوادي في سنة 1272، واستقبل السلطان المريني أبو يعقوب يوسف سفارة جنوية في سنة 1292. غير أننا لا نمتلك إشارات عن النتائج التي تمخضت عنها السفارتان. وفي غياب معلومات لدينا عن توقيع أي معاهدات بين الطرفين منذ تاريخ إجراء السفارتين، لا يسعنا سوى أن نفكر في إمكانية تتويجها بمعاهدتين، لربما لم تصلا إلينا، وشكلتا مرجعية للتعامل بينهما طيلة الثلث الأول من القرن 14م/ 8هـ.

بخصوص الدولة العبداودية، تتوافر لدينا بعض الشذرات التي تفيد أهمية الحضور الجنوي بها في الثلث الأول من القرن 14/ 8. فقد كان أحد الجنويين سنة 1303 مديرا للجمارك بميناء الجزائر[1]. ويستشف من خلال خريطة وضعها مجهول إيطالي في هذه الفترة، أن الجنويين تاجروا مع عدة مراسي بالمغرب الأوسط، ومن بينها وهران" Oran" وأرزيو"Arzau" ومستغانم" Mostegrans" وهنين" Omne" ومزكران " Mazagrans" وشرشال" Sorceli" وتنس "Tenexe"[2]. وخلال حصار المرينيين لتلمسان، كان "سبينولا" Spinola Gristiane أحد التجار الجنويين الكبار المقربين إلى السلطان المريني أبي يعقوب[3]. وتطلعنا رسالة بعث بها "سانشو" ملك ميورقة سنة 1315 إلى "جاك الثاني" ملك أراغون بمدى أهمية الحضور الجنوي بالدولة العبدوادية. فبعد سوء تفاهم نشأ بين أراغون والدولة العبدوادية، منع ملك أراغون رعاياه من التجارة مع مراسي المغرب الأوسط، فبادر "سانشو" بإرسال رسالة إلى ملك أراغون ، ومما جاء فيها "كلما منعنا رعايانا من التجارة مع الدولة العبدوادية، يستغل تجار الدول الأخرى الفرصة لتكثيف معاملاتهم معها، فيحصلون بفعل ذلك على أرباحهم المعتادة ويضيفون إليها أرباحنا وأرباح رعاياكم، أما أرباح السلطان العبداودي ، فلا تتقلص أبدا"، ولا شك في أن تجار الدول الأخرى الذين عناهم سانشو، هم البيزيون والجنويون بصفة خاصة[4].

ويبدو أن المرينيين كثفوا من علاقاتهم في الثلث الأول من القرن 14/ 8، وخاصة مع مطلع هذا القرن، لما حاصروا تلمسان، وأصبحوا يتحكمون في مجال غني

[1]- اشترى هذا الجنوي مركبا للكطلاني" Bernar Ferrer " والذي ألقى بعض الجزائريين - نسبة إلى ميناء الجزائر- القبض عليه في خريف 1303 أنظر : Dufourcq, l'Espagne, p368 et p452.

[2] -Desimoni (C) et Belgrano (L.T), in A.S.L.S.P volume V ,1867, p45 et suviantes.

[3]- قام الجنوي سبينولا بمساعي لدى السلطان المريني بالمنصورة لتزويد أراغون بالحبوب، أنظر : Dufourcq,l'Espagne, p451.

[4] -Ibid, p 451.

[illegible] وثيقة جنوية تحدثت عن [illegible]

[illegible] سنة [illegible] [illegible]

[illegible] التي كانت تحكم المغرب الأقصى [illegible]

[illegible] سنة [illegible] [illegible] في [illegible]

[illegible] بالمغرب الأقصى [illegible].

[illegible] الحفصية خلال الثلث الأول من القرن 14 [illegible]، فالظروف

[illegible] تشجيع على تمتين علاقاتها مع جنوة، [illegible]

[illegible] من حكم خليفة يحيى أبي بكر ([illegible])

[illegible] سنة [illegible] [illegible] التاريخ الحفصي ندرة من حيث المعلومات

[illegible] علاقات تونس [illegible] الأوربية[illegible]. فمنذ توقيع جنوة معاهدة 1287 مع

[illegible] رغم انصرام العمل بها، ويبدو أن خليفة [illegible]

[illegible] سلطة الحفصية بالمناطق التي خرجت عنها. [illegible]

[illegible] علاقات [illegible] الأوربية، إلا بعد سنة 1332، [illegible] نجح في توطيد

[illegible] توقيع جنوة أي معاهدة مع تونس في الثلث الأول من

[illegible] سفراء بينهما، لا يعني توقف مبادلاتهما التجارية[illegible] [illegible] لا

[illegible] الوضعية الداخلية بجنوة في تقليص نشاطها بعدة مراكز بفعل

[illegible] حدث في بدايات القرن 14م بين حزب "جلف" (المتعاطفون مع

[illegible] "جبلين" (المتعاطفون مع الإمبراطور)[6]. كما أن منافسة [illegible]

[illegible] الحفصية عرفت نشاط التجار الجنويين بها في الثلث الأول من القرن 14 [illegible].

[illegible] البندقية وأراغون[7].

[illegible] A.S.G V ورقة 42، مجموعة الوثائق "Andreolo de Laneriis"

[illegible] "Lopez" [illegible] له صلة بقتال بني مرين. [illegible]

[illegible] Della pecora Merina. in su e Giu per la storia di Genova. Genova [illegible]

[illegible] Espagne. p451.

[illegible]

[illegible] سنة 1333 عن طريق الشركة الفلورنسية "[illegible]" [illegible]

[illegible]

[illegible] لمصلحة نقل [illegible] بين تونس وجنوة [illegible]

[illegible] T3. p196

[illegible] Storia delle [illegible]. pp 271-272

[illegible] aristocratie et noblesse a Gênes, p 372

[illegible] trattati. p 299

وبعد أن نجحت جنوة في تجاوز مشاكلها الداخلية بفضل صلح نابولي الذي وضع حدا للصراع بين الحزبين المتصارعين، وبعد أن وصل "بوكنغرا" Baccanegra Simone إلى حكم المدينة، وتسميته دوقا عليها في 23 شتنبر 1339 بمساعدة الفئة التجارية بالمدينة[1]، دخلت العلاقات الجنوية المغربية في مرحلة تميزت بكثرة تبادل السفارات وبتوقيع بعض المعاهدات.

2-تمتين العلاقات المغربية الجنوية في أربعينات وخمسينات القرن 14/ 8

أ-معاهدة 1343 بين جنوة والدولة الحفصية

بعد تجاوز جنوة والدولة الحفصية لمشاكلها الداخلية التي عانت منها طيلة الثلث الأول من القرن 14/ 8، وبعد مرحلة قاربت النصف قرن، لم يتبادل خلالها الطرفان سفارات، ولم يوقعا أي معاهدة سلم وتجارة، توّجا تقاربهما بالاتفاق على معاهدة 7 أبريل 1343، وقد تم توقيعها من لدن ابن محمد عبد الله بن تافرجين ممثل السلطان أبي يحيى أبي بكر و"Gattolusio" ممثل دوق جنوة "بكنغرا"[2].

تكمن أهمية معاهدة 1343 في أنها حديثة الاكتشاف، فقد ظلت مجهولة إلى أن عثرت عليها الباحثة الإيطالية "بالبي" Balbi، ونشرتها سنة 1975[3]، كما تكمن في أنها شكلت مرجعا لباقي المعاهدات التي أبرمتها جنوة مع الدولة الحفصية لاحقا، حتى إن معاهدة 1433 الموقعة بينهما، استعادت كليا بنود معاهدة 1343[4]. وأخيرا فإن معاهدة 1343 هي المعاهدة الوحيدة – فيما أعلم- التي جرت بين جنوة والدولة الحفصية في القرن 14م/ 8هـ.

تتكون المعاهدة من 37 بندا معظمها استحضر بنود المعاهدات السابقة (1236-1271-1287)، كضرورة محاربة القرصنة من جانب جنوة والتزامها

Ibid. p302

[illegible] "Ferretto" [illegible] "Lomazzo" [illegible]

[illegible] 1313 [illegible]

[illegible] Balbi. P. I Trattati. p305 [illegible]

[illegible] M [illegible]

[illegible] Bonaventura [illegible]

Mussi. Guz [illegible] a Genova [illegible]

وتفاديا للتكرار، نقدم ما يلي ... :1300 ... فيها

- لقد سمحت المعاهدة للجنويين بالإقامة بجميع المناطق الخاضعة للسلطان الحفصي "...bus terris et locis subdictis dominacioni regie magestatis tunetis"

وذلك على عكس المعاهدات السابقة التي حددت أنشطة الجنويين بالموانئ الحفصية في مراسي معينة.

- إذا كانت المعاهدات السابقة قد خولت للجنويين حق الإقامة بفنادق بتونس، فإن معاهدة 1343 نصّت على تأسيس فندق جديد لصالحهم بالقرب من الفنادق القديمة (البند الرابع).

- نصت المعاهدة على أنه بمجرد حصول التاجر الجنوي بتونس على "البراءة" Albara، وهي عبارة عن وصل من الجمارك يثبت أنه صفى حساباته معها، فإنه يحمل سلعته حيثما شاء من أراضي الدولة الحفصية، دونما أداء أي ضريبة جديدة، وإذا ما تمت العملية التجارية بين الجنويين أنفسهم، فلا يؤدون أي ضريبة على السلعة المبتاعة (البنود 9-14-15)[1].

وتدل مدة صلاحية المعاهدة على جو التقارب الذي أصبح سائدا بالعلاقات الجنوية الحفصية، فبينما امتدت صلاحية المعاهدات السابقة على عشر سنين، فإن العمل بمعاهدة 1343 امتد على عشرين سنة، وعلى الرغم من أن مفعولها انتهى، فإن الطرفين حافظا على روح نفس المعاهدة لما وقعا معاهدة 1433.

ويبدو أن احترام الطرفين لبنود معاهدة 1343 قد جوبه ببعض العراقيل، ولعله في هذا الإطار نضع السفارة التي بعث بها دوق جنوة "بكنغرا" إلى السلطان الحفصي، والتي قادها "Gabriele De Savignonis" حسب وثيقة جنوية مؤرخة ب 30 يوليوز 1344[2]. كما يمكننا أن نضع في الإطار نفسه سفارة الجنوي "Lercario Branchaleone" إلى السلطان الحفصي في سنة 1347، والتي اعتقد "جيهل" خطأ

[1]- من المفيد الإشارة إلى ان الأوراق V9 و R10 من الكراسة التي توجد بها المعاهدة، تتضمن عقدين تجاريين حررا في 9 أبريل 1343، أي يومين بعد التوقيع على المعاهدة. ويتعلق موضوع العقدين بقرض اقترضه الجنويون:
Barnabo Cibo, serafino Maruffo, Andalo Romye, Gerardo Serviti, Francesco Andrée Guidonis
من السفير الجنوي بتونس Oberto Gattoluso ، وقد جرى تحرير العقدين بالفندق القديم للجنويين بتونس.
[2]-Balbi, p304.

أنها بعثت إلى السلطان المريني أو "سلطان الغرب" كما جاء في الوثيقة[1]، ولا بد تلك "بالبي" أن يكون تنفيذ المعاهدة قد تأثر كذلك بالحملة التي قادها "دوريا" Filippo D'oria على طرابلس سنة 1355[2].

وفيما يلي نسخة من الورقة الأولى من معاهدة 1343م:

ب-سفارة مرينية إلى جنوة 1346:

لاحظنا سابقا أن الأميرال الجنوي "بندتو زكرياء" ساهم إلى حد كبير أواخر القرن 13/7 في إبعاد المرينيين عن طريف، وفي إدخالها تحت حكم ملك قشتالة. وإذا كان تدخل الجنويين قد تم بشكل غير مباشر في هذه الأحداث، لأن زكرياء كان بمثابة "مرتزق" لدى قشتالة، فإن جنوة تدخلت بشكل مباشر في الصراع بين المرينيين

[1]- ستتم مناقشة هذا الأمر في محور لاحق.
[2] -Balbi, p304.

"Egidio"، وساهم الجنويون ... من الجزيرة الخضراء لفائـ[illegible] القشتاليين.[2]

لقد تزايد اهتمام الجنويين بشؤون المضيق بموازاة مع اهتمامهم بالسواحل الأطلسية الجنوبية. ومن المعلوم أن الجنوي "ملوسلو" Lanzarote Malocello نجح في اكتشاف جزيرة من جزر الكناري في الثلث الأول من القرن14 م، وفي نفس السنة التي ساهم خلالها الجنويون في إبعاد المرينيين من الجزيرة الخضراء – أي في 1341 – نجحت بعثة جنوية فلورنسية في اكتشاف جزيرة ماديرا[3]، وغير خاف أن تزايد اهتمام الجنويين بالمضيق وبالسواحل الأطلسية الجنوبية مع نهاية النصف الأول من القرن 14/8، تزامن مع أزمة نقدية حادة عانى منها الغرب الأوربي بفعل نقص الذهب.

لقد اقتضت الحاجة الملحة إلى الذهب من جنوة أن تعمق علاقاتها مع بلاد المغرب باعتبارها محطة أساسية في التجارة ما بين السودان الغربي وأوربا. غير أن المادة المصدرية سواء الجنوية أم المغربية، لم تسعفنا على الوقوف عند المظاهر السياسية والدبلوماسية للعلاقات الجنوية المغربية في النصف الأول من القرن 14/ 8. بينما تطالعنا وثيقة غير منشورة محفوظة بأرشيف ميورقة ببالما أن حاكم الجزيرة "بويل" Felip de Boyl قدم إذنا بالمرور لسفير مغربي عائد من جنوة. يدعى هذا السفير محمد الحزيري أو الاهازيري "Ahaziri"، وكان مصحوبا بالمترجم العباس وأربعة أشخاص آخرين هم علج (أو علي) اسماي "Alag Asmay" ومرزوق بن عمر" Marsoch ben Amer" وعبد الله سالم ومحمد بن عامر. لا تحدد الوثيقة أي دولة من بلاد المغرب مثلتها تلك السفارة.

لا يعتقد "ديفورك" أن تكون حفصية لأنها توقفت بميورقة في رحلتها إلى جنوة[4]. ويبدو لنا أنها لم تكن عبدوادية، لأن تلمسان كانت خاضعة منذ 27 رمضان

---

[1]-Ibid, p303.

وتذكر الحوليات الجنوية أنه قبل حصول المسيحيين على انتصارهم في طريف – ريو دي سلادو- تمكنت جيوش أبي الحسن – وليس أبي يعقوب كما ورد في الحوليات الجنوية- من إلحاق هزيمة بالجيوش المسيحية التي فقدت 28 مركبا من بينها واحدة تابعة للجنويين. ومن الملاحظ أن الحوليات الجنوية تتحدث عن "Agareni" باعتبارهم العرب المسلمين، وقد جاء لدى المحقق أنهم سموا كذلك نسبة إلى هاجر، أنظر: A.G, T10, p34.

[2]-Vitale, Breviario, T1, p133.

[3]-Chaunu, op cit, p94.

[4]-Dufourcq, Aperçu, pp :729-730.

737/ 29 أبريل 1337 لحكم أبي الحسن المريني. وقد ظهر أبو الحسن خلال تلك المرحلة كأقوى سلطان ببلاد المغرب، خاصة بعد وفاة صهره أبي يحيى الحفصي وترغيب ابن تافراجين وزير الحفصيين له في شرعية تملكه لإفريقية الحفصية. لهذا نميل أكثر إلى اعتبار السفارة مرينية بعث بها أبو الحسن إلى جنوة. لا تورد الوثيقة الهدف من السفارة المغربية إلى جنوة. وقد حاولنا لتوطين السفارة أن نقف عند أقرب الحيثيات المرتبطة بالعلاقات المرينية الجنوية. وتستوقفنا في هذا المستوى رسالة بعث بها أبو علي ابن السلطان أبي سعيد المريني إلى السلطان النصري أبي الحجاج بن الوليد بن نصر في 9 جمادى الثانية 745/ 18 أكتوبر 1344، وردت فيها عرضا إشارة إلى العلاقات الجنوية المرينية، وإلى وجود معاهدة صلح تنظمها. جاء في الرسالة:

"...عرفتم بما كان انبرم بينكم وبين الجنويين والقطرانيين من الصلح وما رأيتموه في شمول ذلكم جهتنا وجهتكم للمسلمين من النجح، وصرفتهم إلينا نسختي تلكم المعاقدة لنقف على ما تضمنتاه، فنعلم ذلك علم المشاهدة وأردتم صدور الإذن من جهتنا في ما نمضيه من تلكم العقدة ، وتعلمون أنا أمضينا الصلح المنعقد مع القشتالي على ما فيه من الشروط، وأن الجنويين والقطرانيين شملتهم تلك الربوط، فإن أحب الطايفتان إمضاء ذلك العقد المذكور وانبرام الصلح على ما فيه من الحكم المسطور، فنحن قد أمضينا ذلكم وكملناه..."[1]. وقد جاء توقيع المعاهدة التي تقصدها الرسالة بعد هزيمة الجيوش المرينية في طريف في 7 جمادى الثانية من سنة 741/ 28 نونبر 1340، وفقدانها للجزيرة الخضراء في شوال 743/ مارس 1343[2]. وفي غياب عناصر تاريخية أخرى نوطن بها سفارة الأهازيري، نكتفي بالتساؤل عما إذا لم تكن لها علاقة بالصلح الذي تحدثت عنه الرسالة المذكورة؟

ج-سفارة جنوية إلى تونس في 1347؟:

تتضمن إحدى الوثائق المحفوظة بأرشيف جنوة معلومات قيمة عن سفارة بعثت بها جنوة إلى بلاد المغرب، تزعمها "Brachanleone Lercario " سنة 1347،

ولم نعثر على هذه الأسماء بالمصادر المرينية المعروفة، وبرجوعنا إلى روضة النسرين، وجدنا اسمي عامر بن فتح الله السدراتي ومسعود بن عمر وزيرين لأبي الحسن.

[1] -Alarcon Santon (M) et Garcia De Linares (R). Los documentos arabes diplomaticos del archivo de la Corona de Aragon, Madrid-Granada 1940, p188.

[2]- بعد تتالي الهزائم المرينية بالأندلس، عقد المرينيون هدنة مع ملك قشتالة ألفونس XI لمدة عشر سنوات.

ومن الأمور اللافتة للانتباه في تاريخ الرسالة، أنها حررت في سنة 1344/745، بينما نعلم أن أبا الحسن كان قد حاصر أخاه بسجلماسة سنة 733هـ ، واعتقله وقتله بعد أشهر.

وهي محملة بعدة هدايا إلى أعيان المنطقة، كما تتضمن إشارات إحصائية عن تكاليف السفر وأهم محطاته.

ذهب "جيهل" إلى أن السفارة الجنوية أرسلت إلى ملك المغرب الأقصى، وإن أعضاءها انتقلوا من تونس إلى المغرب الأقصى[1].

الواقع أن الوثيقة تتحدث فعلا عن مملكة الغرب "Regem Garbi"، في إطار المجال الذي يشغله مفهوم الغرب "Garbo" في الوثائق الجنوية مجال مطاط، قد يعني المنطقة الغربية من بلاد المغرب، أي ما كان يمثل مجال حكم المرينيين (المغرب الأقصى)[2]، كما قد يعني المنطقة الممتدة غرب بجاية، أي ما يغطي المغربين الأوسط والأقصى، وأحيانا قد يعني المجال الغربي من شمال إفريقيا الممتد غرب طرابلس، أي ما يمثل بلاد المغرب كلها[3]، وأخيرا قد يعني الإقليم الشمالي الغربي من المغرب الأقصى[5].

تتحدث الوثيقة كذلك عن انتقال السفارة بين عدة مراكز ببلاد المغرب، في حين أنها لا تشير بتاتا إلى انتقالها من تونس إلى المغرب الأقصى. فقد انتقلت السفارة من جنوة إلى بونة(عنابة)، ومن بونة إلى تونس، ومن تونس إلى إفريقيا (هكذا)، ثم عادت إلى تونس، حيث لبثت مدة، قبل أن تعود إلى جنوة عبر "بورتو فنري" Portovenere. وتجب الإشارة إلى أن "جيهل" عاد في دراسة لاحقة إلى التأكيد على أن السفارة اجتازت بلاد المغرب كلها برا للوصول إلى الغرب، أي إلى المغرب الأقصى[6].

---

[1] Jehel, Les relations entre Gênes et le Maghreb occidental au Moyen âge, colloque l'occident Musulman…p121.

[2]. تميز السفارة التي بعثت بها جنوة في 13 أبريل 1272 بين المجال الذي كان يحكمه يغمراسن أي المغرب الأوسط والغرب Garbo، أي المجال الممتد غرب منطقة تلمسان. أنظر Ferretto, Codice, T1, p260 .

كما قد تعني بلاد المغرب في مفهومها الشامل الذي كان خاضعا للموحدين. ورد ذلك في الحوليات الجنوية بمناسبة ذكر أحداث ترتبط بالسنوات التالية:

1161, A.G. T1, p84
1169, A.G. T2, p129
1191, A.G. T2, p226
1208, A.G. T3, p55
1231, A.G. T4, p94
1292, A.G. T9, p57
1341, A.G. T10, p42.

[3]. أنظر مثلا A.G. T8, p 140 et p102.

[4]. تشير إحدى الوثائق التي نشرها "فريطو" إلى هذا المفهوم، أنظر عقد 13 أبريل 1222 و 19 يونيو 1222.
Ferretto, Liber Magisti, op cit, p19 et p69.

[5]. يظهر ذلك جليا في وثيقة نشرها "فريطو" حيث يتحدث العقد عن إجراء بعض الجنويين عمليات تجارية مع ميورقة ويابسة والمرية والغرب وسبتة وبجاية. أنظر Ferretto, Codice, T2, p247، وعلق محقق الحوليات على ذلك بأنه إقليم من المغرب الأقصى، أنظر A.G. T2, p57.

[6]- Jehel ,La mer dans les relations entre Gênes et le Maghreb,Mesogieos,7,2000,p 194.

وكيفما كان الأمر، فإن عقد السفارة حرر بجنوة في 16 يناير 47 أن السلطان الشرعي لتونس الحفصية أبا يحيى توفي في 02 رجب 747 1346، ولم تتحرك الجيوش المرينية لضم إفريقية إلا في بدايات سنة 748 ... ولم يحتفل المرينيون رسميا بنجاحهم في السيطرة على تونس إلا في جمادى الثانية 748 15 شتنبر 1347، في يوم ظل عالقا بذاكرة ابن خلدون[2]. وكل هذه المعطيات تدل على أن السفارة الجنوية إلى تونس قد انطلقت، أو على الأقل، حرر عقدها قبل ثمانية أشهر من سيطرة جيوش أبي الحسن المريني على إفريقية.

صحيح أن أبا الحسن اعتبر حاميا لإفريقية منذ سيطرته على تلمسان[3]. ومع ذلك يبقى هناك احتمال واحد لقبول فكرة توجيه السفارة إلى أبي الحسن المريني، وهو أن تكون السفارة قد انتظرت طويلا لتتوجه من جنوة إلى تونس، أو إنها وصلت إلى تونس، وانتظرت مقدم السلطان المريني الذي كان منهمكا بضم الأجزاء الشرقية من بلاد المغرب إلى مملكته. تقدم هذا الاحتمال ونحن نعلم أن سفارة جنوية سابقة إلى بلاد المغرب (إلى سبتة سنة 1231) استغرقت ذهابا وإيابا ثلاثة أشهر (يونيو –يوليوز – غشت)[4].

ونظرا لأهمية المعلومات الواردة بالوثيقة، وخاصة على مستوى التكاليف المالية التي اقتضتها، ننشرها هنا تعميما للفائدة:

"في يوم 16 يناير ساهمت كومونة جنوة في تمويل سفارة" لركاريو برنكلوني" Lercario Brachanleone الذي كان سابقا سفيرا لها إلى ملك الغرب، وتمثلت مساهمتها في ما يلي:

– 71 ليرة لتغطية حاجياته بجنوة وحاجيات أسرته وشريكه، والموثق والمترجم اللذين يعملان لفائدته، وتكمن هذه الحاجيات في الأجور وشراء ما تتطلبه الخيول والبغال وأشياء أخرى.

---

[1]. لعله من المفيد الإشارة إلى أن الوثيقة تتحدث عن "لركاريو" Lercario باعتباره سفيرا لجنوة لدى ملك الغرب في فترة سابقة أو في يوم ما، وهما معنيان تفيدهما كلمة "Olim" وقد اكتفت الوثيقة فعلا برصد تنقلات السفير الجنوي بمراكز إفريقية كانت تابعة لحد تلك الفترة للسلطان الحفصي، ولم تتحدث البتة عن مراكز المغرب الأقصى.

[2]قال عنه ابن خلدون: "وكان يوما لم ير مثله فيما علقناه" ولمزيد من التعمق حول حيثيات حملة أبي الحسن على تونس، يمكن الرجوع إلى: ملعبة الكفيف الزرهوني، تحقيق محمد بن شريفة الرباط 1987.

[3] -Kably, Société, p132.

[4] -A.G.T4, pp :56-57.

-41 ليرة و 7 أفلس و6 دنانير لتغطية نفقات السفارة بتونس، وللذهاب
تونس إلى إفريقية ثم للعودة إلى تونس والبقاء بها، ثم للعودة إلى بورتوفنيري، وأيضا
لتغطية نفقات الهدايا الواجب تقديمها إلى أعيان إفريقية.

-37 ليرة و10 أفلس لاستجار السفينة من تونس إلى بورتوفنيري.

-5 ليرات و15 أفلس للتوجه من بوتوفنيري إلى جنوة.

ويشكل مجموع تكاليف السفارة 518 ليرة و13 أفلس و3 دنانير".

ونشير إلى أن سفارة سابقة عن سفارة "لركيريو" Lecario بعثت بها جنوة إلى ملك الغرب "Garbo"، وقد قادها حسب عقد 13 ماي 1343 "مروفو" Leonardo Maruffo و"كتنيو" Leonardo Cattaneo ، وقد بلغت تكاليف السفارة 44 ليرة و... أفلس و 8 دنانير[1].

تستوقفنا ملاحظتان حول هذه الإشارة:

- يبدو من خلال تكاليف هذه السفارة ومقارنتها بتكاليف سفارة "لركيو" سنة1347 أن هناك اختلافا كبيرا بينهما. فتكاليف سفارة 1343 تكاد تكون مساوية مع التي اقتضتها مرحلة واحدة من سفارة "لركيو"، مثل ما اقتضته مرحلة العودة من تونس إلى بورتوفنيري، وهي تقل بكثير عما استوجبته – مثلا– مرحلة الذهاب من جنوة إلى بونة من سفارة "لركيو".

- بالرجوع إلى نفس المصدر الذي اعتمده "جيهل" في إشارته، لانجد ذكرا لأي سفارة جنوية إلى ملك الغرب، فهل السفارة لم تتم أصلا، أم إن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد خلط وقع في الإحالة عن مصدر آخر يؤكد حصول السفارة فعلا؟

وكيفما كان الحال، فإن سفارة "سافكنونس" Gabriele Savignonis عام 1344 إلى الملك الحفصي، أو سفارة "لركريو" في 1347 إلى بلاد المغرب في فترة متقاربة، وحصول سفارة مغربية إلى جنوة ما بينهما، كلها قرائن تدل على رغبة جنوة وبلاد المغرب في تمتين علاقاتها مع نهاية النصف الأول من القرن 14م/ 8هـ.

وقد تعزز هذا التوجه الإيجابي في العلاقات المغربية الجنوية آنذاك، بما عرفه عهد السلطان المريني أبي عنان من "انفتاح" على أوربا، وخاصة مع الجمهوريات

[1] Jehel, Les relations entre Gênes, op cit, p120.

الإيطالية الكبرى، إذ شهد محاولة توقيع معاهدة مع البندقية، ووقع في الفترة نفسها معاهدتين مع بيزة وجنوة.

د-"انفتاح" ملحوظ على الجنويين في عهد أبي عنان:

قد لا نبالغ إذا اعتبرنا عهد أبي عنان أكثر عهود الدولة المرينية "انفتاحا" على الأوربيين. فقد شجع تجار مملكة اراغون على التوافد على بلاده[1]، ووقع معاهدة سلم وتجارة مع بيزة في ربيع الثاني 759/ 7 أبريل 1358[2]. كما سعت البندقية من أجل التوقيع على معاهدة سلم وتجارة مع أبي عنان على غرار الكطلانيين والجنويين والبيزيين[3]. ويطلعنا ابن الحاج النميري في رحلته عن مبادرة الجنويين إلى تمتين علاقاتهم مع أبي عنان. ويستحسن بنا قبل الوقوف على مضامين المعاهدة بين جنوة والدولة المرينية، أن نوطنها ببعض العناصر التاريخية التي واكبتها. فمن المعلوم أن عهد أبي عنان تميز باستفحال مظاهر الأزمة بالمغرب. فقد عانى المغرب من آثار الطاعون الأسود على غرار دول العالم القديم التي اجتاحها هذا الوباء الفتاك[4]، كما عانى من أزمة نقدية ناتجة عن نضوب دور السكة المغربية من الذهب بفعل تحول طرق التجارة القافلية نحو الشرق[5]. ولعله ليس من باب الصدفة ألا يبدي السلطان أبو عنان اهتماما أكبر "بالشؤون الأندلسية"، ولا بالبعثات والهدايا الموجهة إلى حكام الشرق، وذلك على عكس أبيه. فقد انصبت معظم اهتماماته على بلاد المغرب بهدف السيطرة على مجال

[1] يبدو ذلك واضحا من خلال رسالة بعث بها علي "بدرو" IV ملك أراغون يحثه فيها على أن يأمر من ببلاده ونواحيها "من تجار النصارى أن يصلوا إلى بلادنا لتجارتهم وعلى عوايدهم من البر والإكرام والرعي والاحترام" أنظر: Alarcon, Los documentos, p202.

[2] أنظر بشأنها - Amari, Diplomi Arabi,op.cit.

[3] ورد ذلك بوثيقة محفوظة بأرشيف البندقية : Senato Misti, registre 28, 8 Luglio (juillet) 1357 وقد جاء عند "سشردوتي" ذكر سنة 1397، وليس 1357، ولعله مجرد خطأ مطبعي. أنظر: Sacerdoti, Venezia. p340 note 6

[4] لا تقدم لنا المصادر المغربية معطيات إحصائية عن الخسائر البشرية التي خلفها الطاعون الأسود بالمغرب المريني لكننا من خلال بعض الأوصاف الأدبية، نستشف أن الخسائر كانت فادحة. أنظر مثلا اللوحة القاتمة التي يقدمها ابن خلدون عنه في مقدمته (ص53) وكذلك ابن عبد في رسالته الكبرى ص196- 207-306-230-231-153. أما بالنسبة لتأثير الطاعون الأسود على جنوة، فالظاهر أنها كانت أكثر فداحة إذ تتحدث إحدى الدراسات عن فقدانها لـ40 ألف شخص. أنظر:

Chiappa Mauri (M.L), Il commercio ocidentale di Genova nel secolo XIV, dans Nuova Rivista Storica, T57, Sep Dec, 1973, p576.

وعن الطاعون الأسود بصفة عامة بأوروبا يمكن الرجوع إلى:

Carpentier (E.), Autour de la peste noire, famines et épidemies dans l'histoire du 14e siècle A.E.S.C 1962.

[5] يمكن الرجوع بشأن هذه الأزمة إلى: مصطفى نشاط "المغرب المريني وأزمة القرن 14 الشخصية"، محنة ... 1993.

يسمح له بمراقبة التجارة القافلية، ومراكز تصريف بضائعه بالخ... ولا شك أن التوجه الملحوظ في تعامل الدولة المرينية مع أوروبا المسيحية مرتبط "بالظرفية" الاقتصادية التي كان يمر بها المغرب آنذاك باعتبار...

ويشكل فيض العباب المصدر الوحيد الذي أشار إلى معاهدة بين أبي عنان وجنوة. ويفهم من خلال ما ورد به أن الجنويين هم الذين بادروا بالصلح مع أبي عنان "ثم أتت إرسال الجنويين ترغب في الصلح"[2].

والواقع أننا نجهل الظروف السابقة التي أدت إلى هذا الصلح، هل ... مبادرة الجنويين بعد أن أحدثوا تجاوزات في حق المغاربة؟ أم إن هذه ... مواكبة للرغبة الأكيدة التي عبرت عنها جنوة منذ نهاية النصف الأول من ... من أجل تمتين علاقاتها مع بلاد المغرب، والتي تؤشر عليها السفارات والمعاهدات ... جرت بين الطرفين في أربعينات هذا القرن؟ أم إن إشارة ابن الحاج عن ... الجنويين لإبرام الصلح، قد لا تعدو أن تكون مظهرا آخر من أجل تلميع ... ممدوحه السلطان أبي عنان، والإطناب في ذكر قوته وسطوته؟ حتى إن الجنويين ... بدا من التخضع والاصحاب بعد التعصب والتمنع"[3]. ويستفاد من نفس ... أن أبا عنان أسعف طلبات الجنويين بعد إلحاحهم، ووجه مع مبعوثهم "أحد خدامه الكريم" الذي لا نعرف اسمه "حتى تم عقد الصلح".

كما نجهل التاريخ الذي تمت فيه المعاهدة لأن الإشارة إليها وردت عند ابن الحاج. ويبدو -حسب أحد الباحثين- أن مبعوث الجنويين إلى أبي عنان ... بعد شفائه من مرضه في شوال 757/ أكتوبر 1356[4]. وقد كان أبو عنان ... قبل توجيه حملته إلى إفريقية في نفس السنة، على تكثيف علاقاته الدبلوماسية ... الأطراف الأوروبية المهتمة بالمنطقة، بما في ذلك جنوة، وذلك لضمان نجاح حملته ... ولعل مما يعزز هذا المذهب، أن سناتو البندقية حاول - حسب الوثيقة المشار إليها والمؤرخة بـ5 يوليوز 1357- أن يستصدر من أبي عنان معاهدة سلم وتجارة...

[1] ...Société, p162 et suivantes.
[2] ابن الحاج النميري، فيض العباب، تحقيق محمد ابن شقرون، الرباط 1984، ص30.
[3] صاغه ابن الحاج ... قوة حكم أبي عنان واضحة عبر كل مراحل الرحلة التي أرخ لها، ... على ... ما من شأنه أن يقلل من قوة حكم أبي عنان. نكتفي هنا ب... المتصوف ... أبي عنان ...، وعلاقته بالسلطان أبي عنان.
[4] ... ص173، و إبراهيم حركات المغرب عبر التاريخ، ج2، ص55.
[5] ...Société, p164.

عن المعاهدة التي كانت تجمعه بالجنويين، وفي المقابل أن المعاهدة التي أحالت عليها الوثيقة، هي نفسها التي تمخضت عنها بعثة الجنويين إلى أبي عنان، والتي أشار إليها ابن الحاج في رحلته دون أن يحدد تاريخها. وفي كل الأحوال، فإن المعاهدة خدمت مصالح الطرفين معا. فقد خولت للجنويين التردد على المراسي المغربية لما "تراه لمتاجرها (جنوة) أعظم الربح ولمسائل حياتها أعظم النجح". كما أنها ألزمت جنوة بمحاربة القرصنة التي تستهدف السواحل المغربية "وأمنت البلاد الساحلية من عدوانهم وأمنت حائمة أبراجهم من غربانهم" (مراكبهم)، مما يعني وجود نشاط للقراصنة الجنويين على السواحل المغربية. وسمحت المعاهدة بتزويد الخزائن المغربية بالواجبات المفروضة عادة على التجار الأوروبيين بها "وهدأت بتجارهم دواوين الأعشار وأدوا أعشارهم دنانير مستديرة". كما أدى الصلح إلى تزايد إقبال التجار الجنويين على المراسي المغربية "وامتلأت بتجارهم دواوين الأقطار"[1].

ولاشك في أن هذا الصلح قد ساهم في تكثيف العلاقات بين جنوة والمغرب المريني، ويشكل محطة أخرى من محطات التقارب بين الطرفين في أربعينيات وخمسينيات القرن 14/ 8. ويمكن القول بأن علاقات جنوة ببلاد المغرب قد سادها طابع الود خلال هذه الفترة، لولا أن شابها هجوم "فليب دوريا" D'oria على طرابلس سنة 1355. فما هي حيثيات هذا الهجوم وما هي آثاره في العلاقات بين جنوة وبلاد المغرب؟

3- الهجوم الجنوي على طرابلس 756/ 1355:

دخلت طرابلس تحت النفوذ الموحدي في القرن 6هـ/ 12م بعد فترة خضعت خلالها لملوك صقلية من المسيحيين. وقد حاول بعض أفراد المدينة التفرد بحكمها بعد قيام دولة الحفصيين. غير أن الأمير أبا بكر نجح في ضمها إلى الدولة الحفصية[2]. وشهدت طرابلس محاولات استقلالية، كلما كانت السلطة الحفصية تمر بفترات اضطراب. وفي هذا الصدد، استبد بنو ثابت بحكم المدينة بعد أن استغلوا ظرفية فراغ سياسي مرت بها الدولة الحفصية عند منتصف القرن 8/ 14، وتوقفوا عن أداء الضريبة

[1] ابن الحاج، فيض العباب، ص31.
[2] من بين المحاولات المسجلة في هذا الصدد، ما قام به أبو ضربة الذي فقد حكمه بتونس وتحالف مع محمد بن عمران وعشائر من عرب بني كعب للاستيلاء على طرابلس، إلا أن محاولته فشلت بعد أن استولى الأمير أبو بكر على المدينة.

الموضوع، أن نشير إلى أنه في فترة تحكم بني ثابت في المدينة، وفي مرحلة كانت العلاقات الجنوية مع طرابلس عادية، هاجمها الجنوي "فليب دوريا" دون أن يكون ثمّة توتر بين الطرفين[2].

لقد استغل القائد الجنوي الظرفية الصعبة التي شهدتها طرابلس بفعل الفوضى ونقص المواد الغذائية، وحاول أن يحول فشله في السيطرة على "ألغيرو" Alghero بساردينيا إلى نجاح بطرابلس[3]. ويطلعنا ابن حجر العسقلاني عن كيفية دخول الجنويين إلى المدينة في نص طويل نسبيا، نورده فيما يلي لأنه أكثر تفصيلا من باقي النصوص التي وقفت عند هذا الحدث.

"ثابت بن محمد بن ثابت الطرابلسي، أمير طرابلس الغرب...، وكان شابا غرا، فاحتال عليه الفرنج واطلعوهم على سرهم وأرسلوا من عندهم ترجمانا شيخا مجربا فرأى في البلد غلاء لقلة الحب عندهم إذ ذاك، فتمّت له الحيلة وأشار على ثابت أن يجمع الأسلحة التي مع جند البلد، ويجعلها عنده في القلعة ليطمئن إليه تجار الفرنج وينزلوا من مراكبهم ويبيعوا ما معهم من البضائع، وذكر له أن الخمس الذي يخصه من البضائع يجتمع منه مال كثير وينتفع الناس مما معهم من مأكولات، ففعل، فلما اطمأنوا إليه تسوّر الفرنج السور ليلا وهجموا على البلد دفعة واحدة سحرا وأهلها غافلون، فقتلوا منهم كيف شاءوا، وحاصروا القلعة، فهرب ثابت وتدلى بعمامته من القصر، ففطن بعض العرب ممن يعاديه فقتله، واستولى الفرنج على البلد، وكان ذلك سنة 756 أو 757"[4].

وقد ظلت طرابلس مدة خمسة أشهر عرضة لنهب جيوش "دوريا"، وقيل إنهم جمعوا ثروة مالية بها قدرت بأكثر من 18 ألف فلورين من السلع والمجوهرات والنقود، كما أسروا 7 ألف من الرجال والنساء والأطفال[5].

[1] -Mas Latrie, Traités, p385.
[2] -Lopez, Studi, p18.
[3] -Latrie, op cit, p385.
[4]-ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة.ج4.
وقد تم الهجوم حسب الحوليات الجنوية في 24 أبريل 1355. أنظر AG, T10, p82. وجاء في المصادر الجنوية أن عدد الجنويين الذين هاجموا طرابلس بلغ ثلاثة آلاف رجل. أنظر Canale, Tripoli , p78. غير أنه يحدد تاريخ الهجوم في 1357 والأصح هو 1355.
[5] - Mas Latrie, p 385.

لقد اعتبرت جنوة هجوم "دوريا" على طرابلس عملية من أعمال القرصنة، خاصة وأن الهجوم لم تشارك فيه أطراف مسيحية أخرى، بل إنها ذهبت إلى حد شجب تصرف "دوريا" واعتبرته موقفا فرديا، لا يعبر بالضرورة عن موقف كومونة جنوة التي كانت آنذاك على علاقات ودية مع طرابلس، ثم إن "دوريا" حينما غادر جنوة شتاء 1354 على رأس15 مركبا، لم يكن يستهدف هدفا معينا، بقدر ما كان يروم القيام بعمليات تضعف المنافسة الكطلانية بالبحر، ولم يجعل طرابلس هدفا لعملياته، إلا بعد أن وصلته أخبار عن تمرد سكانها على حاكمها[1].

طالب الجنويون مقابل انسحابهم من المدينة بفدية تقدر بخمسين ألفا من الذهب العين، وجمع أبو العباس بن مكي صاحب قابس المبلغ من أهل بلاده ومن بلاد الجريد، كما بعث في شأن قسط منه إلى السلطان المريني أبي عنان[2]، وتمّ انسحاب الجنويين من طرابلس في ثاني شعبان 756هـ "بعد أن نقلوا جميع ما فيها إلى بلادهم جنوة وتركوها خالية خاوية"[3]. والواقع أنه رغم أداء ابن مكي للفدية، فإن الجنويين اصطحبوا معهم إلى جنوة عددا من الطرابلسيين كأسرى[4].

صحيح أن هجوم دوريا على طرابلس لم يكن حملة صليبية مثل الحملة التي قادها "لويس التاسع" على تونس، وساهم فيها الجنويون، وكانت مجرد عملية من عمليات القرصنة، غير أن جنوة راقبت الهجوم بدليل أنها حذرت البندقية التي كانت لها مصالح بطرابلس من مغبة التدخل بالمدينة أثناء حملة "دوريا" عليها[5]. وبدون شك، فإن الحملة على طرابلس أضرّت بسكان المدينة، ورغم أن تونس الحفصية كانت منهمكة أثناء الحملة بمشاكلها الداخلية، ولم تقو على مواجهة الجنويين، فإن الهجوم

بينما يشير "فياني " إلى 19 ألف فلورين، أنظر Villani (M), Gronica, T4, Gênes, 1823. أما "كنال" فيتحدث عن 800 ألف فلورين.
[1] - Lopez, Storia delle colonie, p271.et Balletto,Famiglie Genovesi,op.cit,p 54.
-Chiappa (M.L), Il commercio occidentale, p575.
[2]- يذكر الوزان أن الجنويين لما حصلوا على الفدية المطلوبة غادروا طرابلس، وأطلقوا سراح الأسرى، لكن تبين لهم بعد انسحابهم من المدينة أن نصف المثاقيل كان مغشوشا. وصف إفريقيا، ج2، ص99، وقد كانت الأزمة النقدية قد نخرت جسم الدولة المرينية منذ سنة 736هـ ومن مظاهرها استشراء ظاهرة تزييف العملة التي تعاطى لها اليهود بكثرة. أنظر: الحكيم، الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة...والملاحظ أن قيمة الفدية التي أوردها الوزان ، تتفق مع ما أوردته عنها المصادر والدراسات الجنوية ، مثل :
- Vitale,Brevario,p138.
- Meloni,Genova e l'Aragona,T2,p p92-93.
[3]- الزركشي، تاريخ الدولتين.م.س.
وابن خلدون، تاريخ العبر، ج6، ص369.
[4]- Mas Latrie,Traités, p 386
[5]- Doumerc, op cit, p43.

الجنوي على طرابلس خلّف مضاعفات سلبية على العلاقات بين جنوة والأمراء الحفصيين[1]، وقد استمر النفور لمدة طويلة بين الطرفين[2]. واستغلت أطراف أخرى تنافس الجنويين ببلاد المغرب فرصة توتر العلاقات بين جنوة وطرابلس، مباشرة بعد حملة "دوريا" عليها، لتعزز حضورها بالمدينة. فقد سارعت البندقية - فعلا - إلى توقيع معاهدة مع ابن مكي الذي أصبح حاكما مستقلا على طرابلس في 9 يونيو 1356.

1 - Mas Latrie. p315.

2 - Lopez. Storia delle Colonie. p271

[illegible] Vitale. Cronaca [illegible]

الفصل الرابع:

تنظيم الحضور الجنوي ببلاد المغرب ومظاهره

هيأ الإطار السياسي والقانوني للعلاقات المغربية الجنوية في الفترة المدروسة عدة أشكال للحضور الجنوي ببلاد المغرب، ويمكن أن نلاحظ فيه شكلين أساسيين. هناك الحضور التجاري، وهو الشكل المهيمن، وقد تقنّن عبر المعاهدات التجارية المبرمة بين الطرفين، والتي ضمنت للتجار الجنويين ببلاد المغرب الإقامة بفنادق خاصة بهم، وسمحت لقنصلهم أن يمثلهم لدى السلطة المغربية. ثم شكل يمكن القول بأنه اتخذ صفة ظرفية وتمثل في البعثات الدينية، وفي وجود بعض المرتزقة الجنويين لتقديم خدمات عسكرية للسلطة المغربية.

1 - الفنادق:

عاش الإيطاليون كغيرهم من الأوربيين ببلاد المغرب ببنايات خاصة بهم عرفت باسمها الإغريقي المعرّب، وهي الفنادق[1]. وكان الفندق عبارة عن حي داخل المدينة المغربية، إذ توافرت به معظم المرافق الضرورية للحياة، كالفرن والحمام والخمارة والمقبرة... وكانت السلطة المغربية هي التي توفر في الغالب النفقات الواجبة لبناء الفندق أو إصلاحه[2].

ويشير "كنال" مؤرخ جنوة إلى وجود فندق للجنويين منذ سنة 1214 ببجاية[3]؛ ويبدو أنه سابق عن هذا التاريخ إذ يتحدث عنه أحد عقود الموثق "جيوفني"

1 - [illegible]

2 - [illegible] Mas Latrie. Traités. p170.

3 - Canale. Nuova. T2. p335.

[illegible] 1197 [illegible] 1136 [illegible]

Jehel. les Génois. p367

- Vitale. Breviario. T1. p34.

دي غوبرتو" منذ سنة 1200، ووجد الفندق الجنوي بتونس في 1223[1]، وبسبتة منذ 1228[2]. وللمقارنة فقط، نذكر أن فندق الكطلانيين بتونس يعود إلى سنة 1253، وببجاية يعود – حسب ديفورك – إلى سنة 1259[3]، بينما يشير أحد العقود المؤرخة بسنة 1252 إلى الفندق الكبير بتلك المدينة "fundico magno Buzee"[4]. وقد طالب الجنويون السلطة الحفصية من خلال البند 13 من معاهدة 1236 بضرورة توفير فنادق لهم بكل المدن التي يتاجرون معها.

ومن الصعب تحديد أماكن الفنادق الجنوية ببلاد المغرب نظرا لغياب أبحاث أركيولوجية في هذا المستوى. ولكن من الأكيد أنها كانت بحكم ارتباطها بالتجارة البحرية قريبة من الميناء. وقد حدد الأنصاري – فعلا– فنادق المسيحيين السبعة بسبتة قبالة دار الإشراف في الركن الشمالي الشرقي من المدينة[5].

توزعت الفنادق الإيطالية بسبتة وأصيلا والعرائش وأنفا وتلمسان ووهران وبجاية وبونة وجيجل والمهدية وتونس وطرابلس، كما كانت للبيزيين والجنويين فنادق بقابس وصفاقس منذ القرن 12م[6]. ويبدو أن الفندق الجنوي كان الأكبر من بين الفنادق المخصصة للأوربيين ببلاد المغرب، فقد طالب منافسوهم من البيزيين السلطة الحفصية عبر معاهدة جمعتهم بها سنة 1234 في بندها الخامس، بالسماح لهم بإحداث توسعة في فندقهم كما كان عليه الفندق الجنوي. وقد توافر الجنويون أيضا على دور بالمناطق التي لا توجد بها فنادق للإقامة، وذلك على غرار ما تمتع به البيزيون – على الأقل– على عهد أبي عنان[7].

---

[1] -Pistarino, Notaï, p :XX

[2]- ورد ضمن العقد المؤرخ بسنة 1228، بأرشيف جنوة، المجموعة 16، II، الورقة 58.

[3] -Dufourcq, l'Espagne, p99.

[4]- مؤرخ ب 1253/3/6 ، المجموعةII ، الورقة خلفية 49/ عقد المجموعة II/18.

[5]-الأنصاري، اختصار الأخبار... ص42.

[6] -Latrie, Traités pp 171-172.

ونظرا لأهمية الأنشطة التجارية للجنويين بسبتة، فقد توفروا على أكثر من فندق، حسب صيغة الجمع التي يستعملها ابن عذاري بمناسبة الهجوم الجنوي على سبتة عام 1234. بينما حصلوا على فندق جديد لهم بتونس بعد معاهدة 1287، وأصبح هذا الفندق مخصصا لإيداع السلع إلى جانب الفندق القديم الذي كان مخصصا لإجراء المبادلات وتحرير عقود البيع والشراء، أنظر: Pistario, Notai, pXXIV

وتجدر الإشارة إلى أن أبحاثا أركيولوجية قام بها محمد محسن بآسفي كشفت عن وجود بقايا لمباني ذات طابع اقتصادي تعود إلى نهاية ق12م/6هـ ونتساءل عن حظوظ اكتشاف فندق يعود إلى الفترة المدروسة بهذه المدينة التي شكل ميناؤها مجالا لنشاط الجنويين ابتداء من منتصف القرن 13م/7هـ. يمكن الرجوع إلى تقرير حول هذه الأبحاث عند : Mohammed Mohssine, Safi : Les débuts d'une archéologie de sauvetage au Maroc, Archéologia, N°311, Avril 1995, p4.

[7]- جاء في معاهدة 1358 بين أبي عنان والبيزيين "يسكنون في فندق خاص بهم أو دار إن لم يكن بالبلد فندق منحازين دون غيرهم". Diplomi Arabi Amari, op.cit

ويظهر أن الفندق الجنوي كان مفتوحا في الغالب، ولم يتم تسويره إلا بعد احتداد المنافسة من جانب باقي التجار الأوربيين، وطرحت مسألة فصل الفندق بين الجنويين والبيزيين بتونس منذ 1234[1]. ومع ذلك، فإن الفندق الجنوي ظل مفتوحا في وجه باقي المسيحيين لإجراء أنشطتهم التجارية به. وتشير عقود الموثق "باتغليو" الذي أقام لعدة أشهر بتونس سنة 1289 إلى أن الفندق الجنوي بها عرف عدة أنشطة للتجار البيزيين والبنادقة.

سبق القول بأن الفندق الجنوي ببلاد المغرب كان متوافرا على معظم المرافق الضرورية للإقامة، وقد نصّت المعاهدات الموقعة بين جنوة وبلاد المغرب على توفير حمام للجنويين بفندقهم، وفي حالة عدم وجوده، فقد كان بإمكانهم ارتياد أحد حمامات المدينة مرة واحدة في الأسبوع[2]. كما جرت العادة على أن يختص النصارى بفرن خاص بفندقهم "ليطبخوا فيه كعامهم لا غير من غير أن يشاركهم فيه..."[3]. وكان بإمكان الجنويين الاستفادة بفنادقهم من خدمات أطباء ، كما كان الحال مع " Gherardo de Longis " الذي كان مقيما سنة 1252 بفندق الجنويين ببجاية لمداواتهم[4].

وغالبا ما كانت بكل فندق كنيسة يرأسها قس الجنويين بسبتة[5]، كما شغل المنصب نفسه بالفندق القديم للجنويين بتونس القس" تيلدو" Tealdo[6]. وكانت كنيسة الجنويين بتونس تحمل اسم "سان لوران" تيمّنا بالكنيسة الرئيسة بجنوة. وإذا كانت المصادر تحتفظ لنا بإشارات عن النشاط التبشيري لبعض رجال الدين الجنويين ببلاد المغرب، فكل ما نعرفه عن نشاط الكنائس الموجودة بالفنادق الجنوية في هذا المستوى، أن أحد المسلمين عمّد بكنيسة الفندق الجنوي ببجاية في منتصف القرن 13م[7].

لقد كان الفندق الجنوي ببلاد المغرب يعيش حركة دائبة، إذ لم يكن مجرد مكان للإقامة وخزن السلع، بل كانت تجرى به العمليات التجارية بين المسيحيين من جهة، وبين المسيحيين والمسلمين من جهة أخرى، ولذلك كان قبلة لعدة عناصر مهتمة

---

[1] -Pistrarino, Notaï, pXX

ويبدو أن فندق الجنويين والبيزيين بتونس لم ينفصل نهائيا في هذه السنة بدليل أن البيزيين كتبوا السلطة الحفصية بذلك سنة 1264 : Latrie, p45. -

[2] -Latrie, Traités, p 195.

[3] -Alarcon, Los documentos, p267.

[4] العقد محفوظ بأرشيف جنوة ASG، المجموعة 34، الورقة الخلفية 57، مؤرخ ب 15-4-1252.

[5] -Mascarenchas, Historia de la cuidad de Ceuta, édition Domellas, Lisbonne, 1918, pp51-52.

[6] -Pistarino, Notaï, pXXVII

[7] -Dufourcq, l'Espagne, p107.

بالنشاط التجاري، كالمترجمين والكتاب والحمالين والمكلفين بالحسابات...[1]. وقد ورد في أحد بنود معاهدة 1343 بين الحفصيين وجنوة أنه يسمح للجنويين اقتناء الأصواف والجلود ومواد أخرى من الفنادق[2]. وفي غياب معطيات إحصائية عن عدد الجنويين الذي كانوا يقيمون بفنادقهم ببلاد المغرب، يستفاد من عقود الموثق "باتفليو" أن حوالي 300 شخصا كانوا مقيمين بصفة مستمرة بالفندق الجنوي بتونس سنة 1289[3]، ولربما هذا لا يستقيم مع ما ذهب إليه "برنشفيك" الذي اعتقد بأن أعداد التجار الأوروبيين لم يكن مرتفعا ببلاد المغرب، ولم يتجاوز بعض العشرات بتونس على أقصى تقدير لكل جنسية، وأن مقامهم بالمنطقة كان ظرفيا نظرا لمنعهم من اصطحاب أو استقدام نساء من بنات جنسهم، وتعذر زواجهم بنساء أهل البلاد[4].

والواقع أن السلطة المغربية لم تأل جهدا من أجل تمتيع التجار الجنويين كغيرهم من الأوروبيين بالظروف الملائمة على الاستقرار ببلاد المغرب نظرا لأهمية المداخيل التي كانت توفرها التجارة مع الأوروبيين لفائدة السلطة المغربية، ويبدو أن المضايقات التي لقيها الجنويون بفنادقهم كانت قليلة. ويمكننا أن نحصرها في هجوم القبائل المحلية عليه بسبتة سنة 1234، وفي مقتل "Traverino Traverio" في 8 أكتوبر 1278 بتونس حيث كان يتاجر في الزيوت[5]، وأخيرا في التوتر الذي عرفه فندق الجنويين القديم بتونس سنة 1289 في موضوع الزيوت[6]. وعدا هذه المحطات الساخنة، يمكن أن نقول بأن مقام الجنويين ببلاد المغرب كان آمنا، ولم تعرف فنادقهم بالمنطقة ما عرفته الفنادق الأوربية من مضايقات بالشرق، وخاصة بالاسكندرية حيث لجأت السلطة إلى إغلاق الفنادق ليلا وإلى فتحها في أوقات محددة[7]. ومن الصعب الأخذ بما ذهب إليه "داوود أبو العافية" لما ذهب إلى أن الإيطاليين كانوا يعيشون في

[1]-Ibid, p70.

[2]- Balbi,Il Trattato,p 320.

[3]-Jehel, Les Génois, p398.

[4]- برنشفيك، ج1، ص464. ويرجح الأستاذ الشريف أن تكون بيوت للدعارة قد أقيمت في فنادق النصارى... ولـ... أشارت إلى وجود دور مخصصة للدعارة سبتة كباقي مدن موانئ المتوسطية. وكانت توجد بهذه الدور أو الفنادق نساء عاهرات عرفت بالخرجيات (أو خراجيات) أنظر الشريف محمد، سبتة الإسلامية... ص122.

[5]-Ferretto, Codice, T2, p247.

[6]- كانت تونس في حاجة إلى الزيوت خلال هذه السنة، وقد رفض القنصل الجنوي "... أمبرسي" تقديم الزيوت إلى أهل المدينة مجانا، فهاجم هؤلاء الفندق الجنوي مسلحين بالحجارة والعصي. أنظر:

Pistarino, Notai, acte N°97.

[7]-Latrie, Traités, p170.

"غيتو" بتونس، ولم يكن بإمكانهم الخروج منه بفعل انعدام الأمن[1]. ويقدم عرضا بعدة لغات لأسماء الأماكن التي كان بإمكان التجار الأوروبيين التر... بالبلاد الإسلامية، ومن ضمنها اسم السوق "sugo"[2]، ومن المعلوم أن بعض الأسواق كانت توجد خارج الفنادق الأوربية.

وتتيح الوثائق الجنوية بما لا يدع مجالا للشك قرائن عن استقرار بعض الجنويين ببلاد المغرب لمدة طويلة. فقد التزم الجنويان "ماروزا" Enrico de Fonte Marosa و"روسو" Giavannino Rosso بخدمة مواطنهما "أدورنو" Adorno Lanfranco الذي كان يتاجر مع سبتة مدة 25 شهرا – أي مدة عامين وشهر واحد– ، وحددت الوثيقة نوعية الخدمة التي يجب أن يقدمها كل واحد منهما، والأجرة التي يتقاضاها عن ذلك[3]. وحسب عقد مؤرخ بفاتح غشت 1271، التزم "باغنو" Pagane ابن "دي فولو" Marchesio de Folo بالبقاء مدة سنتين إلى جانب "Enrico" أحد رجال الدين الجنويين بسبتة[4]. وفي عقد آخر مؤرخ ب13 فبراير 1275، استأجر "جيوفاني" Giovanni دكانا بالفندق القديم للجنويين بتونس مدة سنتين[5]. كما أن "كتستنا" Contesina أرملة "Lanfranco Cargenio" وابن أخيها "لمباردنو" Lombardino اكتريا منزلا كان يقطنه خياط جنوي يدعى "أندريلو" Andriolo لمدة سنتين، ويوجد المنزل بالفندق الجنوي بتونس. وقد تم أداء ثمن الكراء بجنوة من طرف الوسيط "بونو" Pietro Bono ، لأن صاحب المنزل كان يستقر بتونس بحكم عمله بها، وكان ينتقل إلى جنوة مرة كل سنتين[6]. وتشكل أنشطة الموثق "جينوينو دي بريدوني" نموذجا حيّا عن انسياب الحركية التجارية للجنويين مع بلاد المغرب. فقد حرّر مجموعة من عقود تجار جنوة مع بجاية، ومارس التجارة مع هذه المدينة، بل وأقام فترة بها للإشراف على أنشطته وأنشطة أفراد من أسرته. ومن مظاهر ذلك أنه في شهر ماي ويونيو من سنة 1262، كان مقيما ببجاية، وأرسل الجلود منها إلى زوجته "سمولينا" Simolina

[1] - Abulafia (David),Gli Italiani fuori d'Italia, Storia dell' economia italiana ,dir R.RomanoT1,1999, p277.

[2]- Pegolotti, La Pratica,p 17.

[3]- تمثلت الخدمة في تقطيع القماش وفي الخياطة وخدمة لانفرانكو أدورنو على المائدة، وقد كان الأجر سنويا، وقدر بـ 26 ليرة دفعت منها 6 ليرات مقدما لصالح Marosa "ماروزا". بينما حدد الأجر السنوي لروسو Rosso في 6 ليرات قدمت له منها مسبقا ليرتان.

In. Jehel, les Génois, p395.

[4] -Ferretto, Codice, T1, p242.

[5] - Ferretto, Codice, T2, p10.

[6] Jehel, Les Génois p 398.

و"جيكومو" Giacomo Di Sori. وفي شهر يناير من سنة 1267، كان موجودا ب
ونقل قراضا لمجموعة من الجنويين للتجارة مع بجاية. وقد أقام ببجاية منذ
1269 لممارسة التجارة بها، ليعود مرة أخرى إلى جنوة، ويبقى ممارسا للتجارة مع
المغرب.[1]

ولعل اكتراء أو امتلاك المنازل والدكاكين من طرف الجنويين ببلاد المغرب
جدير بالملاحظة. فإضافة إلى إمكانية امتلاك أو اكتراء هذه المرافق بالفنادق
الجنويين تمكنوا من الاستفادة منها خارج الفنادق "Extra fundicum"، مما يوضح
استقرارهم ببلاد المغرب كان يستمر لمدة طويلة. فقد كان" نيبتلا"Nicoloso
Nepitella ممتلكا لمنزله سنة 1236 قرب دار الصناعة بسبتة[2]. كما أن "كستلو"
di Castello امتلك دكانا بسبتة باشتراك مع "شبا"Enrico Ceba ، ودكانا آخر بالشراكة
مع "شرادا" Guglielmo Cirada وورثة "مزليس" Mazalis Nicole. ولدى
"مالنو" Pignoto Mallono للحصول على قيمة استئجار تلك الدكاكين[3]. وتشير
مؤرخة ب 21 أكتوبر 1225 إلى توصل الجنوي "بتريو" Grazalo Patrio بأربع ليرات
ونصف مستخلصة من دكاكين كان يمتلكها ببجاية[4]. وحسب عقد مؤرخ ب
1263، توصل أحد الجنويين بحصته عن تجارته بسوق " Zucho "ببجاية[5]، ولدى
موضع السوق بالمدينة الإسلامية خارج الفنادق والديوانة المعدة لتجارة الجنويين
وتتحدث إحدى الوثائق التي نشرها "فريطو" عن وفاة الجنوي "غتلوكيو"
Giovanni Gattiluxio بتونس سنة 1278، حيث كان يمتلك ثلاثة منازل قريبة
منازل الجنويين "اكتمتوري" Ugeto Actimatore و"بوكشيو" Pasquale Boccacio
"اندريلو"Andriolo. وهذه المنازل موجودة على طول الشارع الرئيس للفندق من
السوق الموجود قرب منازل المسلمين[6]. ولاشك في أن امتلاك الجنويين للدكاكين
والمنازل ببلاد المغرب، ساهم في الأرباح التي حصلوا عليها ببيع أو كراء تلك المرافق
حتى إن أولئك الملاكين نصبوا وسطاء عنهم بالمنطقة لاستخلاص قيمة البيع أو

1-Valerian, Bougie, op.cit, pp 301-302.
2-Canale, Nuova T2, p350.
3-Dufourcq, Aperçu, p727 note 45.
4-Jehel, Les Génois, p395.
5-Ibid, p397.
6-Valerian(D), Marchands Latins et sociétés portuaires dans le Maghreb médiéval, in Les migrations en milieu urbain au moyen âge, Publications de la Sorbonne.2013.p 218.
7-Ferretto, Codice, T2, p246.

الكراء[1]. وقد وافت المنية بعض الجنويين وهم مقيمون ببلاد المغرب، كما هو مع "Bonanaino Ferrario" الذي توفي ببجاية سنة 1269 وبيعت ممتلكاته بالبيع بالحلقة، وقد أرسل أبوه مفوضين عنه لاستعادة قيمة ممتلكات ابنه بعد بيعها، والتي بلغت 41 دينارا فضيا[2].

لا شك في أن الجنويين شكلوا إحدى أهم "الجاليات " التجارية الأوربية المتعاملة مع بلاد المغرب آنذاك. وقد ساهمت في هذه الوضعية دقة تنظيم حضورهم بالمنطقة. ولعل مما له دلالته عن أهمية هذا الحضور أن الأمر انتهى ببعض الجنويين إلى تعلم اللغة العربية و التوافر على عقود في نسختها العربية.[3]

إن هذه النماذج المقدمة – على قلتها- تبرز أن حضور الجنويين ببلاد المغرب ،لم يقتصر على الفندق والديوانة . وإذا كانت المصادر تسمح بالوقوف على الآليات التي تبنتها السلطة بالمنطقة لمراقبة أنشطة الجنويين بهتين المؤسستين ، فإنه من الصعب معرفة الآليات التي لجأت إليها لمراقبة أنشطتهم خارجهما . ولعل أداء ضريبة "البراءة" albara– التي سنقف عندها- كانت قمينة بضمان تحركات الجنويين خارج الفندق والديوانة.

2– القناصل:

جسّدت القنصلية إحدى "المؤسسات" التي انتظم من خلالها الحضور الجنوي ببلاد المغرب، وكان القنصل بمثابة مدير للفندق وممثل لجنوة لدى السلطة المغربية.

ولا نعرف الجذور التاريخية لحضور هذه "المؤسسة" الجنوية ببلاد المغرب، علما بأنها ظهرت بالمشرق في القرن 12م إثر الحروب الصليبية[4]. غير أنه رغم تأخر ظهور القنصلية الجنوية ببلاد المغرب، ففي الغالب أنها وجدت بتونس منذ سنة 1223 بفعل كثافة المبادلات التجارية بين جنوة وتونس[5]. وبعيدا عن كل احتمال، فإن أقدم وثيقة متوافرة لدينا تتحدث عن وجود قنصل جنوي ببلاد المغرب، ترجعه وثيقة محفوظة بمارسيليا، وليس بجنوة، إلى سنة 1234 بمدينة بجاية، وذلك من خلال وجود قنصلين

1- انظر: Ferretto, Codice, T2, p246.
2 - Valerian, Bougie, p 315.
3 - Valerian(D), Marchands Latins , p215.
4- برنشفيك، ج2، ص465.
5 -Balard, Notes, p369.

الجنويين بهذه المدينة، وهما "ابرتو مزارو" و"جيوفاني كرماينو"[1]، بينما تشير المصادر إلى وجوده بسبتة عقب توقيع حاكمها اليانشتي الهدنة مع جنوة[2]، وتأخر ظهور القنصلية الجنوية بتونس إلى سنة 1250، لما وقعت جنوة معها معاهدة هدنة وتجارة، والتي أشارت لأول مرة إلى هذه "المؤسسة"[3].

وكيفما كان الأمر، فقبل أن تعين جنوة قناصلتها ببلاد المغرب في القرن 13م، أوكلت نفس المهام التي سيقوم بها القنصل إلى كاتب الفندق[4]. ومن المعلوم أن جنوة عيّنت "بونجيوفاني" Buongiovanni منذ سنة 1164 كاتبا لها ببجاية[5]. وبعد أن تكثفت العلاقات الجنوية المغربية في النصف الأول من القرن 13م/ 7، أصبحت الحاجة ملحة إلى تعيين قناصل جنويين ببلاد المغرب، يمثلون جمهوريتهم لدى السلطة المغربية، ويدافعون عن مصالح رعاياهم بها. وقد أقدمت جنوة في سنة 1267 على تعيين قنصل عام لها بسبتة، يراقب وينسق بين باقي القنصليات الجنوية ببلاد المغرب والأندلس[6].

ويبدو أن طريقة تعيين جنوة لقناصلتها ببلاد المغرب، قد اختلفت عن طريقة تعيين بيزة لهم. فقد كانت جنوة ترشح عنصرا من ارستقراطيتها لشغل هذا المنصب، بينما كان القنصل البيزي يختار من بين التجار المتعاملين مع بلاد المغرب[7]. كما أنه على عكس القناصلة البنادقة ببلاد المغرب[8]، فإن القناصلة الجنويين كانوا يتقاضون أجورهم انطلاقا من إيرادات الفندق، أو من قسم من الضرائب التي كان مواطنوهم يدفعونها إلى الديوانة[9].

وكان القنصل الجنوي على غرار القنصل البيزي والبندقي ببلاد المغرب يزاول مهامه لمدة سنتين، ويقوم بدور إداري أكثر منه سياسيا، فعلى الرغم من أنه كان يحضر

[1] - Blancard (L), Documents inédits sur le commerce de Marseille au Moyen âg Marseille, 1884-5, T1, N°45.
[2] -Schaube, p 350.
[3] -Vitale, Breviario, T1, p111.
[4] -Lopez, Studi, p27.
[5] -Balletto(L), Bougie, op cit, p28.
[6] -Dufourcq,La question, p115.
[7] -Schaube, p363.
ـحمت البندقية لقنصلها ببلاد المغرب أجرا ضعيفا لم يتجاوز 400 دوكة سنويا، وفرضت عليه قبول مهامه خلال ـز لا يتعدى ثلاثة أيام ، وإلا يفصل من المهام التي يزاولها بالبندقية، كما ألزمته بعدم مغادرة الدولة التي عين بها، ـعيين البندقية لمن يخلفه. أنظر : Doumerc, p39et p174
ـنبحث ج 1، ص469.

توقيع معاهدات السلم والتجارة بين جنوة ودول بلاد المغرب[1]، فإنه لم يكن يتفاوض في شأنها مع السلطة المغربية، وقد لاحظنا أن كل المعاهدات التي تمت بين جنوة وبلاد المغرب، بعثت جنوة سفراء بصددها إلى سلاطين المنطقة. لقد كان القنصل المكلف الأول بتسيير شؤون الفندق، ونصّت معاهدة 1343 على حرمان كل من لا يحمل رخصة من القنصل من الدخول إلى الفندق[2]، كما كان يقضي بين مواطنيه في حالة وجود خلافات بينهم، ويدافع عن مصالحهم لدى مصلحة الجمارك والسلطة المغربية[3]. وقد جاء في البند الخامس من معاهدة 1343 أنه في حالة إذا كان المتقدم بالشكوى مسلما ، فإن القنصل الجنوي يبتّ فيها، وإذا كان المشتكي جنويا ، فإنه يحولها إلى الديوان. وكان يؤدي مهامه بمساعدة مجلس وصل عدده إلى 12 تاجرا بتونس.[4]

ونصّت مختلف المعاهدات على تخصيص فترة معينة يقابل القنصل خلالها السلطان المغربي. فقد كان بإمكانه أن يقابله تبعا للمعاهدات التي أبرمتها جنوة مع تونس الحفصية قبل 1343 مرة واحدة في الشهر، وبمقتضى البندين 5 و22 من هذه المعاهدة، أصبح بإمكانه أن يقابله مرتين كل شهر[5]. ولم تحل المهام التي أوكلت إلى القنصل دون تعاطيه للأنشطة التجارية بشكل مباشر[6]، أو بأن يشهد على العمليات التجارية[7]. وتجدر الملاحظة أن الأمثلة المتوافرة لدينا عن نشاط القناصلة الجنويين ببلاد المغرب مقتصرة على نشاط القنصل بتونس عام 1289، وكلّها مستمدة من عقود الموثق "باتفليو" التي تمثل العقود الوحيدة المتوافرة لدينا –حسب علمي– عن نشاط الجنويين، ليس فقط ببلاد المغرب، بل وبالدول الإسلامية كلها.

ويمكن القول بصفة عامة إن المعاهدات التي قنّنت العلاقات المغربية الجنوية، جعلت القنصل الجنوي ببلاد المغرب يؤدي مهامه بكل اطمئنان، وعدا التشنج الذي

[1] -Pistarino, Notaï, p XXIII.
[2] -Balbi, Il trattato, p307.
[3] -Latrie, p 136.
[4] - Balard, Note sur le commerce génois en Tunisie au 13 siècle,CT, 1991,p .381.
[5] -Balbi, Il trattato, p307.
[6]- اشترى القنصل الجنوي بتونس Balianno Imbrono "امبرنو" في 28 فبراير كمية من الصوف الغليظ بلغت 50 قنطارا نقلها من سوسة إلى تونس، وفي 30 مارس من نفس السنة ، ساهم إلى جانب تجار آخرين بالقسط الأكبر من رأس المال لنقل كميات من الصوف والقماش وجلود الماعز والبقر على سفينتين من تونس إلى سارنينيا، وفي 13 ماي استأجر سفينة لنقل بعض السلع من تونس إلى جنوة، أنظر: Jehel, Catalogue, acte n°19, p60 et 91 ، ويقابلها لدى " Pistarino "في Notaï أرقام 19 و60 و 91 كذلك.
[7]- حضر القنصل الجنوي بتونس الجلسات الخاصة ببيع قبالة الخمور بالمزاد أنظر:
Jehel, Catalogue... n°1, Pistarino, Notaï...N°1.

تتبع علاقات جنوة بتونس الحفصية في شأن "قضية الزيوت" عام 1289[1]، فإن القنصل الجنوي ببلاد المغرب وجد كل التسهيلات في أداء مهامه بها. ويبقى أن نشير إلى أن المعطيات المتوافرة لدينا عن القناصلة الجنويين ببلاد المغرب، تهم تونس وبجاية وسبتة، و لا نعلم ما إذا وجد قناصلة جنويون بباقي المراسي المغربية التي تعامل معها الجنويون ، أو إنه كان لهم نواب يمثلونهم بها؟

3-الحضور الجنوي بالجمارك المغربية:

كانت الضرائب الفلاحية والرسوم المستخلصة من التجارة الداخلية والخارجية من الناحية النظرية من أهم مصادر تمويل خزينة الدولة المغربية[2]. وكانت الجمارك بتونس وبجاية أو بتلمسان وبسبتة من أعلى وظائف الدولة[3]. وبما أن موضوع تنظيم هذه المؤسسة ببلاد المغرب مطروق ومعروف، فإننا نقف أساسا على مظاهر الحضور الجنوي بالجمارك المغربية،علما بأن المصادر العربية لا تتحدث عن كيفية تنظيمها، ما يجعل ضالّتنا في هذا الموضوع تقع على ما جادت به المصادر الأوربية عنه.[4]

لم تكن الجمارك مجرد مكان لخزن السلع وأداء الضرائب، بل كانت المبادلات تجري بها كذلك، وقد نصّت معاهدة 1250 بين جنوة والدولة الحفصية في بندها السادس على ذلك. وكانت تتم بواسطة المزاد العلني، وتسمى هذه العلمية في الوثائق الإيطالية ب"Galega" (الحلقة)، وذلك بحضور دلال تعينه السلطة ومفتشين وشهود من الجمارك، أو تتم بدون مزاد علني [5].

تجسد الحضور الجنوي بالجمارك المغربية من خلال بعض الموظفين. هناك المشرف، وهو ممثل السلطة المغربية بها، ويرد بالوثائق الإيطالية تحت اسم"Dominus dogane" [6]، ثم الكاتب" Scribe"، وشغل – كما سبقت الإشارة- منصب القنصل

[1]- تقدم القنصل الجنوي بتونس "Balianno Inbrono" امبرنو" بطلب لدى شيخ المدينة ابن محمد Adilac (عبد الحق؟) بن سليمان والفقيه بن يعقوب وقاضي المدينة أبي إسحاق ابن Raset؟ ومدير الجمرك بها لتسديد ديون على تونس لصالح جنوة ناتجة عن مبيعات للزيوت. غير أن طلب القنصل الجنوي رفض، أنظر Catalogue n°79 et Jehel، Pistarino، Notai n°96 .وقد جاء موقف السلطة الحفصية مواكبا "لأزمة" زيوت كانت تمر بها، أنظر: Dufourcq, Chrétiens et Musulmans...in AEM, T10, p217.

[2] -Laroui (A), l'histoire du Maghreb, Paris, 1970, T1, p194.

[3] -Mas Latrie, p 335.

[4] - Valerian , Bougie, op, cit,p 257.

[5] -Ibid, p193.

[6] -Valerian,Bougie,op, cit,p 259.

قبل إحداث هذا المنصب. وكان يقوم باستخلاص الضرائب وبمهمة الحسابات. وقد زاول القنصل الجنوي مهامه ببجاية منذ التوقيع على معاهدة 1161 مع عبد المؤمن، ونعلم أن "بونجيوفاني" Bonogiovanni كان أول كاتب لجنوة ببجاية، كما شغل "Riccobono" المنصب نفسه بتونس سنة 1244[1]. وإذا كان "شياسكا" يرى أن جنوة عينت كاتبا لها بسبتة منذ 1214، فإن "لوبيز" ربط ظهوره بالمرسى المغربي بعد أحداث سنة 1234، وما استتبعها بما عرف بمعونة سبتة[2]. ونظرا لأهمية الحضور الجنوي ببلاد المغرب، فإن كومونة جنوة أحدثت بالفندق التابع لرعاياها بالمنطقة كتابة "Scribania" تشرف على مناقصة الفندق، أو جزء من مرافقه، والتي كانت تجرى كل سنتين. ويبدو أن مناقصة الفندق كانت مجالا للربح، ما جعلها تحظى باهتمام الأسر الجنوية الشهيرة بثروتها[3].

إضافة إلى الكاتب، نصّت المعاهدات المبرمة بين جنوة وبلاد المغرب على وجود وكلاء يضمنون سيرها العادي، وقد تحدثت معاهدة 1236 بين جنوة والدولة الحفصية في بندها 14 عن "officiarii curie". وكانت عملية التوقيع على المعاهدات تتم بحضور شهود مسلمين وظيفتهم تقديم شهادتهم بالديوان[4]. كما وجد المترجمون بالمراسي المغربية، وخاصة في العلميات التي تتم بالحلقة[5]. ويبدو أن وظيفة الترجمة قد خضعت لتراتبية حددتها نوعية العقود التي كان المترجمون يترجمونها. وقد شغل أعلى هذه التراتبية مترجمو المعاهدات[6]. وتحتفظ لنا بعض المعاهدات بأسماء هؤلاء، ومن بينهم، نذكر "أبرهام الصقلي" Abraham Seqali – لعلّه من يهود تونس- الذي كان مترجما رسميا للسلطان الحفصي أبي حفص عمر الذي حكم ما بين 1284-1295[7]. كما ورد في العقود التي حررها الموثق باتفليو بتونس سنة 1289 اسم "Giovanni Dachirida" الذي كان يترجم العقود من العربية إلى اللاتينية، واسم "Asem"باعتباره مترجما بالديوانة.

[1] -Jehel, les Génois, p378.

[2] -Lopez, Studi, p26.

[3] -Ibid.

[4]- الغبريني (أبو العباس أحمد) عنوان الدراية ...نشره رابح بونوار،الجزائر،1970،ص93

[5]- نصت على ذلك مثلا معاهدة 1343 في البند 16 و17.

[6] -Mas Latrie, p339.

[7] -Ibid, p286.

ولم تتوافر لدينا معلومات عن تنظيم وظيفة الترجمة لدى الجنويين ببلاد المغرب، وفي الغالب أنها بلغت مستوى عاليا من التنظيم بحكم أهمية المبادلات التي أجراها الجنويون بالمنطقة، ونكتفي بالإشارة إلى أن "شوب" تحدث عن وجود تعاونية للمترجمين البيزيين بجمارك تونس[1].

وكان الوزّانون أحد طواقم الديوان، ومهمتهم تحديد الموازين والإشراف على عملية الوزن، وكانوا يسترشدون في ذلك بما جرت عليه العادة، وبما جاء بكتب التجارة، كما هو مع مرشد التجار لبيغولوتي، حيث ترد الإشارات عن المعادلات بين موازين بلاد المغرب وما هي عليه بالمدن الإيطالية. أما الحمّالون، فكانوا يحملون السلع من الرصيف نحو الديوان، ومنها إلى الفنادق.

لقد حرصت السلطة ببلاد المغرب على أن تمر كل المبادلات التي كان يقوم بها التجار الجنويون عبر الديوان. فهي القمينة بمعرفة تحركاتهم بالمنطقة، ثم إنها كانت تستفيد منها من خلال الضرائب التي كانت تستخلصها بها. ومن الجدير بالإشارة إلى أن الديوان ارتبط كمؤسسة بالسلطان، حتى إن بعض العقود الجنوية تتحدث عنه بلفظ آخر هو "Curia"، ويعني تنظيما مرتبطا بالسلطان. ومن العقود التي تشير إلى هذا الأمر، ذلك الذي أورد عملية تجارية ل "Franceschino de San Sinesio" الذي اشترى الشب سنة 1272 من "Curia Buzee"[2]، أي من مؤسسة تجارية للسلطان ببجاية.

غير أنه لا يجب أن يفهم من نصوص المعاهدات أن تحركات التجار الجنويين كانت منحصرة على الفنادق والجمارك. فقد كان بإمكانهم التحرك خارج هذين الفضاءين بعد حصولهما لوصل يعرف بالبراءة "Albara" يثبت أنهم صفّوا حساباتهم وأدّوا ما بذمتهم من ضرائب. وقد نصّت بعض المعاهدات على تردد الجنويين على أماكن خارج الفنادق والديوان، كما هو في معاهدة 1250 التي نصت على إمكانية إجراء الجنويين لتجارتهم بالسوق "Zucho"، وكان بالإمكان إجراء عملية البيع والشراء بمنازل خاصة، مثل ما حدث بمنزل مشرف الديوان بتونس ابن مروان[3].

1 -Schaube, p352.

2 -مجموعة الموثقين المجهولين، ASG رقم 109، الورقة 4 خلفية بتاريخ 8-11-1272.

3 - Pistarino, Notai, acte n 66.

4-الحضور الديني للجنويين ببلاد المغرب

يبدو أن الحضور المسيحي ببلاد المغرب قد تنامى مع تنامي التجارة بين هذه المنطقة ومسيحي أوربا المتوسطية منذ القرن 12م/ 6هـ. وتشهد الوثائق الجنوية عن وجود حضور ديني نشيط للجنويين بسبتة في 1179 نشّطه التاجر وليام "الفقيه" الذي دخل في نقاش ديني مع اليهودي موسى عبران[1]. ومع تزايد أهمية الحضور التجاري للجنويين ببلاد المغرب بما يفرضه من استقرار، أصبح حضورهم الديني بالمنطقة مجسّدا بالمعاهدات التي كانت تجري بين الطرفين، وقد تميز بمظهرين: أحدهما سلمي تقنن من خلال المعاهدات الموقعة، والآخر اتسم بالعنف المواكب لعملية التنصير.

-المظهر السلمي للحضور الديني للجنويين ببلاد المغرب: نصّت مختلف المعاهدات التي أبرمتها جنوة مع بلاد المغرب على أن يكون للجنويين حق ممارسة طقوسهم الدينية داخل فنادقهم بكنيسة حملت في الغالب اسم القديسة مريم[2]. وكان بناء الكنيسة باعتبارها جزءا من الفندق يقع على عاتق السلطة المغربية، ولم نعثر على إشارة تفيد أن الجنويين بادروا إلى إصلاح كنائسهم ببلاد المغرب، علما بأن معاهدة 1316 التي وقعتها تونس الحفصية مع البنادقة سمحت للقنصل البندقي بتخصيص 1650 دينارا ذهبيا لإصلاح كنيستهم بتونس[3].

كان حضور الجنويين الديني بفنادقهم يجري ضمن ما يقرّه الشرع في التعامل مع أهل الذمة. فقد باشر الجنويون شعائرهم بالفندق بكل تسامح، شريطة أن لا يحدثوا تجاوزات تمس الشعور الديني للمسلمين[4]. ولم تعارض السلطة المغربية البعثات الدينية التي كانت جنوة – على غرار باقي المدن الإيطالية- توجهها إلى رعاياها لتفقيههم في الدين المسيحي بفنادقهم[5]. والظاهر أن حرية المسيحيين في ممارسة طقوسهم الدينية، قد تجسدت أكثر على عهد الخليفة المامون – بعد الاتفاق المعروف الذي جمعه بملك قشتالة

1 -Borlandi, La formazione culturale del mercante genovese, A.S.L.S.P, 1963, N°2, pp :223-229.

2 -Mas Latrie, p 37 et 127, Latrie, supplement, p38.

3 -Doumerc, p176.

4 -Mas Latrie, Traités, p194.

5- أرسل البابا غريغوار IX رسالة إلى السلطان الحفصي سنة 1235 لإشعاره بإرسال بعض الإخوان الصغار les freres mineurs لرعاية مصالح المسيحيين بتونس. ونحن نشك أن الجنويين كانوا من ضمن هؤلاء المبعوثين، ويشير ... اسم الإخوان الصغار أطلق على الفرنسسكان تواضعا منهم. وقد أطلق هذه التسمية عليهم مؤسس مذهب القديس فرنسوا

ليساعده على السيطرة على الحكم بالمغرب- وقد شهد المغرب آنذاك "ليبرالية تجاه المسيحيين"على حد تعبير "دي سنفال".[1]

تحتفظ الوثائق الجنوية بأسماء بعض القساوسة ببلاد المغرب مثل "هوغو" Hugo بسبتة، وبنفس المدينة أدى القس "انريكو" Enrico مهامه لمدة سنتين حسب عقد مؤرخ بفاتح غشت 1271[2]، وشغل "تيلدو" Tealdo قسا للجنويين بكنيسة فندقهم بتونس سنة 1289. وقد قاموا بوعظ رعاياهم، ومارسوا دورا تحكيميا بين السلطة المغربية والتجار الجنويين[3]. ولا نستبعد أن يكون القساوسة الجنويون باعتبارهم ممثلين للبابا وللمسيحية ببلاد المغرب، قد ساهموا في حث رعاياهم على احترام دعوة البابا غريغوار IX بعدم مد هذه المنطقة بالمواد الاستراتيجية. ورغم أن جنوة بحكم عدم تماسها لدار الإسلام بأوربا، لم تدخل في صراع سياسي مباشر مع مسلمي بلاد المغرب، فإن البابوية كانت تعتبر الجنويين والبيزيين أواخر العصر الوسيط من المدافعين الأوائل عن الكنيسة، وعن المسيحية من أجل مواجهة المسلمين[4]. وليس غريبا أن نلاحظ أن أهم البعثات التنصيرية بسبتة، وبالمغرب الأقصى بصفة عامة، تزعمها فرنسسكان جنويون[5]، بينما يبدو أن الدومنكان تزعموا حركة التنصير بتونس الحفصية. ونستحضر هنا الدور الذي قام به "ريموند لول" Lull الذي عمل على نشر المسيحية بتونس وبيجاية في ربيع سنة 1307، والذي لم يحرز على سراحه إلا بعد تدخل بعض الجنويين[6].

لقد اتخذ الفندق الجنوي بسبتة نقطة تدعيم للتنصير ببلاد المغرب[7]، ويمكننا أن نتلمّس الدور التنصيري للجنويين بالمغرب الأقصى من خلال المحطات التالية:

[1] -Cenival (P.de), L'église chrétienne de Marrakech, Hesperis, VII, 1927, p72.

[2] -Ferretto, Codice, T1, p242.

[3] - نستحضر هنا الدور الذي قام به القس "تيلدو" Tealdo بعد النزاع الذي شهده الفندق القديم للجنويين بتونس سنة 1289 نتيجة رفض القنصل الجنوي أداء واجب استئجار قبالة تونس أنظر:

-Jehel, Catalogue, acte n°1.

-Pistarino, Notai, acte n°10

[4] -Lopez, Studi, p8.

[5] من المعلوم أن القديس فرنسوا زار مصر، غير أنه لا يوجد ثمة مؤشر يدل على أنه زار المغرب، [illegible] البعض ذهب إلى أنه كان ينوي "في صيف 1213 أن يتوجه إلى المغرب انطلاقا من فرنسا وعبر إسبانيا" أنظر

Casini (Alfonso), La provincia di Genova dei Frati Minori dalla origini ai nostri giorni, Chiavari, 1985, p15.

[6] -Dufourcq, l'Espagne, p424.

[7] -Schaube, p348.

- محطة 16 يناير 1220: أسس "فرانسسكو دي أسيز" المذهب الفرنسسكاني بفرنسا سنة 1208م ، وعقد أتباع المذهب اجتماعا دينيا سنة 1219، وقد نصّ على إرسال البعثات التنصيرية إلى مختلف مناطق العالم آنذاك[1]. بل إنه حاول أن ينشر المسيحية بنفسه في سوريا ، ففشل بفعل هبوب عاصفة، ثم حاول أن ينشرها بالمغرب الأقصى عبر اسبانيا، لكن مرضه حال دون ذلك[2]. وأفضت تحركاته إلى إرسال خمسة منصرين فرنسسكانيين إلى المغرب، حيث قتلوا، وهم "أدجوتس" adjutus و"اكورسي" Accurse و"بيير" Pierre و "بنارد" Benard و"أتون" Othon [3]، علما بأن "بنارد" مات في طريقه من البرتغال إلى المغرب[4]. غير أن ثمّة اختلاف بين المهتمين حول مكان "استشهادهم". يذهب فريق أول إلى أنهم "استشهدوا" بسبتة، ودفنوا بحي الجنويين بهذه المدينة ، بعد أن أودعوا وصية وجهوها إلى أسقف جنوة عن طريق أحد الفرنسسكان وأحد الدومنكان، كانا قد وصلا إلى سبتة بعد عودتهما من المناطق الداخلية للمغرب الأقصى[5]، ومن الأكيد أن هؤلاء المنصرين كانوا على صلة وطيدة بجنوة[6]. أما الفريق الثاني فيذهب إلى أن "استشهادهم" تمّ بمراكش حيث كان يستقر السلطان الذي حاولوا تمسيحه[7]. وقد كان "استشهادهم" وراء سماح السلطان لهم ببناء كنيسة بمراكش[8]. وسواء "استشهد" الخمسة بسبتة أو بمراكش، فالأكيد أن جنوة كانت حاضرة بقوة في ذلك الاهتمام الذي أبداه المنصرون الفرنسسكان بالمغرب

[1] - تاريخ الكنيسة النصرانية في المغرب الأقصى،تقديم وترجمة بنبعة الخرازي،منشورات المعارف،الرباط ص 2007، ص 22.

[2] - Lilian Pestre de Almeida . Des captifs et des martyrs au Maroc,Rivista dell' Istituto di Storia dell' Europa Mediterranea,N3,Decembre,2009, p 8.

[3] -Wadding, Annales minorum, Rome 1732, T2, pp : 25-28.

[4] -Dufourcq, Les relations du Maroc et de la Castille pendant la première moitié du 13e siècle, R.H.C.M 1968, p48.

[5] -Lopez, Studi, p: 9 – Ciasca, Un centro, p 454.

-Schaube, p348.

[6] -Wadding, Annales Minorum, op cit.

-Lopez, Storia delle Colonie, p187.

[7] -Delorme (Ferdinand), Pour l'histoire des martyrs du Maroc, Quaracchi, 1924, p112.

-Dufourcq, Les relations, op cit, p48.

-Cenival, L'église, op cit, p69.

[8] [illegible] السلطان الموحدي: "نحن أتباع الأخ فرنسوا بعث بأبنائه لوعظ المسيحيين والمسلمين واليهود، [illegible] لإرشادكم إلى طريقة الحقيقة".

[illegible] الفرنسسكانيين يقدمون تعليلا لبناء كنيسة بمراكش مفاده أن السماء غضبت من السلطة [illegible] بعد قتله للمبشرين الخمسة، فعرّضت المغرب لمجاعة منذ خمس سنوات، ومن أجل التكفير عن [illegible] سمح السلطان للفرنسسكانيين ببناء خمس كنائس، ووجود أسقفية لهم أنظر: Cenival, l'église, p69

ويشير [illegible] سنة 1237 كان حربيا. Schaube, p348.

الأقصى في عشرينيات القرن 13م/ 7هـ. ومما يدل على ذلك، أن البابا "هنريوس Honorius III" بعث إليهم بثلاث رسائل في ظرف قصير، وهي مؤرخة ب13 ماي 1223 و10 يونيو 1225 و17 مارس 1226[1]. وتجدر الإشارة إلى أن حدث "استشهاد" الفرنسسكانيين الخمسة سنة 1220 بالمغرب الأقصى، ظل عالقا بالذاكرة المسيحية، وقد ناشد ملك أراغون سنة 1321 البابا بإدراجهم ضمن القديسين[2]. كما أن "برناردينو لشيانو" وضع رسما لهم بإحدى رسوماته بالبندقية سنة 1524[3].

وتجدر الإشارة إلى أنه قبل هذه الحملة، تتحدث بعض المصادر المسيحية عن توجه حملة تنصيرية أخرى بقيادة "Electo" و"Igidio"، وقد دخل الأول إلى المغرب الأقصى وتوفي به بعد مدة من الزمن، بينما استقر الثاني بتونس[4].

– محطة 10 أكتوبر 1227: قبل هذه المحطة، دعا البابا أنوريوس الثالث سنة 1225 أتباع المذهبين الفرنسسكاني والدومنكاني إلى تحمل مسؤولياتهم الروحية تجاه مسيحي المغرب[5]. وبعد سنتين من ذلك، تتحدث الحوليات الفرنسسكانية كذلك عن "استشهاد" سبعة مسيحيين بساحة عمومية بسبتة بعد محاولتهم التنصير بصفة مكشوفة، وهم محملون بالصليب[6]. وهؤلاء المنصرون السبعة هم "سمويل" Samuel و"أنجيلو" Angelo و"دومنو" Domino و"ليون" Leon و"نكولاس" Nicolas و"هوغو" Ugo و"دانييل" Daniel.[7] وقد كان "هوغو" يمارس مهام "قسيس الجنويين"بسبتة.[8] والظاهر أن هؤلاء الفرنسسكانيين زاولوا عملية التنصير لعدة سنوات، إذ كان "هوغو" قد وصل إلى سبتة منذ سنة 1221[9]، ودفن هؤلاء المنصرون بفندق الجنويين والمارسليين والبيزيين، مما يعني أن فنادق الأوربيين بسبتة آنذاك، لم يكن قد تم فصلها بعد، وقد أصبح "دانييل" الذي كان يقود هذه الحملة التنصيرية لدى الكنيسة بمثابة "قديس سبتة"[10].

[1] -Balletto, Da Genova al Maghreb, p305.
وتنظر المقال مترجما في مجلة أمل عدد 5، سنة 1994، ص4.
[2] - Dufourcq, l'Espagne, p582.
[3] - Lilyan Pestre, Des captifs, op, cit, p 17.
[4]- تاريخ الكنيسة النصرانية في المغرب الأقصى،م س، ص 22.
[5]- نفسه ونفس الصفحة.
[6] -Lopez, Studi, p9.
[7] -Delorme, p 113.
[8] -Mascarenhas, pp: 51-52.
[9] -Ciasca, p 454.
[10] -Lopez, Studi, p 9.

لاحظ "Pestre de Almeida" أن بعض الخلط يحصل عند الحديث عن المحطتين، فمنصرو سنة 1227 انطلقوا من جنوب إيطاليا وعبروا الساحل الشمالي للبحر المتوسط من "ليفورنو"باتجاه برشلونة وطرغونة ، ومنها إلى سبتة، بمعنى أنهم لم يمروا عبر الأندلس، وذلك على عكس منصري سنة 1220.[1]

– محطة 1232: تشير إحدى الدراسات المهتمة بالتنصير بالمغرب الأقصى إلى "استشهاد" خمسة فرنسسكانيين بمراكش سنة 1232، دون أن تذكر أسماءهم[2]. وقد باشر هؤلاء التنصير في إطار أنشطة الكنيسة الفرنسسكانية بمراكش[3].

وكان المذهب الفرنسسكاني الذي تبنته كنيسة جنوة ما يزال حديث التكون[4]، وقد حمل أتباعه حماسا لا يخلو من الاندفاع. لهذا استمروا في محاولة نشره بالمغرب الأقصى، رغم المصير الذي لقيته حملاتهم التنصيرية السابقة. وتكشف رسالة البابا "اينوسان" Innocent IV مع منتصف القرن 13م/ 7هـ إلى السلطة الموحدية عن تعرض المسيحيين لمضايقات بعدة مناطق من الدولة الموحدية[5]، مما قد يؤشر عن محاولة الفرنسسكانيين توسيع أفق نشاطهم التنصيري بالمغرب الأقصى. وتجدر الإشارة إلى أنه بموازاة مع الرسالة التي بعث بها البابا "أينوسان" IV إلى السعيد الموحدي، أرسل كذلك رسالة إلى السلطان الحفصي ، يطلعه بوصول أسقف جديد إلى تونس ليشرف على وعظ المسيحيين، وتقديم المساعدات الطبية لفائدة التجار المرضى[6].

إن أنشطة المنصرين الجنويين ببلاد المغرب تندرج ضمن ما يسميه "كوهلير" بالإتجاه الصوفي في التنصير الفرنسسكاني، ويقوم على العنف والمواجهة المباشرة، وذلك على عكس ما يسميه بالإتجاه الواقعي، والذي تبناه المنصرون الاسبان اعتمادا على التجار والجنود.[7]

-Carrière, Les marthyrs de Ceuta, dans le Maroc catholique, 1924, p133.
[1] - Des captifs, op, cit, p 6.
[2] -Delorme, p 116.
[3] -Ibid, p 117.
[4]- دلت الأبحاث الأركيولوجية أن أول مؤسسة فرنسسكانية بليغوريا (منطقة جنوة) تعود إلى سنة 1216، وقد اكتشفت بكيافري Chiavari وهي من المناطق المجاورة لجنوة أنظر :
Casini, La provincia di Genova, op cit, p17.
[5] - De Cenival, L'église, op cit, p78.
[6]-انظر رسالة 25 أكتوبر 1246 عند Latrie, Traités, op cit,
[7] - Koehler(Henri), L'église chrétiènne du Maroc et la mission Franciscaine (1221-1790) ed .Société d'Editions Franciscaines ,Paris, 1934,p23- 27.

ونعتقد أنه عند رصد الحضور الديني للجنويين ببلاد المغرب، يجب أن نأخذ بعين الاعتبار أن البابا "أينوسان" IV كان جنويا من أسرة "فييشي" Fieschi الشهيرة بجنوة[1]. ولاشك في أنه ظل في اهتماماته الدينية ببلاد المغرب يستحضر ما تعرض له الفرنسـكانيون الجنويون سنة 1220 بالمنطقة[2]. كما يجب أن نأخذ بعين الاعتبار الخلفية الاقتصادية لتحركات البابا "إينوسانIV". فقد أبدى الجنويون اهتماما متزايدا بسلا التي شرعوا في التعامل معها منذ القرن 12/ 6، ومع منتصف القرن 13/ 7، تطلعنا إحدى الوثائق الجنوية أن الجنويين "تدسيو"Tedisio و"نكلنو"Niccolono تعاملا مع مرسى أسفي، وكلاهما من أسرة "فييشي" التي ينتمي إليها البابا. ولهذا لا يستبعد" لوبيز" أن تكون لاهتمامات البابا "اينوسان" IV علاقة بتزايد أهمية الساحل الأطلسي المغربي لدى الجنويين، وخاصة من أجل التزود بالذهب منه[3].

لم يتوقف الجنويون عن إرسال بعثات تنصيرية إلى المغرب الأقصى في القرن 13م، فقد شارك في رحلة الأخوين "فيفالدي" – التي انطلقت من جنوة في سنة 1291، وغادرت المياه الجنوية لأسفي دون أن نعرف مصيرها– اثنان من الفرنســكانيين للدعوة إلى المسيحية بالمناطق التي تمر بها السفينة.[4]

إن الأمثلة التي قدمناها عن مظاهر التنصير الديني للجنويين ببلاد المغرب، تخص المغرب الأقصى أساسا، ولا نستبعد وجود نشاط مماثل لهم بباقي دول بلاد المغرب[5].

لقد فشل الجنويون –على غرار المنصرين الأوربيين– في تمسيح بلاد المغرب، وظل تنصيرهم مقتصرا في الغالب على المراسي حيث مارسوا التجارة، بل إنه داخل هذه المراسي ، كان هذا التنصير ضعيفا[6].

---

[1] -Lopez. Storia delle colonie, p187.

[2] -Lopez, Studi, p44.

[3]- حول هذا التفسير، أنظر:

Lopez. Le facteur économique dans la politique africaine des papes, R.H, T 198, 1947, p187

[4] -A.G.T5, pp123-124.

-Lopez, Studi, p10

-Casini, La provincia , p54.

[5]- نتوافر على إشارة متأخرة تفيد وجود نشاط تبشيري للجنويين بتونس الحفصية. ففي سنة 1460 تم دفن جثة الجنوي B.Antoine بفندق الجنويين بتونس بعد أن رجم بالحجارة، وذلك لأنه شتم الملة المحمدية بصفة علنية، أنظر: Mas Latrie, Traités, p170

[6] -Delorme, p112.

ولاشك في أن الإسلام كان قد انتشر بعد الحملة العربية الثانية في القرن 8 هـ بمعظم مناطق بلاد المغرب، وإن ظل استيعابه سطحيا ببعضها. ولربما لم يأخذ المنصرون الجنويون هذه الحقيقة بعين الاعتبار، علما بأن التساؤل يبقى مطروحا حول لغة التخاطب التي استعملوها في نشاطهم. وقد لخص "روجر باكون" Bacon - وهو إنجليزي من القرن 13م تعمق في دراسة اللاهوت- أسباب فشل التنصير ببلاد الإسلام آنذاك، في جهل المنصرين لعقائد المسلمين وجهلهم للغات الشعوب التي يراد بها التنصير[1]. ويبدو أن البابوية قد اقتنعت بعدم جدوى البعثات التنصيرية المقتصرة على الحماس الديني المبالغ فيه. ففي سنة 1325 فرض البابا "يوحنا" XXII على رجال الدين الذين يبعثون إلى دار الإسلام، أن يكونوا معيّنين من لدن رؤساءهم، وأن يكونوا على درجة محترمة من الكفاءة والثقافة[2].

5– الارتزاق الجنوي ببلاد المغرب

رغم ما تكتنف عملية الاستجاشة بالمسيحيين من حضور "للمحرم والمحظور" بالمجتمع، فإن الارتزاق المسيحي شكّل ظاهرة مستمرة بالدولة المغربية أواخر العصر الوسيط، حتى إنها غدت من الظواهر المألوفة بها[3].

غير أنه تلفّ صعوبات بدراسة هذه المظاهر بالمغرب الوسيط، والتي ترتبط بضعف الإشارات المصدرية عنها[4]، وبعدم تدقيق المصادر في مواطن المرتزقة الذين استعانت السلطة المغربية بخدماتهم، إذ غالبا ما يدرجون تحت لفظ عام هو "الروم".

إن الاستجاشة بالمرتزقة النصارى فرضتها في الغالب رغبة السلطة القائمة في بناء توازناتها الداخلية بالاعتماد على عنصر أجنبي لا تربطه بالقبائل ولا بالأرض

---

[1]- أنظر ريتشارد سودزن، صورة الإسلام في أوربا في العصور الوسطى، ترجمة رضوان السيد، الفكر العربي 1983، عدد 32، ص33.

[2] -Dufourcq, L'Espagne, p 582.

[3]- حول هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى: مصطفى نشاط إطلالات على تاريخ المغرب خلال العصر المريني، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، وجدة،2003.

[4]- ربما ذلك راجع إلى تخوف المؤرخين من ملاحقة السلطة، بما يطرحه هذا الموضوع من حساسية سياسية ودينية، أو إنه راجع إلى حرص المؤرخين على الحفاظ على وحدة الدولة ومشروعيتها، ونكتفي هنا بإيراد بعض المعطيات المرتبطة بهذا الموضوع، لاشك أن لها دلالة خاصة. فالملاحظ أن البيذق أغفل ذكر استعانة عبد المومن بالمرتزقة المسيحيين للدخول إلى مراكش سنة 541هـ رغم أنه كان قريبا من الأحداث، ولم يكن لتغيب عنه مثل هذه الإشارات، ونتساءل في نفس المستوى ألم يكن في تضخيم ابن أبي زرع في رقم المرتزقة النصارى الذين استجلبهم المامون من قشتالة، وهو 12 ألف، محاولة منه للتنقيص من مصداقية الدولة الموحدية ومشروعيتها؟

المغربية أي –

إنه كان قائما على الهجوم دفعة واحدة، عوض الأسلوب القائم على الكر والفر الذي كان سائدا لدى المسلمين[2].

والملاحظ أن معظم الإشارات المتوافرة عن حضور المرتزقة الجنويين ببلاد المغرب، تتعلق بتونس الحفصية، ولم نعثر على إشارة تفيد وجودهم بالدولة العبداوادية، بينما يذهب "شوب" دون أن يقدم مصدره إلى أنه من ضمن المرتزقة المسيحيين الذين كانوا بالدولة المرينية، وجد بعض الجنويين[3]. كما يفترض "شياسكا" وجودهم بحكم تفوقهم العسكري وأسلوبهم في القتال القائم على فرق النبالة[4]. والظاهر أن الدولتين العبداودية والمرينية، عوّلتا أكثر على خدمة المرتزقة الأراغونيين والقشتاليين والتي انتظمت بها عبر عدة معاهدات[5].

وتطلعنا الوثائق الجنوية بأسماء بعض الجنويين الذين خدموا السلطة الحفصية في إطار الارتزاق مثل "أدلردي" Oddo Adelardi سنة 1228 الذي يبدو أنه كان يشغل منصبا رسميا بالبلاط الحفصي[6]، ومن الملاحظ أنه دخل في خدمة السلطة الحفصية، وهي ما تزال بصدد الانفصال عن حكم الدولة الموحدية المتآكلة. كما وجد بعض المرتزقة الجنويين بتونس الحفصية سنة 1249[7]. وكان "مركيو" Guglielmo Morchio مرتزقا بجيش الدولة الحفصية سنة 1280[8]. وتكشف عقود الموثق "باتفليو" عن أسماء ثلاثة جنويين مرتزقة لدى السلطان الحفصي، وهم: "برونشياليس" Enricus Proencialis و"بلتو" Perito Belleto، و" بترونو" Patrono Ferrando. وحين توقيع بيزة لمعاهدة مع تونس سنة 1353، كان الجنوي "شبو"، وهو مرتزق، أحد الحاضرين في عملية التوقيع[10].

[1] الطالبي (محمد) مراجعات ـ ص 36

[2] ابن خلدون، المقدمة، ص 720.

[1] Schaube, p 348.

[2] Chiasca, Un centro, p454

[3] Dufourcq, l'Espagne, p 166 – p 363 – p373.

[4] Schaube, p 351

[5] Jehel, Les Genois, p65

[6] Ferretto, Codice, T2, p306

[7] Pistarino, Notai, acte n 95 et 111

[8] Jehel, Catalogue, acte n 92 et 110

[9] Mas Latrie, Traites, p271

ولا تسعفنا المادة المصدرية من أجل تتبع طبيعة الأدوار السياسية والعسكرية التي أداها المرتزقة الجنويون ببلاد المغرب، كما يصعب معرفة الإطار الذي انتظم فيه الارتزاق الجنوي بها، وذلك على عكس المادة المصدرية المتوافرة عن المرتزقة الأراغونيين بنفس المنطقة. وتكتفي عقود الموثق "باتفليو" بالحديث عن القائد Alcayt "بلتو" و"بترونو" السابقين بالذكر. ومن المعلوم أن منصب القائد كان في تراتبية الارتزاق الأراغوني ببلاد المغرب دون منصب القائد الأعلى" Alcayt major". وتجدر الإشارة إلى أن ملك أراغون جاك الثاني، حاول أن يجعل من جميع المرتزقة المسيحيين العاملين بتلمسان وتونس خاضعين لأوامر القائد الأعلى للجيوش الأراغونية ببلاد المغرب[1]. وكان هذا الإجراء يرمي إلى إضعاف منافسة الجنويين بالمنطقة. وفي غياب إشارة لدينا عمّا إذا كان منصب قائد الجيوش الجنوية ببلاد المغرب على قدم المساواة مع القائد الأعلى للجيوش الأراغونية بالمنطقة، نعتقد بممارسة قائد الجيوش الجنوية لنفس المهام التي مارسها القائد الأعلى للجيوش الأراغونية. فهو الذي يقود فرقة الجيوش الجنوية العاملة بالدولة المغربية أثناء العمليات العسكرية[2]، ويشرف على إرجاع تركة الجنود الجنويين الذين يتوفون ببلاد المغرب إلى ذويهم، كما يعمل على حل المشاكل الطارئة بين الجنود الخاضعين لأوامره، وكذا تلك التي تنشأ بينهم وكومونة جنوة.

ولا نعلم شيئا عن رواتب الجنود الجنويين العاملين لفائدة الدولة المغربية، ومدة أداء مهامهم بها. ونكتفي على وجه الاستئناس بالإشارة إلى أن البندقي "Francesco Giuliani" عمل لمدة 44 شهرا – أي 3 سنوات و8 أشهر– في خدمة الدولة الحفصية، وطالب سفير البندقية إلى تونس "Da Molino" سنة 1293 بأداء تونس ما ترتّب عليها من ديون من جراء تلك الخدمة. وقدرت تلك الديون حسب "سشردوتي" ب 2150 دينارا ذهبيا، أي ما يمثل 8 دنانير ذهبية عن كل يوم، بينما قدّرها "دوماص لاتري" و"دومرك" ب 3860 دينارا ذهبيا، أي ما يمثل 3 دنانير كأجرة يومية[3]. وسواء أكان الأجر اليومي لذلك المرتزق ثمانية أم ثلاثة دنانير ذهبية،

[1] -Dufourcq, l'Espagne, p 151

[2] تجدر الإشارة إلى أن الارتزاق المسيحي بالدولة المغربية كان قائما على أسس المساهمة في الحروب التي تخوضها السلطة المغربية ضد العدو أو المتمردين المحليين، ولم يكن قائما على أسس المساهمة في الحروب ضد المسيحيين

[3] Sacerdoti, Venezia, op cit

-Doumerc, p 29

-Mas Latrie, Traites, p270

فمن الأكيد أن الارتزاق المسيحي بالدولة المغربية شكل "صفقة" رابحة للأوربيين، لأن الرواتب كانت تؤدى ذهبا، ثم إنها كانت تفوق بكثير رواتب الجنود المغاربة[1].

ويبدو أن كل دولة من دول بلاد المغرب، قد استخلصت رواتب الجنود المرتزقة النصارى العاملين لديها من مصادر خاصة بها. كانت الدولة المرينية قبل عهد أبي الحسن تستخلصها من بيت المال، وعلى عهد هذا السلطان، أصبح يحصل عليها من ضريبة المروس، بينما يستفاد من وثائق الموثق "باتفليو" أن رواتب المرتزقة الجنويين بتونس الحفصية استخلصت من قبالة الخمور[2].

---

[1]- للمغاربة فقط، نذكر أن الجندي الأراغوني المرتزق بالدولة المرينية كان يتقاضى تقريبا 10 دنانير في اليوم الواحد، بينما تقاضى الجندي المغربي المقرب من السلطان دينارين ذهبيين يوميا، وتقاضى معظم الجنود دينارا واحدا في النوب وكان الأجر الشهري للجنود الصغار ستة دنانير ذهبية، أنظر ابن مرزوق، المسند الصحيح.... الجزائر، 1984، ص282. والعمري، مسالك الإبصار ضمن ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين، ص67 وص30.

[2] -Pistarino, Notaï, acte n°44.
-Jehel, Catalogue, acte n°46.

الباب الثاني:

بنية المبادلات التجارية المغربية الجنوية في الفترة المدروسة

الفصل الأول:

الصادرات المغربية إلى جنوة

1- المواد الأولية:

أ- المواد الفلاحية:

-الحبوب: كان الحوض المتوسطي يعيش باستمرار على عتبة المجاعة[1]. وترتبط هذه المجاعة في أغلب الأحيان بالعوامل المناخية التي تتسم بها المنطقة، وخاصة منها عامل عدم انتظام التهاطر. لهذا كانت معظم مناطق الحوض مجبرة على استيراد حاجياتها الغذائية، وفي مقدمتها الحبوب.

وكانت جنوة في حاجة إلى الحبوب بشكل يفوق حاجة بلاد المغرب إليها، فإذا ما كان الجو الأمني متوافرا ببلاد المغرب، وجادت السماء بأمطار كافية على هذه المنطقة، فإنها كانت في الغالب تنجح في تلبية استهلاكها من الحبوب، وقد تصدر قسطا منها إلى الخارج، ولاسيما إلى غرب أوربا المتوسطية[2]. أما جنوة، فإنها أبدت عبر تاريخها حاجة مستمرة وملحة إلى الحبوب بفعل عدة عوامل. فالمجال الصالح لزراعة الحبوب ضيق حول المدينة نظرا لسيادة جبال ليغوريا، وذلك على عكس بعض المدن والمناطق الإيطالية الأخرى[3]. وظلت جنوة بفعل ذلك مضطرة إلى ركوب البحر لتغطية استهلاكها من الحبوب[4]. وشهدت ظرفية سياسية عصيبة خلال المرحلة المدروسة زادت من حدة حاجة الحبوب لديها. فقد اشتد الصراع بين "بجيلف" و "جبلان"، مما

---

1 -Braudel (F), La méditerranée, T1, p223.

2 -Vernet (Robert), Les relations céréalières entre le Maghreb et la peninsule ibérique du XII au XV siecle, AEM, T10, 1980, p321.

3 - مثل منطقة [illegible] التي وصفها العمري بأنها : "كثيرة [illegible] [illegible]، وأرضها خصبة" الروض المعطار، ص 12.

4 -Heers (J), Gênes, pp 324-325.

أدى إلى ارتفاع مهول في أثمنة القمح في بعض السنوات، مثل سنة 1272[1]. ونتوافر على وثيقة تثبت فعلا رغبة جنوة في استيراد الحبوب من مملكة تلمسان خلال هذه السنة. وتتحدث الوثيقة عن أول معاهدة – ولربما المعاهدة الوحيدة- تكون قد تمت بين جنوة والدولة العبدوادية[2]. كما أن أزمات القرن 14م –الذي يفضل "بروا" بنعته بالقرن الطويل لكثرة الأزمات التي انتابته- انطلاقا من الأزمة الفلاحية لسنوات 1315–1317[3]، ووصولا إلى أزمة الطاعون الأسود لسنة 1348، دفعت جنوة إلى البحث باستمرار عن الحبوب. ولتمثّل حاجتها الماسة إلى الحبوب، يمكننا أن نستأنس ببعض الأرقام. فلو افترضنا أن معدل الاستهلاك للفرد الواحد من الحبوب يقدر بـ 220 كلغ في السنة، فإن مدينة تضم 100 ألف نسمة- مثل جنوة في المرحلة المدروسة- كان عليها أن توفر كل سنة حوالي 22 ألف طن من الحبوب لتلبية طلب سكانها على هذه المادة[4]. ورغم موانع الكنيسة المتكررة وضغطها على جنوة لمراقبة تجارتها مع تونس الحفصية، وأحيانا بمنعها من التعامل معها، فإن حاجة المدينة إلى الحبوب، هي التي كانت وراء تحايلها على قرارات الكنيسة. ولعلّنا في هذا الصدد، نضع خضوع دوق المدينة "Boccanegra" لضغوط فئتها التجارية، وسماحه بالتعامل مع تونس، رغم أنه كان قد انصاع للكنيسة وقراراتها بعدم التعامل معها، بل إنه أرسل مبعوثا إلى تونس، فوقع معاهدة معها في 10 فبراير 1343، والتي شكلت مسألة تزود جنوة بالحبوب التونسية أحد أهم بنودها[5]. ونظرا لحاجة جنوة إلى الحبوب فإن "هيرس" لم يبالغ لمّا كتب بأنه لا توجد منطقة مصدرة للقمح لم تستقبل السفن الجنوية[6]. وقد شكّلت بلاد المغرب إحدى المناطق[7] التي زودت جنوة بالحبوب. فكل المعاهدات التي وقعتها جنوة مع إفريقية الحفصية خلال المرحلة المدروسة، نصّت على تقنين كميات الحبوب التي كان بإمكان جنوة استيرادها من تونس في حالة وفرتها بها. وتشير الوثائق الجنوية إلى أن الجنويين جلبوا الحبوب من إفريقية قبل توقيع معاهدة

---

1 -Jehel, Les Génois, p26.

2 - [illegible] "[illegible]" هذه الوثيقة في : -Codice diplomatico... T1, p260

كما [illegible] "[illegible]" في : -Genova e la supremazia...T1, p290

3 - [illegible] هذه الأزمة الفلاحية ويمكن الرجوع إلى:

-Wilhelm (Abel), Crises agraires en Europe, 13-20, siecle, Flammarion, 1973, pp55-65.

4 -Heers, Gênes, p324.

5 -Balbi, Il trattato, p303.

6 -Heers, Gênes, p329.

7 - من الأسواق التي [illegible] الجنويون للحصول على الحبوب، [illegible] منطقة [illegible]، و[illegible] [illegible] من صقلية سنة 1261 حوالي 20,000 قنطار من القمح. Braudel, La Mediterranée, op cit, T1, p453.

1235 باعتبارها أول معاهدة جنوية حفصية[1]. وقد دلّت بعض أبحاث "ديفورك" وخاصة بأطروحته، على أهمية تجارة الحبوب بين إفريقية الحفصية ومملكة أراغون، غير أن باحثا آخر اهتم بتجارة الحبوب بين ضفتي الحوض الغربي للمتوسط ، يرى أن أهمية هذه التجارة لم ترق إلى نفس الأهمية التي كانت عليها تجارة الحبوب بين بجاية وبونة (عنابة) وسكيكدة (Philipeville) من جهة، وجنوة وبيزة من جهة ثانية[2].

لقد سبقت الإشارة إلى أن جنوة كلفت مجموعة من التجار للاتصال بيغمراسن سنة 1272 لتزويدها بالحبوب. وتشكّل الوفد الجنوي من عناصر تنتمي إلى أسر مرموقة مثل أسرة "D'oria" للتزود ب 8 ألف "مين" من الحبوب، وليس ب80 ألف - كما ورد لدى "جيهل"-[3]. ويتحدث المؤلف ذاته كذلك – لربما خطأ- عن استيراد الجنوي "زكرياء" Giovanni Zaccaria الحبوب سنة 1275 من تنس بالدولة العبدوادية إلى جنوة عبر ميورقة[4]. بينما نعلم أن الجنويين نقلوا الحبوب خلال الفترة المدروسة من مراسي مملكة تلمسان باتجاه الدولة النصرية[5]. ولم نعثر على أي إشارة تفيد استيراد الجنويين للحبوب من المغرب المريني، علما بأن "مسألة الحبوب" كيّفت إلى حد كبير العلاقات المغربية الأراغونية في مطلع القرن 14م/ 8هـ، وكانت وراء توقيع معاهدة فاس 1309 بين أراغون والسلطان المريني أبي الربيع، بعد عدة مساع أراغونية، فهل نجح الكطلانيون في الهيمنة على سوق الحبوب المرينية، أم إن ثمة وثائق

1- من تلك العلميات، نذكر القراض الذي قدمه سنة 1213 "أنريكو Magister Enrico" لزميله "جيوفني جروبلنكو"، وقيمته 100 دينارا ذهبيا لشراء القمح بتونس لفائدة عشرة مستثمرين جنويين:
Jehel, Les Gênois, p141.

2-Vernet, op cit, p331.

3- ورد لدى جيهل أن الكمية التي كان الجنويون يأملون في الحصول عليها هي 80 ألف مين mine، أنظر les Gênois، ص 107 إشارة 358 وص339. وبالرجوع إلى نفس الوثيقة التي نشرها كذلك "فريطو " و"كارو"، يتضح أن الأمر يتعلق بـ8 ألف "mine". وهي وحدة استعملت في موازين الحبوب بالتجارة المتوسطية، وكانت تقدر بحوالي 105 أوقية بجنوة خلال القرن 13م ،علما بأن الأوقية بها كانت تقدر بحوالي 0.315 كلغ أنظر:
Schaube, Storia del commercio, pp 977-978.
والجدول الذي نشره "جيهل " عن واردات جنوة من القمح ما بين سنتي 1213 و1298 ص 463، يوضح أن أهم عملية لاستيراد القمح، قام بها التجار الجنويون خلال هذه المرحلة، تمت حسب عقد مؤرخ ب4 يونيو 1261، حيث لم تتجاوز الكمية التي ينص عليها 3500 "mine" وقد تمت مع ميورقة. وكيفما كان الأمر، فإن تصدير الدولة العبدوادية للحبوب أمر أكدته أطروحة ديفورك، كما أن بعض المصادر تشيد بأهمية إنتاجها منها. يشير يحي بن خلدون إلى أنه "...ربما انتهت في الزوج الواحد بملائة إلى أربعمائة مد كبير من القمح، دون الحديث عن الشعير" بغية الرواد، ص90.

4- الواقع أن المجموع الذي تحدث عنه "جيهل" تحت رقم 121 ، لا يغطي فترة 1275، بل يغطي الفترة المتراوحة ما بين 1281 و1298. أما مجموع 1275، فهو للموثق "Vivaldo"، وأما الوثيقة الموجودة بصفحة 83V، فإنها تتحدث عن عملية شراء أرض بجنوة، ولا علاقة لها بالتجارة مع تلمسان، اللهم إذا كان جيهل قد عثر على الإشارة بموضوع آخر.

5-Arié (R), l'Espagne musulmane au temps des Nasrides (1232-1492), Paris, 1973, p363.

تتحدث فعلا عن استيراد الجنويين للحبوب المرينية، لم نتمكن من الاطلاع عليها ؟ بينما نعلم أن "Ildebrando Melle" "ابن "Gualfredo" توصل من "Gelso Pandolfino" بقراض مبلغه 15 ليرة لجلب الحبوب من بجاية[1].

لقد اعتبرت تجارة الحبوب ورقة رابحة لصالح دول بلاد المغرب للضغط على الدول الأوربية في حالة وفرتها ببلاد المغرب، وقلّتها بغرب أوربا المتوسطية. واحتكرت السلطة المغربية أحيانا تجارة هذه المادة[2] نظرا للأرباح التي كانت تمدها بها، ثم لمواجهة الطوارئ التي كانت تتهدّد المنطقة بفعل الجوائح والحروب[3]. كلّ ذلك دفع السلطة ببلاد المغرب إلى التقتير في الكميات المسموح للأوربيين باستيرادها منها، كما يبدو أن السلطة المغربية راقبت عن قرب تجارة الحبوب للحد من ظاهرة تهريبها بالمراسي[4]. وقد نصّت مختلف المعاهدات التي وقعتها جنوة مع تونس الحفصية على الكميات المسموح للجنويين استيرادها من إفريقية. فعملا ببنود معاهدة 1236، حدّدت الكمية في خمسة مراكب شريطة ألاّ يتجاوز القفيز[5] من القمح بتونس 3و5 دينارا فضيا[6]. وحافظت معاهدة 1272 على نفس الكمية السابقة، شريطة أن يتراوح ثمن القفيز ما بين 3 و3،5 دينارا فضيا، وأخيرا نصّ البند 24 من معاهدة 1343 على إمكانية استيراد جنوة لـ2500 قفيزا، على أن يبلغ سعر القفيز من القمح خمسة دنانير فضية بتونس[7].

-الزيوت: تشيد عدة مصادر، وخاصة الجغرافية منها بأهمية إنتاج الزيتون ببلاد المغرب. وقد استمرت إفريقية بصفة أساسية في تصدير الزيوت، أواخر العصر

1- Valerian, Bougie, p 410.

2- حملت سفن كطلانية سنة 1315 و1320 كميات من القمح كانت في ملكية السلطان العبدوادي، أنظر Dufourcq, Commerce, p168 ، وبيعت كميات من الحبوب في ملكية السلطان الحفصي اللحياني سنة 1314 ببرشلونة Dufourcq, l'Espagne, pp500-501 note1: . وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار حيثيات توقيع معاهدة 1309 بين أراغون والدولة المرينية، وما ورد لدى" بيغولوتي "، يتبين أن السلطة المرينية راقبت عن قرب تجارة الحبوب. ويمكن أن نشير إلى أن السلطان المريني كان يمتلك مركبا هاجمه قراصنة من ميورقة سنة 1356 وعلى متنه الحبوب.انظر:
-Dolores,La Corona,op, cit,p 795.

3- حول دور السلطة في توفير الحبوب للسكان في فترة الأزمات، أنظر القرطاس، ص401 والمسند الصحيح...ص191.

4 -Sapori (A), Le marchand italien au Moyen âge, Paris, 1952, p XLIII

5- وحدة استعملت في التجارة المتوسطية. وقد كان وزن القفيز يختلف حسب المناطق، فببلنسية كان يعادل 1،4 هل، وبأراغون 1،8 هل، وبتونس 1،75 هل، وبطرابلس 2،5 هل، وبسبتة كان يعادل 8 هل تقريبا، أنظر: Dufourcq, l'Espagne p 565.

6- تحكمت عدة عوامل في تحديد أسعار الحبوب ببلاد المغرب، ولا سيما منها عوامل التقلبات المناخية والحروب والجوائح، وقد توصل "ديفورك " إلى أن عدم انتظام أسعار الحبوب ببلاد المغرب في الفترة المتراوحة ما بين 1275 و1333 كان أقوى من نظيره بأوربا. -Dufourcq, l'Espagne, p 569.

7 -Balbi, Il trattatto, p 309.

الوسيط بالرغم من انخفاض المساحة المخصصة لزراعة الزياتين[1]. غير أن الكميات المصدرة، كانت تمثل قسطا صغيرا من إنتاجها فقط، والذي كان يستهلك معظمه محليا[2]. وقد تحولت إفريقية أحيانا من مصدر للزيوت إلى مستورد لها –كما سنرى-. وبخصوص صادراتها من هذه المادة، أكّدت معاهدة 1287 المبرمة بين الطرفين على أن يؤدي الجنويون لفائدة الجمارك التونسية نصف جرة[3] عن كل 100 جرة من الزيوت. وتفيدنا إحدى الوثائق التي حرّرها الموثق "باتفليو" بتونس بأن الجنوي "اوزدمري" Usodimare Pasquale اقتنى لفائدة مواطنه "شبو" Cibo de Cibo سنة 1288 كمية من الزيوت التونسية قدرت ب 730،5 matare[4] بقيمة 4718 دينارا فضيا[5]. وعدا هذه الإشارة التي تحدثت عن تجارة الزيوت بين إفريقية وجنوة، فإننا لم نعثر على معطيات أخرى تتعلق بتجارة هذه المادة بين بلاد المغرب وجنوة، باستثناء إشارة "دي توتشي" إلى إقبال الجنويين على زيوت المغربين الأقصى والأوسط، دون أن يحدد مصدره[6].

-الأصواف: شكلت الأصواف ثابتا من ثوابت صادرات بلاد المغرب إلى أوربا في العصر الوسيط. واعتبرت خلال الفترة المدروسة بلاد المغرب أهم مصدر مزود لجنوة بالأصواف، إذ حصلت منها على أكثر من ثلثي حاجياتها من هذه المادة[7]. وقد ازدادت واردات الإيطاليين من الأصواف المغربية بشكل متواز مع توسع وازدهار الصناعة النسيجية بأهم المدن الإيطالية في القرن 13م. وبما أن الأصواف الإيطالية لم تكن من النوع الجيد، فقد أجبرت جنوة على استيراد هذه المادة من بعض المناطق التي عرفت بجودة أصوافها، مثل بلاد المغرب وشبه الجزيرة الإيبيرية. غير أنه لم يكن من السهل دائما الحصول على الأصواف الإسبانية[8].

1- برنشفيك، [illegible]، ص273.
2-Day (J). Prix agricoles en Mediterranée, in A.E.S.C. 1961, p 644 note 11.
3- عبئت الجرة من الزيوت بتونس وبجاية 40 إلى 50 لترا، وتزن القنطار تقريبا
Dufourcq, l'Espagne p 522.-
وحددت بحوالي 18 رطلا – في كل رطل 16 أوقية. أنظر: Pegolotti, p276 -
4- يقدر matare بـ50 لترا.
5-Pistarino (G), Notai, acte N12.
6-Di Tucci, Documenti, p 273.
7-Jehel, les Génois, p 345.
ولا بد من الإشارة في هذا الصدد إلى أن بعض [illegible] في القرن [illegible] على [illegible] النشاط الزراعي خلال الفترة المتأخرة من العصر الوسيط ببلاد المغرب، [illegible] Terrasse (H) Histoire du Maroc, T2, p23
8-Di Tucci, Documenti, p 273.

واستوردت جنوة الأصواف من المراسي الحفصية، وكان ترتيب هذه المراسي من حيث أهميتها في تزويد جنوة بهذه المادة كالتالي: بجاية، وتونس، ثم بونة[1]. غير أن هذا الترتيب يوافق مرحلة النصف الثاني من القرن 13م، لما أصبحت بجاية تستقطب التجار الجنويين بشكل متزايد، وهو أمر تؤكده الوثائق المحفوظة بأرشيف جنوة، والتي جمع معظمها "فريطو" في دراسته المنشورة "...Codice". وقبل أن نستعرض مظاهر حركية تجارة الأصواف بين بلاد المغرب وجنوة، يجدر بنا أن نشير إلى أن التجارة الجنوية المغربية – بما فيها تجارة الأصواف- عرفت إشعاعا ملحوظا سنة 1253، ولاسيما في شهر مارس من هذه السنة، ما دفع "لوبيز" إلى أن يفرد مقالة عن نشاط جنوة التجاري خلال هذا الشهر[2]، بعد عملية سبر واسعة بأرشيف جنوة. ويعود هذا الإشعاع في نظر المؤلف إلى سيادة ظرفية أمنية داخلية مساعدة على ممارسة التجارة لضعف الصراع بين جنوة والإمبراطور فردريك II، والصراع بين "جيلف" و"جبلن". ويمكننا أن نضيف إلى كل ذلك عاملا آخر دفع الجنويين إلى الاهتمام أكثر ببلاد المغرب آنذاك، ويرتبط بعودتها إلى ضرب عملتها على القاعدة الذهبية، مما استوجب تكثيف التعامل مع بلاد المغرب، باعتبارها محطة ضرورية في تجارة الذهب بين السودان الغربي وغرب أوربا المتوسطية. وبخصوص تجارة الأصواف بين تونس وجنوة، يشير عقد مؤرخ ب 12 مارس 1253 إلى أن "امريكو" Aimerico، وهو من "رابلو" Rappallo (ضمن المجال الحضري لجنوة حاليا) وابنه "لنلودو" Vassaliso Lanailodo يعترفان بأنهما التزما

1-Jehel, les Génois, p 345.
2-Lopez, l'attivita economica di Genova nel marzo 1253, secondo gli atti notarili del tempo, 1935، pp 214-222 ، ومن هذه الدراسة يمكن أن نضع الجدول التالي:

اليوم	قيمة القراض المستثمر	الاتجاه
12 مارس	6،15 ليرة و7 صولدي (أنفقت بعد عملية شراء الصوف بتونس)	تونس
14 مارس	200 ليرة	[illegible]
18 مارس	20 ليرة	بجاية
19 مارس	ليرات	بجاية
22 مارس	7 ليرات و5 صولدي	تونس
22 مارس	150 ليرة	تونس
22 مارس	50 ليرة	تونس
22 مارس	100 ليرة	خارج جنوة (هكذا تونس بجاية)
22 مارس	150 ليرة	تونس
22 مارس	20 ليرة و5 صولدي	تونس

لمواطنيها "روبنو" Robino Giovanni و"جودتو" Guidetto مبلغا يقدر بـ 19، 6 ليرة و7 جنوفين، تبقت من عملية لشراء الصوف بتونس. وفي سنة 1269 سجّلت جمارك جنوة حمولة كبيرة من الأصواف استوردت من تونس، وأعيد بيعها لتجار فلورنسيين[1]. وتشير إحدى الوثائق التي نشرها "فريطو" إلى أنه في 12 مارس 1275، باع التاجران" لفتو" Lavato Nicola و"بلترمنو" Greco Beltramino أصوافا استورداها من تونس[2]. وفي عقد من العقود التي حررها الموثق " باتفليو " بتونس سنة 1289، استورد أحد الجنويين 400 قنطارا من الأصواف من تونس[3]. وفي سنة 1291 وصلت سفينة في ملكية "دوريا" Paolino Doria إلى جنوة بعد أن حملت الصوف من مرسى تونس[4].

وتبرز بجاية من خلال عقود الموثقين الجنويين كأهم مركز ببلاد المغرب مصدر للصوف باتجاه جنوة خلال النصف الثاني من القرن 13م. ومن العقود التي تتضمن إشارات لتجارة الأصواف بين بجاية وجنوة، يمكننا أن نذكر العقود التالية:

- أرسل " Giovanni Alpano" 19 كيسا من أصواف بجاية إلى " Alpino de Torre" المقيم بجنوة سنة 1252[5].

- يتحدث أحد العقود التي حررها الموثق "كبريتو " Capriato سنة 1260 عن استيراد أحد الجنويين للصوف الغليظ[6]. ومن المفيد الإشارة إلى أن عقود الموثق نفسه، تقدم إفادات عن وضعية أسعار الأصواف بجنوة وأثمنة الأصواف البجائية بها خلال هذه السنة. فقد بيعت بها كمية من الصوف تبلغ 35 قنطارا و67 رطلا – أي 3567 رطلا- بـ3567 فلسا، بمعنى أن كل رطل بيع بفلس واحد (الرطل يساوي بجنوة 470 غراما تقريبا)[7]..

- في سنة 1268 باع "Giacomo Mangiavacca" بجنوة كمية من الصوف البجائي بقيمة 107 ليرة[8].

---

1 Lopez R., su e giu per la storia di Genova, Gênes, 1975, p271
2 Ferretto, Codice, T2, p10
3 Pistarino, Notai, acte 21 Mars, n 35, pp53-54
4 Dufourcq, Aperçu p732
5 Valerian, Bougie p581
6 Dufourcq, Aperçu, p732
7 [illegible] 1253 [illegible] 14 [illegible] 10 [illegible] Dufourcq, Ibid., p734
8 Ferretto, Codice, T1, p132

– في سنة 1271 كوّن الجنويان "ستنكنو" Stanconino Stancono و"سكوتو" Nicoloso Scoto شركة بمبلغ مالي قدره 1635 ليرة، ساهم الأول فيه بـ1425 ليرة، والثاني بـ210 ليرة، من أجل شراء الأصواف ببجاية[1].

– في السنة نفسها ، نقل الجنوي "Giovannino di Quarto" 39 كيسا من الصوف من بجاية على مركبه لصالح"Streggiaporco"[2].

– في سنة 1276 باع "منترسو" Bonavia da Monterosso لمواطنه "كرمندنو" Rollando Carmandino كمية من الأصواف كان قد جلبها، "وليام دي سوشيليا" Guglielmo da Socialia من بجاية[3].

– في شهر يوليوز 1278 قام "سنغندو" Ambrosio Segnorando بعدة عمليات تجارية بجنوة من خلال بيعه لكميات من الأصواف جلبها من بجاية. ويقدم العقد ذاته معلومات مهمة عن تطور أسعار الصوف البجائي بجنوة. ففي 26 يوليوز بيعت منه ثمانية أكياس بقيمة 144 ليرة و17 فلسا و6 دنانير، وفي 27 يوليوز بيعت أربعة أكياس بـ72 ليرة و9 فلسا و4 دنانير، وفي 28 يوليوز اقتنيت بها ثلاثة أكياس بـ38 ليرة و18 دينارا[4].

– في سنة 1293 التزم الجنويان "جيوفاني وجويدتو" Guidoto و Giovanni بنقل 7 "سالما" Salma من أصواف بجاية إلى جانب كميات أخرى من شب إسبانيا لفائدة "كروني جياكمو" Caroli و"برنردو" Bernardo. وقدرت الكميات المحمولة بـ250 ليرة[5]. وقد استمرت بجاية في تصديرها للأصواف نحو جنوة في القرن 14م كذلك[6]. ونعلم أن أحد الجنويين باع أصواف بجاية في جنوة سنة 1328[7]. وإضافة إلى

---

1 Jehel, les Genois, p141
2 العقد محفوظ بأرشيف [illegible] ASG [illegible] 70 [illegible] 18 [illegible] 1271
3 Ferretto, Codice, T2, p63
4 Ferretto, Codice, T2, p248
5 Jehel, les Genois, p326
6 Austa Roccatagliata, L'Officium Robarie del comune di Genova, Gene 1980, Tome 3, p893 et suivantes
7 Valerian, Bougie p633

- في سنة 1271 كوّن الجنويان "ستنكنو" Stanconino Stancono و"سكوتو" Nicoloso Scoto شركة بمبلغ مالي قدره 1635 ليرة، ساهم الأول فيه ب1425 ليرة، والثاني ب210 ليرة، من أجل شراء الأصواف ببجاية[1].

- في السنة نفسها ، نقل الجنوي "Giovannino di Quarto" 39 كيسا من الصوف من بجاية على مركبه لصالح "Streggiaporco"[2].

- في سنة 1276 باع "منترسو" Bonavia da Monterosso لمواطنه "كرمندنو" Rollando Carmandino كمية من الأصواف كان قد جلبها، "وليام دي سوشيليا" Guglielmo da Socialia من بجاية[3].

- في شهر يوليوز 1278 قام "سنغندو" Ambrosio Segnorando بعدة عمليات تجارية بجنوة من خلال بيعه لكميات من الأصواف جلبها من بجاية. ويقدم العقد ذاته معلومات مهمة عن تطور أسعار الصوف البجائي بجنوة. ففي 26 يوليوز بيعت منه ثمانية أكياس بقيمة 144 ليرة و17 فلسا و6 دنانير، وفي 27 يوليوز بيعت أربعة أكياس ب72 ليرة و9 فلسا و4 دنانير، وفي 28 يوليوز اقتنيت بها ثلاثة أكياس ب38 ليرة و18 دينارا[4].

- في سنة 1293 التزم الجنويان "جيوفاني وجويدتو" Giovanni وGuidotto بنقل 7 "سالما" Salma من أصواف بجاية إلى جانب كميات أخرى من شب إسبانيا لفائدة "كرولي جياكمو" Caroli و"برنردو" Bernardo. وقدرت الكميات المحمولة ب250 ليرة[5]. وقد استمرت بجاية في تصديرها للأصواف نحو جنوة في القرن 14م كذلك[6]. ونعلم أن أحد الجنويين باع أصواف بجاية في جنوة سنة 1328[7]، وإضافة إلى

---

[1] -Jehel, les Génois, p 141.

[2] - العقد محفوظ بارشيف جنوة ASGبالمجموعة 70، الورقة 6، مورخ ب 1271/7/18

[3] -Ferretto, Codice, T2, p63.

[4] - Ferretto, Codice, T2, p248.

[5] -Jehel, les Génois, p326.

[6] -Austia Roccataglia, L'Officium Robarie del comune di Genova, Gênes, 1989, Tome 3, p893 et suviantes.

Valerian,Bougie,p 633.

تونس وبجاية، تتحدث الحوليات الجنوية عن حصول الجنويين على الأصواف من مرسى جيجل[1].

وكانت مملكة بني عبد الواد مصدرة للأصواف في الفترة المدروسة، وخاصة من المرسى الذي يحمل اسما لنوع جيد من الأصواف، وهو "Mazagran" الذي ورد ببعض الوثائق الإسبانية[2]، غير إننا لا نعلم ما إذا كانت جنوة قد استوردت الأصواف من هذا المرسى أم لا، ومقابل ذلك لدينا إشارات عن استيراد البيزيين للأصواف من مملكة بني عبد الواد[3].

أما بالنسبة للأصواف المرينية ، فإنها صدرت من عدة مراسي، كسبتة وأصيلا وأنفا وسلا وأسفي[4]، ويتحدث "بيغولوتي" عن أصواف الغرب Lana di Garbo[5] - والغرب كما سبقت الإشارة في فصل سابق يحمل عدة دلالات في الوثائق الإيطالية، من ضمنها الدلالة التي تفيد المغرب الأقصى، أو الجهة الشمالية الغربية منه- وابتداء من سنة 1307 ترد بالوثائق الجنوية إشارة إلى نوع من الأصواف متميزة بليونته وجودته، ويعرف بمرينوس "Merinos"، وقد اجتهد "لوبيز" كثيرا في البحث عن أصل هذه التسمية، والتي يرجح أن لها علاقة باسم المرينيين حكام المغرب الأقصى آنذاك. ونظرا لأهمية هذا الاجتهاد، وعلاقته بموضوع تصدير المغرب المريني للأصواف إلى جنوة، نقدم خلاصة لأهم معطياته، خاصة وأن "لوبيز" كان السباق إلى العثور على الوثيقة التي ورد فيها لأول مرة ذكر اسم أصواف "مرينوس".

ورد في قاموس الأكاديمية الإسبانية لسنة 1939 أن كلمة "Merino" في العصر الوسيط ترتبط باسم منصب قضائي وإداري ساد بقشتالة في العصر الوسيط. ومن الواضح -كما يرى لوبيز- أن الكلمة لا تحمل أيّ دلالة لها علاقة مع مجال تربية الماشية. إن أصواف" مرينو" عرفت بإيطاليا مع بدايات القرن 14، أي تقريبا قبل أن تظهر الكلمة في نفس المعنى بالوثائق الإسبانية ب 150 سنة.

[1] [illegible] في حصول الجنويين على الأصواف تم عن طريق القرصنة، ففي سنة 1283 [illegible] سفينة جنوية [illegible] "كفاروشو" Cavarunco Filippo على [illegible] كانت محملة بالأصواف [illegible] قيمة تلك الأصواف بـ2100 ليرة انظر A.G. T5 p37 et p40

[2] Dufourcq, L'Espagne, p545

[3] Bensaci (M), p68

[4] Pegolotti, La pratica, pp273-277

[5] Ibid, p421

كما يستبعد أن تكون للكلمة علاقة بنوع من الجلود استوردتها إحدى ملكات انجلترة من وراء البحار"Da oltremare". غير أنها لم تكن تحمل نفس السمات التي حملتها أصواف "مرينوس".

لهذا يميل إلى الاعتقاد بأن أصواف "مرينوس" ذات أصل إفريقي، وترتبط باسم المرينيين حكام المغرب الأقصى، وبلاد المغرب لفترة قصيرة. ويدعم رأيه بكون عبارة "المسماة" أصواف "مرينوس" التي وردت بالوثيقة، تدل على أن الاسم لم يكن متداولا بإيطاليا، وأنه حديث الاستعمال بها. وبما أن النفوذ المريني امتد في بعض الفترات إلى حدود تونس التي تمت بها العملية التجارية، فلربما أن للكلمة علاقة باسم المرينيين. ويرجح" لوبيز" أن تكون العملية التي قام بها "باسكال أوزوديماري" Usodimare سنة 1307، محاولة لتنشيط تجارة الأصواف المغربية من جديد، على الرغم من أن إقبال الجنويين على الأصواف الإنجليزية قد تزايد، خاصة ما بين 1275 و1278، بعد أن نجحوا في نقل الشب إلى الأسواق الإنجليزية، حيث كان الطلب عليه كثيرا[1].

وإذا كانت القرائن التي قدمها "لوبيز" لتدعيم طرحه تبدو صلبة، فإن ربط أصواف "مرينوس" بالمرينيين، وهم الذين أمدوا مجال حكمهم إلى تونس التي احتضنت العملية التجارية لسنة 1307، يبدو قابلا للمراجعة. فالمعلوم أن توحيد بلاد المغرب تحت حكم المرينيين لم يتم قبل عهد أبي الحسن الذي انطلق سنة 1331م (731هـ)، اللّهم إذا كانت الأصواف التي تتحدث عنها الوثيقة قد نقلت من المغرب الأقصى إلى ميناء تونس، لتنقل من جديد إلى جنوة. وتجب الإشارة إلى أن" Ryder M.L" ذهب إلى أنه لا يوجد ثمة دليل أركيولوجي يثبت وجود تربية للماشية ذات الأصواف الرقيقة بشمال إفريقيا عن تلك الفترة[2].

وعلى كل حال، فالأكيد أن الأصواف التي نقلها "أوزوديماري" باتجاه جنوة كانت من بلاد المغرب، وتشهد على استمرارية تجارة الأصواف بين الطرفين مع بدايات القرن 14م. وتعميما للفائدة ننقل هنا ترجمة نص الوثيقة

[1] Lopez, Su et [illegible], p 265 et suivantes

[2] Ryder M.L, La storia delle pecore merino nella lana antiqua, [illegible] 1993, p 178, cité par Valerian Bougie, p1[illegible]

"أنا "سيمون ستانكوني" Simone Stancone مفوض من "بشكوال أوزوديماري" Pasquale Usodimare اعترف بأنني توصلت من "تارترنو دي نيغرو" tartarino Di Negro بـ49 كيسا من الصوف الذي يسمّى "مرينوس" Merinos، والتي أرسلها "جابريل بن بشكوال" المذكور آنفا من تونس، أو المناطق التابعة لها على سفينة "دي نيغرو" Di Negro [1] التي ترسو حاليا بمياه ميناء" بورتو بيزانو" Porto Pisano [2]

وبعد تسلم الصوف، سوف تشحن بطريدة في ملكية الميورقي "روس" Berenguer Ros التي توجد على أهبة لنقلها من "بورتو بيزانو" إلى جنوة...

تم ببيزة بمنزل قنصل الجنويين سنة 1307، الإشارة 4، يوم 23 يونيو مساء. الشهود " "Thomas De Savio" و"Thomas De Loco"، و" Manuel de "Pecimbona" و" Andrioulus De Magdalena" ابن Frederic"Magdalena ".

أرشيف كومونة جنوة، مجموعة " Andreolo De Laneris" الجزء الثاني، ورقة 42.[3]

ويبقى أن نشير إلى أن أصواف بلاد المغرب التي استوردتها جنوة ، لم يكن استعمالها يقتصر على تغذية الصناعة النسيجية الجنوية، بل كان منها ما يعاد توزيعه على مناطق إيطالية أخرى، مثل توسكانيا ولومبارديا[4]. وتحتفظ لنا الوثائق الجنوية بعدة إشارات لعلميات بيع الصوف المغربي من طرف الجنويين بفلورنسا-مثلا-[5].

لقد أدت الأصواف المستوردة من بلاد المغرب إلى انتعاش الصناعة النسيجية بجنوة، بل وبالمناطق المحيطة بجنوة ، وهو ما تبرزه مجموعة من العقود . فبعضها يشير إلى "Stefano Borgo Santo" أو إلى " Sant' Andrea " أو" Rivotorbido"، وكلها أرباض توجد جنوب المدينة، حيث أنشطة الصناعة النسيجية. وتشير بعض العقود إلى

[1]- كان من أقرباء زكرياء " Benedetto Zaccaria " الذي ساهم في انتصار القشتاليين على المرينيين بمضيق جبل طارق في سنة 1291.
[2]- ميناء بيزة.
[3]-في الواقع أن الموثق هو "Giachino Nepitella" وليس "Laneris".
[4] -Lopez, Su et giu, p 271.
[5]- من ذلك مثلا أن الجنوي" لفجي" Tommaso Lavaggi باع للفلورنسي" فنرو " Filippo de Viniro ثلاثة أكياس من صوف بجاية، والتي تزن 13 قنطارا و33 رطلا بقيمة 4 ليرات و10 لكل قنطار، انظر:
Ferretto, Codice, T1, p175.
وفي سنة 1268 اشترى الفلورنسي" غويدوني" Bartolo de Guidone من الجنوي" شترغليبركو " Samuel Strigliaporco ثمانية أكياس من صوف بجاية كذلك، وتزن25 قنطارا و 53 رطلا أنظر: Ferretto, Codice, T1, p 167.

إحدى جهات منطقة ليغوريا التي تنتمي إليها جنوة، وهي قريبة منها، مثل " Chiavari" "أو" Struppa" أو" Rapallo " أو"Vintimille " "[1].

ومن الممكن معرفة أسعار الأصواف المغربية بجنوة ،على الأقل من خلال نماذج من العقود التي تهم استيراد هذه المادة من بجاية خلال القرن 13م/ 7هـ، وهو ما نبسطه ضمن الجدول التالي[2]:

تاريخ العقد	الكمية المستوردة من الصوف بالقنطار أو بالرطل	المبلغ بالليرة الجنوية	سعر القنطار	المصدر:عقود أرشيف جنوةASG
27/ 1/ 1259	35 قنطارا و27 رطلا	178ليرة و7 فلسا و1 دينار	5 ليرة	المجموعة 105 الورقة 66 و67
28/ 2/ 1259	23 قنطارا	111 ليرة و 10 فلسا	4 ليرة و 16 فلسا	المجموعة 105 الورقة 91 خلفية
27/ 10/ 1268	34 قنطارا و 99 رطلا	168 ليرة	4 ليرة و 16 فلسا	المجموعة 62 الورقة 138 خلفية
13/ 9/ 1274	11 قنطارا	44 ليرة	4 ليرة	المجموعة 82 الورقة 294 خلفية
13/ 9/ 1274	15 قنطارا	60 ليرة	4 ليرة	المصدر السابق
26/ 5/ 1284	28 قنطارا	152 ليرة وفلسا واحد و10دينارا	5 ليرة و 5 فلسا	المجموعة 73 الورقة152-153
9/ 6/ 1284	3 قنطارا و64 رطلا	19 ليرة و5 فلسا و8 دينار	5 ليرة و 6 فلسا	نفسه الورقة 198
2/ 3/ 1288	54 قنطارا و 62 رطلا	240 ليرة و 10 فلس و 9 دينارا	4 ليرة و 8 فلسا	المجموعة 120/ 2 الورقة91 خلفية
3/ 3/ 1288	43 قنطارا و 6 رطل	191 ليرة و 8 فلس	4 ليرة و 9 فلسا	نفسه ص 92
24/ 9/ 1293	140 قنطارا و 27 رطل	596 ليرة و2 فلسا و11 دينارا	4 ليرة و5 فلسا	المجموعة109الورقة 213 خلفية

[1] - Valerian, Bougie, p 382.
[2] -Ibid, p 386.

لقد كانت تجارة الأصواف من أهم المصادر المادية التي عوّلت عليها دول بلاد المغرب آنذاك. ويذهب "ديفورك" في هذا الشأن إلى أن الأصواف والجلود كوّنت على الأقل ربع السلع التي اشتراها الأوربيون من إفريقية الحفصية[1]. ويبدو من خلال ما أورده "بيغولوتي" أن الدولة المرينية راقبت عن قرب تجارة الأصواف، كما تبدو أهمية المداخيل التي استفادت منها بفعل هذه التجارة. فقد استخلصت الجمارك المغربية ربع دينار ذهبي عن كل قنطار من الأصواف المصدرة من سلا، ونفس القيمة عن الأصواف المصدرة من أنفا[2]. ولم تقتصر الصناعة النسيجية بجنوة على الأصواف المغربية، بل اعتمدت على مواد أولية أخرى مثل القطن[3] والكتان، وخاصة من سبتة وبجاية[4].

- الجلود: شكلت الجلود إلى جانب الأصواف ثابتا من ثوابت الصادرات المغربية في العصر الوسيط، بل إن ابن خلدون لا يعترف للمغرب سوى ببضاعتين هما الجلد والصوف[5]. وبالرجوع إلى المصادر، يتضح أن بلاد المغرب صدّرت جلود عدة حيوانات، وهي الجمال والماعز والأغنام والأبقار والخيول. وكانت هذه الجلود تصدر خاما أو مدبوغة. وتطالعنا في هذا الصدد بعض العقود التي حرّرها الموثق "لنفرنكو" Lanfranco بإشارات عن استيراد الجنويين للجلود من بجاية، وخاصة منها جلود الأغنام سنة 1216[6]. ويشير عقد آخر للموثق نفسه أن "سموني" ابن "Baldovino" باع ل"Prezario Parastrello " جلودا مستوردة من بجاية سنة 1225[7]. ونقل

---

[1] .Dufourcq, L'Espagne, p 556.

[2] .Pegolotti, pp 273-277.

[3] يشير عقد مؤرخ ب7 غشت 1217 إلى شراء أحد الجنويين لقطن مستورد من سبتة، أنظر :
Jehel , Les Génois, p 363 note 316.

[4] يشير أحد العقود إلى "كترينا" Domina Caterine زوجة "مركزلي " Marchisini قدمت لشيرو Giovanino Cibo مالك السفينة 27 ليرة و 2 فلسا و 11 دينارا لشراء الكتان بسبتة سنة 1251. ويوجد العقد محفوظا بأرشيف جنوة ASG ضمن مجموعة الموثقين المجهولين:
Not Ignoti, B3, fram 32, N°100
كما يشير عقد آخر إلى أن "أبرتو" Oertinus de Albario توصل بقراض قيمته 30 ليرة و 10 فلسا من "فندريتو" Pascale Vendereto لشراء الكتان من بجاية. يوجد العقد ضمن المجموعة 1/10، الورقة 82، وقد تم إنجازه في شتنبر 1251.

[5] لاشك في أن هذا الحكم الخلدوني قابل للتهذيب لأنه لم يقارب الصناعة كموضوع تاريخي، وانطلق من إطار عام للبناء النظري لابن خلدون الذي هو العمران. وتأسيسا على هذا الرأي، فإن صناعة الجلد وصناعة الصوف مظهران للبداوة أكثر منهما مظهران للحضارة. وللمزيد من التعمق في هذه النظرة، يمكن الرجوع إلى دراسة شرموم محمد، تطور الصناعة في نسق ابن خلدون الاجتماعي، أعمال ندوة ابن خلدون، الرباط، 1979.

[6] . Dufourcq, Aperçu, p732.

[7] عقد الموثق "لنفرنكو" رقم 1441، مؤرخ ب: 1225/5/31.

" Tommaso Caplte Agneli" جلود بجاية لبيعها بجنوة سنة 1234[1]، وحمل "Petrino Leccavello" الجلود من بجاية إلى جنوة سنة 1252[2]. وفي مقابل مؤرخين بسنة 1261، حمل "Gandulfino de Quarto" جلودا من بجاية إلى جنوة في شكل قراض[3]. كما تتضمن إحدى الوثائق التي حرّرها الموثق "باتفايو" بتونس سنة 1289 إشارة إلى استيراد الجنوي "Leonardo de Sigembaldo" لكميات من الصوف والجلود المختلفة قدرت ب2450 قنطارا، وذلك على متن سفينة في ملكية "ازوديماري" Pasquale Usodimare، وتسمى السفينة "سان جيوفاني" San Giovanni. والظاهر أن الجنويين وجدوا منافسة شديدة من جانب البيزيين في اقتناء الجلود من تونس خلال النصف الأول من القرن 14م/ 8هـ، بالرغم أن جنوة كانت قد ألحقت هزيمة بحرية كبرى بالأسطول البيزي في ملوريا سنة 1284[5].

ويبدو أن جلود الدولة المرينية قد أخذت طريقها إلى جنوة بالنظر إلى حاجة هذه الأخيرة إلى الجلود لتغذية صناعتها النسيجية. وتحدث "بيغولوتي" عن أهمية الضرائب التي استخلصها السلطة المرينية من خلال تجارة الجلود. فقد حصلت من مرسى سلا على دينار ذهبي عن كل 100 قطعة جلدية من جلود الأبقار والعجول والجمال والخيول، وعلى دينار ونصف دينار ذهبي عن كل 10 قطعة من جلود الماعز، وعلى 30 درهما فضيا عن كل 10 قطعة من جلود الخرفان، بينما استخلصت من مرسى أنفا 9 دنانير ذهبية عن كل 100 قطعة من جلود البقر، ومثلها عن كل 100 قطعة من جلود الجمال، ودينارا ونصف دينار عن كل 100 قطعة من جلود التيس، وربع دينار ذهبي عن كل 100 قطعة من جلود الخرفان. وكان على التاجر أن يؤدي بأصيلا 18،5 دينارا ذهبيا عن كل 100 قطعة من جلود الأبقار، و9 دنانير وربع دينار فضي عن كل 100 قطعة من جلود العجول والجمال والخيول، و10 دنانير فضية عن كل 100 قطعة من جلود التيس المدبوغة وغير المدبوغة، و22 درهما فضيا عن كل 100 قطعة من جلود الخرفان[6]. والظاهر أن الجنويين استمروا فيما بعد الفترة المدروسة في استيراد

---

[1] المجموعة 2/18، الورقة 201، مؤرخ ب: 1234/9/7.

[2] المجموعة 1/1، العقد، مؤرخ ب: 1252/9/21.

[3] الأول مؤرخ ب: 1261/9/16، والثاني ب: 1261/9/20، أنظر Bougie, Valerian, p 365,note 300.

[4] -Pistarino (Geo), Notai, acte N91.

[5] نشير في هذا الصدد إلى النشاط الملحوظ للتاجر "بيش" Pace سنة 1324 حيث يبدو أنه احتكر تجارة الجلود بتونس أنظر
Schaube, Storia., ;p 358, et Amari, Diplomi.op.cit :

[6] -Pegolotti, La Pratica, pp273-277.

الجلود من المغرب الأقصى، فبجبل بني فنزكاز- بجبال الهبط- كان يقام يوم السبت سوق كبير يؤمه بعض التجار الأوربيين، ومن ضمنهم الجنويون لشراء الشمع وجلود البقر من أجل تصديرها إلى جنوة[1]. ويستفاد من بعض القرائن أن السلطة ببلاد المغرب راقبت عن قرب تجارة الجلود كذلك. فإضافة إلى إشارات "بيغولوتي" في هذا الشأن، فإن تدخل السلطة في بعض الأحيان لمنع تصدير الجلود، يجعلنا نفكر في وجود نوع من الاحتكار الذي مارسته على مستوى تجارة هذه المادة[2]. غير أن ذلك لم يمنع الجنويين من الإقبال أكثر على الجلود المغربية نظرا لجودتها، إذ نافست الجلود التي كانوا يستوردونها من إسبانيا ومن مناطق البحر الأسود[3].وإذا ما كان قد حصل تراجع في الإقبال على أصواف بلاد المغرب من لدن الأوربيين في القرن 14م، بفعل تزايد منافسة الأسواق الخارجية ، فإنهم استمروا في الإقبال على جلود المنطقة.[4]

وتجدر الإشارة إلى أن بعض مصادر المرحلة المدروسة، تتحدث عن جلود اللمط. وكانت تستورد من المناطق الصحراوية وتدخل في صناعة الدروع الواقية للجنود، وتعرف بالدرق اللمطية[5]. والواقع أننا لم نعثر على إشارة مباشرة تفيد تصدير بلاد المغرب لهذه الجلود إلى جنوة. غير أن "بوتان" اعتمد على بعض الوثائق الفنية، وخلص إلى أن هذه الجلود استعملت من طرف الجيوش الإسبانية والبرتغالية والفرنسية والإيطالية، ورأى أن الدول الأوربية استعملت الدرق اللمطية لصلابتها، وأن استعمالها بالغرب المسيحي انتشر من القرن 13 إلى القرن16 م، وكانت تعرف باسم "adarga".[6]

ومن الملاحظ أنه إذا كان "بيغولوتي" قد فصّل في ذكر أنواع الحيوانات التي شكلت جلودها مادة تصدير من المغرب الأقصى إلى الدول الأوربية، فإن عقود الموثقين الجنويين تكتفي في الغالب بالإشارة إلى "Becune"، مما قد يعني أن جلود الأبقار كانت الأكثر طلبا من جانب الجنويين. ونشير كذلك إلى أن بيغولوتي يتحدث

1- الوزان، وصف إفريقيا، ج1، ص248.
2- من المعلوم أن السلطان أبا الحسن وقع معاهدة بتلمسان مع ميورقة سنة 1339، وقد نصت على أن تمنع الدولة المرينية تصدير الأسلحة والخيول والقمح والجلود المملحة وغير المملحة، كما أن السلطان المريني عبد العزيز (1367-1372) منع فيما بعد كلية تصدير بلاده للجلود.
3-Balard (M). Gênes et la Mer noire. R H. 1983. p41.
4- Valerian(D). L'essor de l'activité commerciale de la façade maritime du Maghreb au 13 et 14 siècles. in. les ports et la navigation en Méditerranée au moyen âge. 2004.p 226.
5- شكلت هذه الجلود إحدى السلع التي جلبتها شركة الإخوة المقري من الصحراء في القرن 8هـ/14م، أنظر، ابن الخطيب، الإحاطة، ج2، ص192.
6-Buttin (F). Les adargues de Fes. Héspéris. fasc 3. 1950. pp409-455.

عن تصدير بلاد المغرب لمادة تعرف بقشرة أو لحاء بجاية، وهو لحاء شجر يدخل مباشرة في صناعة الجلود[1]. وعلى ذكر بجاية، تجب الإشارة إلى أنها احتضنت في القرن 13م/ 7هـ أحد أكبر علماء الرياضيات الإيطاليين الذين اهتموا بالمعادلات المتعلقة بتجارة الجلود، ونقصد به البيزي "ليوناردو بيزانو فبوناتشي" الذي ترعرع بهذه المدينة. ولا غرو فإن جلود بجاية الرفيعة أصبحت معروفة في القرن13 م بأوربا[2].

– مواد أخرى: ندمج ضمن هذا الإطار سلعا صدرتها بلاد المغرب إلى جنوة، ولم تكن لها نفس الأهمية – على الأقل على مستوى الوزن- التي كانت للثلاثي، الحبوب والصواف والجلود. وتتمثّل هذه المواد فيما يلي:

– الشّبّ: كانت جنوة في حاجة إلى الشب لصناعة الحرير والصوف ولدباغة الجلود، واستوردت هذه المادة من عدة مراسي مغربية حسب عقود الموثق "جيوفاني سكريبا" منذ القرن 12م/ 6هـ، وقد وصل شب بجاية في القرنين 13 و14م إلى حدود فلندرة[3]. وجاء في أحد العقود مؤرخ برابع شتنبر 1225 أن"Giovanni Burdono" باع ل"Giovanni Carbone" و"Guiarello Dmenica" كمية غير محددة من الشب جلبها من سبتة بقيمة 48 ليرة[4]. وتشير في هذا الصدد عقود الموثق "كبريتو" Capriato إلى أن أحد الجنويين جلب الشب من سجلماسة في يناير 1260، وفي السنة نفسها استورد "زكرياء" Manuele Zaccaria الشب من بجاية بقيمة 43 ليرة و8 فلسا[5]. وفي سنة 1272 توصل"Franceschino de San Sinesio" بشب بجاية على مركب"Giovanni Portonario" وعلى طريدة "Giordano" [6]. وجاء بوثيقة ضمن الوثائق التي نشرها" فريطو" أن "لركري" باع في سنة 1276 لشركة تجارية من "لوكا Lucca " كمية من هذه المادة، تم استيرادها من بجاية بقيمة 200 ليرة[7]. وهذا يفيد أن جنوة لم تكن تحتفظ بكل كميات الشب التي جلبتها من بلاد المغرب، بل كانت تعيد توزيعه على بعض المناطق الإيطالية الأخرى. كما استورد الجنويون الشب من تونس[8].

1 -Mas Latrie. Traités. p375.
2- Delort(Robert). Le commerce des fourrures en Occident vers la fin du moyen âge. Rome. 1975.p219.
3 - Balletto (L). Bougie. op cit. p85.
4 - Balletto(Laura). Tra Genovesi e Musulmani nel 13 secolo. Mésogeios. 7. 2000. p157.
5 Dufourcq. Aperçu. p733 et p 735.
6 - Valerian. Bougie. p 401.
7 - Ferretto. Codice. T2. p94.
8 Jehel. Les Génois. p352.

وإذا كان الفلورنسي بيغولوتي لا يشير إلى شب بجاية في منتصف القرن 14م ضمن المناطق المنتجة لهذه المادة، فإن كتاب مرشد للتجار لأحد الكطلانيين، يجعل شب بجاية من الأنواع الجيدة آنذاك[1].

واشتهرت سجلماسة بالشب الأبيض. والظاهر أنه إلى نفس السلعة تحيل عبارة "alumen de garbo" التي وردت بأحد بالعقود التجارية[2]. وإذا كنا نعلم أن الشركة الفلورنسية لـ"Datini de Prato" أرسلت أحد ممثليها إلى الكدية (أي غساسة) لدراسة إمكانية جلب الشب منها[3]، فليست لدينا قرائن تبين أن الجنويين استوردوا هذه السلعة من غساسة في تلك الفترة. وكانت مملكة بني عبد الواد من المناطق المصدرة للشب إلى جنوة[4]. وجاء بنفس الوثيقة التي تتحدث عن شب الغرب أن "بتروتشو" Nicolino de Petruccio توصل بكمية من شب تلمسان عن طريق أخيه "بيترو" Pietro، وبلغت الكمية المستوردة 100 قنطارا. والجدير بالإشارة إلى أن السلطان العبدوادي – لربما- كان يشرف مباشرة على بيع السلعة[5].

ولم تكن بلاد المغرب سوى منطقة ثانوية ضمن أسواق الشب التي تردّد عليها الجنويون، إذ حصلوا على حاجياتهم منه عبر أسواق آسيا الصغرى ومن الشرق[6]، بل إن بلاد المغرب تحولت أحيانا إلى مستوردة للشب من جنوة[7].

-المرجان: صدّرت بعض مراكز بلاد المغرب المرجان بانتظام إلى أوربا منذ القرن 10م، ويتعلق الأمر بمرسى الخرز – على الحدود الجزائرية التونسية الحالية- وتنس وسبتة[8]. وإذا كانت المصادر قد أشادت بأهمية صيد المرجان بمرسى الخرز إلى نهاية العصر الوسيط، فمن اللافت للانتباه أن المصادر توقفت عن الإشادة بأهمية مرجان سبتة –على ما يبدو – مع إشارة الإدريسي في القرن 6هـ/ 12م[9]، وتغيب

[1] - Valerian, Bougie, p 401.

[2] - انظر العقد المؤرخ بـ25 ماي 1268، ASG المجموعة 76 بأرشيف جنوة، الورقة 65.

[3] - Valerian.Bougie, p 404.

[4] -Lopez, Studi, p35.

[5] - [illegible] سنة 1250 كمية 20 طنا من الشب إلى مملكة اراغون، ويبدو أنه قام بذلك باسم السلطان [illegible] (1236-1282) انظر Dufourcq, l'Espagne, pp135-136 et p546.

[6] -Balard, Gênes et l'outre mer,op.cit.

[7] - [illegible] سنة 1213 الشب من جنوة، وفي الغالب أن مضاعفات معركة العقاب ساهمت في تراجع إنتاج [illegible] من الشب [illegible] في أحد العقود أن سبتة استوردت بعد عملية تجارية مؤرخة بشهر ماي 1213، كمية من [illegible] 33 [illegible] و5 [illegible]

[illegible] ASG-1213 المجموعة 5 بأرشيف جنوة، الورقة الخلفية 82.

[8] -Mas Latrie, Traités, op cit, p 381.

[9] - [illegible] الإدريسي مرجان سبتة بأنه "لا يعدله صنف من صنوف المرجان المستخرج بجميع أقطار البحر"

الإشارة إلى المرجان لدى الأنصاري ابن المدينة الذي عدد مرافقها وأنشطتها. الشيء الذي يوحي بأن صيد المرجان قد تراجع بسبتة خلال المرحلة المدروسة. والواقع أننا لم نعثر على إشارة تفيد استيراد جنوة للمرجان من سبتة آنذاك.

ومن المعلوم أن حاجة الجنويين إلى المرجان فرضتها صناعة الحلي المرجانية التي كانت تدر عليهم الأرباح بفعل تصدير إنتاجها إلى الشرق، وخاصة إلى الهند لولع سكانها بها[1]. أما بخصوص مصائد مرسى الخرز، فإن "دو ماص لاتري" يتحدث عن وجود أنشطة لعناصر من أسرة "لوملني" Lomellini بها دون أن يحدد مصدره[2]. ومن المعلوم أن هذه الأسرة كانت من الأسر الجنوية المشهورة بتعاطيها للتجارة البعيدة. وإذا كان الجنويون قد نجحوا في استئجار عملية إنتاج المرجان بمصائد الدولة الحفصية، فإن عملية توزيعه بالحوض المتوسطي كانت من اختصاص البنادقة، خاصة وأن المرجان كان يتداول كعملة بالبندقية، سواء في التبادل أم في الأداء[3]. وقد اعتبر ابن قنفذ عائدات البحر – بما فيها- المرجان من أهم المصادر المادية لدولة السلطان أبي إسحاق[4].

- شمع العسل: يحتمل بعض المهتمين ان يكون اسم بجاية قد نقل لدى الأوربيين للدلالة على الشمعة Bougie، والتي تمثل تقدما مهما في تاريخ الإنارة[5]. ويتضح من خلال إشارات بيغولوتي أن المغرب المريني صدّر شمع العسل كذلك. فبمرسى سلا استخلصت الجمارك 4 دنانير ذهبية عن كل قنطار من هذه المادة، ومن مرسى أنفا استخلصت دينارا وربع دينار ذهبي عن كل قنطار منها. ويبدو من خلال المصدر نفسه أن الكطلانيين هيمنوا على تجارة شمع العسل بمرسى أصيلا[6].

- التوابل: ظلت بلاد المغرب مستوردة للتوابل في العصر الوسيط من الشرق عن طريق التجار الإيطاليين، ولاسيما من الجنويين. غير أن بلاد المغرب لعبت دور الوسيط في تجارة نوع من التوابل يعرف بحبة الجنة أو "meleguette" في المصادر اللاتينية، والذي كان ينتج بالسودان الغربي[7]. وقد تمت الإشارة إلى استعمال حبة الجنة

[1] -Asthor (Eliyahu). Levant trade in the later middele ages, New Jersy, 1983, p164.

[2] -Mas Latrie , Traités, p 332.

[3] -Doumerc(B), Venise et la Barbarie, p 181 et suivantes.

[4] - ابن قنفذ، الفارسية، ص 174

[5] -Mas Latrie, Traités, op cit

[6] ومن المفيد الإشارة إلى أن الشمع الذي كان يسير كنيسة "سان مارك" بالبندقية أتى من تونس Doumerc, op cit, p189

[7] -Pegolotti, La pratica op cit

- كانت تنتج [illegible] انظر

بأوربا منذ 1245، وبعد وصولها من السودان الغربي، كان التجار الإيطاليون يعيدون توزيعها انطلاقا من مراسي بلاد المغرب[1]. ويبدو أن هذه المادة صدرت أساسا من مرسى أصيلا حيث فرضت السلطة المرينية على التجار الأوربيين نصف دينار ذهبي عن كل قنطار[2]. وإضافة إلى هذا النوع من التوابل، تجدر الإشارة إلى استيراد جنوة لمادة طبية من بجاية حسب عقد مؤرخ بخامس ماي 1312[3].

– النيلة: نبات يدخل في تلوين وصباغة الأقمشة. وكان الجنويون يستوردون من بلاد المغرب، بل إن تجارة هذه المادة امتدت إلى أسواق فلندرة[4]. وجاء عند "بيغولوتي" أن السلطة المرينية جبت نصف دينار ذهبي عن كل قنطار من النيلة المصدرة من اصيلا[5].

– الفواكه المجففة: كانت التمور المغربية مطلوبة على موائد الفئات الغنية بغرب أوربا المتوسطية[6]. وإن لم نعثر على إشارة تفيد مباشرة استيراد جنوة لتمور بلاد المغرب، فإن أحد العقود يتحدث عن استيراد تاجر جنوي للتين من تونس سنة 1280، وقدرت الكمية المجلوبة ب25 "مين" mine[7].

ولعل ضعف الإشارات المصدرية عن تجارة الفواكه المجففة بين بلاد المغرب وجنوة، يفسره ضعف اهتمام الجنويين بفواكه هذه المنطقة لأنهم كانوا يعتمدون أكثر على الفواكه المجففة التي أنتجتها الدولة النصرية[8].

– السكر: أشادت بعض المصادر بأهمية إنتاج السكر ببلاد المغرب[9]، غير أن جنوة – مرة أخرى- عوّلت أكثر على سكر الدولة النصرية، حيث وجدت شركات

Heers, le Sahara et le commerce méditérraneen à la fin du moyen âge. A.I.E.O 1958, p 250 note1.

[1] -Chaunu (P). L'expansion, p 354.

[2] -Pegolotti, La pratica.

[3] -Canale, Nuova Istoria, T3, p 197.

[4] -Lopez, Studi, p 35.

[5]- Pegolotti, la Pratica, p 377.

[6]- كانت التمور المغربية مفضلة على مائدة ملك أراغون.

Dufourcq, l'Espagne, p546.

[7]- Jehel, les Génois, p 345.

[8] -Heers, le Royaume de Grenade et la politique marcharde de Gênes, in le moyen âge, 1957, p 109.

[9]-انظر مثلا عن المغرب المريني، مسالك الأبصار للعمري عند المنوني، ورقات... ص300.

جنوية متخصصة في إستيراد هذه المادة، ولا سيما بالمرية ومالقة[1]. ونكتفي هنا بالإشارة إلى العملية التجارية المهمة التي قام بها محمد بن المعلم من تجار سبتة، والذي نقل إلى جنوة سنة 1222 عدة مواد، من بينها ستة قناطير من السكر[2].

– سمك التون: يبقى موضوع الصيد البحري ببلاد المغرب الوسيط من المواضيع الطريفة التي تحتاج إلى مزيد من النبش والدراسة[3]. ويعتبر سمك التون أهم نوع من الأسماك ركّزت عليه المصادر المغربية الوسيطية، وهو النوع الذي حظي باهتمام الجنويين، إذ احتكروا صيده وتجارته بسوسة[4]، ورغم غياب إشارات مباشرة عن تصدير السمك من بلاد المغرب إلى جنوة، فلا نستبعد وجود مثل هذه التجارة، خاصة وأن جنوة كانت في حاجة إلى تلبية حاجياتها الغذائية بفعل ضعف المجال الزراعي الصالح حولها. وعلى العموم، تظهر بلاد المغرب من خلال المصادر العربية من بين المناطق المصدرة المهمة للسمك نحو غرب أوربا[5].

–المواد المصنعة: يتضح أن معظم صادرات بلاد المغرب إلى جنوة كانت من المواد الخام. ومع ذلك فإن بعض المواد المصنعة المغربية وصلت إلى جنوة، مثل المصنوعات الخزفية التونسية[6] وبعض المهاريز النحاسية المصنوعة بسبتة، والمخصصة لدق التوابل[7].

[1] -Heers, Royaume de Grenade et marchande de Gênes, dans Sociétés et économie à Gênes au 14 et 15 siècle, p 110 et suivantes.

[2] -Balletto (L), Da Genova al Maghreb,op ,cit.

المقال مترجم بمجلة أمل، عدد 5، سنة 1994.

[3]- من بين الدراسات التي حاولت أن تقدم صورة عامة عن هذا الموضوع ، يمكن الرجوع إلى:

- الطاهر قدوري، النشاط البحري في العصرين المرابطي والموحدي، أطروحة مرقونة بكلية الآداب، وجدة، 2002-2003.

- Mohammed Hammam, La pêche et le commerce du poisson en Méditerranée occidentale (X-début XVI) in l'occident musulman et l'occident chrétien au moyen âge, Rabat, 1995.

[4] -Mascarello- p70

وقد خصه الإدريسي بإشارات مهمة، كما أن" أدرنو" Adorno قدم وصفا حيا عن عملية اصطياد التن بإفريقية الحفصية، أنظر:

Adorno(Anselmo), Deux recits de voyage en afrique du nord au 15 siècle, Paris, 1936, pp223-24.

[5] - Hammam, op cit, p 173.

[6] - Marengo (E). Genova e Tunisi, p 206.

[7]- Jehel, , les Génois,p353.

ب-المواد المعدنية:

-الذهب: يكاد يكون الحديث عن تصدير الذهب السوداني من بلاد المغرب نحو غرب أوربا المتوسطية أمرا "ميكانيكيا"، كلّما تمّ الحديث عن الصادرات المغربية آنذاك. ورغم أن الذهب وجد ببعض المناطق مثل" ساحل افرنصة وأرض البيرة من جزيرة الأندلس، إلا أنه قليل"[1]. لذلك فإن غرب أوربا المتوسطية عوّل أساسا على ذهب السودان، والذي يرى أحد الدارسين المعاصرين بأنه كان "سيدا كبيرا بأوربا في القرن 13"[2]، ولاحظ ابن خلدون بأن " الذهب الذي نعرفه في هذه الأقطار -أوربا- إنما هو من بلاد السودان، وهي إلى المغرب أقرب"[3].

لقد أصبحت الجمهوريات الإيطالية – وجنوة في مقدمتها- في حاجة متزايدة إلى الذهب خلال الفترة المدروسة بفعل التحولات العميقة التي عرفتها بنياتها الاقتصادية والاجتماعية جراء "نهضة" القرن 13م، فالهيمنة على التجارة المتوسطية اقتضت من جنوة التوافر على عملة ذهبية تنافس بها العملة الذهبية البيزنطية والعملة الإسلامية، سواء المشرقية، أم المغربية منها[4]. ومن الجدير بالإشارة إلى أن جنوة كانت أول مدينة أوربية عادت إلى ضرب العملة على أساس ذهبي، بعد أن توقفت دور السكة عن ذلك بالغرب الأوربي منذ القرن 9م، وقد عرفت باسم "Janevino" أو" Genovino"، وكان وزنها يقارب 3،5 جراما من الذهب الخالص[5]. واستعمل الذهب بجنوة في قطاعات حيوية، فبفضله انتعشت صناعة الأقمشة الذهبية بأوربا، مثل الديباج والحريريات، والتي صدرتها إلى معارض ليون وجنيف، ومنها إلى باريز ومدن فلندرة[6]، وعن طريق العملة الذهبية تمكن الجنويون من اقتناء السلع النفيسة من

[1]. الحكيم (محمد)، الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة، تحقيق حسين مؤنس صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، عدد 1و2، سنة 1958، ص91.

[2]. Chaunu, p 315.

[3]. ابن خلدون، المقدمة، ص366.

[4]. عرفت العملة المرابطية والموحدية انتشارا بأوربا المتوسطية، حول هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى:

-Malowist, Quelques observations sur le commerce de l'or du Soudan occidental au moyen âge, A.E.S.C. nov. Dec 1970.

-صلح بن قربة، انتشار المسكوكات المغربية وأثرها على تجارة الغرب المسيحي في القرون الوسطى، ندوة الغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلال القرون الوسطى، الرباط 1995.

-Duplessey, La circualtion des monnaies arabes en Europe occidentale du VIII au XIII siècle, Revue Numismatique, 1956.

[5]. Lopez, Sette cento anni fa : il ritorno all'oro nell' occidente duecentesco, dans RSI, T.LXV, p p 19-25 et 161-198.

[6]. -Heers, Le Sahara, p 249.

الشرق[1]، لأن استعمال العملة الفضية في تصفية الحسابات التجارية بالدول الأجنبية، كان من شأنه أن يعرض التاجر إلى الخسارة[2]. وأخيرا فإن حاجة جنوة الملحة إلى الحبوب، دفعتها إلى اقتناء الذهب، إذ إنها كانت تقدم الخيوط الذهبية والفضية، مقابل حصولها على الحبوب[3].

لهذا كله، فإن الجنويين حرصوا في تعاملهم مع بلاد المغرب على التزود بالعملة الذهبية. واتخذ الذهب المحمول من بلاد المغرب من طرف الإيطاليين في ثلاثة أرباع الحالات شكل عملة ذهبية[4]، أما الجزء المتبقّى، فصدر من بلاد المغرب على شكل تبر أو خيوط أو سبائك ذهبية[5].

ويرد ذكر الذهب بالوثائق اللاتينية تحت اسمين، وهما "Aurus Tiberi" و"Aurus Paiola"، فالتسمية الأولى -كما هو واضح- تحيل على الكلمة العربية الذهب التبر، أي الذهب الدقيق أو المسحوق، وأحيانا تختزل في كلمة "Auri" أو" Orum"، كما هو الشأن في عقد قراض همّ التجارة مع سبتة مؤرخ ب20 يوليوز 1253[6]. أما التسمية الثانية "Paiolo"، فتحيل على المنطقة الممتدة بونغرا" Wangera" بحوض النيجر. وقد تمت الإشارة إلى ذهب "بايولا" بالمعاهدة التي تمت بين جنوة وتونس 1236[7]. بينما تتحدث الخرائط التي وضعها بعض الجنويين في القرن 14م، مثل "جيوفاني دي كرنيان" Giovani Di Carignan عن جزيرة بايولا أو "بالولا" Insula Palola[8].

صدّرت الدولة المرينية الذهب إلى غرب أوربا المتوسطية انطلاقا من عدة مراسي، وهي سلا وأسفي وأصيلا وسبتة[9]. فقد تردد الجنويون على سلا منذ القرن 12م للحصول على الذهب[10]. ويذهب "لوبيز" إلى أن ذهب بامبوك الذي كان يأخذ

[1] -Chaunu, p 112.

[2] -Bloch (M), Le problème de l'or au Moyen âge, in A.H.E.S., Tome VI, 1933, p25.

[3]- Heers, Gênes au 15 siècle, p 65.

[4] -Heers, Les hommes… p80.

[5] -Heers, Le Sahara, p 253.

[6] -Byrne, Genoese… p 44 note 1.

[7] -Lopez, Studi, p42.

[8]- يبدو أن واضعي الخرائط الإيطالية آنذاك اعتقدوا بوجود جزيرة تسمى جزيرة "بايولا" بغرب إفريقيا، كان يجلب منها الذهب، بيد أن الأمر لا يعدو أن يكون شكلا شبيها بالجزيرة، ساهمت فيه فيضانات نهر السنغال والفالمي (غالم بامبرك). وعلى أية حال فكلمة "Aurus Tiberi " تدل بالنسبة للإيطاليين على معطى جغرافي، فالمقصود به الذهب القادم من السودان، وتشير خرائطهم إلى موضع بامبوك بجزيرة التبر "insula Tiber"

[9]- Dufourcq, L'Espagne, p136.

[10] - Amari, Ricordi arabi, pp 578-579.

طريقه إلى سلا، كان أهم عامل دفع الجنويين إلى التعامل مع هذه المدينة[1]. وقد ...
اهتمام الجنويين بأسفي مع بداية النصف الثاني من القرن 13م[2]. وكانت آخر ...
وصل إليها الجنويون في هذا القرن. كتب مؤلف جنوي مجهول عاش ما ...
1265 و1290 كتابا سماه" مرشد الإبحار"، ما يلي عن أسفي: Safin finiscie la terra, che da qui innanzi non si trova terra[3]، أي:

"عند أسفي تنتهي الأرض، وما بعدها لا توجد أرض".

إن أولى الوثائق التي تحدثت عن نشاط الجنويين بأسفي- حسب علمي- هي التي أوردها "لوبيز" عن أنشطة ميناء جنوة في شهر مارس من سنة 1253[4]. ... الوثيقة التي تتحدث عن العملية التجارية التي قام بها "دوريا" D'oria في السنة ... بالمدينة المغربية . وإذا كانت الوثيقة لا تشير مباشرة إلى جلب الجنويين من خلال ... العلمية للذهب من أسفي، فإن بعض الباحثين المتخصصين في تاريخ جنوة، يؤكدون على أنها همت تجارة الذهب فعلا. يرى "فيتالي" و"لوبيز" و"غريللو" Guerello[5] أن جنوة بعد عودتها إلى ضرب عملتها على القاعدة الذهبية، أصبحت في حاجة ماسة إلى هذه المادة، وأن بعض المؤسسات المالية والتجارية بها، كانت بفعل هذا التحول على عتبة الإفلاس، وخاصة منها تلك التي كانت في ملكية أسرة "فييشي" Fieschi، الأمر الذي أجبرها على أن تبحث عن الذهب بالمناطق البعيدة. ويرى هؤلاء أن اهتمام ... "اينوسان" Innocent IV –وهو من أسرة فييشي- بالمغرب الأقصى، لم تكن ... أهداف دينية فحسب، بل يفسره كذلك قربه وخاصة أسفي- من مناجم ذهب بلاد ... ومهما يكن من أمر، فإن اهتمام الجنويين بأسفي استمر في ما بعد، إذ مثلت بالخرائط التي وضعها الإيطاليون في القرن 14م[6]. وهذا الاهتمام لا يمكن عزله عن الأهمية التي

- Lopez, Studi, p41.
- Ciasca, Un centro, p456.
- Mozzo (B.R.): Il piu antico portolano mediovale del Mediterraneo ,in Atti del congresso geografico italiano, Genova ,1924, p259.
- Lopez, Studi, op. cit.p 46.
- Vitale, Breviario, Tome 1, p 107.
- Lopez, Studi ,op.cit.
- Guerello (Franco) La crisi bancaria del paicentino Guglienlmo leccaroso, in RSI, Tome LXXI, 1959, p 292-311.

[6]- تظهر أسفي بالخريطة التي وضعها "فسكونتي" Pietro Visconti سنة 1318 -وليس بورتولان نوبير هلونز كما جاء عند الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي، ج7، ص174 لأن بورتولان تعني خريطة - وبالخريطة التي وضعها "دولكرت" Angelino Dulcert سنة 1339، وبالخريطة التي وضعها مجهول جنوي عام 1351 أنظر Ciasca,Un centro, p 446.

اكتساها مرسى أسفي كمصدر لمواد جنوب المغرب والمواد المجلوبة من السودان الغربي. وإذا كانت أصيلا وسبتة قد صدرتا الذهب إلى مملكة أراغون، كما أوضح "ديفورك" في أطروحته، فإن الوثائق التي تمّ الاطلاع عليها، لم تسمح لنا بتسجيل تجارة هذه المادة بين المرسيين المذكورين، وبين جنوة. ومن الملاحظ أن "بيغولوتي" الذي عدّد بكتابه المواد التي صدرها المغرب المريني إلى أوربا، لا يشير البتّة إلى تجارة الذهب. فهل لم تتوافر لديه إشارات عن هذه التجارة التي كثيرا ما لُفّت بالكتمان والسرية؟ أم انه يعكس واقعا عاشته سبتة خلال المرحلة التي كتب فيها مؤلفه، وهي الأربعينات من القرن الرابع عشر، والتي صادفت –كما أوضحت الأستاذة فرحات بحق– مرحلة تراجع وركود في الأنشطة التجارية للمدينة في مواجهة التطور التجاري لأوربا؟[1].

وكانت مملكة بني عبد الواد من أهم مزودي أوربا بالذهب. ويمكن اعتبار أهم مراسي بلاد المغرب المصدرة للذهب عبدوادية، مثل وهران وهنين[2]. ولاشك في أن المعطيات التضاريسية ساعدت مملكة بني عبد الواد على أن تستفيد أكثر من تجارة الذهب بين السودان الغربي وأوربا المتوسطية. فإذا كان الذهب السوداني يصل بصعوبة إلى مراسي المغرب الأقصى نظرا لحاجز الجبال الأطلسية، فإنه كان يأخذ طريقه بسهولة إلى تلمسان[3]. وساعد الموقع الجغرافي تلمسان على هذا الامتياز، فهي توجد على رأس الخط التجاري الذي يصل إلى مالقة، ومن المعلوم أن مالقة اتخذت من لدن الجنويين خزانا لتجميع الذهب السوداني المجلوب عبر بلاد المغرب، ومنها كانوا ينقلونه إلى جنوة أو المناطق الأوربية الأخرى[4]. وتكشف لنا -فعلا - الوثيقة الوحيدة التي توافرت لنا، والتي تقدم إحصائيات عن كميات الذهب السوداني الذي جلبه الجنويون في إحدى سنوات القرن 14م، عن أهمية محطة مالقة في تجارة الذهب بين بلاد المغرب وجنوة، كما أن الوضعية السياسية ببلاد المغرب خلال الثلث الأول من القرن 14، كانت في صالح الدولة الزيانية، ما شجعها على أن تستقطب أكبر عدد من الزبائن الأوربيين بالمنطقة[5].

---

[1] - Ferhat (H). Sapta des origines au 14 siècle, Rabat, 1994, p 340.
[2] - Heers, Société et économie à Gênes, p 146.
[3] -Dufourcq, l'Espagne p 136.
[4] -Heers, Société et économie a Gênes, p 146.
-Kably, Société…p 123 et suivantes.

وقد عرفت بوريقة تحصيبة خلال هذه المرحلة من الاضطرابات الداخلية، وتراجع التهديد... ولو مؤقتا، عن مشاغل لضم بلاد المغرب بعد فشل الحصار الطويل الذي ضربوه على تلمسان، وتمكن بنو عبد الواد من استرجاع
[5] - Heers

والجدير بالإشارة إلى أنه عن هذه الفترة التي حكم السلطان العبدوادي أبو حمو (1308–1318) فيها ، لدينا شهادة عن مدى أهمية الذهب في الحياة الاقتصادية لمملكته، كما تكشف عن وعيه باختلال المبادلات التجارية بين بلاده وأوربا، والذي كانت تجارة الذهب من ورائه. فقد جاء على لسان أبي حمو أنه قال: "لولا الشناعة لم أزل في بلادي تاجرا من غير الصحراء الذين يذهبون بخبيث السلع، ويأتون بالتبر الذي كل أمر الدنيا لم تبع"[1].

لقد صنعت تجارة الذهب ثروة الدولة العبدوادية، ونقدم هنا للدلالة على أهمية تجارة الذهب في الحياة الاقتصادية للدولة العبداودية مؤشرين معبرين . يتعلق المؤشر الأول برسالة بعث بها هلال بن علال أحد رجالات الدولة العبداودية إلى "جاك الثاني" ملك أراغون في 1 صفر 723/ 9 فبراير 1323، كرد على رغبة هذا الأخير في اقتراض كمية من الذهب من تلمسان، فالدولة العبداودية لم تكتف بالتجارة في مادة الذهب، بل عمدت كذلك إلى إقراضه لبناء توازناتها الداخلية[2]. أما المؤشر الثاني فيتمثّل في الدلالات التي حملها اختيار التاجر الجنوي "مالفنت" Malfante – وإن كان ذلك قد تمّ متأخرا عن الفترة المدروسة– لهنين مركزا لانطلاق رحلته إلى توات[3]. فقد كان للجنويين حضور قوي بوهران وهنين بهدف تجارة الذهب[4].

واستفادت الدولة الحفصية بدورها من إحدى الطرق الشرقية التي كانت تنتهي إليها محاور تجارة الذهب بين السودان وبلاد المغرب. فهناك خط ينتهي بمرسى تونس، وخط آخر ينتهي بطرابلس التي كانت تابعة في بعض الفترات للدولة الحفصية[5].

ونعترف بأن حديثنا عن تجارة الذهب بين بلاد المغرب وجنوة، يبقى في معظمه وصفيا في غياب مؤشرات إحصائية عن حجم هذه التجارة التي سبقت الإشارة إلى أنها

مغراوة وتوجين، واستولوا على الساحل الرابط بين هنين والجزائر(جزائر بني مزغنة) ، ولولا تدخل الكطلانيين سنة 715هـ/1315م لمساعدة الحفصيين، لسيطروا على ميناء بجاية.

[1]- المقري، نفح الطيب... ج5، ص206.

[2]- مما جاء في تلك الرسالة: "...إذا أردتم سلف ذهب فسلفوا لكم ما تيسر لنا بعد أن تعطونا الضمان والرهان في الذهب، وإن لم تعملوا ما ذكرناه لكم ولم توافقوا عليه، فما بيننا وبينكم كلام الله..."

Alarcon (S). Los Documento,op.cit.

[3]- حول هذه الرحلة، يمكن الرجوع إلى: Lopez, Studi, op cit, p 52 et suivantes

[4]- Heers, Le Sahara, p251.

[5]- [illegible] ج2، ص275.

كانت تجري في جو من الكتمان والسرية[1]. ومن حسن حظنا أننا نتوافر على وثيقة تشير إلى استيراد الجنويين إلى كميات من الذهب من بعض الموانئ الأندلسية، والتي لا نستبعد أن تكون مستوردة عبر بلاد المغرب. تاريخ الوثيقة قريب جدا من الفترة المدروسة، إذ يغطي نشاطا تجاريا تراوح ما بين 3 فبراير و23 نونبر 1377، وهو مستخلص من سجلات جمارك جنوة لهذه السنة[2]. وبما أن هذا السجل يشكل –حسب اعتقاد هيرس– المصدر الوحيد الذي يقدم معطيات إحصائية دقيقة عن تجارة الذهب بالبحر المتوسط مع نهاية العصر الوسيط، فإننا نقدم أهم مضامينه فيما يلي:

تمّ وصول الذهب إلى جنوة انطلاق من المصادر التالية:

المصدر	قيمة الكمية المجلوبة
من بلنسية	58000 ليرة جنوية
من إشبيلية	9400 ليرة جنوية
من إسبانيا (هكذا)	45000 ليرة جنوية
من مالقة	6000 ليرة جنوية
بالبرمو	950 ليرة جنوية
من مناطق غير محددة	1150 ليرة جنوية

وتشير الوثيقة كذلك إلى طبيعة الذهب المستورد (عملة، سبائك، وخيوط ذهبية)، ومن خلال عملية حسابية، يتضح أن قيمة الذهب التي استوردته جنوة خلال هذه المدة من سنة 1377 – قرابة 10 أشهر– بلغ 68200 ليرة، بينما بلغ وزن الذهب المستورد بكل أنواعه من المناطق المذكورة بالسجل حوالي 200 كلغ[3].

وتسمح لنا هذه الوثيقة بإبداء الملاحظتين التاليتين:

[1]- لا نمتلك – حسب علمي- أي سجل عن تجارة الذهب بين السودان وبلاد المغرب في العصر الوسيط. ورغم أن الأرشيف الجنوي زاخر بالمعطيات الإحصائية عن تجارة جنوة الخارجية، ورغم وجود كنانيش وسجلات خلفها تجارها، فإن "باليطو " لا تتورع عن تسمية العصر الوسيط – بما في ذلك العصر الوسيط بجنوة- بعصر ما قبل الإحصائيات.

Balletto, Bougie, 94.

[2]- توجد الوثيقة محفوظة بأرشيف جنوة ASG مجموعة Compera Salis الصادرات والواردات، رقم 159، سنة 1377، وقد كان "هيرس" أول من نشرها بعدة دراسات له مثل:

-Gēnes au 15è siècle, pp 69-70.

-Le Sahara, p253.

[3] - Heers, Gênes, pp 69-70

- حصلت جنوة على معظم الذهب من السوق الأندلسية، إذ كانت الأندلس قبل الاكتشافات الجغرافية والاستفادة من ذهب العالم الجديد أكبر سوق أوربي لمعادن ثمينة[1]. ويتضح من خلال الوثيقة أن 6/ 5 الكميات الذهبية التي وصلت إلى جنوة خلال الفترة التي تغطيها انطلقت من إشبيلية[2]. كما أن الذهب السوداني المصدر من بلاد المغرب باتجاه جنوة، والذي كان يمر عبر محطة صقلية آنذاك، كان يعاد تصديره إلى جنوة، واستفادت المدينة الليغورية من الذهب السوداني المصدر عبر صقلية خلال مرحلتين أساسيتين: تراوحت الأولى ما بين 1280 و1310، والثانية ما بين 1340 و1370[3].

- إن الكمية التي يشير إليها السجل لا تغطي كل السنة، كما أنها قد لا تكشف عن الكميات الحقيقية التي استوردتها جنوة من الذهب. وبما أن الأمر يتعلق بتجارة مادة ثمينة، كانت "كل الدنيا لها تبع". -حسب تعبير السلطان العبدوادي أبي حمو- فالظاهر أن الكميات المجلوبة كانت تفوق ما ورد بالسجل، خاصة وأن عملية تهريب المعادن النفيسة، كانت منتشرة بمرامي بلاد المغرب، والتي ساهم فيها عدم اتخاذ السلطة بالمنطقة إجراءات حازمة لمحاربتها[4].

وكيفما كان الحال، فإن الكمية التي جلبتها جنوة من الذهب السوداني من الأندلس، والذي لا نستبعد مروره عبر بلاد المغرب، تشكل قسطا ضعيفا من الكميات الذهبية التي يحتمل أن يكون السودان الغربي قد صدرها[5]. غير أنها تفوق بكثير الكميات التي جلبتها من الذهب السوداني دول نافست جنوة آنذاك، مثل مملكة أراغون التي لم تكن تتجاوز وارداتها من الذهب المجلوب من بلاد المغرب حوالي 70 كلغ سنويا[6].

[1] - Heers. Le Sahara. p253.

[2] - Heers. les hommes d'affaires Italiens. p 79.

[3] - Bresc(H). Un monde. T1. p 407.

[4] - كل ما قامت به السلطة بالمنطقة في حالة اكتشاف أمر المهربين، تمثل في ارغامهم على دفع الواجبات الضريبية الجمركية بدون أن تتخذ عقوبة أخرى في حقهم Mas latrie p 203. والجدير بالإشارة إلى أن "بيغولوتي" حذر مواطنيه من المبالغة في الثقة ببلاد المغرب في شأن تجارة المعادن الثمينة.

[5] - يتحدث "موني" عن إمكانية إنتاج السودان الغربي في العصر الوسيط 9000 كلغ من الذهب سنويا، وعن إمكانية تصديره لحوالي 6000 كلغ منها، أنظر:

Mauny (R). Tableau géographique de l'ouest Africain au Moyen âge. I.F.A.N DAKAR. p377.

[6] -Dufourcq. L'Espagne. p563.

ولاشك في أن حاجيات جنوة المتزايدة إلى الذهب - مثلها في ذلك مثل بقي المدن والدول الأوربية التي عادت إلى ضرب عملتها على القاعدة الذهبية دفعت المغاربة إلى ركوب الصحراء، وجلب الذهب من السودان الغربي، وقد

ولربما كانت جنوة أكثر مدن ودول أوربا المتوسطية حاجة إلى الذهب، منذ أن عادت إلى ضرب عملتها على القاعدة الذهبية، وليس من باب الصدفة أن نلاحظ بأن أكثر المحاولات الأوربية للاقتراب من مصادر الذهب، سواء عن طريق البر أم عن طريق المحيط الأطلسي، كانت جنوية، وحسب" لوبيز"، فإن توجه الجنوي D'oria "دوريا" إلى أسفي، أملته اعتبارات مرتبطة بحاجة جنوة إلى الذهب، مباشرة بعد سنة من ضربها لعملة جنوفين 1252[1]، وما كان ل "كارنيانو" Carignano أن يعدّ خريطته عن المناطق الصحراوية لجنوب بلاد المغرب، لولا المعلومات التي قدّمها إياه أحد الجنويين الذي كان مستقرا بسجلماسة[2]، والذي كان يصاحب التجار المتعاملين مع "ولاته" Eulezem و غانا"Gunnian"[3].

أما اهتمام الجنويين بالسواحل الأطلسية[4] الجنوبية، فقد انطلق مع رحلة الأخوين "فيفالدي" Vadino وUgolino اللذين فقدا جنوب مياه أسفي، وأصبحت رحلتهما جزءا من الموروث الأسطوري الجنوي[5]. ويهمنا أن نشير إلى أن "دوريا" Tedesio D'oria كان من وراء تمويل هذه الرحلة، وهو من نفس أسرة "دوريا" الذي كان قد رسا سنة 1253 بأسفي بهدف التجارة معها[6]. وفي سنة 1312 اكتشف الجنوي" لنزروطو" Malocello Lanzerotto إحدى جزر الكناري التي ظل بها مدة عشرين سنة[7]، وأصبحت الجزيرة تدعى جزيرة "Lanzerotta" باسم مكتشفها[8]. ونشير كذلك إلى أن هذا الأخير هو أحد أحفاد "Carbone Malocello " الذي دخل سنة

كانت تجارة السودان مصدرا مهما للثروة ببلاد المغرب الوسيط وسجل ابن خلدون في هذا الشأن أن التجار المتعاملين مع السودان "أرفه الناس وأكثرهم أموالا" المقدمة، ص707.

[1] -Lopez. Studi. op cit. p 55.
-Storia delle colonie. p 314.

[2] - Delaroncière (ch). T1. p 113.

[3] - Lopez. Studi . p 51.

[4] - نشر الجنويون اهتمامهم بالمحيط الأطلسي لما نجحت سفينة "سبينولا " Nicolozzo Spinola سنة 1277 في اجتياز مضيق جبل طارق باتجاه فلندرة. وفي سنة 1278 توجهت سفينة جنوية إلى إنجلترة عن طريق مضيق جبل طارق، وفي سنة 1298 أقيم خط بحري بين جنوة وفلندرة وانجلترة، أنظر .Chaunu. p 311

[5] - يبدو أن الوسط الجنوي ظل يرتقب، عودة الأخوين فيفالدي، فقد كتب صاحب الحوليات الجنوية "قرر الإخوان فيفالدي "أو غولينو" و"فادينو" القيام برحلة لم يقم بها أحد من قبل... وبعد أن اجتازا منطقة تدعى Gazora (جزولة) لم تصل الأخبار عنهما، وندعو الله كي يعودا سالمين معافين إلى ديارهم" .A.G.T9. pp28-29
والواقع أنه قبل اختراع الكرافيلا، لم يكن بالإمكان الإبحار جنوب رأس بوجدور، نظرا لأخطار تيار الكناري، ولم تكن الوسائل والسفن المستعملة بالبحر المتوسط مؤهلة للإبحار طويلا بمياه المحيط الأطلسي (بحر الظلمات). حول هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى: .Chaunu. p294

[6] - Lopez. Studi. p 46.

[7] - Ibid. p 47.

[8] - Lopez. Storia della colonie. p 314.

1235 في مواجهة مع الينشتي حاكم سبتة آنذاك[1]. وفي سنة 1317 أبدى الجنويون اهتماما آخر بالسواحل الأطلسية الجنوبية، فقد قاد الجنوي "بزانيو Pesagno Emanuel" حملة باسم الملك البرتغالي "Dionigi" على طول الساحل الإفريقي، وعيّن على إثرها أميرالا دائما لدولة البرتغال[2]. وقد وصل الجنويون إلى مناطق داخلية من المغرب الأقصى، كما هو الشأن بمراكش حيث وجد موثق جنوي بها في القرن 14م.[3]

قد ترتبط هذه المحاولات برغبة الجنويين في الاتصال بمملكة اتبوبيا المسيحية، كما قد ترتبط بالرغبة في ريادة الاكتشافات والوصول إلى الهند عبر المحيط الأطلسي منذ هذه الفترة. غير أن عاملا آخر لاشك في أنه دفع بالجنويين إلى الإبحار بعيدا على السواحل الجنوبية الأطلسية، ويتمثل في الحاجة للاستزادة من ذهب السودان الذي ظل يحمل بعدا أسطوريا لدى الأوربيين[4].

إن وصول الجنوي انطونيو مالفنت إلى توات سنة 1448م، يؤكد استمرار حاجة جنوة إلى الذهب، وقد خلف تقريرا عن مشاهداته بالمنطقة يقوم حجة على رغبتها الأكيدة للوصول إلى منابع الذهب منذ هذه الفترة. وممّا جاء في ذلك التقرير: "...بعد أن نزلنا من البحر إلى البر بشمال افريقيا، تقدمنا من سجلماسة نحو الجنوب، وسرنا ممتطين ظهور الجمال حوالي 12 يوما إلى أن وصلنا إلى واحة توات... أما اليهود، فجاليتهم هنا تعيش في أمان وحرية، ويقوم رؤساء كثر بحمايتهم وينجزون أعمالهم عن طريق وكلائهم... والذهب المباع هنا يشترونه من القادمين من الساحل...".[5]

والظاهر أن بعض الكتابات[6] بالغت في تقدير حجم الأزمة النقدية[7] التي أصابت أوربا، ومن ضمنها المدن الإيطالية، بفعل نقص الذهب الذي عانت منه مع

---

[1] - Lopez, Studi, p 47.

[2] -Canale, Indicazione, pp 11-12.

[3] - Jehel(G) La mer dans les relations, op .cit, p194.

[4] -Lopez, Studi, p 50.

ونفس الصورة تكونت للأوربيين عن بلاد المغرب باعتباره مستقبلا لأغنى مادة في العالم آنذاك أنظر:

Braudel, Monnaies et civilisations, de l'or du soudan à l'argent d'Amérique, A.E.S.C, 1946, p12.

[5] - نعيم زكي فهمي، دور اليهود في تجارة العصور الوسطى بين الشرق والغرب، مطابع سجل العرب، 1971، ص138، الملحق 100

[6] - بوا "غي" في رده على مثل هذه الكتابات، من خلال احدى مقالات داي Day، أنه لو سايرنا مثل هذه التأويلات، فهذا يعني أن مصير أوربا كان يحدد ويصنع في مملكة مالي، أو في جهة من الجهات الزمنية الممتدة ما بين تومبوكتو وسجلماسة، وهو نوع مبالغ فيه، أنظر.

-Bois (Guy), Sur la monnaie et la prise de la fin du moyen âge, Réponse à John Day A.E.S.C, février-Mars, 1979, p 321 et suivantes

-Graus, La crise monétaire du 14è siècle, in Revue belge de philologie et d'histoire, TXXIX, 195, p 445

[7] - حول هذه الأزمة بأوربا يمكن الرجوع إلى: -Graus, pp 445-454.

وعن الأزمة النقدية بالمغرب العربي، يمكن الرجوع إلى: مصطفى نشاط المغرب المريني وأزمة القرن 14 النقدية، مجلة أمل 1993، عدد 3

منتصف القرن 14م، وجراء تبعيتها الكلية للذهب السوداني، كما يبدو أن بعض الكتابات الأخرى[1] ضخّمت من حجم هذه الأزمة ببلاد المغرب ومن تأثرها بانحراف الطرق التجارية المؤدية إلى السودان باتجاه الشرق. ودون أن نستفيض في هذا الموضوع انسجاما مع المحور الذي نعالجه في هذا السياق- نؤكد مع "هيرس" على أنه قبل نجاح البرتغاليين في الوصول مباشرة إلى مصادر الذهب، لم تبلغ الأزمة النقدية بالمدن الإيطالية حدا مهولا، ولم تنخفض قيمة العملة بها إلى مستوى كارثي، لأنها حافظت على توازن مخزونها من الذهب[2]. وإن كنا لا نستبعد حصول إرهاصات للأزمة النقدية بالمغرب الأقصى- على الأقل منذ عهد أبي الحسن-، فقد استمرت سجلماسة في استقبال القوافل المحملة بالذهب من السودان الغربي في القرن 14[3]، ولم يلاحظ نقص في وصول الذهب إلى مراسي بلاد المغرب إلى حدود القرن 16م[4]. وبدون شك فإن أطروحة انحراف الطرق التجارية عن بلاد المغرب باتجاه الشرق في القرن 8هـ/ 14م، أصبحت من "المسلّمات" التي تحتاج إلى مراجعة، ويبقى الحديث عن كل نقص في وصول الذهب السوداني إلى بلاد المغرب آنذاك، مجرد انطباع لم تؤكده الوثائق بعد[5].

ومن المفارقة أن بلاد المغرب كانت تتحول أحيانا إلى مستورد للذهب من جنوة خلال المرحلة المدروسة. فقد أورد "جيهل" في أطروحته ستة عقود تتحدث عن استيراد بلاد المغرب (سبتة – بجاية – تونس) للذهب من جنوة من خلال عدة أشكال (مسحوق –عملة- سبائك)[6]. ولم نتمكن من الاطلاع على كل هذه العقود، غير أن قراءة عقدين منها، جعلنا نتحفظ –على الأقل من خلالها- حول ما ذهب إليه "جيهل". فبالعودة إلى العقد المؤرخ ب13 أكتوبر 1238[7]، يتبين أنه لا علاقة له باستيراد تونس للذهب من جنوة، وأنه يغطي سنة 1208، فهل الأمر مجرد هفوة تصحيف؟ أما العقد المؤرخ ب شتنبر 1253، والذي ورد بالمجموعة التي حرّرها الموثق "بريدوني" Predone [8]، فإنه يتحدث فعلا عن استيراد تونس لعملة من جنوة، غير أن الأمر يتعلق بعملة فضية "Besanto"، وليس بعملة ذهبية.

---

[1] - مثل دراسة لاكوست (ايف) العلامة ابن خلدون.

[2] - Heers, Société, p 145.

[3] - Lopez, Studi, p51.

[4] - Braudel, La méditerranée, T1, p367.

[5] - Dufourcq, La palce du maghreb, op cit, p279.

[6] - تغطي هذه العقود سنوات 1216 وتهم سبتة، و1248 و1254 وتتعلق بجاية و1238 و1253 و1268 وتهم تونس أنظر: Jehel, Les Génois, p 355

[7] - العقد محفوظ بأرشيف جنوة ASG، ضمن مجموعة الموثق المجهولي. Not Ign. B.T. fram . 12 N1.

[8] - العقد محفوظ بأرشيف جنوة ASG ضمن مجموعة الموثق "بريدوني" الورقة الخلفية 79، رقم 18.

-الملح: كانت جنوة – مثلها في ذلك مثل البندقية – في حاجة بيولوجية إلى الملح نظرا لنقص الملحيات بها، لذلك أجبرت على استيراد هذه المادة من عدة مناطق عرفت بأهمية إنتاجها لها، مثل جزيرة ساردينيا وجزر البليار، وخاصة منها جزيرة يابسة، كما استوردته من رأس المخباز ومن طرابلس[1]. ولا يبدو أن المغرب المريني صدر هذه المادة إلى جنوة، وأما المغرب الأوسط، فكان يستوردها بدوره من يابسة (إيبزا)[2].

ونظرا لأهمية الملح في الحياة الاجتماعية والاقتصادية لجنوة، فإن الكومونة كانت تشرف مباشرة على تجارة هذه المادة[3]، وعلى عائداتها الضرائبية، ومجالات استثمارها لبناء التوازنات السياسية والاقتصادية للمدينة. ونشير في هذا الصدد إلى أن كومونة جنوة قرّرت من أجل تغطية الحملة العسكرية التي قامت بها ضد سبتة سنة 1234، الرفع من قيمة الضرائب المفروضة على كل "مين" mine[4] من الملح، إذ فرضت 12 دينارا على كل مين لمدة عشرة أعوام[5]. ولا يستبعد أحد الدارسين أن يكون لجوء الجنويين إلى نقل الملح على مراكب بعض التجار الأوربيين، مثل الميورقيين، كانت محاولة منهم للتملص من أداء الضرائب التي فرضتها كومونة جنوة على هذه المادة[6].

ونتوافر على بعض الإشارات القليلة عن استيراد الجنويين للملح من تونس الحفصية. يتحدث أحد العقود عن نقل تاجر جنوي للعسل والخمر إلى طرابلس، وعن استيراده الملح منها[7]. بينما كلف تاجر جنوي آخر الميورقي "Boschan" لنقل الملح في دجنبر 1301 على مركبه انطلاقا من خليج قابس[8]. والظاهر أن تجارة هذه المادة، لم تكن كثيفة ما بين بلاد المغرب وجنوة، لأن هذه الأخيرة عوّلت في تلبية حاجياتها منها على مناطق مشهورة بإنتاجها، وخاصة من يابسة[9]. كما أن تجارة الملح لم تكن مصدرا

[1]- Hocquet (C.J). Le sel et le pouvoir de l'an mil à la révolution française. Albin Michel. 1985. p188.

[2]- أنظر خريطة لمناطق إنتاج الملح بالحوض المتوسطي في العصر الوسيط ومحاور تجارة هذه المادة في:
-Bergier (J.F.) Une histoire de sel, P.U.F 1982. p99.

[3] - Mosquera Merino. op cit, p 238.

[4]- تتراوح "المين" mine من الملح ما بين 120 و130 كلغ، أنظر
-Hocquet, Metrologie du sel . A.E.S.C. 1974. pp416-418.

[5] - Di Tucci. Documenti. op cit.

[6]- Jehel. Les Génois. p 341.

[7]- يوجد العقد بأرشيف جنوة، ASGمجموعة الموثقين المجهولين.
-B.2 fasc 3. doc XXIV. N91. acte 6/2/1228.

[8]- Dufourcq. l'Espagne. p419.

[9]- شكلت يابسة أهم منطقة لإنتاج وتوزيع الملح بالحوض المتوسطي، وهذا ما جعل" هوكي" Hocquet يخصص لها دراسة خاصة تحت عنوان:

كبيرا للربح، لذلك فضل الجنويون الحصول عليه من أقرب المناجم إلى جنوة، مثل بروفانسا[1]، وأخيرا فإن ملح رأس المخباز لم يكن من النوع الجيد، مقارنة مع ملح يابسة بميورقة[2]، بل إن تونس الحفصية لجأت أحيانا إلى استيراده من هذه الجزيرة[3]. ولا يبدو أن الجنويين اهتموا كثيرا بملح بلاد المغرب، نظرا لاحتكار البندقية لعلميات إنتاجه وتوزيعه[4]. وقد لا نبالغ إذا قلنا بأن تجارة الملح كانت من اختصاص البنادقة طيلة القرون الثلاثة الأخيرة من العصر الوسيط بالحوض المتوسطي[5].

– باقي المعادن: يرى أحد الدارسين أن عملية استخراج المعادن ببلاد المغرب شهدت نشاطا في العصر الوسيط يفوق ما كانت عليه في العصر القديم[6]. وتشيد المصادر الجغرافية بأهمية إنتاج المنطقة لبعض المعادن. وخاصة بالمغرب الأقصى، ونذكر من بين هذه المعادن الفضة بجبال "جندر وما والاها من أرض سوسو وبمعدن عوام"[7]. وليس من المستبعد أن يكون استغلال معدن عوام قد استمر إلى حدود القرن 16 م[8].

ولم نعثر على إشارة تفيد تصدير المغرب الأقصى لفضته إلى جنوة، بينما نعلم أن التاجر الجنوي "دي ماري" Matteo Di mare توصل سنة 1259 بـ21 رطلا من فضة تونس[9]. ويطلعنا عقد مؤرخ ب 27 غشت 1275 بأن "تيبلو" Michel Tiepelo

Ibiza carrefour du commerce maritime et témoin d'une conjoncture méditérrancène (1250-1650), in studi in memoria de F.Melis, Naples, 1978, pp491-526.
وكما سبقت الإشارة توجد ايبزا بالبليار وليس بكورسيكا كما جاء عند عبد الهادي التازي، ج7، ص174.

[1] - Jehel, Les Génois, p 340.

[2] - Doumerc. Venise. op cit, p 195.

[3] - Dufourcq. Prix et niveau de vie dans les pays catalans et maghrebins à la fin du 13 et au début du 14 siècle, dans le Moyen âge, T LXXI, 1965, 491.

[4] - Bergier. op cit. p 99.

[5]- Hocquet. Capitalisme marchand et classe marchande à Venise au temps de la renaissance. A.E.S.C. 1979. p 280.
ونذكر بالمناسبة أن البندقية أسست مؤسسة خاصة في تجارة الملح عرفت بدار الملح « Camera del sale » وبخصوص اهتمامها بملح طرابلس، يكفي أن نشير إلى أن معاهدتها مع ابن مكي حاكم طرابلس سنة 1356 تمحورت حول مادة الملح.

[6]- Gsell (S). Vieilles exploitations minières dans l'Afrique du nord. Hesperis. 1928. p1 et suivantes.

[7]- ابن الحكيم، الدوحة المشتبكة، ص 85 ولعل الصحيح زجندر وسوس وعوام، وعن معدن زجندر ، يمكن الرجوع إلى القزويني، أخبار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، ص119.

[8] -Rosenberger (B). Autour d'une grande mine d'argent du moyen âge marocain. Hes Tamuda. Vol V. fasc unique. 1946. p76.

[9]- ASGالمجموعة 35، الورقة الخلفية 61 عقد 17 شتنبر 1259 .

اشترى بتونس 34 رطلا من الفضة من البيزي "زفاتو" Bergo Zavatto [1]. كما تشيد المصادر بإنتاج النحاس ببلاد المغرب، وخاصة بجزئها الغربي[2]، وقد توصلت جنوة بجزء من نحاس بلاد المغرب في القرن 13م[3].

ولا يبدو أن جنوة استوردت الحديد من بلاد المغرب[4]، لأنها غطت حاجياتها منه انطلاقا من حديد أوربا الوسطى، ولاسيما حديد جزيرة إلب الذي انتزعت حق استفادته من بيزة سنة 1350 بعد صراع مرير[5].

2- العبيد:

هل وجدت تجارة للعبيد بين بلاد المغرب وجنوة خلال القرنين 7و8هـ/ 13 و14م؟ قبل الجواب عن هذا السؤال، يجدر بنا أن نبدي بعض الملاحظات الأولية:

- إن الحديث عن الرق يثير نوعا من النفور نظرا لأن وجوده بأي مجتمع يشكل وصمة عار عليه، ويستلزم من مقتحم هذا الموضوع أن يتخذ موقفا أخلاقيا منه. ونظرا لحساسية الحديث عن وجود تجارة للعبيد بمجتمعات أوربا في العصر الوسيط، فإن بعض الكتابات استنكفت عن الإقرار بوجوده آنذاك. فالرق لا يمكن إلا أن يكون مرتبطا بالشعوب القديمة، وقد قضت عليه المسيحية، او أنه مرتبط بالعصور الحديثة التي نتجت عن حركة الاستعمار[6].

- قلّما تحدد الوثائق الجنوية أصل العبيد الذين وجدوا بجنوة في القرنين 13 و14م. فكثيرا ما تتحدث عن العبد من خلال تسميته ب "Sarraceno". وواضح أنه يمكن أن يندرج ضمن هذا المفهوم المسلمون من كل الجهات، بما في ذلك مسلمو الشرق والأندلس. لقد اعتمد "Balard" في دراسة عن العبيد بجنوة خلال القرن 13م على 398 عقدا من العقود المحفوظة بجنوة عن الفترة الممتدة من 1239 إلى

---

[1] - Ferretto, Codice, T2, p29.

[2]- يقول الحميري عن نحاس تادلا: "معدن النحاس الخالص الذي لا يعدله غيره من النحاس في أقطار الأرض، ولونه إلى البيضاء، ويدخل في لحام الفضة"، روض المعطار، ص231.

[3] -Krueger, The ware of exchange p 70.

[4]- تتحدث المصادر عن وجود الحديد بمعدن على الطريق بين سبتة ووهران وفي وابستار على ساحل البحر بين سلا ومراكش، كما يوجد بمنحة.
أنظر، المعجب للمراكشي، ص362، والوزان، وصف إفريقيا ج1، ص88 وص268.

[5] - Balard (M), La romanie, T2, p340.

[6] - Heers (J), Esclaves et domestiques dans le monde méditerranéen, Paris, 1981, p10 et suivantes.

1300، واستخرج منها 418 حالة استرقاق، من ضمنها 73 حالة تهمّ المسلمين "Sarraceni" [1]. و من نماذج ذلك أنه حسب عقد مؤرخ ب12 أكتوبر 1274، باع الجنوي "بزورنو" Basorino لتاجر برشلوني أمة "Sarracena" تدعى "Azia" ؟[2] وتبعا لعقد مؤرخ ب8 ماي 1277، باع تاجر مارسيلي للجنوي "بزانيو" Guglielmo Pasagno أمة تدعى "فاطمة" بستة ليرات جنوية[3].

- من الصعب الحديث خلال الفترة المدروسة عن وجود تجارة منتظمة للعبيد بالحوض المتوسطي قبل القرن 15م. فقد ظلت هذه التجارة هامشية في المبادلات التجارية، ولم تُرصد لها في العصر الوسيط أموال كثيرة، ومارسها تجار غير متخصصين[4]. وإن كنا نقر بوجود هذه التجارة، فلا يجب أن نبالغ في تضخيم حجمها، وخاصة بالحوض الغربي للمتوسط[5].

- لقد توقّفت مصادر الرق على ثلاثة، وهي الحروب البرية، والقرصنة بالبحر، وأخيرا تجارة العبيد الدولية. غير أنه إذا كانت كل هذه المصادر الثلاثة حاضرة في العلاقات الإيبيرية المغربية، فإن المصدر الذي طغى على ظاهرة الرق في العلاقات الإيطالية المغربية، تمثّل أساسا في القرصنة البحرية. لقد كانت الهجمات البحرية مصدرا مهما للحصول على الأسرى، وطالما أن الأسير لم يتمكن من افتداء نفسه أو افتدي ، فإنه يندرج ضمن العبيد[6]. إن العبد عدو قبل كل شيء[7]. ولا نتوافر على أي مؤشر يفيد أن الإنسان كان محل تبادل تجاري عاد بين المغرب وأوربا، على الأقل بالنسبة لأولئك العبيد من ذوي الجنس الأبيض، والأصل المغربي، فمعظمهم كانوا ضحايا الهجمات البحرية[8].

لذا – وجوابا على السؤال المطروح أعلاه- نتحفّظ حول وجود تجارة للعبيد بين بلاد المغرب وجنوة، بما تعنيه التجارة من تنظيم وتقنين، وأولى أن نتحدث عن

---

[1]- Balard (Michel), Remarques sur les ésclaves à Gênes dans la seconde moitié du 13 siècle, Mélanges d'archéologie e d'hisoire, 80, 1968, pp6 27-680.

[2] - Ferretto, Codice, T1, p365.

[3] - Ibid, T2, p167.

[4] - Bresc, Un monde, T1, p439.

[5] - Luzzatto (Gino) Les activités économiques du patriciat Venitien, A.H.E.S., 1937, p40.

[6] - Valerian(D), Les captifs et la piraterie , une reponse à une conjoncture économique deprimée .Le cas du Maghreb au 14 et 15 siecles, in, Les ésclaves en Méditerranée aspects et dynamiques economiques,Casa de Velazquez,V 133, Madrid, 2012, p 199.

[7] - Heers, Esclaves, p 23.

[8]- برنشفيك، ج2، ص276.

وجود تجارة ناتجة عن افتكاك الأسرى الموجودين لدى كل طرف، بفعل الحروب أو القرصنة. وتفصح بعض النصوص القليلة عن وجود بعض العبيد بجنوة جُلبوا إليها من بلاد المغرب. ومن أجل مقاربة هذه الظاهرة، ارتأينا أن نميز في تيار الرق من بلاد المغرب إلى جنوة بين عبيد من بلاد المغرب، في الغالب أسرهم الجنويون بعد عمليات حربية أو أثناء هجومات بحرية، وبين عبيد من السودان جُلبوا عن طريق بلاد المغرب باتجاه جنوة.

أ-عبيد بلاد المغرب:

يبدو ذلك من خلال مجموعة من الإشارات التي أوردها "فيرلندن"، والتي استقى معظمها من أرشيف جنوة، أو من بعض الوثائق الأخرى المحفوظة بنفس الأرشيف، والتي لم يوردها بدراسته المتخصصة[1]. ومن مظاهر حضور هذا الصنف من العبيد:

- تقديم الجنوي "تردونا" Leone Terdona لمواطنه "زكرياء" Zaccaria Fulco عبدا من تونس يدعى "سالم"، كإضافي عن ثمن كمية من الحبوب تقدر ب7 مين"mine" [2].

- يتحدث عقد مؤرخ ب31 غشت 1259 عن عبد بجنوة من مستغانم - التي كانت خاضعة آنذاك لدولة بني عبد الواد- واسمه "محمد"، أما أبوه فهو" Bombachi Benaied " (أبو بكر ؟) وتدعى أمه "Gimella"؟، والظاهر أنها من قبيلة "Beneiei" (من بني يحي؟)، وتساءل" بالار" ما إذا كانت من التبائل[3]؟ بينما اعتقد "جيهل" أنها من القبائل أو من البربر(هكذا)[4].

- يشير عقد مؤرخ ب 13 نونبر 1269 إلى أن" Rolando da Bargagli " باع أمة مسلمة تسمى" Belengeria" بقيمة 14 ليرة ونصف الليرة ل Ottolino de" "Fossano[5].

[1]-Verlinden (Ch). L'esclavage dans l'Europe médièvale. Bruges. 1955. T1.

[2]- يوجد العقد ب ASGب المجموعة 81، الورقة 29 خلفية، والعقد مؤرخ ب25 ماي 1243.

[3]- Balard. Remarques. op. cit.

[4]-Jehel. Les Génois. p 215.

وينعت جيهل- خطأ- إلى أن كلمة قبيلة تعني في النصوص العربية ، مثل القرطاس شعبا مغربيا متميزا عن العرب بمعنى أنه يمكن أن يكون مرادفا للبربر؟

[5]- Ferretto. Codice. T1.p 362.note 1.

- في عقد مؤرخ ب25 ماي 1267، باع Nicolino Grillo عبدا يدعى "Asmeto" (لعله أحمد) بقيمة 13 ليرة ل"Simone Grillo" [1].

- ورد بعقد مؤرخ بثاني ماي 1270 أن "Frederico Mallone " باع عبدا مسلما يدعى" مرزوق" ل"Bernardo de Borgone" بقيمة 9 ليرة [2].

- حسب عقد مؤرخ ب18 فبراير 1274، باعت "سبلنا" Sebelina أرملة "لركري" Guglielmo Lercari لتاجر من طرغونة يدعى" بارونو" Tommaso Barono أمة مسلمة مولودة ببجاية "BUZEA" بقيمة 13 ليرة. وقد تمسّحت وحملت اسم "جيوفنتا" Giovannina[3].

- يشير عقد مؤرخ ب24 ماي1274 إلى أن "Sibilina Massarosa"(هل هي المشار إليها في العقد السابق) باعت أمة مسلمة تدعى " Axora " بقيمة 15 ليرة ل "Pietro Cerveria"[4].

- في عملية تجارية جرت بجنوة سنة 1298، قدم اليهودي "Mayamano" ميمون للجنوي "غمبكورتا" Nicola de Gambacorta وزوجته أمة مسلمة من جبل نفوسة[5].

- تحدث "كنال" عن بيع أمة مسلمة من المغرب الأقصى "di Marocco" حسب عقد مؤرخ ب4 ماي 1304[6].

- جاء في إحدى الوثائق التي نشرها "فريطو" اسم "علي" وهو عبد من بجاية كان أبوه بدوره عبدا بجنوة[7].

- ورد بوثيقة محفوظة بأرشيف ميورقية أن شركة تجارية ميورقية اشترت عن طريق ممثلها بجنوة مجموعة من العبيد المغاربة بهذه المدينة سنة 1320، وأعادت بيعهم بالسوق الكطلانية[8]. ويتحدث"دو ماص لاتري" عن استمرار جلب جنوة للعبيد من

[1] - Ferretto.Codice. T1.p 91.note. 1 .

[2]- Ibid.

[3] - Verlinden. T1. p265.
-Ferretto. Codice. T1. p 365.

[4] - Ferretto. Codice.T1. p 362.

[5] - Jehel. les Gènois. p220.

[6] - Canale. Nuova. T3. p197.

[7] - Ferretto. Codice. T2. p 167.

[8] - Dufourcq. l'Espagne. p79.

بلاد المغرب في القرن 14م، دون أن يحدد صفة هؤلاء العبيد ومصدرهم، كما لا يحيل على أصل معلوماته.[1]

- وتذهب "باليطو" إلى أن طرابلس كانت في القرن 14م من المراكز المهمة للعبيد المسلمين، بل والعبيد اليهود كذلك.[2]

ب-عبيد السودان المجلوبون من بلاد المغرب:

تقترن تجارة العبيد عادة بتجارة الذهب عند الحديث عن واردات بلاد المغرب من السودان في العصر الوسيط. وتكشف بعض النصوص القليلة، مثل رحلة ابن بطوطة عن استمرارية بلاد المغرب في المرحلة المدروسة في جلب العبيد من السودان. غير أن العبودية لم تلعب دورا أساسيا في عملية الإنتاج بالمغرب الوسيط، واستخدم العبيد السود في الغالب بالمنازل والإماء كجاريات، واندمجوا في الحياة اليومية للمجتمع المغربي[3]. ولا نعدم بعض النصوص عن وجود أسواق للنخاسة ببلاد المغرب أواخر العصر الوسيط[4].

ويتحدث "لوبيز" في أكثر من مقال له عن استيراد جنوة للعبيد السود من بلاد المغرب خلال المرحلة المدروسة، دون أن يحيل على مصدر معلوماته[5]. ويحتمل "برنشفيك" أن تكون تجارة العبيد السود، قد امتدت من بلاد السودان إلى أوربا عبر بلاد المغرب[6]. ويرى "شياسكا" أن الجنويين خلال القرنين 13 و14م، نقلوا منتوجاتهم الصناعية إلى أسفي حيث تزودوا ببعض "السلع" مثل العبيد السود. نعتقد أن إشارة "شياسكا" -على الأقل- انبنت على نمط تعليلي استقى مرجعيته من

[1] - Mas Latrie, Traités, p 372.

[2] - Balletto, Famiglie Genovesi, op. cit, p 54.

[3] انظر مثلا كيف ندد الغفلي ببعض الممارسات التي كان يقوم بها العبيد السود بتلمسان [illegible] "سبيل العوائد في [illegible] والأوراد". الغفلي (أبو عبد الله) تحفة النظر وعبرة الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر، مخطوط الخزانة العامة الرباط رقم 1691 ص101

[4] كان سوق العبيد بفاس المرينية - حسب ابن عباد- يسمى سوق البركة. ومما جاء في رسالته [illegible] على أحد [illegible] "أرأيت لو أن [illegible] من البركة [illegible] سوق الحمر والعبيد" ابن عباد (الرندي) الرسائل الكبرى، تصحيح أحمد بن محمد البوعزاوي ومحمد التكثوني - مطبعة العلم العربي الأزرق، 1320هـ ص241
كما أن الأنصاري يتحدث في عصره (ق15م) عن مقبرة "حفرة السودان" خارج المدينة، التي [illegible] كانت في أصلها سوق للعبيد. انظر محمد الشريف، سبتة الإسلامية، ص133

[5] - Lopez, Studi, p35
- Storia delle colonie, p 134

[6] برنشفيك، ج2، ص276

[7] - Ciasca, p 449

العصور الحديثة، لما تدفقت أعداد العبيد السود بكثرة في اتجاهات مختلفة، ومن ضمنها أوربا. بل إنه خلال هذه المرحلة التي كان البرتغاليون قد نجحوا إبانها في الوصول إلى السواحل الجنوبية للقارة الإفريقية، لم تستقبل جنوة أعدادا كبيرة من عبيد السودان، مقارنة مع مناطق أوربية أخرى. فبينما تحدد النصوص مصادر العبيد السود كالولوف – من ضفاف السنغال- أو الماندينغ – من غامبيا الحالية- الذين وجدوا ببعض المدن الأوربية مثل إشبيلية، نلاحظ أن النصوص الجنوية تكتفي بالإشارة إلى العبد الأسود "nero" بدون إضافة[1]. وقد لاحظ "بالار" أنه قلّما أشارت العقود الجنوية إلى لون العبيد بجنوة في القرن 13م[2]. وثمّة عقد مؤرخ ب 20 شتنبر 1271 يتحدث عن بيع "Branca Doria" لعبد أسود يدعى "Giorgio" بقيمة 9 ليرة ل "Giovanni Romano"[3]. كما أن "Zaccaria Fulco" باع عبدا أسودا بجنوة يسمى "Salona". مقابل ثمانية "مين" من الحبوب[4]. ويعترف أحد المتخصصين في دراسة علاقات البندقية وتونس بأن تجارة العبيد السود بينهما، لم تنتعش إلا خلال القرن 15م[5]. وتبقى الإشارات التي تتحدث عن العبيد المسلمين "Sarraceni" أو العبيد البيض أو السمر، أكثر من الإشارات التي تتحدث عن العبيد السود، كما هو الشأن في العقد الذي ورد عند "تريا" Tria حيث بيعت أمة سوداء تدعى "ميمونة"[6]. ومن الملاحظ أن هذا العقد هو الوحيد ضمن العقود التي تم الاطلاع عليها الذي يورد اسم ميمونة، بينما باقي النصوص تتحدث عن إماء تحملن أسماء فاطمة ومريم ... وإنه من الأمور المعبرة أن تستقبل صقلية خلال الفترة المدروسة- باعتبارها من أقرب المناطق الأوربية إلى بلاد المغرب- عددا ضعيفا من العبيد السود مقارنة مع العبيد البيض من المسلمين[7].

وعلى أي حال، لا نعتقد بأن السودان كانت خلال الفترة المدروسة مؤهلة لتصدير أعداد كبيرة من عبيدها، نظرا لبعض الحيثيات، ومنها:

[1] - Heers, Esclaves, p 92.

[2] - Balard, Remarques, p 646

[3] - Ferretto, Codice, T1, p 362, note, 1

[4] - Balard, Remarques p 667

[5] - Doumerc, p 191

[6] من بين العقود التي [illegible] عن بيع العبيد السود [illegible] "Pellecerio" [illegible] Bellebruno أمة سوداء [illegible] "ميمونة" بقيمة ست ليرات. انظر
Tria (L), La schiavitù in Liguria, A.S.L.S.P. 1947

[7] [illegible] رقم 2
كان توزيع العبيد [illegible] ما بين 1280 و1310 كالتالي:
العبيد المسلمون البيض 126، منهم 45 رجلا و81 امرأة
العبيد السود 32، منهم 14 رجلا و18 امرأة. انظر
- Bresc, Un monde, T1, p 440

- إن تجارة العبيد لم تكن مربحة مثل تجارة الذهب والعاج، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار جسامة الأخطار والمتاعب التي كان التجار يتعرضون لها على الطريق[1].

- كانت أوربا إلى حدود الطاعون الأسود مصدرة للعبيد أكثر منها مستوردة لهم. وهذا ينطبق أكثر على جنوة التي كانت موزعا كبيرا ومصدرة لهم نحو بلاد المغرب- كما سنرى-، وقد استقبلت بلاد المغرب العبيد البيض من أوربا سواء في إطار العمليات الهجومية وخاصة بالأندلس[2]، أم في إطار العمليات التجارية[3]. وتجدر الإشارة إلى أن دوق جنوة "بكنغرا" منع رعاياه في يوليوز 1316 من تصدير العبيد إلى تونس الحفصية[4].

- أخيرا، فإن ثمن العبد آنذاك بالسودان كان مرتفعا، وكان امتلاك العبيد بالمجتمع السوداني عنوانا على الرفاه والبذخ، حتى إن الحصول على المتعلمات من العبيد حسب شهادة ابن بطوطة أصبح "نادرا وبالثمن الكثير"[5]. وهذا ما يجعلنا نتحفّظ حول بعض الأرقام التي قدمها "Austen"- أحد الدارسين الأمريكيين -عن الأعداد التي يحتمل أن يكون السودان الغربي قد صدّرها من العبيد في العصر الوسيط[6]، وبالتالي يدفعنا إلى الاعتقاد بأن تيار العبيد السود باتجاه أوربا، ومن ضمنها جنوة، كان ضعيفا خلال هذه الفترة.

[1]- أنظر مثلا رحلة ابن بطوطة ج2.

[2]- بيعت الرومية بمثقال ونصف مثقال ذهبي لكثرتهن بعد الجواز الثاني ليعقوب المريني إلى الأندلس، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، ص159.

[3]- نذكر مثلا أنه كان بإمكان المغاربة الحصول على الرجل الأبيض من أراغون مقابل فرس واحد، أي ما كان يمثل خمسين أو ستينا دينارا، أنظر: Dufourcq, l'Espagne, p 551.

[4]-Balbi, Il trattatto, p303.

[5]- رحلة ابن بطوطة ص 799، الجزء2، ويعلل" شوني" ارتفاع أثمان العبيد بالسودان الغربي برغبة الممالك السودانية في التعويض عن الخسارة التي كان تلحق بها بفعل سيطرة المغاربة على مناجم الملح والنحاس المتاخمة للحدود الشمالية للسودان الغربي Chaunu, p116

[6]- هو نفس الرأي الذي تبناه Serge Daget و François Renault بكتابيهما:
Les traites négrines en afrique, édition Kharthala, Paris, 1985, p66.
أما الأرقام التي قدمها Austen فهي كالتالي:

الفترة الزمنية	عدد العبيد المصدرين من السودان
من سنة 650 إلى 800م	15 ألف عبدا
من سنة 800-900	300 ألف عبدا
من سنة 900-1100	مليون و740 ألف عبدا
من سنة 1100-1400	مليون و650 ألف عبدا

The transsaharien sluve trade ,A tentative Census, the uncommon Market, Newyork, 1979.

وخلاصة المسالة، إن العبيد المغاربة او عبيد السودان الذين وجدوا بجنوة في القرنين 7هـ/ 13 و8هـ/ 14م، شكّلوا عددا ضعيفا من مجموع العبيد الذين عاشوا آنذاك بجنوة. ولاشك في أن مناعة بلاد المغرب وردود فعل سكانها، حال دون تدفق عدد أكبر من عبيد المنطقة إلى جنوة، الشيء الذي دفعها إلى البحث عن مصادر أخرى للرق. وتتحدث المصادر فعلا عن تنوع أصول العبيد الذين جلبتهم جنوة في تلك الفترة. فهناك العبيد البيض الذين نقلهم النخاسون الجنويون من أوربا الشمالية[1]، ثم العبيد الذين تمّ جلبهم من "المستعمرات" الجنوية بالبحر الأسود[2]، كما إن الجنويين أصبح بإمكانهم الحصول على العبيد من روسيا، ولعل أول إشارة إلى ذلك تعود إلى سنة 1275[3]. وأما العبيد المسلمون الذين حصلت عليهم جنوة، فكانوا في الغالب من ميورقة والأندلس، ومعظمهم وقع في الأسر بفعل الحروب المتبادلة بين المسلمين والمسيحيين بها[4]. وثمّة عدة عقود محفوظة بأرشيف جنوة، تبين أهمية السوق الأندلسية لدى جنوة للتزود بالعبيد، مثل "Azora" (لعلها الزهراء) والأمة مريم المزدادتين بإسبانيا، والأمة "Axa" من مورسيا[5]. وبفعل نشاط الجنويين في البحث عن العبيد، أصبحت جنوة في الفترة المدروسة من أهم مراكز تجميع العبيد وإعادة توزيعهم بالبحر المتوسط[6]. وكان تجار العبيد يتقاطرون عليها من مختلف بلدان الحوض المتوسطي لاقتناء العبيد أو لبيعهم، كما حصل مع بعض تجار صقلية الذين باعوا عبيدا من بلاد المغرب بعاصمة ليغوريا[7]، أو بعض التجار الكطلانيين الذين اشتروا عبيدا من أصول مغربية بها[8].

لقد سبقت الإشارة إلى أن القرصنة شكّلت أهم مصدر لحضور العبيد من بلاد المغرب بجنوة. ويمكن القول بأن القرصنة خلقت تجارة حقيقية ناتجة عن افتكاك العبيد الأسرى لدى كل طرف[9]. ورغم أن تكاليف افتداء الأسير كانت تفوق تكاليف شرائه[10]، فإن السلطتين المغربية والجنوية سارعتا إلى افتكاك أسراهما، خاصة وأن

[1] - Ferretto, Codice T1, p 365 et T2 p 167.

[2] - Balard, Gênes...RH, 1983, p44.

[3] - Balard, Remarques.p 638.

[4]- يذكر" فرلندن " مظاهر لذلك في عدة صفحات، مثل صفحة 256 و268 و253، ونذكر للدلالة على أهمية السوق الأندلسية في تجارة العبيد أن ألفونس الثالث – حسب قول Muntaner- باع حوالي 40 ألف عبد مسلم بعد عمليات عسكرية بالأندلس سنة 1287.

[5] - Ferretto, Codice,T1,p 91,note 1.

[6] - Verlinden, T1, p270.

[7] - Balard, Remarques, p 668.

[8] - Ibid, p 670.

[9] - Verlinden, T 1, p32.

[10] - Dufourcq. Prix et niveau de vie. p 501.

المؤسسة الدينية ممثلة في الفقهاء أو في الكنيسة، جعلت من أوجب واجباتها ، رفع الغبن عن أسراها الموجودين لدى الطرف الآخر، وتفادي استمرار إحكام طوق الرق حول رقبتهم. وقد انتظمت في البلاد المسيحية مؤسسة معروفة بالفكاك "Alfaqueque"[1]. والظاهر أن أحمد بن عبد الرحمن كاتب كومونة جنوة باللغة العربية، كان يقوم بتسهيل عملية افتكاك المسلمين الأسرى بجنوة[2]، وهو من تلمسان" Tremzen"، وقد اشترى الأمة المسماة "Sibellina" في أبريل من سنة 1275[3] وافتدى عبدا من بجاية اسمه "محمد" كان في ملكية "Ugo Mulferrio" بحضور ترجمان وخمس مسلمين آخرين من تونس[4]. وإلى جانب أحمد بن عبد الرحمان ، نعلم أن موسى "Moyse " كان يشغل كاتب الكومونة باللغة العربية، و قد افتدى"Axia" (عائشة) سنة 1247 من مالكها" di S Donato Sozzobono "، ويعتقد "بالار" أن أحمد بن عبد الرحمان وموسى كانا بدورهما عبدين وتخلصا من الرق ، وسمح لهما تكوينهما بالاستمرار كمترجمين بجنوة ومساهمين في افتداء المسلمين بجنوة[5]. وفي سنة 1259 افتدى أحد مسلمي تونس بقيمة عشر ليرات أمة مسلمة تدعى "Asia" كانت في ملكية "Nicolo di Madio"، والتزمت بتقديم ثلاث ليرات لمالكها خلال الستة أشهر القادمة، و أوفت- فعلا- بوعدها في نونبر من السنة نفسها قبل الأجل المتفق عليه[6]. وأورد "فريطو" عقدا يتحدث عن بيع الجنوية "فنتو" Asalina Vento لسفير الملك الحفصي أمة تسمى "فاطمة" بقيمة 15 ليرة[7]. والجدير بالإشارة إلى أن الافتكاك شكل مصدرا مهما للربح، ما جعل الجنويين أنفسهم يقدمون خدمات لبلاد المغرب من أجل افتكاك أسراها[8].

[1]- كونينكسفلد (فان)، الأسرى المسلمون في أوروبا الغربية خلال القرون الوسطى المتأخرة، نص التقرير الذي قدمه المؤلف للحصول على منصب أستاذ كرسي لتاريخ الديني الإسلامي، ألقي بجامعة ليدن يوم 4 فبراير 1994، مجلة دفاتر الشمال،عدد 5، 2002، صص 19- 32.
[2]- نعلم مثلا أنه حضر افتكاك أمة مسلمة تدعى فاطمة بثمن 42 ليرة، وهي من مورسية الأندلسية – أرشيف جنوة،ASG المجموعة 70، الورقة8 خلفية، عقد 23 يوليوز 1271.
[3]- Balard, Remarques, p 639.
[4] - Balard, Remarques, op. cit.
[5]- Balard, Remarques p 678.
[6] - Ibid, p 675.
[7] - Ferretto, Codice, T1, p365.
[8]- من ذلك أن الجنوي "غتلوسيو" Gattilussio اقترح على مشرف ديوانة تونس افتكاك بعض المسلمين من ميورقة أنظر .Pistarino, Notai, acte, n82

الفصل الثاني:

الواردات المغربية من جنوة

1-المنسوجات:

شهدت المدن الإيطالية قفزة نوعية في ميدان الصناعة النسيجية منذ نهضة القرن 13م. ويذهب أحد الباحثين إلى أن هذه الصناعة لعبت في التوسع الاقتصادي الأوربي – الذي لاشك في أن الجمهوريات الإيطالية تزعّمته- خلال نهاية العصر الوسيط نفس الدور الذي لعبته الصناعات الحديدية والقطنية بانجلترة في القرن 19م[1]. ونظرا لأهمية الصناعة النسيجية بجنوة في الفترة المدروسة، فإن إنتاجها كان يأتي في مقدمة المواد التي صدرتها إلى بلاد المغرب[2]. وفضلا عن الإنتاج النسيجي المحلي، فإن الجنويين نقلوا منسوجات بعض المناطق الأخرى إلى بلاد المغرب. ومن هذه المناطق نذكر فلورنسا[3]، وروان "Rouen" التي وصلت أجواخها إلى طرابلس[4]. كما وصلت أجواخ ألمانيا إلى بلاد المغرب[5]. ويحتمل "لوبيز" أن تكون الزرابي المصنوعة ببغداد، الإنتاج النسيجي الوحيد الذي نقله الجنويون من الشرق إلى بلاد المغرب[6].

[1] - Bloch (M), La société féodale, Albin Michel, 1939, p112.
[2] - Lopez, Studi, p 31.
[3] - Mas Latrie,Traités ,p 367.
والجدير بالإشارة إلى أن ربع ساكنة فلورنسا كانوا يعتمدون في عيشهم على موارد الصناعة النسيجية :
Lopez . Naissance de l'Europe, p287 .
[4]- Canale, Tripoli, p5.
كما نقلت منسوجات فرنسية إلى تونس، أنظر .Ferretto Codice, T2, p116
[5] Doehaerd R. يتعلق الأمر بنسيج ألماني قدمه " أنغو دي كريملنو" قراضا لأحد الجنويين لنقله إلى بجاية:
Les relations commerciales entre Gênes,La Belgique et l'Outre mer d'après les archives notariales genoises aux 13 et 14 siècles . Bruxelles-Rome,1941,T2,n 424,p 219.
كما نقله" موسو "Jacobinus Musso" إلى بجاية بقيمة 75 ليرة و8 قسا، والعقد الذي وردت به الإشارة محفوظ بأرشيف جنوة،ASG المجموعة 1/10 الورقة 81 (خلفية) وهو مؤرخ بـ15 شتنبر 1253.
[6] - Lopez, Studi, p31.
-Balard, Notes sur le commerce Génois, p 372.

ويرد في معظم الأحيان ذكر المنسوجات التي حملها الجنويون إلى بلاد المغرب بالوثائق الجنوية تحت اسم "Panni "[1]، وفي بعض الأحيان يقع التمييز بين المنسوجات على أساس نوعية المادة الخام المصنوعة بها، أو على أساس الأشكال المصنوعة، ويمكننا على وجه العموم أن نميز بين أنواع المنسوجات التي صدرتها جنوة إلى بلاد المغرب، إذا ما راعينا نوعية مادتها الخام، ضمن ما يلي:

أ- الكتانيات:

نجد إشارة لها بعقد مؤرخ بأبريل 1213، والذي من خلاله قدم "بارلنا" Simone Barlana كمية منها إلى مواطنه "شتريابورك" Streiaporco Amigo على شكل قراض لحملها إلى سبتة[2]. ويورد "فريطو" عقدا مؤرخا ب22 يوليوز بموجبه نقل أحد الجنويين إلى نفس المدينة سنة 1226 كمية من المنسوجات الكتانية قدرت ب17 قالة[3]. وفي عقد آخر مؤرخ ب11 غشت 1277 يتحدث المؤرخ نفسه عن توصل الجنوي "أزوديماري" Pasqualino Usodimare من "بييترنو" Pieterino بكمية من المنسوجات الكتانية نقلها إلى تونس، وبلغت قيمتها 186 ليرة[4].

وتكتفي بعض العقود بالإشارة إلى تصدير جنوة للكتان إلى تونس الحفصية، ومن هذه العقود نذكر عقدا مؤرخا ب16 شتنبر 1253، توصل من خلاله "ألبريو" Obertinus Albario من مواطنه "فندرتو" Paschale Vendereto بقراض قيمته 30 ليرة و10 فلسا، وهو عبارة عن كتان حمل إلى بجاية[5]. وفي سنة 1277 نقل أحد الجنويين الكتان إلى تونس[6]. كما حمل الجنويون الكتان من الإسكندرية إلى بلاد المغرب[7]. وتوصلت تونس الحفصية بكتان برغونيا عن طريق الجنويين[8].

---

[1] - Balard, Notes sur le commerce Génois, p 372.
[2] - Jehel, les Génois, p 348.
[3]- Ferretto, Liber, p 467.
[4] - Ibid, Codide, T2, p116
[5]- العقد محفوظ بأرشيف جنوة ASGبالمجموعة 1/10 ورقة 82 خلفية.
[6] -Lopez, Su e Giu, p 273 note 24.
[7]- في سنة 1282 حمل" أدواردو" Odoardo الكتان إلى بجاية أنظر: Jehel, les Génois p 326.
[8]- برنشفيك، ج2، ص270.

ب- الحريريات:

شكّلت المدن الإيطالية إحدى مصادر تزويد بلاد المغرب بالحرير[1]. وقد نقل الجنويون هذه المادة إلى بلاد المغرب من مصادر مختلفة، وهي صقلية[2]، وآسيا الصغرى[3]، والدولة النصرية، وخاصة من ميناءي مالقة والمرية[4]. وتتوافر لدينا بعض العقود عن تجارة الحرير بين جنوة وبلاد المغرب. فبمقتضى عقد مؤرخ بأكتوبر 1221 نقل "غيجبليو" Galligepallio عدة مواد من ضمنها الحرير إلى سبتة بقيمة 77 ليرة[5]، وفي سنة 1252 حمل "وليام برغنيو" Bargogno قطعتين من الحرير المطرز بالذهب إلى تونس[6]. وكانت بجاية من المدن التي زودها التجار الجنويون بالحرير، ويسمح أرشيف جنوة بالظفر بهذا الجدول عن تجارة الحرير بين الطرفين في القرن 13م/ 7هـ :

الكمية أو مبلغها	تاريخ إجراء العقد	المصدر
	1237/9/16	عقود الموثقين الجنويين المجهولين،المجموعة 15،الورقة 14 خلفية
9 ليرات و 18 فلسا	1239/9/23	المجموعة 24، الورقة 108 خلفية
	1248/10/8	المجموعة 21/ 1الورقة 58
5 ليرات	1250/10/31	المجموعة 27،الورقة 14
6 ليرات و16 فلسا	1252/5/13	المجموعة 28،الورقة 80
125 ليرة	1253/5/10	المجموعة 29،الورقة 97خلفية
	1253/5/14	المجموعة 29،الورقة 103 خلفية
30 ليرة و10 فلس	1253/9/16	المجموعة 18/ 1،الورقة 82 خلفية
38 ليرة	1254/3/26	المجموعة 30/ 1،الورقة 45 خلفية
10 "بالات"	1254/5/11	المجموعة 52،الورقة، 97
40 ليرة	1256/5/15	المجموعة 35،الورقة 139
7 ليرات	1257/4/16	المجموعة 60،الورقة 89
10 ليرات	1257/4/19	المجموعة 54، الورقة 92 خلفية
50 ليرة	1282/5/11	المجموعة 73، الورقة 129
202 ليرة و9 فلس	1291/3/20	المجموعة 64، الورقة 146 خلفية[1]

---

[1] - Asthor, East west, op cit, p 369.
[2] - Lopez, Studi p31.
[3] - Lopez, Studi, p31.
[4] - Heers,Royaume de Grenade, p 113.
[5]- العقد محفوظ بأرشيف جنوة، ASG المجموعة 56، الورقة 157 خلفية.
[6]- العقد المؤرخ ب25 أكتوبر 1252، ASGالمجموعة 34، الورقة 119.
[1]- تمّ الاعتماد في الجدول على : -Valerian,Bougie,p349.

ج-الصوفيات والقطنيات:

حمل التجار الجنويون المنسوجات الصوفية والقطنية إلى بلاد المغرب، فبمقتضى قراض قدّمه " وليام كفارو" Caffaro إلى "اسبرغتو" Baldoino Osbergato، نقل هذا الأخير عشر قطع من المنسوجات القطنية إلى تونس[1]. غير أن الوثائق تتحدث عن حمل الجنويين إلى بلاد المغرب الأصواف والقطن كمادة خامة كذلك، ويعتقد "لوبيز" - خالفا "شوب" - أن القطن الذي توصلت به بلاد المغرب عن طريق الجنويين لم يكن من صقلية، وإنما من سوريا وأرمينيا والهند، لأن إنتاج صقلية من القطن كان ضعيفا، ومن النوع الردي[2]. ومن العقود التي أوردت إشارات عن تجارة الأصواف والقطن بين جنوة وبلاد المغرب، نذكر عقدا مؤرخا ب17 غشت 1237، حيث نقل أحد الجنويين ثلاثة أكياس من الصوف بقيمة 4 ليرات إلى تونس[3]. وبمقتضى عقد مؤرخ ب15 أبريل 1252، توصل" شتريبركو"Pasturinus Streiapocius ابن Jacopus بقراض قيمته 40 ليرة من "غولتريو" Symonelo de Gualterio، وهو عبارة عن كميات من القطن نقلها إلى بجاية[4]، وقضى العقد المؤرخ ب7 مارس 1287 بأن يستفيد "Lanfranco Lanezario" بأكبر نصيب من الأرباح، عقب عملية تجارية للأصواف ببجاية، ساهم فيها إلى جانب مجموعة من التجار الجنويين[5].

وإضافة إلى الأصواف والقطن، تتحدث بعض الوثائق عن تصدير جنوة مادة القنب إلى تونس، كما هو الشأن في عقد مؤرخ بسنة 1264[6]، أما المواد النسيجية المصنوعة التي حملها الجنويون إلى بلاد المغرب، فتتمثل في الزرابي المصنوعة بإسبانيا[7] والقبعات الكبيرة، وأغطية الموائد...[8]. وترد أنواع المنسوجات التي نقلها الجنويون إلى بلاد المغرب تحت أسماء مختلفة، تبعا للمادة التي صنعت منها، أو أسماء الأماكن التي جلبت منها، ومن بين تلك الأنواع من المنسوجات، يمكن أن نذكر: " Acoloratus " وهو قماش غير ملون و"Azurite" قماش أزرق و"Blancheti" قماش أبيض

[1] - Ferretto, Liber, T2, p 475.
[2] - Lopez, Studi, p 32.
[3] - Jehel, les Génois, p 346.
[4] -العقد محفوظ بأرشيف جنوة (ASG)ضمن المجموعة التي حررها الموثق John De Predone تحت رقم 1/10، الورقة 80 خلفية.
[5] -العقد محفوظ بأرشيف جنوة ASG ضمن المجموعة 74 الورقة 216.
[6] - In Jehel, Les Génois, p 348.
[7] - Ibid
[8] - أنظر المقال المترجم لـBelletto بمجلة أمل، العدد 4، 1994، ص9.

و"Bocaranus" لعله مستورد من بخارى و"Bonbaxilis" قماش من القطن و"Canabacium" قماش من القنب و"Virdis" قماش أخضر و"Tapetis" و زرابي و"Deauratis" قماش مذهب....[1]

2- الخمور:

يمثل حضور الخمور بالمغرب الوسيط إحدى المواضيع التي تحتاج - ربما بحكم حساسيتها الدينية- إلى مزيد من النبش، علما بأن تجليات الحضور التاريخي للخمور بالمنطقة، لم تنحصر في المستوى التجاري، بل تتجلى كذلك في المستوى الاجتماعي والسياسي[2].

كانت الخمور التي استوردتها بلاد المغرب موجهة إلى المسيحيين القائمين بها من تجار وموظفين بالفنادق والجمارك ومن جيوش مرتزقة عاملة بالدولة المغربية. غير أنه أمام تزايد الإقبال على الخمور، فقد انتهى الأمر بتخصيص دكاكين لبيعها للمسيحيين وللمسلمين كذلك، وكانت عملية البيع تتم تحت مراقبة وكلاء أو تجار تعينهم السلطة المغربية[3]. ونظرا لتزايد إقبال المسلمين على الخمور المستوردة، ولتعاطي المسيحيين لهذه التجارة ببلاد المغرب، فالظاهر أنه حصلت بعض التجاوزات، ما جعل المخزن المريني على عهد أبي الحسن يتحرك لتقنين سريان هذه المادة بالدولة. ذلك بأنه لم يبح لهم - للمسيحيين- منه "إلا مايسوغ له، ومن ظهر عليه أنه باعه لمسلم أو استظهر به، بولغ في عقوبته"[4]

ساهم اليهود بدورهم في تداول الخمور بتونس الحفصية، مستغلين في ذلك تزايد الطلب عليها[5]. ومن الجدير الإشارة إلى أن حصول المسلمين على الخمور، لم يكن دائما يتأتى من خلال شرائها من التجار المسيحيين واليهود، بل جرت العادة على أن يقدم أولئك التجار الخمور للحمّالين العاملين بالمراسي المغربية، إضافة إلى أجورهم كمكافأة لهم على خدمتهم[6].

[1] - أورد" فالريان" جدولا مفصلا عن أنواع المنسوجات التي نقلها الجنويون إلى بجاية .أنظر:
Valerian, Bougie, op. cit, pp335-336.
[2] - نستحضر -مثلا- "ورقة الخمور" التي استغلها المهدي بن تومرت لضرب المشروعية المرابطية.
[3] - Mas Latrie, Traités, pp369-370.
[4] - ابن مرزوق،المسند الصحيح، ص282.
[5] - برنشفيك، ج1، ص445.
[6] - Mas Latrie, Traités, p 369.

لقد حمل الجنويون الخمور إلى بلاد المغرب انطلاقا من عدة مصادر عرفت بإنتاجها لها كاليونان[1]، ومارسيليا[2]، وصقلية[3]. وأما الخمور التي نقلها الجنويون إلى بلاد المغرب من الإنتاج المحلي لجنوة، فالظاهر أنها لم تكن معدّة أصلا للتجارة، بل تزود بها البحارة الجنويون لتلبية حاجياتهم منها أثناء السفر، واحتفظوا بقسط منها لبيعه ببلاد المغرب. فقد سمحت كومونة جنوة لمواطنيها الذين يتاجرون مع بلاد المغرب بأن يتزودوا ب15 برميلا من الخمور في حالة قضائهم فصل الشتاء بها[4]. ونشير إلى أن البندقية سمحت لتجارها المتعاملين مع تونس بأن يتزودوا بثلاثة براميل، أي 180 لترا، خلال سفرهم إليها، من أجل الاستهلاك الشخصي، غير أنهم كانوا يلجؤون إلى بيعها – أو قسط منها- بتونس ليعوضوا عن أجورهم الضعيفة[5].

وثمّة بعض العقود تكشف عن وجود تجارة للخمور بين جنوة وبلاد المغرب في الفترة المدروسة.

فحسب عقد مؤرخ ب12 أبريل 1222 نقل الجنوي "أميكو" Amico كمية من الخمور إلى تونس[6]. ووفق عقد آخر مؤرخ بفبراير 1229، توجهت سفينة جنوية تدعى "سان يوهان" S.Iohanes لمالكها "فونتانا" Fontana Iohanes إلى طرابلس وهي محملة بالخمور والعسل[7]. وفي سنة 1250 حمل أحد الجنويين كميات غير محددة من الخمور إلى سبتة[8]. وبعد سنة من ذلك، شدّت سفينة جنوية الرحال إلى بلاد المغرب – وهي سفينة سان نكولا S.Nocola- وعلى متنها كميات من الخمور، وحدّد ثمن الشحن في فلسين للمزروبلا Mezzaruela- تساوي 50 لترا-[9]. ورغم أن الخمور التي صدرتها أوروبا إلى بلاد المغرب كانت من النوع الرديء أو المتوسط[10]، فلا شك في أنها وجدت سوقا مربحة ورائجة بالمنطقة، وفاقت أثمنتها بكثير ما كانت عليه بالسوق

[1] - Sacerdoti, p 310.

[2] - Jehel, Catalogue, acte, n°1.
-Pistarino, Notaï, acte N°1

[3]- نقل الجنوي "فندرشيو" Leone de Vendercio خمورا حمراء باعها له تاجر فلورنسي، كان بدوره قد اشتراها بصقلية من تاجر برشلوني: Jehel, Les Génois, p344

[4] - Byrne, Genoese shipping, p 48.

[5] - Doumerc, Venise, p 208.

[6] - Ferretto, Liber, p67.

[7]- العقد محفوظ بأرشيف جنوة ضمن مجموعة الموثقين المجهولين Ign, p 91 B1 XXIV-

[8] - In Jehel, les Génois, p 344.

[9] - Byrne, Genoese shipping, p 42 et pp : 89-80.

[10] - Dufourcq, Aperçu, p 733.

الأوروبية[1]. وإذا كانت العقود المقدمه اعلاه، لا تشكل سوى بعض النماذج عن تجارة الخمور بين جنوة وبلاد المغرب، فانطلاقا من مجموعة أخرى من العقود، يمكننا أن نرتب أهمية مراسي بلاد المغرب في القرن 13م في هذه التجارة على الشكل التالي: سبتة وتونس ثم بجاية[2]. ويبدو أن تجارة الخمور لم تشكل مصدرا مهما للربح للتجار الجنويين فحسب، بل وللسلطة المغربية كذلك. فعلى مستوى الضرائب الداخلية، يبدو أن الخمور أمدّت السلطة بموارد "محترمة" وسهلة في آن واحد[3]. كما أنه على مستوى الضرائب الخارجية، كان الأداء الموظف على الخمر مصدرا للربح[4]. فقد لجأت السلطة الحفصية إلى استئجار قبالة الخمور لفائدة التجار الإيطاليين والأراغونيين مقابل عائدات مهمة. ويطلعنا "فريطو" في هذا الشأن بأن السلطة الحفصية استأجرت قبالة خمور تونس للجنويين "Belengerio de Enrigeto" و"dequardis Beltramo" و" Peire de Cabrici"[5]. وقد راهنت السلطة الحفصية على عائدات قبالة الخمور، ولجأت إلى رفعها باستمرار، مما قد يكون وراء سوء التفاهم الذي تورده بعض المصادر بينها وبين التجار الجنويين في سنة 1288[6]. وجاء في أحد العقود التي حرّرها "باتفليو" بتونس أن الجنوي "فريو" Ferrario أدى مبلغا يقدر ب18 دينار ذهبيا مقابل استئجاره لقبالة تونس، وفي الغالب أن هذا المبلغ شكّل قيمة استئجاره لمدة شهر واحد[7]. ونظرا لأهمية العائدات التي كانت قبالة الخمور تتيحها للتجار الأوربيين، فإنهم تنافسوا للظفر بها. وقد استغلت السلطة الحفصية هذه المنافسة لمطالبة التجار الأوربيين بأعلى الأثمان مقابل الاستفادة من قبالة الخمور[8].

[1]- نذكر -مثلا- أن سعر الخمور بإفريقية الحفصية كان يساوي ضعف أو ثلاثة أضعاف سعرها بكطلونيا : Dufourcq. l'Espagne, p549.

[2] -Jehel, Les Génois, p 344.

[3]- نستحضر للدلالة على ذلك رواية طريفة ذكرها ابن خلدون نقلا عن شيخه أبي عبد الله الأبلي، قال: "حضرت عن القاضي بفاس لعهد السلطان ابي سعيد، وهو الفقيه أبو الحسن المليلي وقد عرض عليه أن يختار بين الألقاب المخزنية لجرايته، قال فأطرق مليا ثم قال لهم: من مكس الخمر، فاستضحك الحاضرون من أصحابه.. فقال إذا كانت الجبايات كلها حرام، فأختار منها ما لاتتابعه نفس معطية، والخمر قل أن يبذل أحد ماله، إلا وهو طرب مسرور بوجدانه غير أسف عليه" مقدمة ابن خلدون، ص708.

[4]- برنشفيك، ج2، ص269.

[5] - Ferretto Codice, T2, p 116.

[6] - Jehel, Catalogue , n°1.
- Pistarino, Notaii, n°1

[7] - Pistarino, Notaï
- Jehel, Catalogue N°1 et n°98.

[8]- حصل التاجر الشنقي "كروزو" Marc Caroso على حق استئجار قبالة الخمور بتونس من الملك الحفصي لمدة سنة، مقابل 34 ألف دينار ذهبي. غير أنه بعد أن توصل وكلاء السلطان بعروض مغرية من لدن تاجر بيزي، فوّتت

وقد لا نبالغ إذا اعتبرنا تجارة الخمور من أهم أنواع التجارة بالدولة الحفصية[1]. وقد سمحت لها عائداتها بتغطية بعض النفقات لبناء توازناتها. فبفضلها غطت بعض نفقات المرتزقة المسيحيين العاملين لديها[2]، ودفعت قسطا من ديونها لفائدة الملوك المسيحيين[3].

ورغم أن التعاطي للخمور ببلاد المغرب ظل استثنائيا، ولم يرق إلى مستوى القاعدة، ورغم أن بعض حكام المنطقة، حاولوا التخفيف من الظاهرة، فإن الإشارات المصدرية المتوافرة عن هذا الموضوع المسكوت عنه، يسمح بالقول بأن معاقرة الخمور لم تكن غائبة عن بعض فئات المجتمع بخاصتها وعامتها.[4]

3-الحبوب:

سبقت الإشارة إلى أن بلاد المغرب صدرت الحبوب لجنوة، غير أن الدولة الحفصية بالضبط، تحوّلت إلى مستوردة لهذه المادة من جنوة في السنوات العجاف، أو في سنوات الاضطرابات التي كانت تؤدي إلى نقص الحبوب بالسوق الحفصية، بينما لم نعثر على إشارة تفيد استيراد الدولتين العبدوادية والمرينية لهذه المادة من جنوة.

وبما أن جنوة كانت بدورها في حاجة ماسة إلى الحبوب، فإن تجارها عملوا على تزويد الدولة الحفصية بهذه المادة من خلال مصادر متوسطية عرفت بإنتاجها، ونخص بالذكر السوق الصقلية[5]، والظاهر أن السلطة الحفصية كانت تطمئن أكثر لاستيراد الحبوب الصقلية[6]. فقد نقل الجنويون الحبوب إلى تونس سنة 1240، التي اشتد

تونس حق استئجار الخمور لهذا التاجر، وقد مُني التاجر البندقي بخسارة قدرت ب 8000 دينارا ذهبيا، بعد أن مرت ستة أشهر فقط على عملية الاستئجار .Doumerc, p 208.
وتفيد رواية ابن الطواح أن سوق الخمر بتونس الحفصية كانت رائجة ، حيث كان "جمع من ...المنهمكين في الشهوات يبالغون في الأراجيف ويمنون ألسنتهم بالتحاريف ...فيهلك شبحه ويهرق بفنائه قدحه..." ابن الطواح عبد الواحد، سبك المقال لفك الاعتقال، تحقيق مسعود جبران،دار الغرب الإسلامي،بيروت،ص209.

[1] - Dufourcq ; l'Espagne, p99.

[2] - Jehel, Catalogue . N°46
- Pistarino, Notaï N°44

[3] - Mas Latrie, Traités p 369.

[4] - للمزيد حول الموضوع، يمكن الرجوع إلى: مصطفى نشاط جوانب من تاريخ المشروبات المسكرة بالمغرب الوسيط منشورات الزمن، 2006 .

[5] - Romano, A propos du commerce du Blé dans la Méditerranée, Hommage à Lucien Febvre, T2, 1953, p151.

[6] أراد التاجر البيزي" Giovanni de Vecchi" في نونبر 1319 أن يفرغ حمولة من القمح الساردينى بتونس، إلا أن السلطان الحفصي إسحاق أبا زكرياء رفض ذلك بدعوى أن تونس لا يمكن لها أن تستقبل غير القمح الصقلي أنظر:
Bensaci, Familles, p67-68.

جفافها بالدولة الحفصية. وقد حصل الجنويون على أرباح مهمة آنذاك بفعل حملهم للحبوب من صقلية إلى تونس[1].

ويبدو من خلال عقود الموثق "باتفليو" أن التاجرين الجنويين "ماركزيو" Tramersio Marchisio و"فرريو" Percivale Ferrario قد تخصصا في تزويد تونس بالحبوب سنة 1289[2]. كما أن بجاية استقبلت السفن الجنوية المحملة بالحبوب في القرن 14م[3]. ومن العقود التجارية التي تشير إلى تزويد الجنويين لبجاية بالحبوب الصقلية، ذلك الذي خوّل للجنوي"Andrello della Volta" كراء مركبه المسمى "San Antonio" لتاجر من مسينا يدعى "Perrone Gemillo" ولشركائه لنقل 2500 "سالما" من القمح إلى بجاية أو إلى جنوة[4]. ولعل من المثير أن نلاحظ تزويد جنوة لبجاية بالحبوب. فالواقع أن منطقة ليغوريا التي توجد بها جنوة ، ليست بالمنطقة المصدرة لهذه المادة، لكن جنوة عرفت بكونها مركزا لتجميعها، بعد استيرادها وإعادة تصديرها[5]. وكان الجنويون أحيانا ينقلون الحبوب إلى بلاد المغرب، في حالة حاجتها إليها، مباشرة من أماكن إنتاجها ، وبدون التوقف بجنوة. ففي سنة 1290م، حملت سفينة "San Matteo " 5000 "مين" من الحبوب من مراسي الشرق باتجاه مباشر نحو تونس وبجاية ومناطق أخرى[6]. وقد استمرت بجاية في استيراد الحبوب من صقلية عن طريق الجنويين في مطلع القرن 14م/ 8ه. ففي سنة 1309، نقل الجنويان "Giacomo Bonetto " و"Guglielmo Costaservi" القمح الصقلي إلى بجاية[7].

لقد وجدت تونس الحفصية صعوبات في الحصول على الحبوب الصقلية، نظرا لأن السلطة الصقلية بدورها راقبت عن قرب تجارة هذه المادة، وفرضت مقابل تصديرها أن يتم التبادل بمادة واحدة، وهي الذهب[8]. وقد حاولت السلطة الحفصية أن

[1] - Schaube, op cit, p367.

[2] - Jehel, Catalogue N°107 et 119. -Pistarino, Notaï, N°107 et 116.

[3] - Balletto, Bougie, p 84.

[4] - Urgarella(P), Le imbreviature del notaio Adamo de Citella a Palermo, Rome, 1981, n 394,date 25/ 8/ 1287.

[5] -Valerian, Bougie, p, cit,p 357.

[6] - Balard(M), Gênes et l'Outre Mer,1, Les actes de Caffa du notaire Lamberto di Sambuceto,1286-1290,Paris-La Haye,1973,n 886,acte 9/8/1290.

[7] -Valerian,Bougie op,cit, p360.

[8] -Vernet, le Maghreb, op cit, p 327.
وقد لجأت السلطة الصقلية أحيانا إلى منع تصدير الحبوب للحفاظ على إنتاجها منه، كما حدث سنة 1273، أنظر:
Bresc, Un monde, T1, p 553.

تنوع من مصادرها للحصول على الحبوب من التجار الأوربيين. ويبدو أن تجار باقي الدول الأخرى نافسوا الجنويين في تزويد تونس بهذه المادة، مثل البيزيين[1] والمارسيليين[2] والكطلانيين[3].

4-الزيوت:

لاحظ "برنشفيك" أنه من الغرابة أن تستورد تونس الزيوت، وهي الشهيرة بزياتينها، لولا أن بعض الوثائق الإيطالية أطلعتنا بوجود هذه التجارة[4]. وتكشف الحوليات الجنوية عن أهمية الزيوت التي نقلها أحد الجنويين إلى تونس أواخر القرن13م. فقد حمل الجنوي "ترافريو "Traverio"، باتفاق مع أحد تجار إشبيلية، 2200 جرة من الزيوت إلى تونس. وبغض النظر عن المصير المأساوي[5] الذي انتهت إليه هذه العملية التجارية، يهمنا أن نؤكد على أن تجارة الزيوت كانت مصدرا للربح، إذ سمحت العملية بالحصول على 1300 دينارا ذهبيا. كما أن إشبيلية كانت مزودا لتونس بالزيوت، مما يبرز مرة أخرى أهمية السوق الأندلسية في التبادل التجاري بين جنوة وبلاد المغرب. وتجدر الإشارة إلى أن تجارة الزيوت كانت سببا في توتر العلاقات الجنوية الحفصية سنة 1289م. فمن خلال العقود التي حرّرها الموثق "باتفليو" يومي 1 و3 ماي، يتضح أن السلطة الحفصية ممثّلة في الفقيه ابن مروان "Ben Maroannus"، المشرف على جمارك ميناء تونس، رفضت تقديم الواجبات المفروضة عليها بفعل نقل الجنوي "بنزانوس"Opecinus Panzannus لكميات من الزيوت إلى تونس. وقد هدّد بعض سكان المدينة مدججين بالحجارة والعصي بالاستيلاء بالقوة على تلك الزيوت. ولم يطوّق الخلاف إلا بعد أن تعهّد التاجر الجنوي بحضور قنصل الجنويين بتونس

[1] - Sayous (E), Le commerce des Européens à Tunis depuis le 12 siècle jusqu'à la fin du 16 siècle, Paris, 1929, p53

[2] - Pernourd (R), Histoire du commerce de Marseille, T1, p246.

[3] - Dufourcq, l'Espagne, p544.

[4]- برنشيفك، ج2، ص269.

[5]- تورد الحوليات الجنوية مصيرا مأساويا انتهت إليه هذه العملية التجارية لترفوريو "Traverio " نظرا لجشعه، فبعد أن باع الكمية المشار إليها من الزيوت بتونس، توجه إلى جنوة رفقة ابن أخ شريكه الإسباني، عوض الرجوع إلى إشبيلية حيث كان ينتظره ذلك الشريك. وقد تخلص "ترفوريو" من ابن أخ شريكه، وفر إلى ميورقة، لكن كومونة جنوة تابعته بالقتل بعد أن توصلت بإشعار من الشريك الإسباني (ويسمى Oliverro de Border) وقد اقتيد" ترفوريو" إلى جنوة حيث حكم عليه بالاعدام في 14 يوليوز 1280 .A.G.T8,p27

...زونوس " Enbronus"، بأن يدفع ما عليه، على أن يلتزم كل من اشترى الزيوت المنقولة بدفع الضرائب المفروضة عليها[1].

ويستشف من خلال إشارات "بيغولوتي" أن تونس استمرت في استيراد الزيوت من المدن الإيطالية في بعض سنوات القرن 14م، بدليل أنه لا يدمجها ضمن المناطق المشهورة بإنتاج وتصدير هذه المادة، مثل نابولي وصقلية وجزر البليار. غير أن هذا لا يعني أن استيراد تونس الحفصية للزيوت من جنوة ومن غيرها، كان ثابتا في واردات هذه الدولة، فالظاهر أنها لجأت إلى استيراد أنواع معينة من الزيوت، اعتبارا للفوارق الموجودة بين مختلف الزيوت من حيث الجودة والسعر[2].

وكانت بجاية بدورها تتحول في بعض السنوات العصيبة إلى مستورد للزيوت. فحسب عقدين مؤرخين بسنتي 1248و 1263، استثمر تجار جنويون أموالهم لتزويد بجاية بتلك المادة، وكان الوزن في العقد الأول عشرة براميل، و بلغت قيمة العقد الثاني 5 ليرات و17 فلسا[3].

وإذا كنا نعلم أن الدولة العبدوادية استوردت بدورها الزيوت، وبالضبط من أراغون[4]، فإننا لم نعثر على إشارة تفيد استيرادها لهذه المادة من جنوة. أما المغرب المريني، فالظاهر أنه كان في غنى عن استيراد الزيوت، نظرا لأهمية إنتاجه المحلي[5].

5- المواد الاستراتيجية:

نظرا للتوجس الذي طبع في معظم الأحيان العلاقات بين بلاد المغرب والغرب المسيحي، فإن كل طرف حرص على مراقبة مبادلاته مع الطرف الآخر، وحاول أن يمنعه من الاستفادة من المواد التي تسمح بتقويته وتدعيمه. ونخص بهذه المواد تلك التي عادة ما تدخل في الصناعة العسكرية، والتي تنعت بأنها مواد استراتيجية، مثل الأسلحة والحديد والخشب والنحاس والمراكب.

[1] - Jehel, Catalogue , n°79-80-81.
...tarino, Notaï, n°83-84-85

[2]-برنشفيك، ج2، ص269.

...e ,op, cit,p 363.

...pagne, p 547.

[5]- تشيد المصادر بأهمية إنتاج المغرب الأقصى للزيوت، جاء عند ابن الخطيب -مثلا- في حد... بكتلة: "الكثير الزياتين والأشجار.. وهو عنصر الخير ومادة المجبى" نفاضة الجراب ص73

وساهمت في تكريس هذا الموقف لدى الطرفين، دعاوى المؤسسة الدينية المتمثلة في الكنيسة، والفقهاء لمنع التجارة في هذه المواد، بل ولمنع التجارة كلية مع الطرف الآخر[1].

غير أنه بفعل أولوية المصالح التجارية لجنوة، فإنها قلّما أخذت بقرارات الكنيسة بمنع تزويد بلاد المغرب بالمواد الاستراتيجية، حتى إن البابا غريغوار العاشر بعث برسالة سنة 1272 يأخذ فيها على الجنويين بيعهم المسلمين المواد الممنوعة [2]. والظاهر أن هذه القرارات لم تدخل حيز التنفيذ بصفة فعلية إلا مع مرحلة حكم الدوق "بكنغرا"، في الأربعينات من القرن 14م، فقد دعا إلى إحياء العمل بمرسوم كنسي صادر في 1316 يمنع تزويد الاسكندرية وبلاد المغرب بالحديد والخشب والأسلحة والعبيد، وبلغ هذا القرار حدّته مع تونس، إذ منع مواطنيه بمقتضى قانون أصدره في يوليوز 1340 من تزويدها بالنبال والرماح والدروع، وفرض على ملاكي السفن الذين لا يعملون بهذا القرار 200 ليرة كدعيرة[3].

على أن موقف الدوق "بكنغرا" من التجارة مع تونس خلال الأربعينات من القرن 14م، يمكن اعتباره ظرفيا ساهمت فيه ضغوطات الكنيسة، ولربما كذلك، التخوف من تزايد القوة العسكرية للحفصيين. ولم يكن بإمكان موانع الكنيسة أن توقف التيار الجارف للتجارة الخارجية الجنوية، والتي يمكن اعتبارها بمثابة الرئتين اللتين كانت تستنشق منهما المدينة. بل إن الكنيسة في الغرب المسيحي اضطرت إلى التكيف مع الأوضاع الجديدة التي أفرزتها نهضة القرن 13م بجنوة، وغيرها من المدن الأوروبية، وأصبح ممثلو الكنيسة يتعاطون بدورهم للتجارة مع بلاد المغرب باعتبارها مصدرا للربح العميم[4]. ويبدو أن تشدد الكنيسة لمنع تزويد البلاد الإسلامية بالمواد

---

1. كان بعض الفقهاء يكرهون المسلمين في التجار مع دار الحرب لمنعها من الوسائل التي تسمح بتقويتها. حول الموقف أنظر :
Idris (H.R.) Commerce maritime et kirad en Berbérie orientale, d'après un recueil inédit de fatwas medievales, journal of Economic and sociale history of the orient, T4, 1961.
وفي نفس الاتجاه، منع البابوات في بعض الفترات التعامل مع بلاد المغرب وبلاد الإسلام لنفس الهدف عموما ، حول هذا الموقف الجنوي يمكن الرجوع إلى:
Balbi (P), Deroghe papoli al « devetum » sul commercio con l'islam, dans Rassegna degli archivi di Stato, XXXII, n°3, 1972, sep. Dec pp521-533.
2. - Canale, Nuova,T2,p 315.
3. - Balbi (P), Il trattatto, p 303.
4. - يمكن أن نقدم هنا نموذجا من أراغون حيث أن أسقف فاس "دي رولات" Francesc De Relat أجبر على أن يدفع سنة 1312 لشركة تجارية برشلونية مبلغا يقدر ب 640 دينار ذهبيا لتغطية الديون التي تراكمت على الأسقف السابق بالمدينة" Pedro" من جراء الاقتراض من تلك الشركة، أنظر: Dufourcq, l'Espagne, p 465.

الاستراتيجية، كان أقوى بالشرق، مقارنة مع ما كان عليه ببلاد المغرب. ومما يسجل في هذا المستوى أن الكنيسة منعت المسيحيين من الارتزاق في سلك الجيوش العاملة بسوريا أو بمصر، بينما سمحت لهم بذلك في بلاد المغرب[1].

وكيفما كان الأمر، فإن الوثائق تتحدث عن وجود تيار لتجارة المواد الاستراتيجية مع جنوة باتجاه بلاد المغرب. ويمكننا أن نستعير العبارة التي شاعت آنذاك بالبندقية[2] للدلالة على طغيان منطق الربح لدى الجنويين، بغض النظر عن الدين الذي يعتنقه الطرف المتاجر معه، ونلخص هذه الوضعية بالمعادلة التالية: "جنويون أولا، ثم مسيحيون فيما بعد". "Gênois d'abord, chrétiens ensuite"

تشير إحدى الوثائق في هذا الصدد إلى تقديم الحداد "دي كنريا" Oberto de Caneria لمواطنه "أوغوني" Giovani Ygone مجموعة من السكاكين قصد بيعها بسبتة سنة 1253. وفي السنة نفسها حمل أحد الجنويين الدروع إلى سبتة كذلك[3]. كما أنهم نقلوا نحاس مناجم الألب الشرقية إلى إفريقية الحفصية وإلى الدولة العبدوادية[4]. ويبدو أن حديث " دو ماص لاتري" عن استيراد بلاد المغرب للنحاس من المدن الإيطالية من القرن 12م إلى القرن 16م[5] لا يخلو من تعميم، على اعتبار أن المغرب المريني –كما سبقت الإشارة– كان غنيا بهذه المادة، ولا يستبعد أحد الدارسين المعاصرين أن يكون النحاس الذي نقله الجنويون إلى تونس، قد استوردوه من المغرب الأقصى، وأعادوا تصديره إلى تونس[6]. وتفيدنا عقود الموثق "باتفليو" بأن الجنوي " Aycelino de Camilia" حمل إلى تونس 11 من سبائك النحاس سنة 1289، وفوض بيعها لمواطنه" وليام أمبريا تشو" Embriaco"[7].

وبخصوص السفن، فقد سبقت الإشارة إلى أن معظم المعاهدات التي وقعتها جنوة مع تونس انطلاقا من معاهدة 1236م، ووصولا إلى معاهدة 1343م، نصّت على تمتيع السلطة الحفصية بثلث السفن الجنوية الراسية بميناء تونس في حالة حاجتها

---

1. -Mas Latrie, p266.
2. - شاعت بالبندقية عبارة تعبر عن طغيان منطق الربح لدى تجارها بغض النظر عن الدين الذي يمكن أن يعتنقه الطرف المتاجر معه، تقول العبارة: "Venitiens d'abord, chrétiens ensuite". Doumerc, p 204.
3. - In Jehel, les Génois, p 323.
4. - Lopez, Studi, p32.
5. - Mas Latrie, p 511.
6. - Jehel,Les Génois et le Maghreb, in Studi Maghrebini, p 73 note50.
7. - Jehel, Catalogue, acte n°64
-Pistarino, Notai, acte n°64.

إليها. ويطلعنا أحد العقود بأن السلطة الحفصية بعثت بمبعوثها "Bubranus" (أبو إبراهيم؟) بمعية ترجمان إلى جنوة لشراء مركب "مربتو" Nicoloso de Maraboto سنة 1238[1]. وكانت عملية اقتناء المغاربة للمراكب من تجار الجمهوريات الإيطالية متداولة بين الطرفين.[2] وتسمح العقود بأخذ تصور عن أسواق السفن بجنوة في الفترة المدروسة، ففي منتصف القرن 13م/ 7ه،كان سعر السفينة من نوع "nave" يتجاوز 2000 ليرة مع تجهيزها[3].

-التوابل : تخصصت الجمهوريات الإيطالية البحرية في العصر الوسيط في استقبال التوابل المشرقية، وفي إعادة توزيعها نحو بلاد المغرب. وقد وصلت التوابل إلى بلاد المغرب عن طريق ثلاثة مصادر. هناك المراكب الأوربية التي كانت تحمل التوابل من الشرق، وتتوقف بالجمهوريات الإيطالية، حيث تخزن ويعاد تصديرها من جديد، ثم المراكب الأوربية –خاصة الجنوية منها– والعربية التي كانت تقوم مباشرة بالتجارة ما بين مصر وبلاد المغرب، وأخيرا عن طريق القوافل المغربية المتنقلة برّا من مصر إلى بلاد المغرب[4]. ويبدو أن بلاد المغرب عوّلت في تزودها بالتوابل على المصدرين الأولين، نظرا لأن تجارة القوافل كانت بطيئة، ومحفوفة أكثر بالمخاطر[5]، ثم إن نقل التوابل كان يتم في الغالب على نفس السفن التي تحمل المنسوجات وغيرها من المواد، نظرا لخفة وزن التوابل. وتتضمن لائحة التوابل التي نقلها الجنويون – كغيرهم من الأوربيين- إلى بلاد المغرب عدة مواد، كالبهارات وكبش القرنفل والقرفة والزنجبيل وجوز الطيب والزعفران والكافور[6]. ويطلعنا ابن الحاج بأن الزعفران الذي كان يستهلك بالمغرب المريني، وصل جزء منه عن طريق الجنويين[7]. ويبقى من الصعب تحديد مصدر هذا الزعفران ما إذا كان من توسكانيا أم من المشرق[8]. كما يصعب أحيانا تحديد كميات التوابل التي حملها الجنويون إلى بلاد المغرب وأنواعها لأن الوثائق تكتفي بالحديث عن التوابل بصفة عامة، كما هو الشأن في علمية تجارية قام بها أحد التجار الجنويين سنة

1- العقد محفوظ بأرشيف جنوة، ASG المجموعة 15، الورقة 125، وهو مؤرخ ب3 يونيو 1238.

2- تقدم لنا العلاقات البيزية المغربية نموذجا حيا عن ذلك. فقد كان تاجر من تونس سنة 1277 يمتلك خمسة أثمان إحدى السفن باشتراك مع تاجر بيزي، وانتهى المطاف بأن باع هذا الأخير حصته للتاجر التونسي الذي أصبح المالك الوحيد للسفينة، أنظر .Alarcon, Los documentos, pp245-246

3- Byrne, Genoese, p 22.

4- Mas Latrie, Traités, p 368.

5- حول هذه المخاطر أواخر القرن 7هـ/13م ، يمكن الرجوع بصفة خاصة إلى رحلة العبدري، ص 4 وما بعدها.

6- برنشفيك، ج2، ص270.

7- ابن الحاج، المدخل...ج4، ص76.

8- Lopez, Studi, p 32.

1253 بسبتة[1]. وتحتاج بعض أنواع التوابل إلى أن تحدد مثل "Mazaro" و"egia" و"Borrana"[2]. ويبدو أن جنوة وجدت مزاحمة من لدن باقي الجمهوريات الإيطالية، كبيزة[3] والبندقية[4]، في تزويد بلاد المغرب بالتوابل.

6-مواد أخرى:

ندرج ضمن هذه الخانة مجموعة من السلع لم تبلغ نفس المستوى من الكثافة التجارية التي كانت عليها السلع المذكورة سابقا، ضمن واردات بلاد المغرب من جنوة، علما بأن بعضها كان مصدرا كبيرا للربح، ويمكن أن نذكر في هذا الصدد الحلي والفضة والمواد الغذائية الجافة والعبيد.

-الحلي: نقل الجنويون – مثلهم في ذلك مثل باقي الأوربيين- إلى بلاد المغرب الأحجار الكريمة كالياقوت الأحمر والوردي والزمرد والفيروز واللؤلؤ، والمجوهرات المختلفة[5]. والظاهر أن هذه المواد كانت موجهة أساسا إلى السلطان وحاشيته وعلية القوم، أو إلى ما يسميه ابن خلدون "بسوق الدولة". وما يشهد على أن هذه التجارة كانت موجهة إلى الفئة العليا من المجتمع، أنها جرت بمبالغ كبيرة[6]. ومن المعلوم أن مختلف أنواع الحلي التي كانت تستورد لصالح السلطان أعفيت من أداء الضرائب الجمركية[7].

ومن بين العقود التي أوردت إشارات عن تجارة الحلي بين جنوة وبلاد المغرب، نورد عقدا مؤرخا ب15 شتنبر 1225، نقل من خلاله أحد الجنويين المجوهرات إلى

1- Byrne, Genoese, p 45.

2- Jehel, les Génois, p 342.

وتساءل عما إذا لم تكن ثمة علاقة بين" mazaro "و" macis "الذي يرد ببعض وثائق البندقية ، وهو عبارة عن نوع من جوزة الطيب. وبين" Borrana" و" Bornaxo" الذي يستعمل في تلميع الكؤوس والمواد الزجاجية والزليج. ويستعمل في المجال الطبي كمعقم. أنظر الملاحق عند Doumerc, p291 et suviantes . أما "fegia" أو "fecia" فهي حسب بالبطو- مادة تدخل في معالجة الأصواف، أنظر .Da Genova, p 311

3- Schaube, p 359.

4- Doumerc, p 205.

5- برنشفيك، ج2، ص272.

6- Valerian, Bougie ,p 372.

7- Mas Latrie, Traités ,p 346.

وقد نصت المعاهدة التي وقعها أبو عنان مع بيزة على أنه "إذا ساق أحد منهم – من البيزيين- تجارة برسم الباب العلي أسماه الله تعالى فلا يكون لأحد سبيل إلى حلها ولا نظرها حتى تبلغ الباب العلي أسماه الله تعالى، فإن اشتريت منهم بالباب العلي، فلا يغرم عنها شيء، وإن لم تشتر فيغرم عليها المغرم المعتاد" أنظر .Amari, Diplomi, p4

سبتة[1]. كما توصلت هذه المدينة بالمجوهرات من جنوة حسب عقد مؤرخ ب 2 يونيو 1231[2]. ووفقا لعقد مؤرخ ب18 نونبر 1277، توصلت تونس بالمجوهرات من أحد التجار الجنويين[3]، وفي سنة 1281 نقل تاجر جنوي اللآلئ إلى تونس[4]. ويتحدث عقد آخر عن حمل تاجرين جنويين إلى بجاية 1256 سنة مجموعة من المواد القيمة، منها الزمرد[5]. ونقل تاجر آخر إلى المدينة نفسها 12 لؤلؤة بقيمة 17 ليرة سنة 1267.[6] وكان مشرف تونس الفقيه ابن مروان من الذين توصلوا بمجوهرات من جنوة حسب عقد حرّره الموثق "باتفليو" سنة 1289.[7]

-الفضة: لم تتوقف إفريقية الحفصية عن استيراد الفضة من أوربا، سواء على شكل قطع أم سبائك[8]. وقد ازدادت حاجة تونس إلى الفضة في الفترتين المتراوحتين ما بين 1280 و1285م، ثم ما بين 1310 و1330م نظرا لتراجع رصيدها من الفضة، مقارنة مع الذهب[9]. وفي أواخر منصف القرن / 8هـ/ 14م، استوردت تونس هذه المادة من سارادينيا[10] التي كانت محطة رئيسة للتجار الجنويين. ومن المعلوم أن بلاد المغرب لم تكن تحتفظ بالفضة المستوردة، بل كانت تعيد تصديرها إلى بلاد السودان التي كانت في أمس الحاجة إليها. فقد زودت الدول الأوربية بلاد المغرب في القرن 13م بفضة المناجم الألمانية، مقابل الذهب الذي حملته القوافل الصحراوية من السودان[11]. ولا يبدو أن المغرب الأقصى استورد الفضة من جنوة أو من غيرها من المدن والدول الأوربية، نظرا لأهمية إنتاجه المحلي من هذه المادة، وخاصة بجبل عوّام الذي استمر استغلاله طيلة العصر الوسيط[12]. غير أن هذا لا ينفي استيراده للمواد الفضية المصنوعة من جنوة[13].

[1]- أورد " جيهل" الإشارة في(Les Génois ,op.cit) غير أنه بالرجوع إلى نفس المجموعة المحفوظة بASG المرقمة ب 80/1 ورقة 81، نلاحظ أنها لا تغطي فترة 1225، وإنما الفترة المتراوحة ما بين 1278-1281. وفي الغالب أن الإشارة وردت بمجموعة أخرى لم نتمكن من الاطلاع عليها.

[2]- العقد محفوظ بأرشيف جنوة ضمن مجموعة الموثقين المجهولين Fasc3, BI, Not, Ignoti، الوثيقة رقم 1/27.

[3] - Ferretto, Codice, T2, p116.

[4] - In Jehel, les Génois, p 353.

[5] - Valerian, Bougie,p 373.

[6] - bid, p353.

[7] - Pistarino, Notaii,acte n 124,(14/6/1289).

[8]- برنشفيك، ج2، ص271.

[9] - Dufourcq, l'Espagne, p531.

[10] - Pegolotti, p 133.

[11] - Chaunu, p 315 et Lopez, Studi , p 55.

[12] - Rosenberger. Autour d'une grande,op.cit.

[13]- استوردت سبتة موادا فضية من جنوة حسب عقد مؤرخ ب15 شتنبر 1253، المجموعة 1/18، الورقة81.

-الفواكه الجافة: تخصص الجنويون في إعادة توزيع الفواكه الجافة التي اشتهرت بإنتاجها مملكة غرناطة[1]. وفي الغالب أنهم نقلوا بعضها إلى بلاد المغرب. وإذا كنا نعدم إشارة إلى استيراد المغرب الأقصى لهذه المواد، فإننا نعلم أن تونس الحفصية استوردت التين والجوز واللوز من إيطاليا[2]. فحسب عقد مؤرخ بفاتح فبراير 1245، نقل أحد الجنويين كمية من التين إلى تونس[3]. كما أن جنويّين أكريا سنة 1261 مركبهما لفائدة "Buongiovanni Marracio"ليحمل عليه 100 "مين" من الكستناء إلى بجاية[4].

وتبعا لعقد مؤرخ ب 20 نونبر 1280 اعترف "باسطوني" Cenorio Bastone لصمويل "اركنتو"Arcanto بأنه سيذهب إلى موناكو على مركبه المسمى "ليونردو" S.Leonardo حيث يحمل 300 مين من التين الجاف باتجاه تونس[5].

وإضافة إلى الفواكه المجففة، استوردت تونس الحفصية العسل عن طريق الجنويين، فعن العشرية الفاصلة من 1250و1260 يوجد بأرشيف جنوة ستة عقود قراض تهم نقل العسل من جنوة إلى بجاية، وقد بلغت الكمية المحمولة-مثلا- حسب عقد 1250، أربعة براميل من العسل[6].

ولم نعثر على إشارة تفيد استيراد مملكة تلمسان للفواكه المجففة من جنوة، بينما نعلم أنها استوردتها من إيطاليا عن طريق الكطلانيين[7].

ومن المفيد الإشارة إلى أن المصادر الجغرافية تشيد بأهمية إنتاج بلاد المغرب من السكر، لكن المنطقة كانت تعاني من نقص تلك المادة في بعض السنوات العجاف، أو بفعل الظروف الأمنية المتردية. ويشير أحد العقود التجارية إلى أن الجنوي" Vino de

[1] - Heers, Royaume de Grenade, p109.

[2]- برنشفيك، ج 2، ص269.

[3]- العقد المحفوظ بأرشيف جنوة ASG المجموعة 1/21، الورقة 126 خلفية.ASG

[4] - Valerian.Bougie.op.cit.p 364.

[5] - Ferretto, Codice, T2, p306.

[6] - Valerian, Bougie,p 366.

وأما أرقام تلك العقود بأرشيف جنوة ،فهي كالتالي،
- عقد مؤرخ بسنة 1252، المجموعة 2/18 الورقة ASG.11
- عقد مؤرخ ب 14/ 1253/5، المجموعة 29، الورقة 103 خلفية.ASG
- عقد مؤرخ ب 1253/5/16، المجموعة 29، الورقة ASG.109
- عقد مؤرخ ب 1254/5/11، المجموعة 52، الورقة 97 خلفية.ASG
- عقد مؤرخ ب 1262/11/52، المجموعة 71، الورقة ASG.129
- عقد مؤرخ ب 1263/2/27، المجموعة 2/30، الورقة 71 خلفية.ASG

[8] - . Dufourcq, l'Espagne, p 548.

سبتة[1]. كما توصلت هذه المدينة بالمجوهرات من جنوة حسب عقد مؤرخ ب 2 يونيو 1231[2]. ووفقا لعقد مؤرخ ب18 نونبر 1277، توصلت تونس بالمجوهرات من أحد التجار الجنويين[3]، وفي سنة 1281 نقل تاجر جنوي اللآلئ إلى تونس[4]. ويتحدث عقد آخر عن حمل تاجرين جنويين إلى بجاية 1256 سنة مجموعة من المواد القيمة، منها الزمرد[5]. ونقل تاجر آخر إلى المدينة نفسها 12 لؤلؤة بقيمة 17 ليرة سنة 1267 .[6] وكان مشرف تونس الفقيه ابن مروان من الذين توصلوا بمجوهرات من جنوة حسب عقد حرّره الموثق "باتفليو" سنة 1289.[7]

-**الفضة**: لم تتوقف إفريقية الحفصية عن استيراد الفضة من أوربا، سواء على شكل قطع أم سبائك[8]. وقد ازدادت حاجة تونس إلى الفضة في الفترتين المتراوحتين ما بين 1280 و1285م، ثم ما بين 1310 و1330م نظرا لتراجع رصيدها من الفضة، مقارنة مع الذهب[9]. وفي أواخر منصف القرن / 8هـ/ 14م، استوردت تونس هذه المادة من ساردينيا[10] التي كانت محطة رئيسة للتجار الجنويين. ومن المعلوم أن بلاد المغرب لم تكن تحتفظ بالفضة المستوردة، بل كانت تعيد تصديرها إلى بلاد السودان التي كانت في أمس الحاجة إليها. فقد زودت الدول الأوربية بلاد المغرب في القرن 13م بفضة المناجم الألمانية، مقابل الذهب الذي حملته القوافل الصحراوية من السودان[11]. ولا يبدو أن المغرب الأقصى استورد الفضة من جنوة أو من غيرها من المدن والدول الأوربية، نظرا لأهمية إنتاجه المحلي من هذه المادة، وخاصة بجبل عوّام الذي استمر استغلاله طيلة العصر الوسيط[12]. غير أن هذا لا ينفي استيراده للمواد الفضية المصنوعة من جنوة[13].

[1]- أورد " جيهل" الإشارة في(Les Génois ,op.cit) غير أنه بالرجوع إلى نفس المجموعة المحفوظة بـASG المرقمة ب 80/1 ورقة 81، نلاحظ أنها لا تغطي فترة 1225، وإنما الفترة المتراوحة ما بين 1278-1281. وفي الغالب أن الإشارة وردت بمجموعة أخرى لم نتمكن من الاطلاع عليها.

[2]- العقد محفوظ بأرشيف جنوة ضمن مجموعة الموثقين المجهولين Fasc3, BI, Not, Ignoti، الوثيقة رقم 1/27.

[3] - Ferretto, Codice, T2, p116.

[4] - In Jehel, les Génois, p 353.

[5] - Valerian, Bougie,p 373.

[6] - bid, p353.

[7] - Pistarino, Notaii,acte n 124,(14/6/1289).

[8]- برنشفيك، ج2، ص271.

[9] - Dufourcq, l'Espagne, p531.

[10] - Pegolotti, p 133.

[11] - Chaunu, p 315 et Lopez, Studi , p 55.

[12] - Rosenberger, Autour d'une grande,op.cit.

[13]- استوردت سبتة موادا فضية من جنوة حسب عقد مؤرخ ب15 شتنبر 1253، المجموعة 1/18، الورقة81.

-**الفواكه الجافة**: تخصص الجنويون في إعادة توزيع الفواكه الجافة التي اشتهرت بإنتاجها مملكة غرناطة[1]. وفي الغالب أنهم نقلوا بعضها إلى بلاد المغرب. وإذا كنا نعدم إشارة إلى استيراد المغرب الأقصى لهذه المواد، فإننا نعلم أن تونس الحفصية استوردت التين والجوز واللوز من إيطاليا[2]. فحسب عقد مؤرخ بفاتح فبراير 1245، نقل أحد الجنويين كمية من التين إلى تونس[3]. كما أن جنويّين أكريا سنة 1261 مركبهما لفائدة "Buongiovanni Marracio"ليحمل عليه 100"مين" من الكستناء إلى بجاية[4].

وتبعا لعقد مؤرخ ب 20 نونبر 1280 اعترف "باسطوني" Cenorio Bastone لصمويل "اركنتو"Arcanto بأنه سيذهب إلى موناكو على مركبه المسمى "ليونردو" S.Leonardo حيث يحمل 300 مين من التين الجاف باتجاه تونس[5].

وإضافة إلى الفواكه المجففة، استوردت تونس الحفصية العسل عن طريق الجنويين، فعن العشرية الفاصلة من 1250و1260 يوجد بأرشيف جنوة ستة عقود قراض تهم نقل العسل من جنوة إلى بجاية، وقد بلغت الكمية المحمولة-مثلا- حسب عقد 1250، أربعة براميل من العسل[6].

ولم نعثر على إشارة تفيد استيراد مملكة تلمسان للفواكه المجففة من جنوة، بينما نعلم أنها استوردتها من إيطاليا عن طريق الكطلانيين[7].

ومن المفيد الإشارة إلى أن المصادر الجغرافية تشيد بأهمية إنتاج بلاد المغرب من السكر، لكن المنطقة كانت تعاني من نقص تلك المادة في بعض السنوات العجاف، أو بفعل الظروف الأمنية المتردية. ويشير أحد العقود التجارية إلى أن الجنوي" Vino de

[1] - Heers, Royaume de Grenade, p109.

[2]. برنشفيك، ج 2، ص269.

[3]. العقد المحفوظ بأرشيف جنوة ASG المجموعة 1/21، الورقة 126 خلفية.ASG

[4] - Valerian.Bougie.op.cit.p 364.

[5] - Ferretto. Codice, T2, p306.

[6] - Valerian. Bougie.p 366.

وأما أرقام تلك العقود بأرشيف جنوة ،فهي كالتالي،

- عقد مؤرخ بسنة 1252، المجموعة 2/18 الورقة ASG.11
- عقد مؤرخ ب 14/ 1253/5، المجموعة 29، الورقة 103 خلفية.ASG
- عقد مؤرخ ب 1253/5/16، المجموعة 29، الورقة ASG.109
- عقد مؤرخ ب 1254/5/11، المجموعة 52، الورقة 97 خلفية.ASG
- عقد مؤرخ ب 1262/11/52، المجموعة 71، الورقة ASG.129
- عقد مؤرخ ب 1263/2/27، المجموعة 2/30، الورقة 71 خلفية.ASG

[8] -، Dufourcq, l'Espagne, p 548.



Lavagna " خصّ بجاية بقراضين لتزويدها بالسكر، قيمة القراض الأول 14 ليرة وقيمة الثاني 24 ليرة[1].

ورغم أن جنوة كانت في حاجة متزايدة إلى الملح، فإن تجارها كانوا يزودون تونس الحفصية بهذه المادة في بعض السنوات. ومن الأمثلة عن ذلك، نقل مركب جنوي الملح من ميورقة إلى بجاية سنة 1339.[2] كما أن" Simone Lecavello" حمل سنة 1348 ملح منطقة "Hyères" إلى المدينة نفسها.[3]

-العبيد: لاحظنا سابقا أن القرصنة شكلت أهم مصدر للحصول على العبيد بحوض البحر المتوسط الغربي خلال العصر الوسيط. فبحكم موقع جنوة المهم وقوة أسطولها ونشاط تجارها، فإنها تصدرت المنطقة من حيث تجميع العبيد وإعادة توزيعهم في القرنين 13 و14م[4]. ويمكن القول بأنه قبل التزيف الديموغرافي الذي أحدثه الطاعون الأسود لسنة 1348م، كان الأوربيون آنذاك يبيعون العبيد أكثر مما يشترونهم[5].

والواقع أننا لم نطلع على عقود تفيد وجود تجارة مباشرة للعبيد من جنوة باتجاه بلاد المغرب. غير أننا لا نشك في وجود تجارة لهم، جرت في إطار السرية نظرا لأن "السلعة البشرية" شكلت إحدى السلع الاستراتيجية التي حرصت كل دولة على مراقبة تجارتها. وقد سبقت الإشارة إلى أن الدوق" بكنغرا" منع مواطنيه سنة 1316 من تصدير العبيد إلى بلاد المغرب[6].

ظلت القرصنة مصدرا لوجود العبيد الجنويين والمسيحيين بصفة عامة ببلاد المغرب. وكانت البحرية المغربية وخاصة لدى المرينيين على عهد أبي الحسن قادرة على التصدي لهجومات المسيحيين بالبحر المتوسط وقطع الطريق عليهم[7]. ونعلم أن حضور الأسرى المسيحيين بالدولة العبدوادية كان ضروريا، حتى إن أحد سلاطينها أعرب عن عدم استعداد بلاده للتخلي عن خدمتهم، ولاسيما بمجال الحرف[8].

[1]- Valerian, Bougie, p 367.
[2]- Hocquet (Jean –Claude),Ibiza . p498 .
[3]- Valerian, Bougie, p 634.
[4]- Verlinden, T1, p 270.
[5]- Chaunu, p 101
[6]- Balbi, Il trattato, p 303.
[7]- Heers, L'esclavage, p25.
[8]- نجد ذلك واضحا من خلال رسالة بعث بها السلطان العبدوادي عبد الرحمن بن موسى بن عثمان إلى ملك أراغون في 22 ربيع الثاني من سنة غير محددة بالوثيقة، ومما جاء فيها (..وأما ما أشرتم إليه من تسريح جميع من

والظاهر أن العبيد الجنويين لم يوجدوا إلا بقلّة ببلاد المغرب، نظرا لقوة أسطولهم ولاهتمامهم بعمليات الافتداء، ولربما ليس من باب الصدفة أن نلاحظ خلوّ المفرد التي حرّرها الموثق الجنوي "باتفليو" سنة 1289 بتونس من أي إشارة إلى وجود العبيد الأسرى الجنويين بها. وإذا كنا نمتلك إشارة إلى سوء معاملة العبيد الكطلانيين[1] والبنادقة[2] ببلاد المغرب، فإننا لم نعثر على إشارات تتعلق بوضعية العبيد الأسرى الجنويين ببلاد المغرب. ولربما مرد ذلك إلى نشاط الجنويين في افتداء أسراهم، ومن نماذج ذلك أن"Simone" ابن "Ansaldo de Modulo" أقرض " "Giovannino" 13 دينارا لافتكاك أخيه ببجاية[3]، بل إن الجنويين نشطوا في افتداء أسرى باقي الدول الأوربية والمغربية كذلك، نظرا لما كانت تتيحه عمليات الافتداء من أرباح. ونستحضر في هذا الشأن ما قام به تاجران جنويان لافتكاك أسير إسباني بمراكش سنة 1287[4]. كما أن تاجرا جنويا كان وراء عملية افتكاك أسر 32 بجائي من ميورقة، مقابل إطلاق مملكة بجاية (التي كانت سنة 1313 مستقلة عن الحفصيين بتونس) لـ12 أسيرا ميورقيا بعد محادثات طويلة.[5]

وتبقى الإشارة ضمن لائحة المواد المختلفة التي صدرتها جنوة نحو بلاد المغرب إلى تجارة الحيوانات. يتحدث"دو ماص لاتري" عن استيراد بلاد المغرب لطيور الصيد مثل الصقور من أوربا[6]. والواقع أنه أمام ضعف هذه التجارة ونقص المعلومات عنها، فإنه من الصعب الحديث عن وجود تجارة للحيوانات آنذاك بالحوض الغربي للمتوسط[7]. وتستوقفنا في هذا الشأن إشارة لدى "جيهل" – ولو أنها متقدمة شيئا ما عن الفترة المدروسة إذ تعود إلى 1179– عن إمكانية وجود تجارة للبغال ما بين جنوة وبلاد المغرب من خلال عقد يتحدث عن شراء الجنوي "شفلا" Amico Cevolla من مواطنه "كلرشو" Bernardo Clerico بغلة أدى ثمنها بوهران أو ببستة[8]. فالواقع أن

عندنا من الأسارى فذلك ما لا يمكن أن يكون... لأن تعلمون أن ما عمر بلادنا إلا الأسارى، وأكثرهم صناع متفننون في أنواع جميع الصنائع..) Alarcon, Los documentos, p 184

[1] - Dufourcq, l'Espagne, p75
[2]- في الواقع أن هذه الإشارة متأخرة نسبيا عن الفترة المدروسة، إذ تعود إلى سنة 1389. ولربما أنها حالة استثنائية ترتبط بتزايد أعمال القرصنة على عهد أبي العباس. أنظر برنشفيك، ج1، ص479.
[3] - Valerian, Bougie, p424.
[4] - Jehel, les Génois, p 396.
[5] - Dufourcq, Chrétiens et musulmans…in Anuario… T10 Barcelone, 1980, pp219-220
[6] - Mas Latrie, Traités, p 365.
[7] - Dufourcq, l'Espagne, p548.
[8] - Jehel, Les Génois, p143.

العقد لا يتحدث عن مصدر هذه البغلة ويكتفي بالإشارة إلى أداء ثمنها بوهران أو بسبتة، كما لا يتحدث عن نقلها إلى بلاد المغرب، ولا نعتقد بوجود مثل هذه التجارة، لأن بلاد المغرب عرفت بخيولها وبغالها، ويكفي الرجوع إلى بعض المصادر الجغرافية العربية[1] للوقوف على ذلك، بل إن بلاد المغرب كانت تصدر الخيول إلى بلاد السودان وإلى المناطق الصحراوية[2].

شكلت التجارة أهم قناة للتواصل الحضاري بين جنوة وبلاد المغرب. وقد قدمنا في الفصل السابق العملية التجارية كمعطى جاهز من خلال رصد الصادرات والواردات المتبادلة بين الطرفين، علما بأن التبادل التجاري يأتي تتويجا ومحصلة لإطار تنظيمي، يستوجب عدة عناصر. فالعملية التجارية تحتاج إلى أن تقنن عبر أدوات ووسائل للتبادل، وإلى أن تضبط عبر خضوعها للضرائب الجمركية، وقبل ذلك تحتاج إلى السفن وإلى الاستئناس بالطرق البحرية.

ومن هذا المنطلق، نحاول أن نرصد شريط مراحل المبادلات التجارية بين جنوة وبلاد المغرب من خلال المحاور التالية:

- الرحلة التجارية بين جنوة وبلاد المغرب.
- أدوات التبادل التجاري ووسائله.
- الضرائب المفروضة على التجار الجنويين ببلاد المغرب.

1- مثل جغرافية ابن سعيد، ص141.

2- Niane (Tamsir), Le Soudan occidental au temps des grands empires 11-16 siècle, édi, Présence Africaine, Paris, 1975, p205.

الفصل الثالث:

الرحلة التجارية بين جنوة وبلاد المغرب

إن بسط عنوان الفصل بهذا الشكل: "الرحلة التجارية بين جنوة وبلاد المغرب"، وليس بين بلاد المغرب وجنوة، له ما يبرره. فهو يأخذ مرجعيته من حقيقة تاريخية تؤكد عليها تقريبا كل الدراسات التي اهتمت بالعلاقات بين غرب أوربا المتوسطية وبلاد المغرب مع نهاية العصر الوسيط، وبالضبط منذ القرن 6هـ/ 12م. ذلك بأن مبادرة تفعيل هذه العلاقات كانت واقعة على عاتق التجار الأوربيين الذين احتكروا العمليات التجارية القائمة بين الطرفين بفعل تفوق أسطولهم، ولم يتجاوز الحضور المغربي بالضفة الشمالية الغربية للحوض المتوسطي مجرد مبادرات فردية محتشمة، ومعدودة على رؤوس الأصابع – وهذا موضوع سنقف عند حيثياته ومسبباته في فصل لاحق-.

استوجبت الرحلة التجارية من جنوة إلى بلاد المغرب في البدء توفير السفن. وقد تناول موضوع البحرية الجنوية وبنياتها عدد من الباحثين لعل أهمهم "بالبي" و"منفروني" و"كروويغير" و"بايرن" و"باليطو"[1]. كما أن "باستار" Bastard [2] في دراسة رائدة ونقدية لدراسة "جال" Jal[3]، حلّل بعمق الجوانب التقنية للبحرية الجنوية من خلال رصده لأنواع السفن المستعملة بالبحر المتوسط على عهد القديس لويس

1 - Balbi (P), I nomi di nave a Genova nei secoli XII e XIII, in Miscellanea di storia ligure, Gênes, 1966.
- Manfroni, Storia della marina italiana, op cit.
- Krueger, Genoese trade, op cit.
- Byrne, Genoese schipping, op cit.
- Balletto, Genova nel duccento, Uomini nel porto e uomini sul mare. Genova, 1983.

2- Bastard de Péré, Navires méditeranéens du temps de Saint Louis, in R.H.E.S, T50, 1972, pp 327-356.

3 - Jal A, Archéologie navale, 2 Tomes, Paris, 1873.

التاسع. وأخيرا فإن مختلف الندوات التي تطرقت لموضوع البحر في التاريخ الأوربي أو البحر المتوسط في العصر الوسيط، قاربت البحرية الجنوية بشكل أو بآخر[1].

لهذا كله، فإننا نعترف بأن ما نقدمه هنا عن هذا الموضوع، لا يعدو أن يكون تلخيصا وتبسيطا لمعطياته، خاصة وأنه موضوع شائك ومعقد، ويحتاج إلى تقاطع مجموعة من التخصصات. ودون الخوض في الجانب التقني للسفن الجنوية التي تاجرت مع بلاد المغرب في الفترة المدروسة، نكتفي بالتعريف بها من حيث أهم خصائصها وحمولتها. ونعمد من أجل ذلك، ومن أجل الوقوف عند الترتيبات المتعلقة بالرحلة التجارية بين جنوة وبلاد المغرب إلى تقسيم هذا الفصل إلى ثلاثة محاور وهي:

أ- أنواع السفن،

ب- قيمة استئجارها وقيمة نقل السلع

ج- مسار الرحلة.

أ- أنواع السفن المستعملة:

يجدر بنا قبل الحديث عن أنواع السفن التي استعملت في التجارة ما بين جنوة وبلاد المغرب، أن نبدي ملاحظتين نراهما أساسيتين في هذا الموضوع:

- تورد المصادر المغربية والجنوية أسماء كثيرة للسفن المستعملة في البحر المتوسط في العصر الوسيط. غير أن المعطيات التي تقدمها المصادر المغربية عن أنواع السفن تتسم بالعمومية، وأحيانا بالتضارب وضعف المادة المقدمة عن حجمها وحمولتها. الشيء الذي جعل بعض الدراسات المعاصرة التي تعرضت لموضوع البحرية المتوسطية، لا تخلو بدورها من بعض الغموض[2].

[1]- نقصد بذلك المؤتمرات الدولية للتاريخ البحري:

Colloques internationaux d'histoire maritime.Paris 1958. 1962. Beyrouth 1966. Bruxelles 1968. Paris 1972. Bruxelles 1974. Naples 1980.

كما نقصد بذلك الأيام المخصصة للبحرية المتوسطية في إطار أيام" سبولتو" :

Navigazione méditerranea nello alto medioevo : Settimane di studio del centro italiano di studi sull'alto Medioevo. 2-8 Avril 1964. 2 volumes. Spoleto. 1965.

[2]- نلاحظ ذلك مثلا في دراسة لروزنبرجي حيث يقدم الشيني" la galée "أو" la galère "باعتبارها مرادفا للغراب" Guarapi" أنظر: Rosenberger. Le contrôle du détroit. p 19 et p 24 . ويذكر التازي عبد الهادي عن الطريدة ما يلي: "سفينة صغيرة لها اسم عند الإسبان؟" الأسطول المغربي عبر التاريخ. البحث العلمي. عدد 33، 1982.

لذلك، فإن المشكل المطروح عند رصد أنواع السفن المستعملة آنذاك، يبقى منذ البداية مرتبطا بضبط المصطلح وحمولته. وقد لاحظ "هيرس" في هذا الشأن أن كثيرا من أسماء السفن المتوسطية نابعة من التقاليد المحلية لكل منطقة، ولا تعني بالضرورة أنواعا محددة من السفن. فحينما نتحدث عن القارب" Barcha " بجنوة، فإننا نعني به مركبا صغيرا يستعمل أساسا في الساحلة وفي المبادلات القصيرة - وهو نفس المعنى الموجود بالبحرية المغربية- بينما يعني في برشلونة السفينة القشتالية التي كان بإمكانها حمل حمولة كبيرة، وقادرة على القيام بالرحلات البحرية البعيدة[1].

أما المصادر المغربية ، فتتحدث عن عدة مراكب دون تحديد ماهيتها، ومنها الطورة والقارب والشيطي والجفن والزورق والفلوكة....[2]

- دأبت بعض الدراسات المغربية المعاصرة[3] على التمييز بين الأسطول العسكري والأسطول التجاري لدى الدول المغربية أواخر العصر الوسيط. ويبدو أنه لم تكن ثمة حدود فاصلة وواضحة بين الأسطولين آنذاك. فالسلم كان هشّا بالبحر المتوسط. وكان المسلمون والمسيحيون بالمنطقة، كلّ يترصد الآخر. ونستعير في هذا الصدد عبارة لديفورك - الذي قضى ردحا من الزمن في دراسة العلاقات المسيحية الإسلامية بالحوض الغربي المتوسط أواخر العصر الوسيط - الذي ذهب إلى أن كل طرف كان ينظر إلى الطرف الآخر باعتباره" سمك القرش"، ثم إنه بمجرد انتهاء مدة الهدنة، كان الطرفان يدخلان في حالة العداء رغم أنهما لا يعلنان عن الحرب. كما أن صلاحية الهدنة كانت مرتبطة بالحاكمين اللذين وقعا المعاهدة، وبمجرد انتهاء حكم أحدهما، تصبح الهدنة ملغاة[4]. ورغم وجود معاهدات صلح بينهما، فإن هذه المعاهدات لم تكن لتضع حدا نهائيا لتصادمهما في أي لحظة، وكانت معاهدات للهدنة، وليس للسلم[5]. لهذا كلّه، فإن أي رحلة بالبحر المتوسط إلى حدود القرن 15م، كانت بالنسبة للتاجر رحلة عسكرية، وكانت السفينة التي لا تحمل سلاحا لقمة سائغة للأعداء

[1]-Heers. Types de navires et spécialement des trafics en Méditerranée à la fin du moyen âge. in sources pour l'histoire de commerce maritime. S.E.V.P E.N 1962. p107.

[2]- البشير (عبد الحق)، المغصد...صفحات: 52و74و 98 و103 و 106و 111.

[3]- القبلي محمد، مراجعات...ص 60 ، وأنظر لنفس المؤلف Kably. Société. p 96.

[4] - Chrétiens et Musulmans. In AEM.10..op cit. pp : 208-210.

[5]- لهذا نرى أنه كان من الأنسب أن يحمل كتاب "دو ماس لا تري" عنوان: " Traités de trêve et de commerce "عوض" Traités de paix et de commerce "ومن الأفيد أن يترجم العنوان بمعاهدات الصلح أو الهدنة والتجارة، وليس بمعاهدات السلم والتجارة، لأن الصلح مؤقت والسلم دائم

وللقراصنة[1]. كما أن نفس السفينة التي تنقل السلع، كان عليها أن تحمل الأسلحة لتدافع عن نفسها. وتعجّ وثائق الموثقين بالإشارة إلى ثنائية الدور العسكري والتجاري للسفن المتوسطية آنذاك. ونكتفي هنا للدلالة على ذلك، بالإحالة على بعض منها. فبمقتضى عقد مؤرخ بثامن شتنبر 1253 حملت سفينة متاجرة مع سبتة خمسين بحارا مسلحا، من بينهم ستّة من رماة السهام[2]. ولما توجهت سفينة "الجنة الكبرى" Magna Paradus إلى تونس سنة 1251، كان على متنها مائة بحار من ضمنهم عشرون من رماة النبال[3]. ومن المفيد الإشارة إلى أن مملكة أراغون منعت تجارها من الإبحار دون حمل السلاح[4].

وتحفظ المصادر عدة إشارات يتجلى فيها تداخل الدور العسكري والتجاري للسفن المستعملة في البحر المتوسط الغربي. فلمّا هاجمت قبائل سبتة فندق الجنويين في أحداث 1236، جهّزت كومونة جنوة في حملتها على المدينة 560 بطسة كبيرة و31 بطسة صغيرة و 20 شينيا . ومن المعلوم أن معظم العمليات التي قام بها التجار الجنويون ببلاد المغرب تمّت على متن البطسة. ورغم أن الشيني استعمل كثيرا في العمليات الحربية، فإنه استعمل في العلميات التجارية في آن واحد. ولنا في الحوليات الجنوية نموذج عن ذلك. ففي سنة 1291 استأجر مجموعة من التجار الجنويين شينيا في ملكية "دوريا" Paolino D'oria الذي كان قد جهّزه بالأسلحة، وقاموا على متنه برحلة تجارية إلى تونس[5]. كما أن عقود الموثقين تتضمن إشارات لاستعمال الشيني من أجل التجارة مع بلاد المغرب[6].

وخلاصة المسألة، فإن الحدود بين الأسطول التجاري والعسكري لم تكن واضحة في تاريخ البحرية المغربية والأوربية بالحوض الغربي للمتوسط أواخر العصر الوسيط. وإن وجد تميز بين السفن العسكرية والسفن التجارية، فإننا لا نعرف عنه

---

[1] - Heers, Gênes, p 30.

[2] - العقد محفوظ بأرشيف جنوة ASG ضمن مجموعة العقود التي حررها الموثق "De Flor" السجل IV، الورقة 164.

[3] - Jehel, Les Génois, p 247.

[4] - Dufourcq, l'Espagne p 48.

[5] - A.G. T9, p 39.

[6] - مثل رحلة التاجر الجنوي" سالفتو" Salveto إلى تونس سنة 1267. ورد ذلك بالعقد المحفوظ بأرشيف جنوة، ASG المجموعة S2، ورقة 219، والعقد مؤرخ ب31 أكتوبر 1267.

سوى الشيء القليل إلى حدود العصور الحديثة[1]. والظاهر أن هذا التميز لن يتأتى إلا مع انتشار الأسلحة النارية على نطاق واسع[2]، وهو ما لم يحصل قبل القرن 16م.

بعد إبداء هاتين الملاحظتين، نحاول أن نرصد أهم خصائص السفن التي استعملت بكثرة في التجارة الجنوية المغربية، ومن هذه السفن:

-البطسة: (nave) (nef) (navis)[3]. وهي سفينة متعددة السطوح والأشرعة، وذات شكل دائري[4]. وقدر" باسطار" أبعادها ضمن ما يلي: يبلغ طولها من 23،6 مترا إلى 37،05 مترا، وعرضها من 9،13 مترا إلى 10 أمتار، وارتفاعها من 3،70 إلى 4،32 مترا[5].

ويستنتج من خلال عقود الموثقين أن البطسة كانت أكثر استعمالا لدى التجار الجنويين المتعاملين مع بلاد المغرب. ممّا يعني أنها كانت تستخدم في المسافات البعيدة، بينما استعملت الطريدة والشيني في معظم الأحيان في الرحلات القصيرة، كما هو الشأن في التجارة ما بين جنوة وجنوب إيطاليا أو ساردينيا. وقد استعملت البطسة في حمل المواد الثقيلة مثل الحبوب، وتستوجب عددا مرتفعا من البحارة قد يتجاوز المائة[6]. وحسب العقود المطلع عليها، فإن أكبر كمية حملتها البطسة، هي تلك التي نقلتها سفينة "الجنة الكبرى" " Magna Paradius" سنة 1251 في التجارة مع تونس، وتتمثل في ثمانية ألف قنطار بموازين تونس. ونعلم أن القنطار بتونس كان يعادل 54 كلغ[7]. ويقدم عقد آخر مؤرخ بسنة 1253 عن رحلة تجارية من جنوة إلى بجاية بعض المعطيات الأخرى عن البطسة. ذلك بأنها أقلت خمسين بحارا وبلغت حمولتها من السلع 3000 قنطارا[8]. أما البطسة المسماة "La Stella"، فتوجهت من جنوة في السنة

---

[1] - Mollat, La guerre de course et la piraterie, in AEM, T10, 1980, op cit, p745.

[2] - برنشفيك، ج2، ص98.

[3] - تستعمل عقود الموثقين الجنويين اسم "navis "وهي كلمة لاتينية أصبحت فيما بعد تحمل اسم "nef" أنظر: Heers, types, op cit, p109.

[4] - Bresc, Un monde, T1, p281.

[5] - Bastard, Navires, op cit, p 334.

[6] - Balard, La Romanie, p553.

[7] -Schaube, op cit, p 978.

[8] - للمقارنة -مثلا- نذكر أن بطسة في ملكية "بشكوال أوزديماري" تاجرت مع بجاية في 1289 وحملت 2500 ق من المواد بموازين تونس، وبطبيعة الحال قد تحمل البطسة حمولة أقل من ذلك بكثير.

[10] - Heer. Genoese, pp 112-113.

نفسها باتجاه مالقة وسبتة وبجاية، وعلى متنها 5000 قنطارا من السلع وخمسين بحارا[1].

وقد شهدت البطسة بعض التغييرات في القرن 14م/ 8ه ، وأصبحت ترد في الوثائق الجنوية باسم "coque" أو "coca" أو أحيانا باسم "navis-coca" ، ومن ذلك أن "coca" في ملكية أحد الجنويين حملت الملح من يابسة (من جزر ميورقة) إلى بجاية سنة[2].

-الشيني galea-galée: يرى" باستار" أن بعض المؤرخين المعاصرين يسمون شينيا –غالبا– كل سفينة تسير بالمجاديف، أو السفينة الطويلة لتمييزها عن البطسة التي تعرف كذلك بالسفينة الدائرية، علما بأن الشكل الدائري يوجد بمقدمتها وبمؤخرتها فقط[3]. وكتب العلامة محمد المنوني عن الشيني ما يلي: "مركب طويل يجدف بمائة مجداف وتقوم فيه أبراج وقلاع للدفاع والهجوم... ويبلغ متوسط ما يحمله 150 رجلا"[4]. وإذا كان الشيني الجنوي يسير بالمجاديف، فإن نظيره بالبندقية لم يكن يحملها[5]. ويرى "بالار" أن جنوة شرعت في استعمال الشواني الكبيرة الموجهة أكثر إلى نقل السلع ابتداء من القرن 14م[6]. غير أنها لم تبلغ مستوى حمولة البطسة. فقلّما تشير العقود إلى نقلها للمواد الثقيلة، وكثيرا ما حملت الشب من بلاد المغرب[7]. ويحدد "بريسك" حمولتها في ما بين 700 و800 "سالما"[8]. ونشير إلى أن اسم الشيني ورد بالمصادر العربية قبل الفترة المدروسة، فابن حيان يتحدث عنها في إحدى حملات الأسطول الجنوي سنة 312هـ.[9] ولما أورد عبد الباسط في الروض الباسم مراكب الإيطاليين في القرن 9هـ/ 15م، اقتصر على ذكر شواني الجنويين وشواني البنادقة[10].

[1] - Byrne,Ibid.pp 120-124.
[2] - Hocquet,Ibiza,p 497.
[3] -Bastard, p349.
[4]- المنوني، ورقات... ص78.
[5] -Lane, Venise, Une république maritine, Paris, 1985, p83.
[6] - Balard (M), la Romanie, T2, p 548.
[7] - Jehel, Les Génois, p 244.
[8] - Bresc, Un monde, T1, p 281.
[9]- ابن حيان أبو مروان،المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق محمود علي مكي، دار التعاون، القاهرة، 1994، ج5، ص323.
[10]- عمر عبد السلام تدمري، مشاهدات وأخبار عبد الباسط الظاهري في بلاد المغرب والأندلس من خلال كتابه المخطوط"الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم، مجلة التاريخ العربي،ع 19، شتاء 1412/ 2001، ص 143 - و ص 119.

ويخلص فهمي علي محمود إلى أن الشيني كان يستخدم في الأنشطة التجارية والحربية معا[1].

-الطريدة Tarida: يبدو أنها ذات أصل عربي[2]. وهي عبارة عن مركب يشبه البرميل المائل[3]. وكانت مزودة بالمجاديف وبشراع مثلث[4]، وهي أقل من الشيني. وقد استخدمها الجنويون في الحروب الصليبية. واختصت بنقل الخيول والمواد الغذائية والحبوب وباقي السلع الثقيلة[5]. ويرى "باستار" أن خصائص الطريدة لا تختلف كثيرا عن خصائص الشيني[6]. وسبقت الإشارة إلى أن الحوليات الجنوية لم تكن لتميز كثيرا بين السفينتين. وكان بإمكان الطريدة الجنوية أن تحمل 4 آلاف "مين" من الحبوب[7] (كل مين بموازين جنوة يعادل 105 لترا) . ويشير عقد مؤرخ ب 15 شتنبر 1260– من العقود التي عثرت عليها "باليطو" ضمن عقود الموثقين المجهولين- إلى أن طريدة تسمى "النصر" في ملكية "Vita de Vivaldo Zara" بعد رحلتها من بونة (عنابة) إلى مرسى تونس، كانت تتأهب لنقل السلع إلى جنوة[8]. وتجدر الإشارة إلى أن ابن أبي حجلة في كتابه منطق الطير ولع بذكر أصناف السفن المرينية على عهد أبي عنان، ومن ضمنها الطرائد[9].

-القارب Barcha, barca: لم نعثر على إشارة تفيد أن القارب استعمل في تجارة الجنويين مع المغربين الأقصى والأوسط، وما يتوافر لدينا عن هذا المركب يتعلق بتجارتهم مع تونس. ومرد ذلك إلى أن القارب كان يعتمد على المساحلة، ولم يكن بإمكانه الإبحار من جنوة إلى بلاد المغرب عبر جزر ساردينا وكورسيكا وميورقة، بل اتخذ الطريق الساحلي الذي يمر عبر صقلية. وقد اختص القارب في نقل المواد الخفيفة مثل الخمور. ويمكن أن تصل حمولته إلى 500 قنطارا بموازين جنوة[10] (يساوي القنطار بها100 رطلا أي47،25 كلغ). ويبلغ طول القارب الجنوي 13 مترا، وعرضه

[1]. فهمي علي محمود، التنظيم البحري في شرق المتوسط،ترجمة قاسم عبده قاسم،القاهرة،1997،ص. 136.
[2]- Ben Saci,o p.cit,p 64.
-Dufourcq, l'Espagne, p36.
[3]المنوني، ورقات، ص78.
[4] - Bragadin (M.A) Histoire des républiques maritimes italiènnes. Paris, 1955, p41.
[5]- Byrne, Genoese Schipping, p6
[6]- Bastard, p 351.
[7] - Jehel, Les Génois, p 251.
[8] - Balletto, Tra Genovesi,p 169.
[9]- المنوني، ورقات، ص79.
[10] - Heers, Gênes, p280.

3 أمتار[1]. و عرف عدد مجاديف القارب بجنوة تطورا، ففي عملية تجارية جرت بجنوة، باع "Bonsignore Caffarena " قاربا بعشرة مجاديف ل" Celio Guidi" سنة 1273[2]. وفي رحلة تجارية قام بها "مركيوني" Lanfranco Marchione إلى تونس حسب عقد مؤرخ ب20 شتنبر 1274، كان قاربه الذي يدعى "Zerfalco" مكونا من 28 مجدافا[3]، وفي سنة 1270، توجه" Aicardo Sardina " في رحلة تجارية من جنوة إلى بجاية بمعية 12 مجدفا[4]، بينما في سنة 1318 انتقل قارب جنوي للتجارة مع تونس بخمسين مجدفا.[5]

وإضافة إلى أنواع السفن المذكورة سابقا، استعمل الجنويون في تجارتهم مع بلاد المغرب بعض الأنواع الأخرى مثل "Leny" أو"lignum" وهي مركب خفيف استعمل بكثرة في التجارة بالبحر المتوسط، ويمكن له أن يكتفي بالمجاديف، وذلك على عكس الشيني والطريدة والبطسة التي يجب أن تعتمد على المجاديف والأشرعة معا[6]. وقد جاء ذكر هذا المركب في عملية تجارية ل "فونتانا" Giovanni Fontana نقل من خلالها الخمور والعسل ومواد أخرى إلى طرابلس، وجلب الملح منها[7]. ونجد أيضا الإشارة إلى أنواع أخرى من السفن الجنوية المتاجرة مع بلاد المغرب، مثل"bucius"، وقد ظلت ترد بالعقود الجنوية إلى حدود سنة 1268، وهي قريبة من البطسة[8]، لكنها أقل منها على مستوى الحمولة وعدد البحارة، ويذهب "كروينغير" إلى أنها استخدمت في المسافات القصيرة[9]. وظهر بجنوة في نهاية القرن 13م/ 7هـ نوع آخر من السفن الشراعية هو "Galère" [10] وحمولتها كبيرة، لكنها لا ترد إلا قليلا بالعقود التجارية، ومن ضمنها سفينة تسمى "Santa Maria" التي نقلت سنة 1313م من جنوة إلى بجاية من 3000 إلى 4000 "مين" من شعير سارادينيا[11].وفي سنة 1336م، كان نوع من

---

[1] - Jehel, Les Génois, p 249.
[2] - Ferretto, Codice, T1 ,p 312.
[3] - Ferretto, Codice,T1 ,p 394.
[4] - Valerian, Bougie, p 568,note 376.
[5] العقد محفوظ بأرشيف جنوة ضمن عقود الموثق "Guglielm de S.Gergio "، السجل رقم IV، الورقة29.
Ciasca, Un centro, p 453, note1.
[6] - Dufourcq, l'Espagne, p 36.
[7] العقد محفوظ بأرشيف جنوة ضمن عقود الموثقين الجنويين المجهولين ,Not, ign B.I. fasc 3 doc XXIV N°91 وهو مؤرخ بـ6 فبراير 1231/1228.
[8]- Valerian, Bougie, p 565.
[9]- Krueger. Navi e proprieta navale a Genova ,ASLSP, 1985,p27.
[10] - Pryor, Geography,p 43.
[11]- Valerian,Bougie,p 569.

هذه السفن التابعة لأسرة "سبينولا" بصدد رحلة تجارية إلى سوريا، أثناء الطريق انفصلت عن المجموعة التي كانت بها، ويمّمت نحو بجاية، لكن قراصنة موناكو ألقوا القبض عليها[1]. بينما لم نعثر على إشارات تفيد استعمال الجنويين لأنواع أخرى من السفن مثل القرقورة[2] التي استعملت في التجارة بين بلاد المغرب وأراغون، كما كانت تستعمل لنقل الحجاج من المغرب باتجاه المشرق[3]. ولربما استخدمت في التجارة مابين جنوة وبلاد المغرب، ولكن تحت مسميات أخرى.

ويبقى تحديد ماهية كل مركب من المطالب الصعبة، ثم إن معانيها قد تختلف ما بين المصادر العربية والمصادر اللاتينية. ومن أهم محاولات تحديد ماهية المراكب بالمصادر العربية، تلك التي أوردها الأسعد ابن مماتي في كتابه "قوانين الدواوين"- كان مشرفا على ديوان الجيش وديوان المال بالدولة الأيوبية، ويعتبر كتابه موسوعة في نظم مصر في عصره، وتوفي سنة 606هـ- حيث يقول عن أسماء الأسطول: "طريدة وحمالة وشيني ومسطح وحراقة ومركوش وشلندي وأعزازي. فأما الطريدة فإنها برسم حمل الخيل، وأكثر ما يوضع فيها أربعون فرسا، وأما الحمّالة فيحمل فيها الغلة، وأما الشلندي فإنه مريكب مسقف تقاتل الغزاة على ظهره، وجدافون يجدفون تحتهم، وأما المسطح فهو في معناه، وأما الشيني ويسمى أيضا بالغراب ، فإنه يجدف بمائة وأربعين مجدافا، وفيه المقاتلة والجدافون، والحراقة مختصرة، وربما كانت مائة وحول ذلك...."[4]

سبقت الإشارة إلى أن الحديث عن أنواع السفن آنذاك يصطدم بمشكل تحديد ماهية السفينة واسمها.وقد تتبعت إحدى الدراسات - اعتمادا على المصادر الجنوية - أسماء السفن التي استعملها الجنويون من العصر الوسيط إلى الفترة المعاصرة ومدى استمرارها أو توقفها ، وانطلاقا منها أمكن التقاط أهم تلك السفن التي استخدمت في التجارة مع بلاد المغرب، ويمكننا عرضها ضمن ما يلي:

Barca (من سنة 1124 إلى الآن)- Bucio (من 1186-1280)-Caracca(1157-1848)-Cocha (1190-1440)- Feluca (1642 إلى اليوم)-Galea (1097 إلى

---

[1]- Valerian.Bougie.p 633.
[2]- نعلم أن ابن بطوطة انتقل أثناء عودته إلى المغرب الأقصى على قرقورة صغيرة مع بعض التونسيين إلى جربة. ومن المعلوم أن هذا المركب استخدم في التجارة المغربية الأراغونية، أنظر.
Alarcon. Los Documentos, p210.
[3]- المعيار، ج 4، ص 490
[4]- ابن مماتي الأسعد، كتاب قوانين الدواوين، تحقيق عزيز سوريال عطية، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1991، ص339.



بداية القرن 19م)-Legno(1157 إلى اليوم)- Nave(من المرحلة الكلاسيكية إلى اليوم)-Saettia(1100-1654)-Tarida(1224-1371)[1].

وقبل أن ننهي هذا العرض الملخص عن خصائص أهم أنواع السفن المستعملة في الرحلات التجارية بين جنوة وبلاد المغرب، يجدر بنا أن نشير إلى ملاحظة كثيرا ما أثارت الباحثين المهتمين بتاريخ البحرية في الحوض الغربي للمتوسط، وتتمثل في الألقاب التي حملتها السفن بالمنطقة. فقد أطلق الجنويون بعض الألقاب على السفن المتعاملة مع بلاد المغرب. فمنها من استحضر خصائص المشهد الطبيعي للمنطقة، كما هو الحال مع سفينة "Oliva " (الزيتونة) التي كانت في ملكية"جاكوب سبينولا" وأبحرت من جنوة في اتجاه سبتة وبجاية وتونس سنة 1226[2]. ومن هذه الألقاب ما استند إلى مرجعية دينية، مثل سفينة "سان يوهان" S.Iohanes التي كانت في ملكية "فونتانا"، ونقلت الخمور والعسل إلى طرابلس في سنة 1229. واستندت ألقاب السفن أيضا إلى مرجعية نفسية، يحركها الإيمان بالفأل السعيد والطالع الحسن، مثل سفينة "الجنة الكبيرة" Magna Paradus. أو"النصر" Gloria التي كانت في ملكية "Vita de Vivaldo Zara" وتاجرت مع بونة وتونس[3]. وقد لاحظ "ديفورك" أن معظم الألقاب التي حملتها السفن الكطلانية المتاجرة مع بلاد المغرب، استندت إلى نفس المرجعيتين[4]. كما أن التاريخ البحري المغربي لم يخل من نفس الظاهرة[5]. إننا أمام مستويات ذهنية متشابهة إلى حد كبير، تؤطرها العقلية المتوسطية التي تجسد بحق جانبا مما أسماه "بسترنو" : " المجموعة المتوسطية".[6]

[1] - Furio Ceciliot, Les chantiers .op,cit.

[2] -Balletto,Tra Genovesi,p 161.

[3] -Balletto,Tra Genovesi,p 169.

وتجب الإشارة إلى ما أوردته باليطو التي نشرت العقد لأول مرة عن وجود تناقض في معطيات العقد، حيث يشير إلى أن الطريدة كان من المنتظر أن تصل إلى تونس من بونة ، ثم يتحدث عن رحلة الطريدة نفسها من طرابلس إلى تونس ،اللهم إن كانت السفينة بصدد رحلة كاملة على طول الساحل التونسي. انظر:

- Balletto,Tra Genovesi,p 183,note ,70.

[4] -Dufourcq, l'Espagne, p 48.

[5]- من ذلك مثلا أن ابن خلاص حاكم سبتة بعث بهدية إلى أبي زكرياء الحفصي "في أسطول انشاه لذلك سماه الميمون" العبر، ج6، ص347.

[6] - Pistarino, Genova e l'Islam, in AEM, T10, 1980, op cit, p 205.

ب- استئجار السفن وقيمة النقل:

لم تتوافر لدينا – حسب المادة المصدرية المطلع عليها – إشارات عن أسعار نقل السلع من طرف التجار المغاربة المتعاملين مع جنوة، وذلك على الرغم من وجود بعض الشذرات التاريخية التي ألمحت إلى نشاطهم مع هذه المدينة، وفي ذلك مؤشر آخر على ضعف الحضور المغربي بجنوة، وبغيرها من المدن ومناطق غرب أوربا المتوسطية أواخر العصر الوسيط. بينما تعجّ عقود الموثقين بالمعطيات المتعلقة بعملية استئجار الجنويين للسفن، وقيمة شحن السلع بهدف التجارة مع بلاد المغرب. وقد اسهمت الدراسات المعاصرة –التي تمت الإشارة إليها في موضوع أنواع السفن– في الحديث عن الترتيبات التي وجدت لتسهيل التبادل التجاري بين الطرفين، ونخص بها العمل الذي قام به "بايرن" Byrne، والذي أصبح بمثابة مصدر لكل من أراد أن يطرق هذا الموضوع. وتفاديا لتكرار نفس المعطيات، نحاول هنا أن نقدم أهمها، وأكثرها ارتباطا بالعلاقات التجارية الجنوية المغربية.

قبل أن يتوسع أفق التجارة الجنوية في القرن 13م، كان مالك أوملاكو المركب مسؤولين عن الحسابات التي تهمّ الرحلة التجارية. وعندما أصبحت طبيعة الملاحة أكثر تطورا، وتعقدت الترتيبات المرتبطة بالرحلة التجارية، لجأ ملاكو المراكب إلى تعيين كاتب "Scribe" مكلف بتسجيل كل مراحل الرحلة، من حيث استلام البضاعة وتغطية نفقات السفر وعملية الشحن وتفريغ الحمولة[1]. وبتزايد أهمية العمليات التجارية، أصبح الكاتب عضوا دائما في الرحلة التجارية منذ بدايتها وإلى نهايتها، وأصبح بالتالي مكلفا بتحديد أسعار نقل البضائع على المراكب.

كثيرة هي الإشارات المُضمنة بعقود الموثقين التي تتحدث عن قيمة استئجار الجنويين للسفن للتجارة مع بلاد المغرب في الفترة المدروسة. وقد انتشرت بعقود القرن 13م طريقة في الاستئجار ترد بها باسم "Ad Scarsum"، وروعيت فيها نوعية السفن المستعملة، بينما سادت في القرن 14م صيغة عرفت بالعقود باسم "Ad Cantaratam " وتعتمد على كمية السلع المحمولة. ويبدو من خلال العقود أن مختلف أنواع السفن الجنوية استعملت في التجارة مع بلاد المغرب، ويتضح منها أن البطسة كانت الأكثر استعمالا. ويظهر من خلال العقود كذلك أن سعر استئجار هذه السفينة، كان الأكثر ارتفاعا بسوق السفن المتعاملة مع بلاد المغرب، وقد بلغ حسب العقد المبرم في 2

[1] - Byrne, Genoese, p 59.

يوليوز 1251 في رحلة تجارية إلى تونس 2000 ليرة[1]. بينما أنخفض سعر استئجار سجلناه، كان على مركب تعامل مع نفس المدينة حسب عقد مؤرخ ب23 أكتوبر 1259، وقد بلغ 20 ليرة[2].

لم تقتصر عملية استئجار السفن على التجار الجنويين، بل إن التجار المغاربة بحكم قوة الأسطول الجنوي، لجأوا إلى نفس العملية كذلك. ومن نماذج ذلك، نشير إلى عقد يتحدث عن نقل إحدى السفن الجنوية لتجار تونسيين من بونة (عنابة) إلى تونس[3]. ويشير عقد آخر إلى أن مجموعة من التجار المغاربة استأجروا سفينة الجنوي "غواسكو" Noleso Guasco سنة 1245، وتدعى السفينة "Lombarda" [4]. ويبدو من خلال عقود الموثق "بانفليو" أن الجنوي" شبو" Cibo de Cibo تعاطى كثيرا لنقل التجار التونسيين من تونس إلى جنوة[5]. وأصبحت عملية نقل التجار المغاربة على السفن الجنوية "مسألة روتينية"، ما ساهم في تراكم أرباح ملاكي السفن بجنوة[6]. ذكرنا ملاكي السفن بصفة الجمع، لأنه قلّما كان الفرد الواحد يمتلك سفينة بجنوة في الفترة المدروسة نظرا لارتفاع ثمنها. ونشير في هذا الصدد إلى أن سفينة " Magma Paradius" الجنوية التي قامت برحلة تجارية إلى تونس سنة 1251، كانت في ملكية خمسة أشخاص. وإذا كنا نعدم إشارات – حسب المادة المطلع عليها– عن الأرباح التي جناها ملاكو السفن الجنوية المتعاملة مع بلاد المغرب، فيمكننا أن نستأنس بما حصل عليه نظراؤهم الكطلانيون الذين كان بإمكانهم الحصول على قيمة السفينة، خلال أربع أو خمس رحلات تجارية ذهابا وإيابا بين ضفتي الحوض المتوسطي [7].

وقد اتخذت عملية حصول المغاربة على السفن الجنوية صيغا أخرى فضلا عن عملية الاستئجار، وذلك من خلال شراء السفن[8] أو رهنها[1]. ولم يجد التجار الجنويون

[1]- العقد محفوظ بأرشيف جنوة ASG ضمن المجموعة 27 الورقة الخلفية 208.

[2]- العقد محفوظ بأرشيف جنوة ASG ضمن المجموعة 35 الورقة الخلفية 58.

[3]-Alarcon Los documentos, n°119.

[4]- A.G. T5, p112.

[5]- Pistarino, Notaï acte n°95.

- Jehel, Catalogue , acte n° 97.

[6]- Lopez, Studi, p 32.

[7]- Dufourcq, l'Espagne, p 542.

[8]- سبقت الإشارة إلى أن أحد السلاطين الحفصيين بعث مبعوثا له إلى جنوة لشراء بطسة بقيمة 12 ألف دينارا فضيا، كما أن التجار المغاربة اشتروا السفن من أطراف أخرى. ونستحضر هنا حالة التاجر التونسي شمس الدين أبي عبد الله بن الشيخ أبي الطاهر إسماعيل بن ميهوب البحراني الذي تمكن بعد مرحلتين من شراء سفينة البيزي "بطروش Pedro Longuera"، وقد بلغ الثمن الإجمالي للسفينة 2665 دينارا فضيا. أنظر:

Alarcon, op cit, p 245.

صعوبة في تمكين المغاربة بالسفن أواخر العصر الوسيط[2]. وقد ساهمت مرونة السياسة التي اتبعتها السلطة الحفصية في سهولة حصول تجارها على السفن الجنوية. ونص البند الثالث من معاهدة 1250، والبند الحادي عشر من معاهدة 1272 المبرمتين بين جنوة وتونس على إعفاء الجنويين من أي ضرائب في حالة بيع سفنهم للتونسيين.

كانت عملية استئجار السفن بجنوة أو بلاد المغرب متداولة، ما ساهم في تسهيل المبادلات التجارية بين جنوة وبلاد المغرب. وابتكر ملاكو السفن والتجار المتعاملون مع بلاد المغرب صيغا مختلفة لتمتين هذه المبادلات المربحة. فقد كان بإمكان التجار أن يدفعوا ثمن استئجار السفينة مسبقا بجنوة[3]، أو أن ملاكي السفن سمحوا للتجار المستأجرين بتخفيضات مهمة تبعا "للسناريوهات" المحتملة في الرحلة التجارية[4]، أو أنهم التزموا بإيداع قسط معين من الأموال بجنوة يعاد إلى التجار المستأجرين في حالة عدم التزام مالك السفينة بمسار الرحلة[5]. وقد أفرزت التجارة الجنوية مع بلاد المغرب أعرافا تدل على سيادة جو من "الديموقراطية" بين ملاكي السفن والتجار. ونستحضر هنا حالة معبرة عن ذلك، فبعد أن وصلت سفينة جنوية إلى مالقة، ثم إلى سبتة، اتفق الطرفان على أن يخضعوا لعملية التصويت لكي تتابع السفينة سيرها نحو بجاية أو تونس، أو حيثما شاء العدد الأكبر من التجار الذين يمتلكون أكبر كمية من السلع المحمولة على السفينة[6].

وقد يكون من المفيد الإشارة إلى أن العقود التجارية الجنوية مع بلاد المغرب لا تتضمن معطيات كثيرة عن الحلول الممكنة في حالات حدوث ما يكدر صفو الاتفاقات

[1]. نشير في هذا المستوى إلى أن سفينة جنوية تحطمت بسواحل طرابلس سنة 702هـ وكان الأراغوني"برناط مركيت" قد ارتهنها. غير أن أحد التجار المسلمين من طرابلس استظهر بعقد ثابت بشهادة شهود الاسكندرية تقول بأن الجفن المذكور كان مرتهنا عنده في تسعمائة دينارا ذهبا عينا. أنظر: Alarcon, op cit, p 26.

[2] -Heers, Royaume, op cit, p 105.

[3]. مثل التاجر" سالفتو" Salveto الذي اكترى شينيا للتجارة مع تونس في سنة 1267. أو تاجر آخر التزم بجنوة بدفع دينار ذهبي عن كل قنطار من السلع يمكن أن يستوردها من تونس. أنظر العقد المؤرخ ب25 أبريل 31/1229، ASG ضمن مجموعة الموثقين المجهولين Not, Igno, B1, Fasc5, doc XXXI, N°5.

[4]. مثل الرحلة التجارية التي تمت باتجاه طرابلس سنة 1253 حيث التزم صاحب السفينة بتخفيض الاستئجار بنسبة كبيرة. وقد ورد ذلك في العقد المحفوظ بأرشيف جنوة، ASGالمجموعة 72 الورقة الخلفية 173، والعقد مؤرخ ب 11 دجنبر 1253.

[5]. اكترى مجموعة من التجار سفينة" دنتوتو" Giovanni Dentuto ليقوموا برحلة تجارية إلى مالقة وسبتة. وكان من المتفق عليه أن تنقل السفينة سلعا من سبتة إلى بجاية وتونس، وقد فرض التجار على مالك السفينة أن يودع 500 ليرة ببنك التجار بجنوة ليتسنى لهم الاستفادة منها ، في حالة عدم التزامه بنقلهم من سبتة إلى بجاية وتونس ، ورد ذلك في:

العقد المحفوظ بأرشيف جنوة، ASGالمجموعة 29، الورقة 164، والعقد مؤرخ ب20 يوليوز 1253.

[6]. نفس العقد السابق ونفس الصفحة.

بين ملاكي السفن ومستأجريها، بينما تعجّ كتب النوازل بذلك، وإن كان الأمر يتعلق أساسا بالتجارة داخل البلاد الإسلامية. فإذا ما اكترى تاجر مركبا لحمل السلع، وألقى القراصنة القبض عليه بالبحر واستولوا على السلع وتركوا المركب، فإن على المكتري دفع قيمة الكراء لمالك المركب، وأما إذا استولى القراصنة على المركب، فتسقط قيمة الكراء عن مكتريه. وإذا ما اكترى أحدهم مركبا وتأخرت الملاحة بسبب فصل الشتاء، وعاد بسلعه إلى المخازن ريثما ينتهي فصل الشتاء، وطالب مالك المركب بفسخ العقد، فله ذلك لوجود عذر حلول فصل الشتاء[1]. وتجدر الإشارة إلى ما سجله ابن جبير من اندهاشه لتقليد جرى بالمراكب الجنوية، إذ مات أحد الجنويين على المركب الذي كان يقلّه، فورثهم رئيس المركب "لأنها سنة عندهم في كل من يموت في البحر، وليس لأحد من الناس سبيل لوارث الميت في ميراثه ."[2]

أما بالنسبة لأسعار نقل السلع من جنوة إلى بلاد المغرب، فقد تدخلت في تحديدها عدة عناصر ترتبط بنوعية السفينة، وإمكانيات حمولتها وتوقيت الرحلة، ونوعية المادة المحمولة، والمسافة التي تقطعها السفينة، والطريق التجاري الذي تختاره. هكذا كان سعر استئجار السفينة لنقل الحبوب أعلى من نقل الأصواف، وربما كان ملاكو السفن يفضلون كراءها لنقل التوابل والجلود والصوف، عوض نقل الحبوب نظرا لثقلها وتأثيرها في السفينة[3]. ونقدم هنا نماذج لأسعار نقل بعض المواد من جنوة إلى بلاد المغرب، علما بأنه يجب أن نأخذ في الحسبان كل الاعتبارات التي سبقت الإشارة إليها في تحديد هذه الأسعار. وفيما يلي جدول متضمن لتلك النماذج من القرن 13م:

1- المعيار، ج7، ص310 وما بعدها
2- ابن جبير (محمد)، رحلة ابن جبير ، دار صادر ،بيروت ، دون تاريخ، ص 287.
3- Dufourcq, l'Espagne, p 539.

المادة	السنة	الاتجاه	قيمة النقل	المصدر
1000 قنطار من اللك والفلفل والقماش والزعفران	بدايات القرن 13	بجاية	دينار فضي عن كل قنطار و4/ 3 القنطار	المجموعة 6 الورقة الخلفية 170
القطن	1250	سبتة	6 فلسا عن كل بالة Balle والبالة تساوي 197 كلغ بجنوة	Byrne, Genoese p42
الخمور	1250	سبتة	6 فلسا عن كل مزرويلا Mezzarola وتقدر الواحدة منها ب480، 91لتر بجنوة	Byrne, Genoese, p 42
الخمور	1250	بجاية	2 فلسا عن كل مزرويلا	Pistarino, notaï acte n°91 Jehel Catalogue acte n°91
الصوف والقماش	1289	تونس	فلسان ونصف فلس جنوي	Pistarino, Notaï acte n°110 Jehel, Catalogue, acte n°110
الجلود	1289	تونس	15 دينارا جنويا	Pistarino, Notaï acte n°110 Jehel, Catalogue, acte n°110

ولم تتوافر لدينا معطيات عن قيمة نقل السلع من جنوة إلى المغرب الأوسط، ونعلم فقط أن تاجرا جنويا جلب الحبوب من وهران في بداية القرن 13م/ 7هـ، وأدى مقابل نقلها إلى مسينا بصقلية 35 قفيزا عن كل 100 قفيز من القمح، و30 قفيزا عن كل 100 قفيز من الشعير[1].

1- 194'h (D). Il Cartolario del notaio Savona Martino, 1203-1206, Gênes, 1974, p180.

ومن الجدير بالإشارة إلى أن عقود الموثقين تقدم معطيات عن أسعار نقل الجنويين لسلعهم ما بين مراسي بلاد المغرب. وما يسترعي الانتباه أن أسعارها فاقت بكثير أسعار نقلها من جنوة إلى أول مرسى ببلاد المغرب. ونسوق في هذا الصدد مثالين معبرين عن ذلك، فنقل 5000 جرة من سبتة إلى بجاية وتونس كلّف بعض التجار الجنويين 90 دينار فضيا عن كل 100 جرة[1] - أي ما يمثل تقريبا 18 ليرة إذا اعتبرنا أن الدينار الفضي كان يعادل في معظم الأحيان 5 دنانير فضية، كما سنرى في موضوع العملة-، وفي سنة 1291 نقل بعض التجار الجنويين القطن من بونة إلى تونس بقيمة 8 فلسا عن كل قنطار[2].

ولم يكن التجار المتعاملون مع بلاد المغرب يؤدون واجب الاستئجار عن كل البضائع التي يحملونها، بل ثمّة إعفاء من الأداء عن بعض السلع مثل الخمور، إذ سُمح لكل تاجر أن يحمل معه 6 براميل مجانا،- وكما سبقت الإشارة ، فإن هذه الخمور كانت موجهة للاستهلاك الشخصي، غير أن بعض التجار كانوا يبيعونها ببلاد المغرب- كما أعفيت أحيانا بعض المواد الدقيقة من أداء واجب النقل عليها، وترد بالوثائق ضمن العبارة اللاتينية "Omnes Res Subtiles"[3].

أكدنا على صفة المرونة التي طبعت العلاقة الرابطة بين ملاكي السفن والتجار المتعاملين مع بلاد المغرب، غير أن العملية لم تكن لتتم على حساب ملاكي السفن، لأن كراء السفن كان يُمكّنهم من الحصول على الأرباح، كما أنهم كانوا يبادرون إلى طرح بعض الشروط لإنقاذ عملياتهم من الخسارة. ولنا في الرحلة التي قام بها بعض التجار سنة 1253 إلى سبتة أحسن مثال. فقد طالب مالك السفينة التجار في حالة رغبتهم باستئناف رحلتهم إلى بجاية أو تونس، عوض الرجوع إلى جنوة مباشرة من سبتة، أن يقدموا له إضافات عن نقل سلعهم، وفي حالة استئناف رحلتهم إلى المدينتين المذكورتين، أوجب على كل تاجر يرغب في الانسحاب من الرحلة بعد الوصول إليها، أداء 80 دينارا فضيا عن كل "كنتريوم" Cantenarium، ويساوي 31،5 كلغ من السلع ببجاية، و90 دينارا فضيا عن كل قنطار بتونس. كما أوجب على التجار الذين يواصلون رحلة العودة إلى جنوة أن يضيفوا نسبة 100٪ أو 80٪ إلى سعر نقل السلع[4]، ما يعني أن سعر نقل السلع في مرحلة الإياب تضاعفت تقريبا مقارنة مع مرحلة الذهاب (من جنوة إلى بلاد المغرب).

كما أن ملاكي السفن فرضوا أسعارا لنقل السلع تبعا للفصول، فعندما كان التجار يستوردون السلع من بلاد المغرب صيفا، فرضوا عليهم تسعة دراهم فضية، بينما كان يضاعف السعر حينما يستوردونها شتاء[1'].

[1]- العقد المؤرخ بـ20 يوليوز 1253 ,ASGضمن المجموعة 29، ورقة 164.

[2]- العقد المؤرخ بـ26 يناير 1291، ASGضمن المجموعة 26، الورقة الخلفية 3.

[3]- Byrne, Genoese, pp : 41-42

[4]- Ibid, p 45.

ج- مسار الرحلة:

كانت عملية الإبحار في جنوة تخضع لضوابط دقيقة وتنطلق قبل ركوب البحر. فقد جرت العادة على نشر أخبار الحاجة إلى البحارة بشكل علني من خلال الضرب على الطبول أو بواسطة برّاح يجوب شوارع المدينة. ثم يسجل من يرغب في الإبحار بعد استيفاء الشروط المطلوبة، وفي الغالب كانت مهمة التجديف توكل للعبيد[2'].

وبعد حصول الاتفاق بين مالك السفينة والتجار حول تهيئ السفينة للإبحار باتجاه بلاد المغرب، وبعد اتفاق جميع الأطراف المساهمة في العلمية التجارية، تدخل الرحلة التجارية مرحلة التنفيذ. ومن خلال تتبع الرحلات التجارية الجنوية إلى بلاد المغرب، يتضح أنها اختلفت من حيث الطرق البحرية التي اتبعتها، وفترة ومدة إنجازها.

ويمكننا أن نميز بين طريقين:

*الطريق الساحلي: لجأت بعض السفن الجنوية المتجهة نحو بلاد المغرب إلى الساحلة، إذ كانت تتجه نحو الجنوب بمحاذاة سواحل فرنسا الجنوبية إلى أن تصل إلى مارسيليا[3']، ومنها إلى برشلونة ، فبلنسية. وقد تتوجه إلى ميورقة ومنها إلى بجاية ، أو أنها تتابع سيرها عبر السواحل الجنوية الشرقية للأندلس إلى أن تصل إلى مضيق جبل طارق، ومنه إلى سبتة لتكمل دورتها عبر سواحل بلاد المغرب إلى حدود تونس وطرابلس. وقد تتخذ نفس الطريق عند عودتها أو تتابع سيرها عبر صقلية، فالسواحل الإيطالية الجنوبية الغربية إلى أن تصل إلى جنوة، كما قد تتجه مباشرة من تونس إلى نابولي، ومنها تحاذي الساحل إلى أن تصل إلى جنوة.

[1']- Ibid, p 48.

[2']- Dufourcq.La vie quotidienne.p p 64-65.

[3']- Pernourd (R). Histoire du commerce de Marseille, le moyen âge jusqu'à 1291, Paris. 1949, p 193.

وقلّما تشير العقود إلى الطريق الذي تتبعه الرحلة التجارية، غير أنها تشير أحيانا إلى بعض المحطات التي تمر عبرها. وفي هذا الصدد يمكن أن نضع الرحلة التجارية التي تمت من جنوة باتجاه بلاد المغرب حسب العقد المؤرخ ب20 يوليوز 1253. ففي صيف هذه السنة استأجرت مجموعة من التجار تتكون من 14 فردا مركبا يسمى "ستيلا" Stella لرحلة تجارية إلى مالقة، وبدون شك ، فإنها اتخذت الطريق الساحلي المشار إليه سابقا. ومن مالقة اتجهت نحو سبتة حيث قضت فصل الشتاء ، علما بأن الرحلة انطلقت في فصل الخريف. ومن سبتة كان من المنتظر أن تتوجه إلى بجاية وتونس، قبل أن تعود إلى جنوة في الصيف الموالي[1]. وفي الغالب أن رحلة العودة جرت عبر نفس الطريق الذي اتخذته السفينة من جنوة إلى بلاد المغرب، لأن العقد لا يتحدث عن استمرارها شرقا نحو صقلية.

●الطريق الداخلي: يبدو الطريق الساحلي طويلا، ولهذا لجأ التجار الجنويون إلى اختزال المسافة باتخاذ السير الداخلي الذي يخترق الحوض الغربي للمتوسط عبر مجموعة من الجزر. وهذه الطريقة هي التي يسميها "بروديل" "بالإبحار عن طريق الجزر".[2]

تنطلق السفن من جنوة باتجاه جزيرة ميورقة مباشرة، ومنها تتجه إلى أحد مراسي بلاد المغرب، وخاصة إلى بجاية التي تقع تقريبا على نفس خط الطول الذي توجد عليه ميورقة، أو أنها تتجه من ميورقة إلى بلنسية لتحاذي الساحل إلى حدود مضيق جبل طارق، ومنه تجوز إلى سبتة، فباقي مراسي بلاد المغرب. ونعلم في هذا الصدد أن رحلة سفارية قام بها "Ahaziri" إلى جنوة ، سلكت الطريق الداخلي عند عودتها من جنوة سنة 1346، إذ توقفت بجزيرة ميورقة حيث سلّم حاكمها "Felip de Boyl " إذنا بالمرور للسفارة المغربية[3]. ولا نعلم ما إذا كانت السفارة قد توجهت إلى بلنسية لتكمل طريقها إلى بلاد المغرب، أم إنها توجهت مباشرة من ميورقة إلى بلاد المغرب. ويشير أحد العقود إلى أن التاجر الجنوي "Giovanni Zaccaria" اشترى الحبوب من المغرب الأوسط، وتوجه مباشرة عند عودته إلى جنوة من تنس إلى ميورقة.[4]

[1]- العقد محفوظ بأرشيف جنوة ASG ضمن مجموعة العقود التي حررها الموثق "DE FOR" السجل IV الورقة 164.

[2]- Braudel, la Méditerranée, T1, p 95.

[3]- Dufourcq, Aperçu, pp 728-729.

[4]- العقد محفوظ بأرشيف جنوة ASG ضمن المجموعة 121، الورقة الخلفية 83، وهو مؤرخ ب 30 يناير 1275 والملاحظ أن السجلات من القرن 13م شهدت كثافة في نقل الحبوب من المغرب الأوسط إلى جنوة، وربما ذلك مرتبط بحاجات نقص هذه المادة بجنوة بفعل الصراع بين حزبي "الجلف" و"الجبلان".

ويبدو أن جزيرة ميورقة كانت أهم جزيرة ومحطة في الطريق الداخلي من جنوة إلى بلاد المغرب. وكان بإمكان التجار الجنويين أن يمروا كذلك عبر جزيرتي ساردينيا وكورسيكا[1]، غير أن هذا الطريق لم يكن مُفضلا لديهم لكونه محفوفا بأخطار القراصنة[2]. كما كان بإمكانهم أن ينطلقوا من جنوة بمحاذاة الساحل باتجاه نابولي، ومنها إلى تونس، أو يتابعون سيرهم إلى صقلية، ومنها إلى تونس وطرابلس. ونورد في هذا السياق نموذجا لرحلة تجارية لطريدة جنوية حملت الخمور إلى طرابلس من صقلية حيث مكثت عشرة أيام، وعند عودتها من طرابلس وتونس، مكثت يوما واحدا بمسينا بصقلية، قبل أن تتابع سيرها إلى جنوة[3]. وأثبت "بريسك" أن صقلية كانت محطة مهمة في تجارة الجنويين مع بلاد المغرب طيلة القرنين 13 و14م.

●فترات الرحلة: يتضح من خلال العقود أن إقبال الجنويين على التجارة مع بلاد المغرب، كان يقع أكثر في فصول الخريف والربيع والصيف، وتزداد الرحلات في فصلي الربيع والصيف. فقد كان التجار يستأجرون السفن للقيام برحلة صيفية إلى بلاد المغرب ذهابا وإيابا، على أن يستقروا بها شهرا أو شهرين للقيام بعملياتهم التجارية، ثم يعدّوا العدّة لرحلة أخرى في فصل الخريف، ويقضوا فصل الشتاء ببلاد المغرب، ويعودوا إلى جنوة في أوائل فصل الربيع[4]. ولعل اختيار التجار الجنويين الإبحار نحو بلاد المغرب خلال هذه الفصول مرتبط بعدة عوامل، أهمها أن الظروف المناخية تسمح آنذاك بركوب البحر، كما أن ممارسة التجارة بالبحر المتوسط بعيد الصيف، مرتبطة بموسم قطف الفواكه وجمع المحصول من الحبوب بعد عمليتي الحصاد والدراس[5]. ويرتبط ضعف الرحلات التجارية الجنوية إلى بلاد المغرب شتاء بصعوبة الإبحار بالمتوسط بفعل سوء الأحوال الجوية. ففصل الشتاء بالحوض المتوسطي يشكل فصل راحة وسلم، تضعف خلاله العمليات التجارية لتفسح المجال لإجراء المفاوضات والتسويات السلمية والمحادثات السياسية، وظل الإبحار شبه متوقف شتاء بالبحر المتوسط إلى حدود 1450، حينما تحسنت وسائل النقل أكثر[6].

[1]- حاول ابن بطوطة في رحلة العودة من مصر إلى المغرب الأقصى المرور عبر كورسيكا.

[2]- Heers, Le prix de l'assurance maritime, in Sociétés et économies à Gênes, Edition Variorum, 1973, p 18.

[3]- ضمن العقد المحفوظ بأرشيف جنوة ASG، المجموعة 72، الورقة 173، والعقد مؤرخ سنة في 1277.

[4]- Byrne, Genoese, p47.

[5]- Braudel, La Méditerranée, T1, p 235.

[6]- Ibid, pp 227-233.

لقد استفاض "باين" بدراسته الرائدة عن التجارة الجنوية في إبراز أهم فترات الرحلة الجنوية إلى بلاد المغرب. ورغم أهمية خلاصاته، فإن "لوبيز" رأى أن هذه الأهمية – ربما- ازدادت، لو أن "باين" أجاب عن بعض الأسئلة المتعلقة بالرحلة الجنوية إلى بلاد المغرب. ومن هذه الأسئلة: هل كانت الرحلات الجنوية منذ هذه الفترة تتم بصفة جماعية، أي على شكل القوافل التي سهرت كومونة جنوة على تنظيمها في القرن 14م عن طريق مؤسسة "L'officium Gazarie"، ثم هل سافر الجنويون إلى بلاد المغرب في خضم فصل الشتاء وفي الصيف بالرغم من الحرارة المفرطة التي كما نعلم، كانت من بين الأسباب التي أفشلت الحملة العسكرية الجنوية على المهدية سنة 1390؟[1]

الواقع أن الرحلة الجنوية خلال الفترة المدروسة لم تكن تتم بنفس حجم القوافل التي سهرت على تأطيرها مؤسسة "l'officium Gazarie" أواخر القرن14، غير أن هذا لا يمنعنا من القول بأنه منذ القرن 13م، انتقلت السفن الجنوية المتعاملة مع بلاد المغرب بشكل جماعي، وخاصة في فترات الحرب واحتداد عمليات القرصنة[2]. وقد أجبرت كومونة جنوة تجارها منذ تلك الفترة على السفر على شكل قوافل، وإن تمّ ذلك عبر سفينتين فقط[3]، ونعلم أن الرحلات التجارية للمارسليين كانت تجري بدورها بصفة جماعية[4]، كما أن رحلات البنادقة إلى بلاد المغرب تمّت على شكل قوافل" Muda di Barbaria "منذ أواخر القرن 14م[5].

وإذا كان واضحا بأن الرحلات التجارية للجنويين إلى بلاد المغرب، كانت ضعيفة شتاء، فإن توقفها كان ظرفيا. وأثبت "ديفورك" من خلال الأرشيف الإسباني أن الفترة المتراوحة ما بين 25 يناير و18 مارس 1284، عرفت توقفا للسفن الميورقة باتجاه بلاد المغرب، غير أنها شهدت تحركا لسفن الدول الأخرى باتجاهها في الغالب مثل البرشلونيين والجنويين[6]. وإلى نفس الخلاصة انتهى "جيهل" الذي يرى أنه من الخطأ القول بتوقف الرحلات التجارية المتوسطية شتاء بفعل تردي الأحوال المناخية.

---

[1]- Lopez. Studi. p 21.
[2]- Schaube. p350.
[3]- عادل زيتون، العلاقات، ص58.
[4]- Dufourcq. l'Espagne. p 53.
[5]- Lane(P) . La marine marchande et le trafic maritime de Venise à travers les siècles. 4ème colloque international d'histoire maritime. Paris. 1959. p7.
[6] -Dufourcq. l'Espagne. p 46-47. p 68 et p 300.

ففي فصل الصيف، يقل عدد البحارة لانهماكهم في عمليات الجني والحصاد، مما يدفع التجار إلى تأجيل رحلاتهم إلى حين حلول فصل الخريف، وتستمر الرحلات في فصل الشتاء[1].

وكيفما كان الأمر، فإننا لا نعدم إشارات لانتقال التجار الجنويين شتاء إلى بلاد المغرب[2]. وتبرز عقود الموثق "باتفليو" أن الرحلات التجارية من تونس إلى جنوة لم تتوقف شتاء، وقد توزعت العقود على الأشهر التالية ما بين دجنبر 1288 ويونيو 1289 على الشكل التالي:

الفترة	عدد العقود
دجنبر 1288	1
يناير 1289	9
فبراير 1289	8
مارس 1289	40
أبريل 1289	18
ماي 1289	21
يونيو 1289	34
المجموع	131 عقدا

يجيبنا الجدول عن بعض التساؤلات التي طرحها "لوبيز" إذ يظهر أن الرحلات الجنوية إلى بلاد المغرب، جرت في خضم فصل الصيف، ولم يكن ارتفاع درجة الحرارة عائقا أمام تنقل التاجر إلى هذه المنطقة[3]، ولم تتوقف الرحلات نهائيا في فصل الشتاء.

*مدة الرحلة: من الصعب تقديم وقت مضبوط عن المدة التي كانت الرحلة تستغرقها من جنوة إلى بلاد المغرب، أو من بلاد المغرب إلى جنوة نظرا لارتباطها بعدة عوامل كالمناخ، ونوعية السفينة، والطريق الذي تتّبعه، والحالة الأمنية السائدة بالبحر،

---

[1]- Jehel. Les Génois. p 315.
[2]- مثل الرحلة التي تمت باتجاه سبتة في يناير 1222، وباتجاه بجاية في يناير 1259 أنظر:
Dufourcq. Aperçu. pp730-731.
[3]- لدينا عدة عقود تبرز أن الرحلة تمت في أشهر فصل الصيف مثل يوليوز وغشت. أنظر المرجع السابق ونفس الصفحة، حيث توجهت سفن جنوية إلى سبتة وتونس (يوليوز 1226) وإلى بجاية في غشت 1236.

ونوعية السلع التي تحملها. ومن الغريب أن "بيغولوتي" الذي وضع كتابه ليكون مرشدا للتجار، لم يقدم معطيات عن مدد الرحلات التجارية. وتطلعنا الحوليات الجنوية في هذا الصدد بأن سفارة جنوية انطلقت إلى سبتة في خامس يونيو 1231 وعادت إليها في غشت من نفس السنة[1]، ممّا يعني أنها قضت ثلاثة أشهر ذهابا وإيابا (يونيو –يوليوز –غشت). ورغم أن هذا النموذج يقدم لنا معطى إحصائيا عن مدة الرحلة التجارية بين جنوة وبلاد المغرب ذهابا وإيابا، فإننا نأخذه على سبيل الاستئناس ليس إلا، فحيثيات الرحلة السفارية تختلف عن مثيلتها بالرحلة التجارية. ولنا مرة أخرى في الرحلة التجارية التي قام بها بعض الجنويين إلى سبتة سنة 1253 ما يعبر عن هذا الاختلاف. فقد انطلقت الرحلة في 8 شتنبر، واتفق مالك السفينة مع التجار على أن تقف في مالقة لمدة ثلاثة أيام. وبعد وصولها إلى سبتة، يصوت التجار على الميناء الذي سوف يقضون فصل الشتاء به، أكان سبتة أم بجاية أو تونس. وبعد مرور فصل الشتاء، تتم رحلة العودة ربيعا إلى جنوة[2]. ذكرنا هذا النموذج لنوضح أن للرحلة التجارية خصوصيتها، ما يجعلها أطول من الرحلة السفارية. فالتاجر قد يتوقف بمحطة معينة للتزود بالسلع أو شحنها[3]، كما قد يتوقف اضطراريا ببعض المحطات إلى أن تصبح الأجواء الأمنية بالسوق التي يرغب في ارتيادها تسمح بإجراء العمليات التجارية. وهذا شأن نفس الرحلة التجارية التي جرت باتجاه سبتة سنة 1253م، حيث وافق مالك السفينة على أن تتوقف بمالقة لمدة ثلاثة أيام، ريثما تتجمع الأخبار الكافية عن الحالة الأمنية بسبتة[4].

ويمكننا أن نقدم مدة تقريبية عن الرحلة التجارية ما بين جنوة وبلاد المغرب ذهابا وإيابا، انطلاقا من بعض المعطيات المتوافرة عن المدة التي قطعتها بعض السفن بالحوض الغربي للمتوسط.

ذكر "كروغير" أن الرحلة التجارية ما بين جنوة وبجاية في القرن 12م/ 6هـ كانت تستغرق من 14 إلى 16 يوما في الظروف العادية[5]، علما بأن بجاية توجد على

---

[1] -A.G.T3, p 56-57.

[2] - العقد المحفوظ بأرشيف جنوة، ASG ضمن عقود الموثق DE FOR، السجل IV، الورقة الخلفية 164.

[3] - مثل الرحلة التجارية التي قام بها أحد الجنويين سنة 1291 حيث مكث بتونس مدة شهر لشراء الجلود بها، ورد ذلك ضمن العقد المحفوظ بأرشيف جنوة ASGالمجموعة 64، الورقة الخلفية 11، والعقد مؤرخ ب29 يناير 1291.

[4] - عقد الموثق" دي فلور" ASG السجل IV، الورقة الخلفية 164.

[5] - Krueger(H),The routine of commerce between Genoa and Northwest Africa during the Late Twelfth century,The mariner's Mirror,19/4,1933,p 429.

خط هو أقرب إلى جنوة. ونستنبط بعض الأرقام من خلال المدة التي يقدمها "ديفورك" عن التجارة الكطلانية المغربية، فالرحلة ما بين ميورقة وبونة (عنابة) كانت تدوم تسعة أيام أو عشرة، وكانت السفن تستغرق ما بين تنس بالمغرب الأوسط والسواحل المورسية بالأندلس 24 يوما. وعموما يحتمل أن تكون السرعة القصوى للسفن ما بين 12 و13 ميلا في الساعة، وأن تكون الرحلة اليومية قد غطّت ما بين 40 و80 ميلا[1]. وإذا أخذنا هذه المعطيات بعين الاعتبار، وعلمنا أن المسافة الفاصلة ما بين ميورقة وجنوة، هي تقريبا ضعف المسافة الفاصلة ما بين بونة وميورقة، وأن المسافة الفاصلة ما بين السواحل المورسية وجنوة، تفوق ضعف المسافة الفاصلة ما بين تنس والسواحل المورسية، يمكننا أن نحتمل أن تكون المدة التي قطعتها الرحلة التجارية من بونة إلى جنوة هي 10 + 20 = 30 يوما، والمدة التي قطعتها من تنس إلى جنوة هي 24 + 48 أو أكثر = 72 يوما أو أكثر، ونحتمل بالتالي أن تكون مدة الرحلة التجارية ما بين بلاد المغرب وجنوة ما بين 30 يوما و 45 يوما. وسوف تتقلص هذه المدة مع تطور وسائل الملاحة بالبحر المتوسط في الفترة اللاحقة. ويبدو ذلك واضحا من خلال المدة التي قضاها "أدرنو" Adorno من جنوة إلى تونس في القرن 15م. فقد امتطى سفينة بجنوة يوم 7 ماي مساء، ووصلت السفينة إلى كورسيكا في 18 ماي، ودخلت تونس في 27 من نفس الشهر، ممّا يعني أنها استغرقت 20 يوما من جنوة إلى تونس[2].

ولاشك في أن انتشار استعمال البوصلة بالبحر المتوسط، قد ساهم في تقليص مدة الرحلات التجارية، إذ لم يكن الإبحار يتوقّف على النهار فقط، علما بأن استعمال البوصلة بدأ بشكل بدائي بالبحر المتوسط منذ القرن 12م[3]. وثمّة عدة إشارات بالحوليات الجنوية توضح أن إبحار الجنويين في الفترة المدروسة، كانت تتم ليلا أيضا.[4]

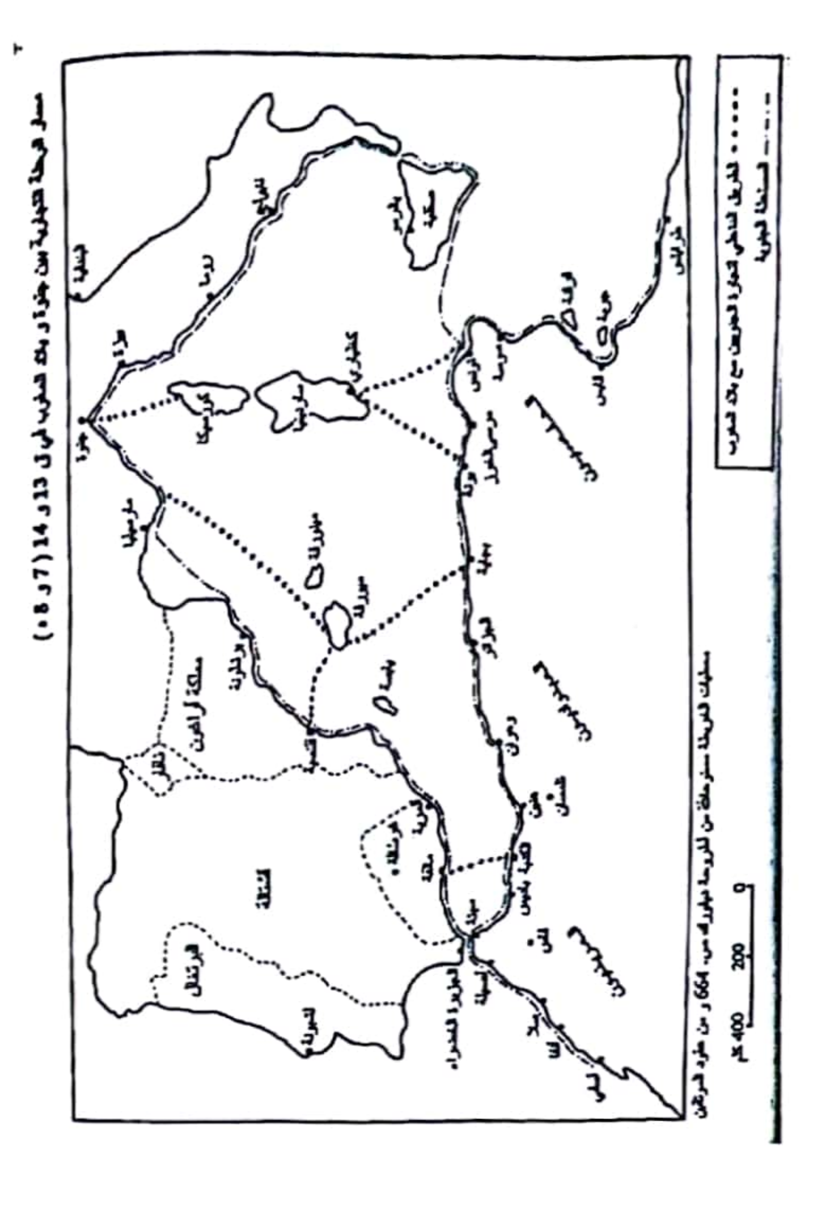
---

[1]- Dufourcq, l'Espagne, pp : 46-47

[2]- Heers, Gênes, p 294.

[3]- Jehel, les Génois, p 314.

[4]- AG,T3, p135-137.



الفصل الرابع:

أدوات التبادل التجاري ووسائله

نقصد بأدوات التبادل التجاري العملة والموازين باعتبارها الأدوات التي بدونها لا تستقيم العملية التجارية، إذا لم تكن معتمدة على المقايضة. فحضور العملة والموازين في التجارة يسمح بضبط المبادلات وبمرونتها. ونعني بالوسائل التجارية مختلف الطرق التي كانت تتم بها العلمية التجارية لكي تنتقل السلعة من التاجر إلى الزبون.

1-أدوات التبادل التجاري في العلاقات الجنوية المغربية:

أ-العملة:

ليس الغرض من هذا المحور أن نبسط خصائص العملة الجنوية والمغربية وأنواعها، بل نهدف إلى التعريف بأهم أنواع العملة التي استعملت في المبادلات بين جنوة وبلاد المغرب، وماهية المعادلات التي أوجدها التجار لتسهيل عملياتهم. ونعترف منذ البداية أن طرق هذا الموضوع يُعدّ مخاطرة نظرا لنقص إشاراته المصدرية، ثم لتعقد ما توافر عنه من معطيات، لأن قيمة العملة والموازين، كانت تختلف داخل البلد الواحد من بلاد المغرب، بل داخل المنطقة نفسها[1]، وأخيرا فإن الإلمام بالمعادلة التي وجدت بين العملة المغربية والعملة الجنوية ، يقتضي الإحاطة بعدة عناصر تدخل في صلب علمي النميات والاقتصاد، مثل علاقة العملة بالعرض والطلب، وقيمة العملة في صلتها بالقدرة الشرائية، وقوتها كوسيلة للتبادل.

ولهذا كله، فإن عملنا هنا لا يعدو أنْ يكون التقاطا لبعض الشذرات التي وردت بالمصادر عن العملتين المغربية والجنوية، وتركيبها من أجل الحصول على

[1] لعل هذا ما يبرز كثرة نوازل الخصومات التي عرفها المغرب الوسيط نظرا للاختلافات الناشئة بين التجار والزبناء بفعل اختلاف العملة والموازين، لاسيما وأن معظم المناطق حددت موازينها وعملتها على أساس العرف.

مبادلاتها التقريبية، على اعتبار أن المبادلات ما كان لها أن تتم بين الطرفين، بدون أن تبدأ معادلات للعملة المستعملة. إن ما يهم الدارس للتاريخ على حد تعبير "فيلار" ليس هو النقد في حد ذاته، ولكنه كعنصر فاعل في التاريخ[1].

ظلت المبادلات الخارجية لغرب أوربا المتوسطية إلى حدود منتصف القرن 13م/ 7هـ، تقوم على النقود الذهبية المغربية والإسلامية بصفة عامة. ودشنت جنوة عودة أوربا إلى سك العملة الذهبية منذ 1252م، بأن ضربت عملة "جنوفينو" Genovino (كانت تعادل 3,44 أو 3,55 غراما). غير أن ذلك لم يلغ استعمال جنوة في مبادلاتها الخارجية لعملة المرابطين "Marabotino"[2] ولعملة الموحدين "Masmodino"[3].

وتتحدث المعاهدات[4] وعقود الموثقين عن عدة عملات تدوولت في المبادلات التجارية بين جنوة وبلاد المغرب، وهي الدينار الفضي "Besant"، والدرهم الفضي، ويرد غالبا بالوثائق اللاتينية باسم "Millarés، Migliaresi"، والدينار الذهبي "Doublon"، والليرة الجنوية، والفلس الجنوي.

- الدينار الفضي "Besant": يستفاد من كتاب أبي الحسن الحكيم المتخصص في العملة المرينية أنه كان متجزئا إلى عشرة دراهم صغار[5]. وعلى نفس التجزئة وُجد بالدولة الحفصية[6]، وبالدولة العبدوادية[7]. وكان وزن الدينار الفضي يعادل 15 غراما من الفضة[8].

ويرد ذكر الدينار الفضي كثيرا بعقود الموثقين الجنويين. وأحيانا تقدم بها إشارات عمّا يقابله من ليرة أو فلس جنويين. ومن نماذج ذلك عقد مؤرخ بسنة 1253، حيث توصل "Gulielmo Daniele" من "Giovanni Begino" ب 206 ليرة جنوية، والتزم بتقديم هذا الأخير 927 دينارا فضيا خلال الشهرين المواليين لوصول سفينة "San Pietro" التي سافر على متنها إلى بجاية[9]. ونظرا لتعدد هذه الإشارات، فإننا نقدم

[1]- Vilar (P). Or et monnaie dans l'histoire, Flammarion, Paris, p 20.
[2]- Pistarino, Notai, pXLI
[3]- ورد ذكرها في العقد رقم 1369 الذي حرره الموثق "لنفرنكو" ما بين 1222 و1226.
[4]- مثل معاهدة 1343 بين جنوة وتونس التي تحدثت عن عملة الدينار الذهبي" Doublon" والدرهم الفضي "Miliaresi"، أنظر .Balbi, Il trattato, p 309
[5]- الحكيم، الدوحة المشتبكة، الباب السادس.
[6]- برنشفيك، الجزء الثاني، م س.
[7]- Dhina (A).Les états, p 209 et suviantes
[8]- Dufourcq, l'Espagne, p 526
[9]- Valerian, Bougie, p 324.

نماذج عنها من الفترة المدروسة في محاولة لتقديم صورة تقريبية عن المعادلة بين العملتين الجنوية والمغربية. ويمكننا تجسيد ذلك من خلال الجدول التالي:

السنة	المكان	مقدار الدينار الفضي ومقابله بالليرة والفلس الجنويين	المصدر
1222	جنوة	116 دينار فضيا مقابل 29 ليرة و8 فلسا -88 دينارا فضيا مقابل 33 ليرة جنوية	Dufourcq, Aperçu, p 723.
1225	جنوة	4 دنانير فضية مقابل ليرة جنوية	Dufourcq, Aperçu, p 723.
1229	سبتة	871 دينارا فضيا مقابل 200 ليرة	ضمن عقود الموثقين المجهولين Not. Ign B1, fasc 3 Doc 24/31
1289	تونس	4 دينارا فضيا مقابل ليرة جنوية واحدة	Pistarino, Notaï documenti n°70
1306	تونس	75 دينارا فضيا مقابل 15 ليرة جنوية	ضمن العقد المحفوظ بالمجموعة II/41 الورقة الخلفية 78.

يبدو من خلال الجدول أن المعادلة بين الليرة الجنوية والدينار الفضي لم تتغير إلا قليلا، طيلة القرن 13م وبدايات القرن 14م، ويمكننا أن نحدد تلك المعادلة في أن كل ليرة جنوية عادلت آنذاك من 4 إلى 5 دنانير فضية.

-الدرهم الفضي "Millares-Migliaresi": من حسن حظنا أننا نتوافر على إشارات كثيرة عن معادلته بالعملة الجنوية. و كان يزن على وجه العموم 1.5 غراما[1]. ويمكن أن نجسد العلاقة بين الدرهم الفضي والعملة الجنوية من خلال بعض النماذج التي يمثلها الجدول التالي:

[1]- Dhina, op cit, p 211.

السنة	المكان المعني بالتجارة	مقدار الدرهم الفضي ومقابله بالعملة الجنوية	المصدر
1210	تونس	ليرة واحدة مقابل 43 درهما فضيا	عقود الموثق Lanfranco رقم 874-878 و 1494
1216	بجاية	1 ليرة = 40 درهما فضيا	Canale, Nuova, T2, p350
1236	سبتة	1 ليرة =46 درهما فضيا	نفس المصدر والصفحة
1243	تونس	1 ليرة = 43،5 درهما فضيا	المصدر نفسه ص 342
1248	سبتة	1 ليرة = 45 درهما فضيا	المصدر نفسه ص349
1250	سبتة	1 ليرة = 42 أو 43 درهما فضيا	المصدر نفسه .
1263	تونس	1 ليرة = 45 درهما فضيا	نفس المصدر، ص 343

يظهر من خلال الجدول أن المعادلة بين الدرهم الفضي والعملة الجنوية لم تتغير كثيرا، رغم اختلاف المناطق التي همتها العلميات التجارية، فكل ليرة جنوية عادلت ما بين 40 و46 درهما فضيا.

- الدينار الذهبي "Doublon": ذكر أبو العباس أحمد القباب مفتي فاس في العصر المريني أن "دينار وقتنا أربعة وثمانون حبة"[1]. وحدد "بريت" وزن هذا الدينار في 4،56 غراما[2]. وعلى نفس الوزن كان تقريبا بالدولة العبدوادية[3]، بينما كان يزن بتونس الحفصية 4,72 غراما[4].

ومن الملاحظ أن الدينار الذهبي لم يستعمل كثيرا في المبادلات التجارية الجنوية المغربية، فمعظم العقود تتحدث عن الدينار الفضي.

ويبدو من خلال بعض العقود القليلة التي قدمت المعادلة بين العملتين، مثل العقد المؤرخ بسنة 1238 ضمن مجموعة عقود الموثقين المجهولين[5]، والعقد المؤرخ

[1]- شرح القواعد للقاضي عياض، مخطوط خزانة القرويين رقم 352 ، بدون ترقيم للصفحات

[2]- Brethes (J.D), Contribution à l'histoire du Maroc par les recherches numisma-tiques, Casablanca, 1939, pp180-191.

[3]- Dhina, op cit, p 209.

[4]- برنشفيك، ج2، م س.

[5]- قدمت بتونس مقابل كل دينار ذهبي 2،56 دينار فضيا، ضمن عقود الموثقين الجنويين المجهولين. Not, Ign, B1, fram 12

بتنبر 1259[1]، أن الليرة الجنوية قاربت 1،4 دينارا ذهبيا. والجدير بالإشارة إلى أن عقود الموثق" باتفليو" التي حرّرها بتونس سنة 1289 تتحدث عن "دوبلون ميرو" Doblerius auri de Mir.[2] وحسب "بسترينو"، فإن الأمر يتعلق بالدينار الذهبي الموحدي الذي كان يساوي 4،60 غرام، والذي منه اشتق الدينار الذهبي المريني والعبدوادي والحفصي[3].

ولم تكن جنوة مدينة كليّة للعملة المغربية في مبادلاتها، بل إنها ضربت بدورها العملة الفضية على شكل درهم فضي، وهو في الأصل معدن فضي خام استوردته من بلاد المغرب، وأعادت تصديره إليه على شكل عملة[4]. ونعلم أن بيزة لجأت بدورها إلى سك الدرهم الفضي لاستعماله في الحصول على السلع المغربية[5]. ويتحدث صاحب الدوحة المشتبكة في هذا الشأن عن شيوع الجنوية بالمغرب المريني، ويقصد بها – حسب اجتهادات المحقق– العملة الجنوية[6].

هكذا استندت المبادلات الجنوية المغربية إلى مرونة واضحة في استعمال العملة، ولم نسجل وجود خلافات بين تجار الطرفين، ناتجة عن عدم ضبط المعادلات التي سادت بين العملتين. ولا نعلم ما إذا كانت المبادلات الجنوية المغربية قد استندت إلى المقايضة، كما كان الشأن في المبادلات المغربية الميورقية[7].

ب-الموازين والمكاييل:

لم نعثر بالمصادر العربية على ما يسمح بتحديد الموازين والمكاييل المستعملة في التجارة الجنوية المغربية، ولذلك فإن عمدتنا في هذه العملية تقع على عقود الموثقين، وخاصة أكثر على كتابين ألفهما إيطاليان في الفترة المدروسة عن التجارة الدولية. ونقصد بذلك كتاب" Memoria" لمؤلف بيزي عاش في القرن 13م، وكتاب مرشد

[1]- قدمت بتونس مقابل 840 ليرة 1200 دينارا ذهبيا ضمن عقود المجموعة 35، ASG، الورقة 47.

[2]- ورد ذكر ذلك بعدة عقود مثل العقود رقم 28-31-58-63-92..

[3]- Pistarino, Notaï, pXL

[4] - Balletto, Da Genova, p 311

وطبعة الترجمة، ص9.

[5]- Schaube, p 360.

[6]- الدوحة المشتبكة، ص149.

[7]- نقل بعض التجار الميورقيين سنة 1382-1383 الزرابي إلى السلطان المريني أبي العباس أحمد أبي سالم بتلمسان التي كانت آنذاك خاضعة للحكم المريني، ومقابل ذلك حصلوا على كميات من الزيوت، أنظر: Dufourcq, Commerce, p 165.

التجار "La pratica della mercatura" "للفلورنسي بيغولوتي الذي عاش في النصف الأول من القرن 14م.

غير انه رغم أهمية المعطيات التي يقدمها المؤلفان عن هذا الموضوع، فلربما عدم زيارتها لبلاد المغرب أوقعها في بعض الأخطاء[1]، ويمكن أن يرجع ذلك إلى تأخر نسخ الكتابين، أو على الأقل عدم توصلنا بالنسخ الأولى نظرا لضياعها، فكتاب "Memoria" وصل إلينا من خلال نسخة تعود إلى القرن 17م، وكتاب بيغولوتي وصلنا من خلال نسخة الفلورنسي "فرسكوبلدي" Di Nicolat Frescobaldi Filippo التي تعود إلى سنة 1471[2].

ويمكننا أن نحدد الموازين والمكاييل التي استعملها الجنويون والمغاربة في مبادلاتهم ضمن ما يلي:

- موازين الحبوب: كان" القفيز" Cafiz أو Cahiz، أهم وحدة استعملت في تجارة الحبوب بالحوض الغربي للمتوسط. ويستفاد من كتاب "بيغولوتي" أن وزنه اختلف كثيرا بين مناطق بلاد المغرب. فكان يعادل بتونس 1،75 هل= 175 لترا، وبطرابلس 2،5 هل، وبسبتة 8هل، وبالسواحل الأطلسية للمغرب الأقصى 16 هل[3]. ولمزيد من التفصيل، يمكن أن نقدم علاقة القفيز بالمد من خلال قفيز منطقة القيروان بتونس الحفصية. فقد كان يعادل 1,8758 هل= 187،58 لترا، ويتجزأ إلى 16ويبة، وكل ويبة تعادل 11,72 لترا، وتتجزأ بدورها إلى 12 صاعا. وبما أن الصاع كان يساوي 0،98 لترا، فإن القفيز تضمن 192 مدا[4]. والملاحظ أن قفيز المغرب المريني فاق نظيره بتونس. فقد بلغ قفيز أسفي – مثلا – 700 مدا[5]. وإذا كانت المصادر لا تقدم مباشرة المعادلة الموجودة بين القفيز الجنوي والقفيز المغربي، فإنها تمدنا بإشارات مهمة عن بعض الموازين الأخرى لها علاقة بالقفيز، وهي القنطار والرطل. وقد حاولت

[1]- من بين هذه الأخطاء، يمكن أن نذكر ما أورده "بيغولوتي" عن الرطل والأوقية بتونس الحفصية (204-148-137-129-101-93p) حيث يذهب إلى أنه ساد رطل وحيد وأوقيتان بتونس، وتعادل الأولى 1/16 رطلا، والثانية 1/18 رطلا، والواقع أن تونس توافرت على أوقية واحدة وعلى عدة أرطال حسب أنواع المواد "كالرطل العطاري" وغيره. ويشير" بيغولوتي " إلى أن الرطل المكون من 18 أوقية ، كان مستعملا لزنة الفضة، بينما أن الأمر يتعلق "بالرطل السوقي" الذي ظل إلى حدود القرن الماضي مستعملا في زنة المواد الغذائية. انظر: برنشفيك، ج1، ص261.

[2]- Balletto, Bougie, p 87 et suivantes.

[3]- Pegolotti, La pratica, chapitre 65.

[4]- بر نشفيك، ج2، ص262.

[5]- Pegolotti, p 272.

"باليطو" من خلال عدة عمليات حسابية أن تحدد هذه العلاقة، على الأقل بين القنطار والرطل. فقنطار بجاية كان معادلا لـ 75،129 كلغ أو 77،499 كلغ، وهو نفس الوزن الذي وجد عليه بتونس، وبما أننا نعلم أن الرطل البيزي كان معادلا للرطل الجنوي، وأن 158منه تعادل القنطار التونسي، فيمكننا أن نستنتج أيضا بأن القنطار البجائي بدوره كان معادلا ل158 رطلا جنويا . وكان الرطل الجنوي مساويا ل 0،4725 كلغ[1]، كما كانت مائة رطل بجنوة معادلة للقنطار[2].

ويقدم بيغولوتي في مستوى آخر المعادلة بين وحدة "Falacche" التي استعملت لزنة الحبوب ببجاية وبين "مين" جنوة . فمائة Falacche عادلت 100 مين. ونعلم أن "مين" جنوة عادلت في القرن 13 حوالي 71،5 كلغ، وحوالي 82،434 كلغ في القرن 14 م، ممّا يعني أن نفس الوزن الذي كان "للمين" بجنوة كان ل "Falacche" بجاية. وقد استعملت "المين" لزنة الحبوب والملح وبعض المواد الأخرى كالفواكه الجففة. أما القنطار والرطل فاستعملا في زنة الحبوب والأصواف والقطن والمعادن. وتشير العقود التجارية إلى زنة للحبوب، وهي "Salma"، وكانت تساوي بصقلية، باعتبارها من أهم مصدري الحبوب بالحوض الغربي للمتوسط، 2،76 هكتولتر[3].

- **السوائل**: استخدم التجار الجنويون في علمياتهم مع بلاد المغرب الجرة أو البرميل لزنة الزيوت. وعادلت الجرة بتونس وبجاية من 40 إلى 50 لترا، وتزن القنطار تقريبا[4]، بينما عادلت بأصيلا 18 رطلا، أي ما يمثل 16 أوقية[1]. وتقدم الجرة

[1]- Schaube, p 977

[2]- Musso(G), Armamento e navigazione a Genova tra il tre e quattrocento, in Miscellanea storica ligure, Genova, 1968.

واعتمادا على نفس المرجع، وعلى كتاب شوب، يمكن أن نقدم الجدول التالي عن بعض الموازين والمكاييل السائدة بجنوة في الفترة المدروسة:

القنطار = 100 رطلا = 47،6 كلغ
الأوقية = 3،15 كلغ
الرطل = 1،5 أوقية = 0،76 كلغ
مين Mine = 105 لترا = 71،5 كلغ
البرميل = 62 لترا
مزرولي Mezzarole = 2 براميل = 91،5 لترا
القالة = 9 اشبار = 2،23 مترا
البالة Balle = حوالي 250 أوقية = 79 كلغ

[3]- Bresc,Un monde méditerranèen,op.cit, p 55.

[4]- Dufourcq, l'Espagne, p 552.

أحيانا في مقابل وحدة المطر، وكانت الجرة بتونس تشكل ثلاثة من المطر، أو حوالي خمسين لترا، بدون أن نعلم هل كانت هذه المعادلة مضبوطة أم لا[2]، والظاهر أن نفس المعادلة عرفتها طرابلس[3]، وجاء في أحد عقود الموثق "باتفليو" أن "اوزديماري" Pasquale Usodimare فوض لمواطنه "فرريوس" Bertraminus Ferrarius التوصل ب 730،5 "مطر" من التاجر" شبو" Cibo بتونس[4].

أما زنة الخمور فاعتمدت على وحدة البرميل، أو "مزرولا" Mezzarola. وقد كان البرميل بجنوة معادلا لحوالي 62 لترا في القرن 13م[5]. أما "مزرولا" فعادلت حوالي91،5 لترا[6]. وسبقت الإشارة في موضوع الصادرات والواردات بين جنوة وبلاد المغرب إلى تقديم نماذج عن عمليات تجارية استخدمت فيها الجرة والبرميل و"المزرولا".

-المقاييس: استخدمت المواد المستعملة في الصناعة النسيجية زنة "البالة" Balla ، وقد عادلت بجنوة حوالي 79 كلغ. أما الأقمشة فاستخدمت القالة "Canna". ويقدم بيغولوتي بعض المعطيات عن طول القالة ببعض مدن المغرب. فبطرابلس- مثلا- بلغ طولها 2،20 مترا[7]، ولا نعلم كم كونت هذه الأشبار من أمتار، بينما تقدم المصادر القالة بجنوة آنذاك باعتبارها تتكون بدورها من 9 أشبار، وتعادل 2،23 مترا. ولم تسمح لنا المصادر المطلع عليها بمعرفة طول القالة بالدولة الحفصية. وأما القالة بالدولة العبدوادية فكانت مساوية لـ 0،46 مترا[8]، بينما استخدمت فاس المرينية قالتين:

أولاهما بلغ طولها 0،46 مترا، وتعرف بالقالة الدرازية، واستعملت في قياس الثياب الصوفية، وبلغ طول الثانية 0،55 مترا وتعرف بالقالة السوسية، واستعملت في قياس الكتان والمنسوجات الحريرية والأجواخ[9].

1- Pegolotti, p 274.

2- برنشفيك، ج2، ص262.

3- Pistarino, Notaï, p XLIV.

4- Ibid, doc, N°12.

5- Pistarino, La donna d'affari a Genova nel secolo XIII, in Miscellanea di storia italiana e mediterranea, Genova, 1978, p 168.

6- Ibid

7- Pegolotti, p 134.

8- Bel (A), Inscriptions Arabes de Fes, journal asiatique, 1917-1919, p307.

9- المنوني، ورقات، ص107.

2-الوسائل التجارية:

تعجّ الكثير من الدراسات[1] التي اهتمت بالتجارة الخارجية لجنوة بمعطيات عن الوسائل التي استخدمها تجارها في علاقتهم مع الأسواق الخارجية. وتفاديا لتكرار نفس المعطيات، نقتصر هنا على تقديم الخصائص الكبرى لهذه الوسائل، وأكثرها استعمالا في التجارة الجنوية المغربية.

ويمكننا أن نميز بين الوسائل التالية:

-القراض "accomendacines" "commenda" : يرى "برنشفيك" أن "الكومندا" التي سادت بأوربا في العصر الوسيط قريبة من القراض الذي عرفته الدولة الإسلامية[2]، ويعتبرها "ديفورك" مشتقة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة من القراض الإسلامي[3]. وكيفما كان الأمر، فالأكيد أن جنوة استفادت كثيرا من التجربة الإسلامية في هذا المضمار، خاصة وأنها شكلت القوة الأولى التي عوضت المسلمين في الهيمنة على الحوض الغربي للبحر المتوسط، بعد تراجع البحرية الإسلامية منذ القرن 6هـ/ 12م.

يقوم القراض على وجود عقد بين صاحب رأس المال، ويُسمّى في العقود الجنوية " Stans"، وعادة لا يغادر المدينة التي يوجد بها، والتاجر الذي يحمل رأس المال لاستثماره خارج المدينة أو المنطقة، ويُسمّى "Tractator"، وتوزع الأرباح بين الطرفين وفق قدر معين في الغالب، إذ يستفيد صاحب رأس المال بثلاثة أرباع الأرباح، بينما يستفيد التاجر المتنقل من ربع الأرباح. وغالبا ما تحدد العقود نصيب كل طرف، إذ جرت العادة على الاحتكام لهذا التوزيع في الأرباح. وقد تنص العقود على ذلك التوزيع، كما هو الشأن في عقد ورد عند "فريطو" مؤرخ ب 27 شتنبر 1226، من خلاله توصل "بوكاشيو" Simone Bocaccio من مواطنه "بونفسالو" Bonavassallo ب 96 ليرة كقراض يستثمره في التجارة مع تونس، على أساس أن يستلم ربع الأرباح "quarta parte del guardagno."[4] وعلى نفس المنوال ثمة عقد مؤرخ ب22 يوليوز

1- يمكن أن نتلمس ذلك انطلاقا من دراسة "شوب" و"هيد" ، ومرورا بدراسات" لوبيز" و"بالطيو" و"بستربنو" و"بيرلتي" من جامعة جنوة، و"نيرن" و"كرويغير" من الجامعة الأمريكية، ووصولا إلى الدراسات التي نشرت مؤخرا عن التجارة الخارجية لجنوة كدراسة الفرنسيين "جيهل" و"بالار".

2- برنشفيك، ج2.

3- Dufourcq, Commerce, p 181.

4- Ferretto, Liber, T2, p 516.

1226 نصّ على أن يحمل "وليام سنسريو" Censario Guglielmo 17 قالة من الكتان وغطاءين كقراض إلى سبتة[1].

ويمكن للتاجر المتنقل أن يستثمر الأرباح حسب ما ينص عليه العقد أو حسب ما يقتضيه الوضع في الأسواق التي سافر إليها[2]. ومن الطبيعي في حالة عقود القراض أن يتحسب صاحب رأس المال إمكانية فقدان رأس ماله، أو جزء منه، كما أن التاجر المتنقل قد يعرض حريته وحياته للخطر، ولا سيما في فترات احتداد عمليات القرصنة. وقد درس "بالار" مجموعة من عقود القراض المتعلقة بالتجارة الجنوية مع بلاد المغرب، ومن خلالها أمكن له رصد التطور التالي لنسبة عقود القراض، ضمن مجموعة العقود التي درسها عن التجارة الجنوية المغربية:

الفترة	نسبة عقود القراض
ما بين 1155-1164	37,5%
1191-1198	54,7%
خلال القرن 13م	80%

إن تزايد اعتماد الجنويين في ق 13م في تعاملهم مع بلاد المغرب على القراض، يعود إلى أن هذا الأسلوب لا يتطلب رؤوس أموال كثيرة، وذلك على عكس عقود الشركة البحرية –كما سنرى–، وهذا يعني أن بلاد المغرب كانت مفتوحة خلال القرن 13م في وجه مختلف الشرائح الاجتماعية الجنوية من ذوي الدكاكين الصغرى، وغير المحترفين من التجار، ومن التجار الصغار[3]. و الملاحظة نفسها يمكن أن نسحبها على تجارة الجنويين مع بلاد المغرب في القرن 14م، وذلك من خلال ما توافر لدينا من عقود عن هذه الفترة، لا سيما أن شدة المنافسة التي وجدها الجنويون في الأسواق المشرقية من جانب البنادقة، دفعت بهم إلى تحويل اهتمامهم التجارية نحو بلاد المغرب. ونعدم الإشارة لاستعمال القراض من جانب المغاربة في تجارتهم مع جنوة، ونعلم أنهم استخدموها في تجارتهم مع ميورقة[4]، أو داخل بلاد المغرب[1].

1- Ibid, p 467.
2- Valerian, Bougie, p 556.
3- Balard, Notes sur le commerce, p 374.
4- سافر تاجر من سبتة إلى ميورقة سنة 1301 أو 1302، وبمعيته أموال من أهل مدينته على وجه القراض. أنظر: Dufourcq, Commerce, p 178.

-الشركة البحرية: "Societas maris": يقوم هذا الأسلوب على أن يقدم أحد التجار أكبر قسط من المال المشترك، ولا يقوم بالرحلة، بل يعهد بذلك إلى تاجر آخر يقدم جزءا صغيرا من رأس المال المشترك. ويسمى هذا الأسلوب في البندقية "Colleganza" وبجنوة "Societas maris"، وقد ظهر بها في القرن 12م[2].

وتختلف نسبة أرباح كل تاجر مساهم في الشركة البحرية حسب ما تم الاتفاق حوله. فقد تكون مناصفة في حالة ما إذا ساهما في تكوين رأس المال بالنصف[3]، وقد يستفيد التاجر الذي شارك بأكبر قسط من رأس المال بنسبة 3/4 من الأرباح[4]، وغالبا ما لا يفصح العقد عن نسبة الأرباح التي تؤول إلى كل طرف. ومن نماذج ذلك،العقد المؤرخ ب16 ماي 1254 الذي يتحدث عن نشاط تجاري لبعض الجنويين بسبتة[5].

لقد كانت الشركة البحرية الأسلوب الأكثر شيوعا لدى التجار الجنويين المتعاملين مع بلاد المغرب في القرن 12[6]، وقلّ استعمالها في القرن 13م لصالح عقود القراض، حتى إنها لم تمثل سوى نسبة 1،8٪ من مجموع العقود التي درسها "بالار" عن التجارة الجنوية المغربية[7]. ولربما يعزى هذا التناقص في عقود الشركة البحرية ضمن المبادلات الجنوية المغربية إلى أنها تحتاج إلى رؤوس أموال كبيرة[8]، وإلى أسواق آمنة وهادئة[9]، ومن المعلوم أن عنصر الأمن انتفى بكثير من المناطق التي كانت خاضعة للحكم الموحدي بعد هزيمة العقاب، ولاسيما بالمغرب الأقصى الذي كان محط صراع بين السلطة الموحدية المحتضرة والسلطة المرينية المتوثبة. ولاشك في أنه في حالة حدوث خسارة بأي عملية تجارية تعتمد على أسلوب الشركة البحرية، تكون هذه الخسارة أفدح من مثيلتها بأسلوب القراض. ففي القراض يخسر التاجر المتنقل جهده العضلي فقط، أما في الشركة البحرية، فإنه يخسر جهده العضلي ورأسماله الذي قد يصل إلى نصف الرأسمال المشترك.

1- تشير إحدى نوازل البرزلي إلى خلاف نشأ بفعل فقدان أحد التجار لأربعين دينارا في رحلة تجارية من صفاقس إلى تونس نتيجة هجمات القراصنة النصارى، أنظر المزيد عند : برنشفيك، ج2، ص257.
2- Chaunu, p 309.
3- Jehel,Les Génois, p118.
4- Renouard, Les hommes d'affaires italiens au moyen âge, p43.
5- ضمن العقد المحفوظ بأرشيف جنوة، ASG المجموعة 1/30، الورقة 83.
6- Sayous, Commerce, p 57.
7- Balard, Notes p 374.
8- Ibid, p 273.
9- Jehel, les Génois, p 121.

-عقود القرض البحري:" Presto del mare": يقوم على أن يقرض أحد التجار قدرا من المال لتاجر آخر يستثمره في التجارة مع بلاد المغرب أو فيما "وراء البحار"، على أن يسترد المقرض المال الذي أقرضه فضلا عن نسبة فائدة معينة من الأرباح[1]. ومن الواضح أن هذا الأسلوب لا يخلو من طابع ربوي، ولعله إحدى الطرق الملتوية التي أوجدها الجنويون للانفلات من تحريمات الكنيسة. وترى "إرلدي" أن اليهود الجنويين كانوا الأكثر تعاطيا لمثل هذا الأسلوب[2]. ومن المفيد أن نشير إلى أن أقدم العقود التي تحدثت عن تجارة الجنويين مع تونس، كانت عبارة عن عقود قرض بحري[3]. وفي الغالب أن نسبة الفائدة من الأرباح التي كان يقدمها التاجر المتجول لصاحب رأس المال، تراوحت ما بين 20 و 30٪ [4]، ويؤكد عقد قرض بحري مؤرخ ب27 أبريل 1220للتجارة مع سبتة هذه النسبة. فقد قدم صاحب المال 41 فلسا لتاجر توجه إلى سبتة، على أن يسترده بعد عودته منها، إضافة إلى نسبة 26٪ من الأرباح التي يتيحها القدر المستثمر[5].

وفضلا عن الأساليب التجارية المذكورة آنفا، سادت بالتجارة الجنوية المغربية بعض الأساليب الأخرى، إلا أنها كانت قليلة الانتشار. ومن هذه الأساليب الرهن، ويقوم على أن يُقدم التاجر سلعة ما إلى تاجر آخر يقرضه قدرا من المال ليستثمره في الأسواق الخارجية. وقد سجلنا عدة حالات للرهن بمعونة سبتة 1234، والتي كانت عملية عسكرية ومالية في آن واحد.

كما نشير إلى أسلوب التفويض الذي يسمح لتاجر ما بالاستفادة من الأرباح. وتتضمن العقود التي حررها الموثق "باتفليو" عدة حالات عن هذا الأسلوب من تجارة الجنويين بتونس سنة 1289[6].

وبما أن المستثمرين الجنويين في التجارة مع بلاد المغرب، ومع باقي الأسواق الخارجية، كانوا يرومون تحقيق الأرباح بالدرجة الأولى، فإنهم ضاعفوا فرص نجاح عملياتهم من خلال استثمار أموالهم في عقدود مختلفة، وبعدة سفن تفاديا لضياع

[1]- حول هذا الأسلوب يمكن الرجوع إلى عادل زيتون، ص54.

[2]-Airaldi (G), Genova e la liguria nel Medio evo ,Genova, 1986, p24.

[3]-Sayous, Le commerce, p57.

[4]-Hoover (C.B), The sea loan in Genoa in the twlfth century, in the quaterly journal of economic XL, 1926.

[5]- العقد محفوظ بأرشيف جنوة ASGضمن المجموعة 7، الورقة 145.

[6]- Pistarino, Notaï, acte N°49.

رؤوس أموالهم – لأي سبب من الأسباب – في حالة استثمارها في نوع معين من العقود، أو على مركب واحد.[1]

ويستفاد من عقود الموثقين أن الجنويين، مثلهم في ذلك مثل البيزيين[2]، لجأوا إلى توزيع المهام للتحكم في التجارة مع بلاد المغرب. وقد أقام بعض الجنويين طويلا ببلاد المغرب لمراقبة الأسعار وجمع الأخبار المتعلقة بالأسواق . ولاحظنا أن بعضهم كان مُتلكا للدور والحوانيت ببعض مراسي بلاد المغرب. ولم نسجل تعاونا بين الجنويين وغيرهم من الإيطاليين في تنظيم التجارة الجنوية المغربية انطلاقا من جنوة. وفي ذلك تأكيد لرأي" رونوار" الذي لاحظ أن المدينة الإيطالية كانت بالنسبة لرجال الأعمال بمثابة عائلة كبيرة لا يتجاوز التعاون والتحالف التجاري حدودها[3] وإن تم هذا التعاون، فمع تجار غير إيطاليين[4].

[1] -Dufourcq,La vie quotidienne,p 37.

[2] -Ben saci, p 62.

[3] -Renouard, Etudes, T1 , p422.

[4]- كما هو الحال بالنسبة لتاجرين جنويين شاركا" برنارد ملتويل" Manuel – وملتويل من أشهر الأسر التجارية بمارسيليا- في رحلة تجارية إلى وهران سنة 1232، أنظر:
Blancard (L), Documents inédits sur le commerce de Marseille au Moyen âge, Marseille 1884-1885, Tome :1, document n°30.

الفصل الخامس:

الضرائب التجارية المفروضة على الجنويين ببلاد المغرب

يمكن اعتبار الضرائب الفلاحية والرسوم المستخلصة من التجارة الداخلية والخارجية من أهم المصادر التي عوّلت عليها خزينة الدولة المغربية في العصر الوسيط[1]. وإذا كانت السلطة المغربية قد وجدت أحيانا صعوبة في استخلاص الضرائب الفلاحية لارتباطها بالظروف المناخية، ولرفض الفلاحين أحيانا لها، فإنها لم تجد الصعوبة نفسها في استخلاص الضرائب من التجارة الخارجية. وتمكنت من ذلك بفضل ديوان البحر الذي أصبح من أهم المؤسسات المخزنية، ومن أهم وظائف الدولة المغربية بتونس وبجاية وسبتة[2].

ولم تخل معاهدة من المعاهدات التي أبرمتها جنوة مع بلاد المغرب من الإشارة إلى موضوع الضرائب الجمركية المفروضة على الجنويين بالمراسي المغربية، وقد جرت العادة على التمييز بين نوعين من الضرائب التي استخلصها ديوان البحر بالموانئ المغربية من التجار الأوربيين، وهي:

1-الضرائب الرئيسية:

أقرت مختلف المذاهب الإسلامية على السلع التي ينقلها التجار الأجانب إلى دار الإسلام نسبة العشر، وترد ضريبة العشر بالوثائق اللاتينية تحت اسم "Decimum" "Decima " أو "Drictum".[3] أما نسبة الضرائب المفروضة على السلع المصدرة من

[1]- Laroui(A), l'histoire, T1, p 194.
[2]- Mas Latric, Traités, p 335.
[3]- مثل معاهدة 1343 بين جنوة وتونس في بنودها رقم 6 و7 و15. أو المعاهدة التي عقدتها جنوة مع أبي عنان، والتي يقول عنها ابن الحاج النميري "امتلأت بتجارتهم دواوين الأقطار وأدوا أعشارهم دنانير مستديرة كالأعشار" فيض العباب، ص31.

بلاد المغرب، فحددت في 5٪ من قيمة السلعة، وترد هذه الضريبة بالوثائق اللاتينية تحت اسم "Medium".[1]

وإذا كانت هذه النسب قد شكلت الإطار العام للضرائب المفروضة على الجنويين – كغيرهم من الأوربيين المتعاملين مع بلاد المغرب–، فثمّة حالات استثنائية، اقتضتها نوعية البضاعة المتاجر فيها، وطبيعة نشاط الميناء الذي حملت السلعة منه أو إليه. وهكذا كان التاجر الأوربي يؤدي أربعة دنانير ذهبية عن كل قنطار من شمع العسل يستورده من مرسى سلا، بينما كان يؤدي على نفس الكمية المستوردة من هذه المادة عبر مرسى أنفا دينارا وربع الدينار الذهبي[2]. كما أن النسبة كانت تخفض على بعض السلع، حسبما تقتضيه المعاهدات المبرمة بين الطرفين. فقد اكتفى الجنويون بأداء نسبة 5٪ على الذهب والفضة المستوردة من تونس الحفصية ،عملا بما نصّت عليه معاهدة 1236 في بندها الخامس.

ومن حسن حظنا أن "بيغولوتي" أورد معطيات إحصائية إضافية عن نسبة الضرائب التي فرضتها الدولة المرينية على الأوربيين المتعاملين معها.

وفي ما يلي جدول مفصل عن نسبة الضرائب، وأماكن استخلاصها:

السلعة	الميناء المصدر لها	نسبة الضريبة
القمح	أسفي	4 دنانير ذهبية عن كل قفيز
القمح	أنفا	4 دنانير ذهبية عن كل قفيز
الشعير	أسفي	2 دنانير ذهبية عن كل قفيز
الشعير	أنفا	2 دنانير ذهبية عن كل قفيز
شمع العسل	سلا	4 دنانير ذهبية عن كل قنطار
شمع العسل	أنفا	1 دينار ذهبي وربع دينار عن كل قنطار
شمع العسل	اصيلا	48 درهما فضيا عن كل قنطار
جلود البقر	سلا	دينار ذهبي عن كل 100 قطعة
جلود البقر	آنفا	9 دنانير ذهبية عن كل 100 قطعة
جلود البقر	أصيلا	18،5 دينارا فضيا عن كل 100 قطعة

[1]- أنظر مثلا معاهدة 1236 ومعاهدة 1250 المبرمة ما بين جنوة وتونس.
[2]- Pegolotti, pp 273-274.

جلود العجول	أنفا	4،5 دينارا فضيا إذا تعدت زنتها 15 رطلا
جلود الخيول	أصيلا	10 دنانير فضية عن كل 100 قطعة
جلود الخيول	سلا	دينار ونصف دينار ذهبي عن 100 قطعة
جلود التيس	أنفا	دينار ونصف دينار ذهبي للقطعة الجلدية
جلود الخروف	سلا	30 درهما فضيا عن كل 100 قطعة
جلود الخروف	أنفا	ربع دينار ذهبي عن كل 100 قطعة
جلود الخروف	أصيلا	22 درهما فضيا عن كل 100قطعة
النيلة	سلا	نصف دينار ذهبي عن كل قنطار
النيلة	أصيلا	نصف دينار ذهبي عن كل قنطار
الأصواف	سلا	ربع دينار ذهبي عن كل قنطار
الأصواف	أنفا	ربع دينار ذهبي عن كل قنطار
الأصواف	أنفا	ربع دينار ذهبي عن كل قنطار
اللوز	أنفا	ربع دينار ذهبي عن كل قنطار
التمور	أصيلا	16 درهما فضيا عن كل قنطار
الشب	أصيلا	16 درهما فضيا عن كل قنطار
العاج	أصيلا	نصف دينار ذهبي عن كل قطعة
الكتان	أصيلا	16 درهم فضي عن كل ربع قنطار
الزيوت	سلا	إضافة إلى العشر تؤدى 18 درهما فضيا عن كل جرة
الزيوت	أنفا	إضافة إلى العشر تؤدى 18 درهما فضيا عن كل جرة

ورغبة في تشجيع المبادلات التجارية بين جنوة وبلاد المغرب، فإن الطرفين كانا يتفقان أحيانا على تحديد نسبة الضرائب المفروضة على بعض السلع والتخفيف منها. هكذا نصت معاهدة 1287 التي عقدتها جنوة مع تونس على ضرورة تخفيف نسبة

الضرائب على بعض السلع التي يستوردها الجنويون من الدولة الحفصية[1]، وهي كالتالي:

0.5٪ من قيمة الزيوت المبتاعة
3 دراهم فضية عن كل قنطار من الصوف وجلود الماعز
7 دراهم فضية عن كل قنطار من جلود البقر وشمع العسل
21 درهما فضيا من قطع جلود التيس المبتاعة

كما أن بعض السلع التي استوردها الجنويون من بلاد المغرب لم يفرض عليها العشر، بل استفادت من بعض الإعفاءات أو خفضت من نسبتها. فقد فرضت على التبر والسبائك الذهبية نسبة 5٪، واستفادت جنوة من إعفاء آخر من النسبة المفروضة على هذه السلع بمقتضى معاهدة 1272، ليعود العمل بنسبة 5٪ في سنة 1293[2]. كما أعفي الجنويون من دفع الضرائب على المجوهرات والأحجار الكريمة التي يحملونها لفائدة السلطان. وقد أبدت السلطة الحفصية مرونة كبيرة من خلال إعفائها للتجار الجنويين من أداء أي ضريبة على الحبوب، في حالة وفرتها بتونس ونقصها بجنوة، ونصت المعاهدات – كما سبق- على تحديد الكميات التي يمكن للجنويين حملها من تونس بدون أداء للضرائب في مثل هذه الحالات.

وترى" بالبي" أن لجوء السلطة الحفصية إلى توسيع العمل بأسلوب الإعفاء الضرائبي في حق الجنويين، كان محاولة منها لتنشيط مبادلاتها وتشجيع صادراتها[3]. والجدير بالإشارة إلى أن الدولة العبدوادية لجأت بدورها إلى إعفاء التجار الأوربيين من أداء أي ضريبة إذا ما نقلوا إليها الحبوب[4]. ومن المعلوم أن الدولتين العبدوادية والحفصية تحولتا إلى مستورد للحبوب في بعض الفترات، والتي ارتبطت بدون شك بالتقلبات المناخية وبالصراعات الداخلية. ويهمنا أن نؤكد على أن هذا الأسلوب الذي لجأت إليه السلطة العبدوادية، كان بدوره محاولة منها لتلبية حاجياتها من الحبوب في حالة نقصها.

1- Jehel, In Studi maghrebini, op cit, p 73.
2- Canale,Nuova, T3, p 191.
3- Balbi,Il trattatto, p 308.
4- Mas Latrie,Traités, p 353.

2-الضرائب الإضافية:

نصّت المعاهدات على بعض هذه الضرائب وحددت نسبها. لكن معظمها كان محصلة للممارسة المحلية، إذ تعوّد التجار الأوربيون على دفعها بمجرد وصولهم إلى المراسي المغربية، وحين مغادرتهم لها. والواقع أن المعاهدات لا تشير إلا لعدد قليل من هذه الضرائب، بينما رصد "دو ماص لاتري" العدد الأكبر منها، دون أن يحدد مصادره في ذلك. ونذكر من بينها ضريبة "Drogomanat"، وكما هو واضح من خلال اسمها، فإنها كانت تقدم للمترجمين، وقدرت في 0,5٪ من قيمة السلعة. وقد ذهب" دو ماص لاتري" إلى أن المعاهدات الجنوية المغربية لم تورد هذه الضريبة، وذلك على عكس المعاهدات بين البندقية وبلاد المغرب[1]. ولاشك في أن رأيه قد تأسس على المعاهدات المعروفة لديه عن العلاقات الجنوية المغربية. ونعلم أن معاهدة 1343 المبرمة بين جنوة وتونس أشارت إلى هذه الضريبة، وهي المعاهدة التي لم يكشف النقاب عنها إلا خلال السبعينات من القرن العشرين من لدن المؤرخة الإيطالية "بالبي بوتي" ، وقد قدرت المعاهدة هذه الضريبة في 5 دراهم فضية عن كل 100 دينار فضي من قيمة السلع[2].

ويتحدث "دو ماص لاتري" أيضا عن عدة ضرائب إضافية قدمها التجار الأوربيون لديوان البحر بالمراسي المغربية تتعلق بالرسو والإقلاع وواجبات الخزن والوزن وأجر عمال وموظفي ديوان البحر. ويمكن أن نضع ضمن لائحة هذه الضرائب بعض الأنواع التي وردت بالمعاهدات المنعقدة بين جنوة وبلاد المغرب، فمعاهدة 1343 تتحدث عن ضريبة "Rachaxii" ، وهم الحمّالون الذين ينقلون السلع داخل المرسى، وضريبة "Bastaxii" وهم الحمّالون الذين ينقلونها من الساحل إلى ديوان البحر[3]. وقد نجح الجنويون في الضغط على السلطة المغربية للتخفيف من ضريبة الكيل والميزان التي لا نعلم قيمتها[4].

وينفرد "بيغولوتي" بإيراد بعض الإشارات المتعلقة بضرائب إضافية فرضتها السلطة المرينية على التجار الأوربيين، ومن ضمنهم الجنويون بدون شك. وتتمثل هذه الضرائب في المنغونة "Mangona" التي كانت تستخلص من أسفي وأنفا وسبتة، وقد

1- Mas Latrie, Traités, p 353.
2-Balbi, Il trattato, p 308.
3- ضمن البنود 19 و29 و37 من المعاهدة.
4- Mas Latrie, p 355.

تصل إلى 1/16 من قيمة السلعة، وتؤدى عند وصول السلعة إلى الميناء، كما تتمثل في ضريبة الانطلاقة "Intalaca"، وتقدر ب 1,5٪ من قيمة السلعة بعد بيعها[1]، وقد تصل إلى نسبة 5٪ بمرسى سبتة[2].

لم تكن الضرائب الإضافية محددة بدقة، وغالبا ما خضعت للعرف، وكانت تؤدى عينا ونقدا، مما أدى أحيانا إلى نشوء خلافات بين التجار الأوربيين والمغاربة[3]. غير أن ذلك لم يمنع الجنويين من التردد على المراسي المغربية بحكم أهمية الأرباح التي أتاحتها لهم التجارة مع بلاد المغرب. وقد عبّر السلطان العبدوادي أبو حمو عن ظاهرة اللاتكافؤ في المبادلات الأوربية المغربية لما قال يوما: "لولا الشناعة لم أزل في بلادي تاجرا من غير الصحراء الذين يذهبون بخبيث السلع، ويأتون بالتبر الذي أمر الدنيا له تبع"[4]. ورغم ذلك، فإن عائدات الضرائب المفروضة على التجارة المتوسطية ، شكّلت مصدرا لا محيد للسلطة المغربية عنه نظرا لأهميته، وبدون شك ، فإن بعض المراسي المغربية كانت مدينة إلى حد كبير في حياتها الاقتصادية والاجتماعية للتجارة مع الأوربيين. ونخص بالذكر هنا سبتة التي كشفت إحدى الدراسات المعاصرة أن غالبية مداخيلها أتتها عن طريق مداخيل دواوين البحر[5]، ومرسى هنين باعتباره من أهم مراسي الدولة العبدوادية، وبجاية، وتونس. ولدينا مؤشر إحصائي عن تونس لا يخلو من الدلالة في هذا الصدد. فقد حصل ديوان بحر هذه المدينة خلال القرن 15م على 170 ألف دينارا سنويا، وهو ما يمثل حوالي 800 كلغ من الذهب أو 1/3 مداخيل الدولة الحفصية[6].

وقدمت السلطة ببلاد المغرب مختلف التسهيلات للجنويين لإجراء عملياتهم التجارية بالمنطقة، وخاصة منها ما يتعلق بالمستوى الضرائبي. فقد سمحت لهم بآجال معينة لتسديد الضرائب المفروضة عليهم، ونستدل على ذلك بما قام به قنصل الجنويين بتونس "أمبرنوس" Baliannus Embronus لمّا اطلع المشرف على ديوان البحر بالمدينة النقيه ابن مروان بضرورة التقيد بما نصت عليه المعاهدات السابقة، عن إمكانية أداء

1- Pegolotti, p 275
2- bid.
3- Dufourcq, l'Espagne, p 524.
4- المقري، نفح الطيب، ج5، ص206.
- الشريف محمد، سبتة الإسلامية، ص105.
5- Ferhat, Sabta,op,cit.
6- برنشفيك، ج2.

الجنويين للضرائب، بعد انصرام ستة أشهر على إجراء عملياتهم التجارية[1]. ولربما شكّل هذا امتيازا للجنويين ، إذا علمنا بأنه كان على البنادقة أداء ما عليهم من رسوم لفائدة ديوان البحر بتونس بعد مرور 15 يوما فقط من إجراء عملياتهم التجارية بها، وذلك حسب ما نصّت عليه معاهدة 1231 المبرمة بين البندقية وتونس.

ومن مظاهر تسهيل الأنشطة التجارية للجنويين بتونس كذلك، أن السلطة الحفصية كانت تبادر إلى إرسال مفتش ديوان البحر إلى الفندق الجنوي بالمدينة ليراقب السلع المجهزة للتصدير، وبعد أن يستخلص الضرائب الواجبة عليها يأمر بإغلاق الصناديق التي توضع بها السلع، ولا يمكن أن تفتح بعد ذلك، سواء بديوان البحر، أم بأي مكان آخر[2].

ويورد "بيغولوتي" مظهرا آخر من مظاهر تسهيل الدولة المرينية لنشاط الجنويين – والأوربيين عموما- بها. فقد كانت تسلم للتاجر وصلا يثبت أنه صفّى كل حساباته تجاه ديوان البحر، ممّا يخول له الانتقال حيثما شاء بدون أداء الضرائب مرة أخرى. ويسمى هذا الوصل ب "Albara"،[3] والكلمة كما هو واضح ترجمة للكلمة العربية "البراءة"، وجاءت بالبند 32 من معاهدة 1343 تحت اسم "Carta"، وقد ترد بالوثائق اللاتينية تحت اسم آخر هو"Instrumentum"[4].

وقد نصت مختلف المعاهدات التي أبرمتها جنوة مع بلاد المغرب على أن يتاجر الجنويون مع مراسي معينة، كما أن بيغولوتي لا يشير إلى بعض المراسي المغربية التي تعاملت مع باقي الأوربيين. فقد اقتصر على ذكر سبتة وأصيلا وأنفا وسلا وأزمور وأسفي. واللافت للانتباه أن الدولة المغربية حرصت دائما على أن يتم التعامل التجاري مع الأوربيين انطلاقا من مراسي معينة، حتى إن بعض المعاهدات نصّت على أنه في حالة تعرض جنوي ما للغرق، ونجاحه في النجاة، يُحرم عليه أن يستغل الفرصة للقيام بعمليات تجارية بالمناطق التي لم تنص المعاهدات على الاتجار معها[5]. والواقع أن هذا الإجراء لم تمله حيثيات عسكرية أو سياسية، بل كان مرتبطا برغبة السلطة المغربية في

---

[1]- Pistarino, Notaï,n°68.
-Jehel, Catalogue , n°68.

[2]- البند 31 من معاهدة 1343.

[3]-Pegolotti, p 276.
[4]-Balbi, Il trattatto, p 310, note 47.

[5]- البند 12 من معاهدة 1236 و1272.

التحكم في عائدات التجارة الخارجية، وفي الحد من عمليات التهريب، وذلك عبر تركيز دواوين البحر في مراسي معينة.

ويبدو أن بعض التجار الأوربيين قد استغلوا تساهل دول بلاد المغرب في عقاب المهربين، فتعاطوا لتهريب بعض المواد، وخاصة الدقيقة منها كالذهب والفضة. فكل ما كانت تقوم به السلطة المغربية في حالة التهريب، أنها تبادر إلى سحب السلع المهربة، وتكتفي بفرض الضرائب الرئيسة والإضافية التي جرى بها العمل، ولا تفرض أي غرامة على التاجر المهرب للسلع. ولم تكن السلطة تبادر إلى مداهمة الفنادق والمراكب الأوربية في حالة تسجيل عملية للتهريب، بل كانت تُشعر القنصل الذي يمثل بلد التاجر المهرب، لتجري عملية التفتيش تحت مراقبته. وقد وقفنا ضمن عقود الموثق "باتفليو" على حالة تهرب من دفع الضرائب من طرف الجنوي "فرنشيا" Dominicus de Vernacia الذي تم اعتقاله بتونس بعد تملص شريكه "بنيلوس" Pignolus Lechetis من دفع الضرائب الواجبة على كمية من الزيوت نقلها إلى تونس[1].

والظاهر أن تجاوزات الجنويين ببلاد المغرب، لم تبلغ نفس المستوى الذي كانت عليه تجاوزات البيزيين. فبينما نصّت مختلف المعاهدات التي عقدتها جنوة مع بلاد المغرب على المسؤولية الفردية في حالة اقتراف أحد الجنويين لتجاوزات بالمنطقة، فإن أبا عنان أبرم معاهدة مع البيزيين، أوجبت مسؤوليتهم الجماعية في حالة ارتكاب أحدهم لتجاوزات ببلاد المغرب[2].

---

[1]- Pistarino, Notaï n° 39.
-Jehel, Catalogue, n°39.

[2]- جاء في معاهدة 1358 التي ابرمها أبو عنان مع بيزة:
"شرطنا عليهم أيضا أنه إن وقعت من واحد منهم خيانة للمسلمين أو غدر في نفس ومال، فيوقف جميع من يكون ببلادنا حرسها لله تعالى من تجارهم، ويكونون محوطين محفوظين في نفوسهم وأموالهم إلى أن يقع الخلاص في ذلك ويحصل الانتصاف منهم" Amari, Diplomi,op. ci.

الفصل السادس:

العناصر القائمة بالتجارة الجنوية المغربية

1-العناصر المغربية

منذ بداية هذه الدراسة ما فتئنا نثير من حين لآخر قضية لاشك في أنها تستوقف المتتبع للعلاقات المغربية الأوربية في العصر الوسيط، ألا وهي مفارقة كثافة الحضور التجاري للأوربيين ببلاد المغرب، مقابل ضعف الحضور التجاري للمغاربة بالضفة الشمالية الغربية للبحر المتوسط. ولعل من أهم مظاهر هذه المفارقة، أن الأوربيين توفروا على فنادق وقناصل ببلاد المغرب، بينما لم يتوافر المغاربة على أي فندق، ولم يمثلهم أي قنصل بأوربا.

إن الحضور الباهت للتجار المغاربة بأوربا آنذاك، هو الذي جعل –لربما– أحد الباحثين الأوربيين ينفي توجههم إلى أوربا، وبالتالي فوجودهم بها، لم يتجاوز البعثات السفارية[1]. والواقع أنه بالرغم من إقرارنا بضعف الحضور المغربي بأوربا، فإنه غطّى معظم مناطق ودول غرب أوربا المتوسطية مثل، بيزة[2] وأراغون[3] وصقلية[4] وجنوب فرنسا، ومملكة قشتالة[1]، ويجب أن يرصد رغم ضعفه. ولدينا في المعاهدات ما يقوم

---

[1]- Renouard, Etudes, op cit, T1, p 416.

[2]- وقد أوضحت ذلك "بن ساسي" Ben Saci في رسالتها عن العلاقة بين بيزة وبلاد المغرب في العصر الوسيط.

[3]- أثبت" ديفورك "في أطروحته وجود عدة مغاربة بميورقة التي كانت تابعة لحكم ملك أراغون. فيما بين سنتي 1317 و1330. فقد وجد بها أبو العباس وسيدة تدعى هروفة؟ Haroffa وكلاهما من فاس. ووجد بها بعض التجار من الكتبة وهم إبراهيم القرطس؟Alquerts وابنه وعدة نساء إحداهن تدعى عائشة. وأخيرا من مدينة أصيلا وجد بها مغربي يدعى إبراهيم بن علي ونساء أخريات. أنظر: Dufourcq, l'Espagne, p 465. كما وجد بميورقة تجار من وهران وشار شال وجزائر بني مزغنة Ibid, p 471, note 4.

[4]- عن تجارة المغاربة مع صقلية، يمكن الرجوع إلى: الونشريسي، المعيار..ج9، ص452. ولا شك في أن استمرارية وجود المسلمين بالجزيرة رغم خضوعها للحكم المسيحي ، شجع التجار المغاربة على التعامل معها.

[5]- Krueger (H.G), The wares of exchange in the Genoese African trafic of the twelfth century, Speculum, 1937, XII, N1, p70.

...يجة على أن المغاربة توجهوا إلى الضفة الشمالية من الحوض الغربي للمتوسط بهدف التجارة. نصّت معاهدة 1270م بين السلطان الحفصي وشارل دانجو – أخ ملك فرنسا لويس التاسع عقب فشل حملته على تونس– على "أن يكون جميع من يتردد من المسلمين ...يين من بلاد أمير المؤمنين، وممّا هو تحت طاعته ...في أمان الله تعالى لا يعترض أحد ...هم في نفس ولا مال كثير أو قليل..."[2]، وفي المعاهدة التي عقدها أبو عنان مع بيزة، ...في الفصل الأخير منها على "أنهم –البيزيون– التزموا أن يكون العمل مع تجار المسلمين وغيرهم من المسافرين إلى بيجة وغيرها من بلاد البيجانيين بمثل الشروط المذكورة سواء في جميع ما ذكر وفسر، فوقفنا على ذلك وشرطنا عليهم حسبما التزموه"[3]. وترددت العبارة التالية في المعاهدات التي وقعتها جنوة مع تونس:

« Item Sarracani Salventur et custodientur Janue et in districtu Janue »

وتفيد ضرورة التزام جنوة بتوفير السلامة للمسلمين الموجودين بها وبالمناطق المجاورة لها. وإذا كانت المصادر العربية تلوذ بالصمت عن حضور المغاربة بجنوة، فإن المصادر الجنوية سمحت لنا بالتقاط بعض شذراته. فمنذ سنة 1204 – أي بفترة ليست ببعيدة عن المرحلة المدروسة– تتحدث الحوليات الجنوية عن هبوب رياح هوجاء على ميناء جنوة في 11 أكتوبر من هذه السنة، وأدت إلى تحطيم سفينة تدعى" Falco" كانت تتأهب للسفر إلى سبتة، وهي محملة بمواد للمسلمين، وذات قيمة كبيرة "cum magna pecunia sarracenorum"[4]. وحسب عقد مؤرخ ب28 ماي 1222، نقل التاجر السبتي محمد بن المعلم كمية من البضائع المختلفة، قدرت قيمتها ب350 ليرة إلى الجنوي "فشكومز" Vicecomes Beccorosso، وتم عقد البيع بمنزل الترجمان "دومنكو" Domingo، وحملت السلع على مركب يدعى"Bozana" في ملكية الجنوي "سبنولا" Spinola Giacomo وشركاؤه. وفيما يلي السلع التي يتحدث عنها العقد[5].

---

[1]نص الصلح المبرم بين المرينيين وقشتالة عقب الجواز الرابع لأبي يوسف يعقوب إلى الأندلس وهزيمة قشتالة سنة 684هـ/1285م، على أن يرفع سانشو ملك قشتالة "النصرانية عن تجار المسلمين بدار الحرب من بلاده". العبر، ج7، ص 483 وابن أبي زرع، القرطاس، ص359.

[2]- Talbi(M).Documents divers relatifs à la croisade de Saint Louis contre Tunis(1270).CT.T25.3et 4 Trimestre.N99-100,1977.

[3]أنظر الفصل الأخير من المعاهدة عند: Amari, Diplomi arabi.op.cit

[4]- Schaube, p 92, Ciasca, p 453, note4

[5]-Ferretto, Liber, Doc, N293, p100

105 قنطارا من النحاس أي 5.003،208(كلغ)
7 قناطير من القصدير(333،547كلغ)
17 قنطارا من المرجان(810،043كلغ)
6 قناطير من السكر(285،897 كلغ)[1]

وجاء في عقد مؤرخ بسنة 1271م ، أن مغربيا يدعى "Acigo" توفي بجنوة بعد أن خلف لائحة طويلة من الأشياء، تدل على أنه كان مستقرا بجنوة، ومارس أنشطة تجارية ومرتبطة بشؤون البحر، ومن هذه المواد 12 وزنا حديديا، وميزانان، و20 أبرة منها 18 مخصصة لخيط الأشرعة، وسبع طاقيات بيضاء...[2]

ويشير"دو ماص لاتري" إلى نشاط لتاجر تونسي بجنوة يسمى "Bocher" سنة 1251م بدون أن يحدد مصدره[3]. ولعله نقل الإشارة عن "كنال" مؤرخ جنوة الذي تحدث عن نشاط نفس الشخص خلال السنة ذاتها باسم" Bocherio" [4] – لعلّه أبو خير أو أبو بكر–. وقد استدعى إبرام الاتفاقيات بين جنوة وبلاد المغرب، وجود تجار من بلاد المغرب بجنوة ، وحضور مغاربة يزاولون بها مهمة الترجمة. ومن الأسماء المغربية التي تولت هذه المهمة "Abid Taïkli" [5] وعبد الرحمن الذي تولاها مدة ثلاث سنوات (1271–1274)[6]. ولا يخامرنا شك في أن المغاربة شكلوا نسبة مهمة من عدد المسلمين الذين تحدث الحميري عن وجودهم بإيطاليا ، فمدينة بونية وحدها كان يوجد بها "من المسلمين تجار أغنياء عددهم أزيد من أربعمائة".[7]

ولم يقتصر الحضور المغربي بجنوة على التجار المسلمين، بل ساهم اليهود المغاربة في التجارة المغربية الجنوية. ففي بداية القرن 13م، وُجد يهوديان من سبتة بجنوة[8]. وكان أحد يهود سبتة يقوم بدور المترجم بالمدينة نفسها[9]. وقد تعاطى يهود إفريقية الحفصية لتجارة عدة مواد، مثل الأقمشة والجلود والخمور والملح وشمع

كل المعادلات قدمتها باليطو في دراستها :
[1]- Balletto(Laura), Tra Genovesi e Musulmani nel 13 secolo,Mésogeios,7,2000,p 157.
[2] - Dufourcq, Aperçu, p729.
[3] - Mas Latrie, Traités, p 177
[4] - Canale, Nuova, T2, p 343.
[5]- Ibid, T2, p 352.
[6]- Mascarello, p 75.
[7]- الحميري عبد المنعم، الروض المعطار،تحقيق إحسان عباس، بيروت، الطبعة الثانية، 1984، ص 116.
[8]- Schaube, p 37.
[9]- Mosquera Merino, La Senoria, p 418.

العسل والمرجان[1]. ويبدو أنهم مارسوا أكثر تجارة الذهب، ولعبوا دور الوسيط ما بين بلاد المغرب وجنوة في تجارة هذه المادة، بحكم هيمنتهم على تجارة القوافل، حتى إن أحد الباحثين يذهب إلى أن طريق الذهب كان "طريقا يهوديا"[2]، وظل اليهود سادة التجارة القافلية إلى حدود القرن 16م[3].

إن هذه النماذج التي سقناها عن مظاهر الحضور المغربي بجنوة، مستمدة كلها من الأرشيف الأوربي. وقد تبين لنا من خلال التعامل مع مصادر الفترة المدروسة، أن كل المعاهدات المعروفة التي أبرمت بين جنوة وبلاد المغرب، محفوظة بالأرشيف الجنوي، ولم تشر المصادر العربية إليها، باستثناء إشارة ابن الحاج النميري إلى معاهدة بين أبي عنان وجنوة لم يحدد تاريخها، وقد غلب عليها الطابع الإنشائي الذي تحكّمت فيه رغبة ابن الحاج في تلميع صورة ولي نعمته السلطان أبي عنان، ومن شأن هذا أن يبعث على طرح بعض التساؤلات تتعلق بمسألة توثيق العقود والمعاهدات بالمغرب الوسيط. فهل احتفاظ جنوة وغيرها من المدن والدول الأوربية بعقودها ومعاهداتها، وضياعها لدى بلاد المغرب مرتبط بغياب مؤسسة رسمية تحفظ عقودها، أم إنه يعود إلى طغيان الشفوي على الكتابي بمجتمعات بلاد المغرب، أو إن تلك العقود والمعاهدات حُررت، وضاعت بفعل الحروب والاضطرابات السياسية؟[4].

لقد أثارت مفارقة كثافة الحضور الأوربي بالمراسي المغربية وضعف الحضور المغربي بأوربا مجموعة من الدارسين الذين قدموا تفسيرات مختلفة عن أسبابها. وبما أن التفسيرات التي قُدمت تنسحب كذلك على تعليل نفس الظاهرة بالعلاقات المغربية الجنوية، فإننا نرصدها هنا على أساس تاريخ نشرها. ويمكننا أن نجملها ضمن ثلاثة آراء:

– علّل "برنشفيك" عزوف المغاربة عن التوجه إلى أوربا بضعف القدرات البحرية لبلاد المغرب بفعل ركودها الاقتصادي وتقنيتها المتخلفة[5]. والظاهر أن رأيه لم يراع فترات القوة في الأسطول المغربي. ويمكن القول إن الأسطول المغربي كان قادرا

[1]-برنشفيك، ج2.
[2]- Dufourcq, l'Espagne, p 141.
[3]- Ciasca, p 461.
[4]- من الملاحظ أن التجارة القوافلية بدورها، لم تحفظ لنا عقودا تجارية ومعاهدات تجارة رسمية بين بلاد المغرب والسودان الغربي. ورغم كل ما قيل وأول عن دور هذه التجارة في تاريخ المغرب الوسيط فإننا نعدم إشارات عن تنظيمها "المؤسساتي" باستثناء ما أورده ابن الخطيب عن تنظيم شركة الإخوة المقري في القرن الثامن الهجري.
[5]-برنشفيك، ج2.

على مجاراة الأسطول الأوربي – على الأقل– إلى عهد أبي الحسن. فقد كان بإمكانه أن يهاجم المسيحيين في عقر دارهم حسب ما لاحظ "هيرس"[1]. وبالرغم من أن الأسطول الأوربي كان آخذا في التنامي، فإن "Pryor" لا يعتقد بوجود فارق كبير بين البحرية التجارية الإسلامية ونظيرتها المسيحية بالحوض الغربي للمتوسط مع بداية القرن 14م[2]. وخلص باحث معاصر في دراسته عن سبتة بعد مناقشته لرأي "برنشفيك" هذا إلى أن أسطولها "لم تكن تنقصه لا الحيوية ولا الوسائل التقنية... وتقنياته لم تكن متخلفة بالنسبة للسفن المسيحية... وإن كان هناك ركود تقني، فإنه يرجع إلى النصف الثاني من القرن 14م"[3]. ونعتقد أن الملاحظة نفسها تجري على أساطيل بجاية وتونس وهنين ووهران التي احتكرت غالبية التجارة الخارجية للمنطقة.

ولا نرى أن ضعف الأسطول كان عائقا أمام ارتياد المغاربة للمراسي الأوربية، وإن وجد تأخر تقني في هذا الأسطول، فإنهم تجاوزوه عن طريق عدة قنوات مكنتهم من الاستفادة من السفن الأوربية. فإضافة إلى عمليات القرصنة، فإنهم نجحوا في امتلاك بعض السفن إلى جانب الأوربيين[4]. وأحيانا امتلكوها كلية عن طريق شرائها بالرغم من موانع الكنيسة – كما سبقت الإشارة في محور سابق–، وأخيرا ، فإن بعض المعاهدات نصّت على تمكين المسلمين من السفن الجنوية الراسية بميناء تونس.

أما ما ذهبت إليه بعض الدراسات عن علاقة المسلمين بالبحر باعتبارها علاقة نفور، مثل دراسة "بلانهول"[5]، فالظاهر أنها ألغت التطور التاريخي، ويكفي أن نستحضر عصر الموحدين لمّا كانت بحريتهم تُمثل أحد أقوى الأساطيل بالحوض الغربي للمتوسط .

– تحدث "ديفورك" عن وجود حصار روحي "Frein spirituel" جعل المغاربة يستنكفون عن ركوب البحر باتجاه أوربا، وقد غذّى هذا الموقف تكريه بعض الفقهاء التجارة مع المسيحيين[6]. وانطلق موقف الفقهاء من التخوف من تعطيل المسلم للقيام بشعائره الدينية، إن هو سافر إلى بلاد الكفر، وإمكانية خضوعه لممارسات قد لا

[1]- Heers, Esclavage, p 25.

[2]- Pryor (J.H), Geographic, Technology and War, Study in the Maritime History of The Mediterranean, 649-1571, Cambridge, p 162.

[3]- الشريف محمد، سبتة، ص68.

[4]- Dufourcq, Commerce, op cit.

[5]- Planhol(X), L'Islam et la mer, La mosquée et le matelot, 7-20 siècle, Paris,2000.

[6]- Dufourcq, Commerce, p 181.

تتنافى مع الشرع الإسلامي، كما انطلق من مبدأ إضعاف العدو وعدم تمكينه ممّا يسمح له بتقويته[1]. الواقع لا ننكر أهمية العامل الديني والروحي في توجيه العلاقات بين ضفتي الحوض الغربي للمتوسط آنذاك، لاسيما وأن تاريخ المنطقة شهد عدة صراعات بين المسيحيين والمسلمين بالأندلس، وأن الفترة طبعت باستئناف الحروب الصليبية التي تجسدت في الحملة الفرنسية على تونس، والتي ما كانت لتتم لولا المساعدة الجنوية. ونعتقد أنه من الصعب حدوث تغيير سريع على مستوى تصور "الآخر" إذا كان عدوا سياسيا ودينيا، وأن تصوره راسخ في اللاوعي الجماعي. غير أنه مع كل ذلك، فإن الطرفين نجحا في الالتفاف حول الموانع التي وضعتها المؤسسة الدينية من أجل الاتجار مع الطرف الآخر، وقد سقنا عدة نماذج عن بيع الجنويين "المواد الاستراتيجية" لبلاد المغرب، كما أن المغاربة أوجدوا عدة صيغ لتجاوز الممنوعات الدينية ، بأن اشتروا حصصا معينة من السفن المسيحية، أو اشتركوا مع المسيحيين في العمليات التجارية.

والظاهر أن تكريه الفقهاء التجارة مع المسيحيين، طرح بقوة حينما كانت العلاقات الإسلامية المسيحية في حالة حرب. وقد قنّن بعض الفقهاء حالات عدم المتاجرة مع المسيحيين. فما لا يحق بيعه لهم، ينحصر في ما من شأنه أن يقويّ جانبهم ويعينهم على محاربة المسلمين[2]. وقد أجاز ابن رشد الجد أن يباع من المسيحيين "من العروض مالا يتقوى به في الحرب ولا يرهب به في القتال". ومن الملاحظ أن اجتهادات الفقهاء في هذا الشأن صبّت في اتجاه تكريه أو تحريم التجارة مع "دار الحرب" وليس مع "دار الكفر". وهذا يعني أنه كان بإمكان المسلم أن يتاجر مع دولة مسيحية توجد في حالة هدنة مع دار الإسلام. وقد نصت معظم المعاهدات التي وقعتها بلاد المغرب مع جنوة وغيرها من المدن والدول المسيحية على ضرورة متابعة الطرفين للقراصنة الذين يهددون تجارهما، في حالة ما إذا كانت تجمعهما الهدنة. ونتساءل عما إذا لم تكن النوازل التي عالجت مسألة التعامل مع المسيحيين وكرّهتها، قد طرحت في فترة

[1]- حول هذا الموضوع، يمكن الرجوع إلى الكتاب العاشر في التجارة بأرض العدو بالمدونة، وعند الونشريسي، المعيار، ج6، ص67 وص318. وقد ناقش المسألة كذلك الأستاذ بوطالب إبراهيم: بعض مظاهر التجارة الخارجية بالمغرب قبل 1956 وأسسها الشرعية، أعمال ندوة التجارة في علاقتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب، 1992، البيضاء، ج1، ص17 وما بعدها.

[2]- لم يكره ابن رشد أو يحرم نهائيا التعامل مع المسيحيين، ولم ير مانعا من "متاجرتهم إذا أتنمرا بأمان فذلك جائز... إلا أن يباعوا شيئا مما يستعينون به في حروبهم من كراع أو سلاح أو حديد ولا شيئا مما يرهبون به المسلمين في قتالهم مثل الرايات وما يلبسون به في حروبهم من الثياب فيباهون بها المسلمين وكذلك النحاس لأنهم يعملون منه الطبول فيرهبون بها المسلمين..." وفي نفس الاتجاه تصبّ مواقف باقي المذاهب. فابن حزم الظاهري يرى أن "التجارة إلى أرض الحرب حرام، غير أن "البيع منهم جائز إلا ما يقوون به على المسلمين من دواب وسلاح أو حديد أو غير ذلك" أنظر بوطالب، مرجع سابق، ص179.

توتر علاقات المسيحيين والمسلمين، وجرى تعميمها على جميع الفترات، دون أن تأخذ بعين الاعتبار فترات الهدنة، حين كان بإمكان الطرفين أن يُجريا علاقات تجارية بينهما؟

– يرى القبلي أن الدولة المغربية في العصر الوسيط أهملت الأسطول التجاري وحصرت اهتماماتها في الأسطول العسكري، واكتفت بتحصيل الموارد الجمركية، تاركة بذلك المجال للتجار الأوربيين لاحتكار التجارة الخارجية المغربية، وبالتالي لم يتم التفكير في الاتصال بالأسواق الخارجية عن طريق البحر.[1] ويبدو من خلال محور سابق- أنه من الصعب الحديث آنذاك عن وجود حدود فاصلة وواضحة بين ما نسميه حاليا بالأسطول التجاري والأسطول العسكري. ونعتقد أن الحرب كانت الحالة العادية في العلاقات بين ضفتي الحوض الغربي للمتوسط، ولذلك فكلّ رحلة عبر البحر، كانت رحلة تجارية وعسكرية في آن واحد، بل إن المعاهدات المبرمة بين بلاد المغرب وغرب أوربا المتوسطية، كانت معاهدات هدنة بالدرجة الأولى[2]. وكان بعض ملاكي المراكب يرفضون السير في بعض الإتجاهات البحرية درءا للأخطار والسقوط بيد القراصنة، وفي أحيان أخرى، كانوا يقبلون بالعروض شريطة الزيادة في أثمنة النقل، كما كان التجار يطالبون بأن تكون طواقم المراكب مسلحة، ويعبر عن هذا المطلب في العقود بعبارة "muniti ad ferrum"[3]. ومن المفيد الإشارة إلى أن جنوة أوجبت على تجارها المتعاملين مع بلاد المغرب انطلاقا من سنة 1316م، بألا يسافروا إليها دون تحديد شروط معينة للتسلح[4]. ولدينا عقد مؤرخ بسنة 1407م –لا يبتعد كثيرا عن الفترة المدروسة – يشرح بالملموس حيثيات الإتفاق الذي جرى بين الجنوي "ليركاري" ومجموعة من الحراس مقابل ضمان حماية سفينته أثناء الرحلة، ومما جاء فيه:" نحن ضباط البحر نعترف أمام الحاضرين في كتابة هذا العقد بأن نقوم بحماية سفينة "ليركاري" من اعتداءات مراكب القراصنة... وتُقلّ السفينة 73 رجلا من بينهم نحن 25 حراس الرحلة، وأما تكاليف الحراس فتتمثل في ضمان الطعام والأجور، ويغطيها مالك السفينة، وتستخلص ممّا فُرض من قيمة الشحن على السلع المحمولة في تلك الرحلة. وكتب في جنوة فاتح شتنبر 1407م"[5].

1- القبلي، مراجعات، ص60 وانظر كذلك أطروحته: Société, pouvoir, p 96.
2- Dufourcq, A propos de l'Espagne catalane et le Maghrib, R.H.C.M n°2, 1967, pp 44-46.
3- Jehel(G), La mer dans les relations entre Gênes et Le Maghreb, Mesogeios, 2000, p189.
4- Forcheri(G), Navi e navigazione a Genova nel Trecento, (il Liber Gazarie), Genova,1974, p 113.
5- Lopez, Medieval Trade in the Mediterranean world,London,1955,Doc 126,p246.

وقد زاد في هشاشة الأمن بالبحر الغربي للمتوسط، اشتداد عمليات القرصنة التي كانت تتبناها الدول وتعتبرها عملا مشروعا، في غياب "أسطول وطني" قادر على الحد من نشاط القراصنة[1]. وكما سبقت الإشارة، فإن التمييز بين الأسطول العسكري والتجاري لم يعد واضحا إلا بعد انتشار الأسلحة النارية على نطاق واسع مع مطلع العصور الحديثة.

ومهما يكن من أمر، فإن كل الآراء السابقة – فيما يبدو- حرّكها هاجس التأمل في ظاهرة ضعف الحضور التجاري المغربي بغرب أوربا في العصر الوسيط، باعتبارها من أهم ظواهر التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد المغرب آنذاك. فقد تُسعفنا على الكشف عن بعض الأسباب التي أفرزت فئة تجارية أوربية متوثبة تغزو الأسواق المغربية، والإسلامية بصفة عامة، مقابل فئة تجارية مغربية خجولة التحرك. ويبدو لنا أن ثمة بعض العوامل الأخرى عرقلت توجه التجار المغاربة إلى جنوة وإلى غيرها من الدول المسيحية. ويمكننا أن نرصدها ضمن ما يلي:

– غياب إطار ديني وسياسي يقنن الحضور المغربي بأوربا ويحميه: بغض النظر عن نصوص المعاهدات التي عقدتها بلاد المغرب مع الأوربيين، فإنهم توافدوا على بلاد المغرب وتاجروا واستقروا بها في إطار ما ينص عليه الشرع الإسلامي عن معاملة أهل الذمة- وإن كان مجيء التجار الأوربيين لبلاد المغرب لم يتخذ صفة الديمومة إلا في حالات نادرة- ولربما انطلاقا من هذا الإطار، يمكن أن نفهم لماذا توافر التجار الأوربيون على فنادق لهم ببلاد المغرب يقيمون بها بكل أمان، ويمارسون بها طقوسهم الدينية بدون إزعاج، طالما أنهم لا يمارسون ما من شأنه أن يخدش معتقدات المسلمين. ولاشك في أن القاعدة الشرعية المتعلقة بمعاملة أهل الذمة في الإسلام، قد ساهمت بشكل أو بآخر في تسهيل إقامة الأوربيين ببلاد المغرب والتجارة معها، وذلك بالرغم من التوتر الذي كانت العلاقات المغربية الأوروبية تعرفه من حين لآخر. وممّا له دلالته في هذا الشأن أن أحد البابوات نوّه باحترام سلاطين بلاد المغرب لمعاهدات الهدنة والتجارة، وبمواقفهم تجاه المسيحيين أثناء الحروب الصليبية، والتي لم يقفها بعض الملوك المسيحيين مثل "شارل دانجو" ملك صقلية. ونسجل في هذا السياق دعوة السلطان الحفصي رعاياه إلى عدم اتخاذ مواقف عدائية أو انتقامية من التجار الجنويين أو

1- Mas Latrie,Traités, p 176.

التجار المسيحيين الذين ساهمت دولهم في الحملة الصليبية الثامنة على تونس سنة 1270.[1]

ويبدو أن غياب إطار بالدول الأوروبية المسيحية، يقنن حضور غير المسيحيين بها، لم يشجع المغاربة المسلمين على التوجه إلى تلك الدول بكثافة. وقد زاد من تحرج انتقالهم إليها تشوّه الصورة التي كانت للمسيحيين آنذاك عن المسلم، وهي صورة "كاريكاتورية" ظلت متأثرة بالروايات التي نسجها الشرق البيزنطي وإيبريا المسيحية، ومطبوعة بكثير من الأساطير، إلى حدود المؤتمر الديني لفيينا سنة 1311، لمّا دعت بعض الأصوات المسيحية إلى ضرورة التعرف على الإسلام عن قرب، وخلق تواصل حقيقي بين المسيحيين والمسلمين[2]. وقد لاحظ "فلوري" أن الصورة التي تكوّنت للمسيحيين عن المسلمين كانت متخيّلة، وليست حقيقية. وقد بلغت الهوة بين الصورة المتخيّلة والصورة الحقيقية لدى المسيحيين عن المسلمين أقصاها بالمناطق الأوروبية التي لم تعرف تماسا مباشرا بين الطرفين – كما هو الحال بالنسبة لجنوة–، وذلك على عكس المناطق التي عرفت حروبا صليبية بينهما، كما هو الشأن في الأندلس، حيث وجدت كل الديانات السماوية، وبالتالي وجدت إمكانيات للتعرف على الطرف الآخر[3].

-هل كان المغاربة في حاجة ماسة إلى التجارة بأوربا؟ بملاحظة لائحة المواد التي شكلت واردات بلاد المغرب من أوربا، يتبين أنها لم تكتس ضرورة حيوية لدى المغاربة. فمعظم المواد الأساسية كانت تنتج محليا في حالة سيادة السنوات العادية أو السنوات المطرة. ونستحضر هنا بصفة خاصة الحبوب والأصواف والجلود. وقد

---

[1]- Pistarino, Notaï, pXIV.

وسجلت باحثة إيطالية نفس هذا الموقف المتسامح لملوك وسلاطين الدولة الإسلامية بالمشرق. وتورد في هذا الشأن شهادة الفرنسكاني" Simon Semonis " الذي لاحظ أن معاملة الأسرى المسيحيين بالقاهرة في القرن 14م كانت أليق من معاملتهم ببلدانهم الأصلية، أنظر:

Ajello, La connaissance de l'islam dans le mouvement franciscain 13 siècle, début du 14 siècle, in Colloque l'occident musulman, op cit, p 266.

[2]- Ajello, op cit, p 266 et suivantes.

ومن بين الدراسات التي اهتمت بصورة المسلم لدى المسيحيين في العصر الوسيط يمكن أن نحيل إلى:

- Lewis (B), Comment l'Islam a découvert l'Europe, La découverte, Paris, 1984.
- Duceillier (A), le miroir de l'Islam, musulmans et chrétiens au Moyen âge VIII-XI siècles, Paris, 1971.
- Senac (Ph), l'image de l'autre, histoire de l'occident médieval face à l'Islam, Flammarion, 1983.
- Libera (A), Penser au Moyen âge, Seuil, 1991.

[3]- Flori (J), Radiographie d'un stréotype. La caricature de l'islam dans l'occident chrétien. Sens et contresens, Revue Maroc et Europe, n3, 1992.

لاحظنا أن هذه المواد شكلت إضافة إلى الذهب، صادرات بلاد المغرب إلى جنوة في معظم الفترات. ويبدو أن هذه الوضعية لم تحمس المغاربة على الانتقال إلى أوربا بهدف التجارة، خاصة وأن التجارة القافلية أتاحت لهم أرباحا كبيرة – لربما- جعلتهم يستنكفون عن ركوب البحر وأهواله. كما أن واردات بلاد المغرب من أوربا لم تتشكل من مواد حيوية جدا وضرورية للمجتمع المغربي. فمعظم هذه الواردات تمثلت في الأقمشة والمنسوجات وبعض التوابل والزجاجيات، وغيرها من المواد التي كانت موجهة أساسا إلى الفئة العليا من المجتمع، أو ما يسميه ابن خلدون "بسوق الدولة".

وثمة عدة مساهمات حاولت أن تحدد نوعية الاقتصاد الذي ساد بالمغرب الوسيط. ومن ذلك أن "كلود كاهن" خلص في تقويمه للاقتصاد الإسلامي مع نهاية العصر الوسيط إلى أنه "اقتصاد مضاربة واقتناء"[1]. وفي دراسته عن ابن خلدون، انتهى لاكوست إلى أن الفلاحة بالمغرب الوسيط، لم تكن قادرة على تقديم "فائض إنتاج"[2]. واستفاد القبلي من الدراستين السابقتين، وذهب في أطروحته إلى أن الاقتصاد المغربي أواخر العصر الوسيط كان خاضعا لـ" نمط إنتاج عقيم قائم على فلاحة معاشية، وخاصة على مركنتيلية طفيلية.. مؤسسة على المضاربة والاقتناء.."[3]، ونصادف تحليلا متشابها لدى "فيديازوف" في مقالة تحمل العنوان التالي: "مركنتيلية طفيلية أو مجتمع منتج؟"[4].

الملاحظ أن محصلة هذه المساهمات جاءت كصدى للأدبيات التي شهدتها سبعينات القرن الماضي، في أفق الإهتمام بأنماط الإنتاج السائدة في التاريخ. ونعتقد أننا مانزال في حاجة إلى دراسات قطاعية لاقتصاد المغرب الوسيط، ولوضعية الملكيات الفلاحية، ولمجالات استثمار الفئة المتملكة لوسائل الإنتاج، وتمثلات المجتمع عن الأنشطة الاقتصادية، ولأوجه إنفاق السلطة باعتبارها محتكرة لوسائل الإنتاج، ويمكن أن نتساءل في هذا السياق عن مدى حصول فائض في الإنتاج أمام أساليب التغريم

---

[1]- Cahen (Claude), Quelques mots sur le déclin commercial du monde musulman à la fin du Moyen âge, Studies in the Economic History of the Middle East, Londres, 1967, pp31-36.

[2]- Lacoste(Y), Ibn Khaldoun. Naissance de L'Histoire, Passé du tiers-monde, Paris, 1966, p39.

[3]- Kably, Société, pp 96-97.

[4]- Vidiasof(M.F), Le Maghreb médiéval, mercantilisme parasitaire ou société productrice Anaquel de Estudios Arabes , Madrid, N3,1992, pp 241-246.

والمصادرة التي لجأ إليها الحكم بالمغرب الوسيط، وبالتالي عن فرص تكون فئة متوثبة من الفلاحين والحرفيين والتجار مستقلة عن السلطة؟....

– مزاحمة السلطة للتجار: توحي عدة قرائن بأن السلطة احتكرت التجارة المتوسطية ببلاد المغرب. فمن خلال معاهدة 1309 بين أراغون والدولة المرينية، يظهر أن المخزن احتكر تجارة الحبوب. ويكشف كتاب "بيغولوتي" عن احتكار السلطة نفسها لتجارة الأصواف والجلود والحبوب. ويبدو أن السلطة كانت مهيمنة على التجارة المتوسطية من خلال وكلائها. ويشكل عهد أبي عنان أحسن نموذج لهذه الظاهرة. فقد ساهم برأسماله في التجارة المتوسطية، إذ كان حوالي سنة 1355 م شريكا لتاجر ميورقي بنسبة النصف في شركته التجارية[1]. وتشير وثيقة اسبانية إلى أن سفنا جنوية وقشتالية ألقت القبض على سفينة وجدت عليها سلع في ملكية السلطان أبي عنان[2]. وأخيرا فإن المعاهدة التي عقدها هذا السلطان مع بيزة، تبرز أنه استفاد من بعض الامتيازات التجارية[3]. ولدينا قرائن أخرى عن هيمنة السلطة على التجارة المتوسطية بباقي فضاءات بلاد المغرب. ففي سنة 1250 توجه مبعوث من السلطان العبدوادي إلى برشلونة لبيع الشب بها وجلب بعض المواد منها[4]. وفي سنة 1315 ألقى قراصنة مسيحيون القبض على مركب كطلاني كان يحمل كمية من القمح في ملكية سلطان تلمسان[5]. بل إن السلطان العبدوادي عوّل على الميورقي "Pedro" سنة 1344 لينقل له القمح من هنين(مرسى لتلمسان) إلى بجاية[6]. وقام سفير السلطان الحفصي ابن اللحياني ببيع الحبوب لبرشلونة سنة 1314[7]. ونصادف في المصادر اللاتينية كلمة "Curia" والتي قد تعني الجهارك، أو جهازا تجاريا مرتبطا بالسلطان[8]. ومن ذلك أن الجنوي "Franceschino de San Sinesio" توصل من بجاية سنة 1272 بكميات من الشب لبياع بهذه المؤسسة، أي"Buzee Curia"[9]. وتكشف عقود الموثق "باتفليو" عن

[1]- Dufourcq, Commerce, p 168.
[2]- Dufourcq, Chrétiens, op cit, p 223.
[3]- Amari, Diplomi, p4.
[4] - Dufourcq, Commerce, p 168.
[5] - Valerian(D),Les élites politiques et l'activité économique des ports maghrébins(12-15 siècles), in Les élites politiques et l'activité économique des ports musulmans (13-15 siècles) Editions Maison des sciences de l'homme.Histoire urbaine.2007.p122.
[6] - Delores ,op, cit,p 386.
[7] - Dufourcq, Commerce, p 168.
[8]- Valerian.Bougie.p 535.
[9] - Valerian.Les élites,op,cit, p 123.

عمليات التجارية التي كانت تقوم بها هذه المؤسسة التابعة للسلطان الحفصي. العقود وردت الإشارة إلى دين عليها قدر ب 20393 دينارا فضيا، مع التنبيه العقد كتب باللغة العربية[1]. والظاهر أن السلطة بالغرب الإسلامي آنذاك من التجارة المتوسطية وممارستها من أهم انشغالاتها.[2]

وإذ نقدم هذه النماذج عن احتكار السلطة ببلاد المغرب للتجارة المتوسطية، آراء ابن خلدون حول علاقة الجاه والسلطة بممارسة التجارة. لقد خلص باحثين بعد قراءته لمقدمة ابن خلدون إلى أن التجارة الخارجية في الدولة المغربية في الحقيقة تجارة السلطان وحاشيته"[3]. ويمكن أن نتساءل عمّا إذا لم يكن إنزال بالتجارة المتوسطية، قد قلّل من إمكانية تعاطي التجار المغاربة لها، خاصة أمام التجارة القافلية وأرباحها. ولعلّ من الأمور الدالة في هذا المستوى أن ابن أثار التجارة القافلية حين حديثه عن العلاقة بين الثروة والتجارة، بينما سكت العلاقة بالتجارة البحرية.

من الملاحظات الناتئة أن المصادر المُطّلع عليها، لم تقف عند أي ردود فعل تجاه السلطة من أجل دفعها لتيسير العلاقات التجارية مع الضفة الشمالية من الغربي للمتوسط. ولعلّ هذه ملاحظة تنسحب على تاريخ المغرب الوسيط، وقد يكون الإستثناء ممثلا في تجربة سبتة العزفية حيث تشكلت فئة متوثبة بين العلم والسلطة والتجارة، وخاصة التجارة البحرية. وتبقى هذه التجربة من نوعها في تاريخ المغرب الوسيط بحاجة إلى مزيد من التساؤل عن أسباب تجذرها في التربة المغربية، فهل كانت سبتة العزفية آنذاك أقل مستوى حضاري من إشبيليا وبرشلونة والمدن البحرية الإيطالية بما فيها جنوة؟

[1] - N 25(12-03-1289).
[2] ... أن السلطان الحفصي ساهم برأسماله في عملية تجارية قام بها التاجر الجنوي" أركانتو" Archanto. وكان ... العزفي ممتلكا لربع سفينة لتاجر من طارغونيا يدعى" Jaume Castellar"، كما أن الوزير التلمساني هلال ... ممتلكا لـ3/4 مركب الميورقي" Anton"، وكان السلطان النصري ممتلكا سنة 1311 لنصف سفينة الجنوي "Manuelis de Negr...". أنظر: Dufourcq, Chrétiens, op cit, p 223.
... العصبية والدولة، ص418.

– معطيات بنيوية معرقلة: قلّلت بعض المعطيات الطبيعية البنيوية من إمكانية ركوب المغربي للبحر، ونخص هنا بالذكر شكل السواحل ونقص الخشب لصناعة السفن[1]. الشيء الذي – لربما– قلّص بدوره من فرص انتقال المغاربة إلى أوربا.

كل هذه العوامل وغيرها، مما يجب أن يبحث عنه، قمينة بأن تلقي مزيدا من الضوء على مسألة ضعف الحضور المغربي بأوربا في العصر الوسيط، والتي نعتبرها من أهم القضايا التي تحتاج في تاريخنا الاقتصادي والاجتماعي إلى دراسة أعمق، وبالتالي فما قُدم، بعيد كل البعد عن القراءة القطعية.

2–العناصر الجنوية:

تعاطت مختلف الشرائح الاجتماعية بجنوة للتجارة، ونظرا لتنوع هذه الشرائح وتنوع الخصائص التي اتخذتها التجارة الجنوية ببلاد المغرب، يمكننا أن نؤكد على المميزات التالية:

أ– توارث بعض العائلات التجارة مع بلاد المغرب:

لاحظ "كرويغير" تكرار أسماء بعض العائلات التي تعاطى أفرادها للتجارة مع بلاد المغرب من خلال بعض العقود التي تغطي الفترة المتراوحة ما بين 1154 و1164[2]. وسجل "لوبيز" استمرار الظاهرة نفسها في التجارة ما بين جنوة وبلاد المغرب في القرون 13 و14 و15م، ويقدم عن ذلك نموذجين من عائلة "مالفنت" Malfante و"فيفالدي" Vivaldi. فقد ساهم "مالفنت وليام" في الحملة الفرنسية على تونس، وقام "أنطونيو مالفنت" بعد ذلك بقليل ببعض العمليات التجارية بها، ونعلم أن "أنطونيو مالفنت" – آخر من نفس العائلة– قام في القرن الخامس عشر برحلته المشهورة التي قادته إلى توات، ورفع تقريرا تجاريا عنها إلى شريكه "ماريوني" Giane Marioni. أما بخصوص عائلة "فيفالدي"، فنعلم أن الأخوين "فيفالدي" "قاما بمحاولتهما الفاشلة لتجاوز رأس بوجدور أواخر القرن 13م، وبعد سنوات قليلة من ذلك، اقتفى "سارلوني" Sarleone Vivaldi أثرهما، وفي النصف الأول من القرن 14م قام "بندتو" Bendetto فيفالدي بنفس المحاولة، وخلال القرن 15م توفي أحد عناصر

[1]- نستحضر – للدلالة على هذا المشكل– ما قام به السعيد أحد خلفاء الدولة الموحدية لما بادر إلى استعمال خشب جامع حسان لصناعة السفن، أنظر الذخيرة السنية، ص66.

[2]- Krueger, Genoese.op.cit.

الأسرة بأسفي، ليس ببعيد عن السواحل التي مرت بها سفينة الأخوين "وديـ... ...ولينو" Vadino وUgolino سنة 1291[1]. ووقف" شياسكا" عند الملاحظة ذاتها ... عائلة "Jacques D'oria". فقد قام أفراد منها بعدة أنشطة ببلاد المغرب، أهمها رحلة التجارية ل"دوريا جاك" لأسفي سنة 1253، وتمويل D'oria" تدسيو" Teti... لرحلة الأخوين فيفالدي سنة 1291. كما أن أسفي استقطبت تجارا من تلك ... إلى حدود القرن 15م[2]. و لاحظت بالبي"Balbi" الظاهرة نفسها عن نشاط ... "سبينولا" Spinola التي تاجر أفراد منها مع بلاد المغرب طيلة القرنين 13 و14م[3]. وتجب الإشارة إلى أن العقود التي عثرت عليها الباحثة الإيطالية "باليطو" عن مجموعة من العمليات التجارية التي قام بها بعض الجنويين، وحررت بتونس، تتضمن ... "Baldassare Spinola" الذي تاجر أيضا مع بجاية، ولا يرد ضمن أسرة Spinola" التي يشير إليها "جيهل" في أطروحته، ولا من بين وثائق الموثق "...بنليو"[4].

وقد نتجت عن هذه الظاهرة استمرارية بعض العائلات في التحكم في تجارة بعض المواد بفعل التراكمات التي اكتسبتها عناصرها في التجارة مع بلاد المغرب، كما نتج عنه استقرار عائلات لمدة طويلة بالمنطقة، كما هو الشأن بالنسبة لعائلة "شبو" Cibo de Ci... التي استقرت على الأقل لمدة 30 سنة بتونس خلال القرن 13م[5]. وتقدم هذه العائلة نموذجا حيا عن المزاوجة بين امتلاك السلطة السياسية بجنوة والتعاطي للتجارة الخارجية، بما فيها التجارة مع بلاد المغرب، وذلك بالرغم من أنها لا تظهر في الحوليات الجنوية إلا ابتداء من سنة 1241. فقد كان "لنفرنكو شبو" ممثلا بمجلس ... بجنوة سنة 1241، وبالمجلس نفسه كان ممثلا "وليام شبو" سنة 1265، وكان "أنطونيو شبو" ممثلا بمجلس القدماء بجنوة سنة 1305، وبه كان "تديزيو شبو" سنة 1311. ونجد عناصر من هذه العائلة سفراء لجنوة ببلاد المغرب في الفترة المدروسة. ... بأن "وليام شبو" كان من الحاضرين لمعاهدة 1250 الموقعة مع تونس الحفصية،

[1]- Lopez, Studi, pp 7-8.

[2]- Ciasca, p 450 et p 464.

[3]- Balbi, Il trattatto, p 302 note 20.

... أفضى اهتمام بعض العائلات الجنوية بالتجارة مع بلاد المغرب إلى تكوين شبه شركات عائلية، وتضم مجموعة من أفرادها الذين يشتركون في عمليات تجارية معينة، ونسوق هنا على سبيل المثال نموذج أسرة "Dentuto ...نتو". ففي سنة 1284 توصل "دنتوتو Spanonino" بقراض استثمره في التجارة مع تونس، وقد ساهمت في ...ريك له "Agnesina" وأخته "Andiriolo" أنظر Jehel, Les Gènois, p 145.

[4]- Balletto, Tra Genovesi, p 168.

[5]- Jehel, les Génois, p 417.

وكان مبعوثا لجنوة إلى سبتة سنة 1262، وكان "موسو شبو" من الحاضرين بمعاهدة 1272، كما أنه كان وراء اتفاق جرى بين السلطان الحفصي وكومونة جنوة لتجهيز سفينة وضعت تحت قيادة "Rolando Ascherio" لمواجهة الأسطول البيزي سنة 1283. وأما الأنشطة التجارية لأفراد عائلة "شبو" ببلاد المغرب، فكانت متعددة. ويمكن أن نستحضر "انريكو شبو" الذي تعاطى لتجارة الكتان بين سبتة وجنوة ،وكان يقيم لبعض الوقت بالمدينة المغربية، أو "انطونيو شبو" الذي توصل من خلال عقد مؤرخ بثالث ابريل 1281 بوكالة من" Percivalle Raffaele De Mari" لبيع أحد المنازل بفندق الجنويين بتونس[1]. ولعل مما يؤشر على أهمية حضور عائلة "شبو" الجنوية ببلاد المغرب أن " Andreuccio Cibo" أصبح يحمل لقب "القائد" "Alcayt" بالدولة الحفصية سنة 1353.[2]

لقد استتبع هذا الاستقرار الطويل لبعض العناصر الجنوية ببلاد المغرب، امتلاكها لبعض الدور والحوانيت بها. وقد قدمنا عن ذلك نماذج لبعض الجنويين الذين امتلكوها بسبتة وبتونس. ويمكن أن نضيف إليهم التاجر "Idone" الذي لا تحدد المصادر ممتلكاته ببجاية.[3] ويبدو أن بعض العناصر تخصصوا في تجارة مواد معينة، كما هو مع "Gandulfino de Quarto" الذي عرف باستيراد الصوف وشمع العسل من بجاية في القرن 13م/ 7هـ.

لقد رصد مجموعة من الدارسين الإيطاليين المتخصصين في تاريخ جنوة وعلاقاتها الخارجية في العصر الوسيط الأسر الجنوية التي كان لها حضور أكبر بالفضاءات الخارجية، وفي محاولة لتقديم تقرير مركب عما جرى بالمؤتمر العلمي الذي احتضن النقاشات عن هذا الموضوع، انتهى "بسترينو" إلى أن الأسر الجنوية المهمة التي أكدت حضورها ببلاد المغرب في القرن 13م هي: "غتلوزيو" و"شبو" ودي كاستيلو" و"امبرونو"... وفي القرن 14م، نصادف الأسر التالية: "دوريا" و"دي ماري" و"دي

1- للمزيد عن هذه العائلة، يمكن الرجوع إلى:
Jehel (Georges), Les Cibo de Gênes, Un réseau méditerranéen au moyen âge in Migrations et diasporas méditerranéennes (10-16 siècles). Publié par Michel Balard et Alain Ducelier, Publications de la Sorbonne, 2002.
2- De Mas Latrie, Traités, pp 64-65.
3- ورد ذلك في العقد المؤرخ ب28 يوليوز 1240 ASG، ضمن المجموعة 11 الورقة 231.

و" و"فيشي" و"دي جنتيلي" و" دي كريمالدي" و"لركيرو" و"لوملليني" و"دي ولا"...[1]

ب-تعاطي كل الشرائح الاجتماعية الجنوية للتجارة مع بلاد المغرب:

لم تكن التجارة مع بلاد المغرب منحصرة في فئة معينة من المجتمع الجنوي، بل مفتوحة في وجه كل الشرائح[2]. ويبدو من خلال 131 عقدا حرره الموثق بليو" بتونس سنة 1289، أن الجنويين الذين تاجروا مع بلاد المغرب، كانوا في أناسا عاديين داخل المجتمع الجنوي[3]، إذ وجد من بينهم بعض الحرفيين، مثل اط والحداد والخراز[4]. فهذا "Ronaldo de Caneto" كان تاجرا للأجواخ بجنوة ، شتري سلعته من لمبارديا وفرنسا وفلندرة، ثم يقدمها لتجار آخرين في صيغ القراض ها بتونس وسبتة، ومبالغها متوسطة لا تتجاوز في الغالب العشرين ليرة[5]. ومثله لك تاجر التوابل "Oberto de Levante" الذي استثمر من أجل التجارة مع تونس ليرات و12 ليرة سنة 1252، و7 ليرات في تجارة الخمور سنة 1254[6]. والظاهر أن المسافة بين جنوة وبلاد المغرب، مقارنة مع المسافة بين جنوة وباقي الأسواق رقية، شجع على تعاطي التجارة مع بلاد المغرب لأنها لم تكن تتطلب أموالا كبيرة. التجارة مع المشرق فقد مارسها تجار جنويون محنكون ومنتمون لعائلات عرفت وتها في المجتمع الجنوي[7].

غير أن هذه الملاحظة لا تقلل من أهمية الأرباح التي جناها الجنويون من تهم مع بلاد المغرب. فقد كانت رؤوس الأموال الجنوية المستثمرة في التجارة مع لاد المغرب آخذة في التزايد طيلة القرنين 13 و14م[8]. وانتهى المطاف بالجنويين إلى كار تجارة بعض السلع ببلاد المغرب، وخاصة "ضريبة الملح" وموارد المصائد تونس الحفصية[9]. وبفعل التسامح الديني والمرونة التي أبدتها السلطة المغربية في معظم ترات، توافد الجنويون بكثرة على بلاد المغرب حيث حصلوا حسب تعبير بروديل

1 - Dibattito su Grandi Famiglie,op.cit,p 141.
2- Lopez, Studi, p 22.
3- Pistarino, Notai, p XXXIII.
4- Jehel, Les Génois, p 404.
5- Valerian,Bougie, p 577.
6- Ibid, p 583.
7- Balard, Notes, p 375.
8- Balletto, Da Genova al Maghrib,op.cit.
9- رونشيك، ج1، ص464.

على "الامتيازات تلو الامتيازات"[1]. وخلص أحد الباحثين العارفين بالعلاقات المغربية الأوربية خلال العصور الوسطى إلى أن استفادة المدن الإيطالية من التجارة مع بلاد المغرب "مسألة لا تناقش"[2].

لذلك حرصت بعض العناصر الجنوية الثرية على استثمار رؤوس أموالها في التجارة مع بلاد المغرب. فعائلة "شبو" Cibo كانت من العائلات الارستقراطية بالوسط الجنوي[3]. وعائلة" Tedesio D'oria" تعاملت في آن واحد مع بلاد المغرب ومع الموانئ الشرقية للبحر المتوسط[4]، ونفس الأمر يقال عن نشاط الأخوين "بندتو" Benedetto و"منويل" "Zaccaria Manuel، وكان التاجر "سبنولا" Gabriele Spinola" التي تاجر مع تونس سنة 1289 ممتلكا لشركات تجارية خارج جنوة[6]. ونعلم أن "سبنولا"Spinola Cristiano de من أفراد نفس العائلة، كانت تجمعه بالسلطان المريني أبي يعقوب علاقات وطيدة، وأقام بجانبه بتلمسان خلال الحصار المريني للمدينة[7]. وكان التاجر "سجمبلدو" Leonardi de Sigembaldo الذي حضر توقيع معاهدة 1287 مع تونس، من الأسماء التجارية الكبرى بجنوة[8]. بينما كان "بشكوال أوزوديماري" Usodimare الذي يتردد اسمه عدة مرات بعقود الموثق "باتفليو" ممتلكا لسفينة "S.Giovanni" التي قامت بعدة رحلات تجارية بالبحر المتوسط.

ج- توزع التجار بأهم مراسي بلاد المغرب:

تكشف بعض العقود على أن التجار الجنويين بحثوا عن الأرباح ببلاد المغرب بأهم المراسي التي سمحت لهم السلطة المغربية بالتجارة معها، ونخص بالذكر سبتة وبجاية وتونس التي احتكرت التجارة المغربية الجنوية. ونورد هنا بعض النماذج عن ذلك من خلال التاجر "جيوفاني" Giovanni de Pallo الذي تاجر في آن واحد مع سبتة وتونس، و"بنكريوس" Bancarius Oberto الذي تعامل مع تونس وبجاية وسبتة[9]، و"كفرونكو" Cavarunco Ogerio الذي تعامل مع المراكز نفسها[1]. وسبقت

[1]- Braudel, la Méditerranée, T1, p 107.
[2]- Dufourcq, l'Espagne, p 561.
[3]- Canale, Nuova, T2, p 668.
[4]- Byrne, Genoese, p 66.
[5]- Ibid, p 65.
[6]- Pistarino, Notaï, p XXXIV.
[7]- Dufourcq, l'Esapgne, p 351 et 371.
[8]- Mas Latrie, Documents relatifs, op cit, pp 440-459.
[9]- Balletto, Da Genova, op, cit.

...ت الإشارة إلى الرحلة التجارية التي قام بها بعض الجنويين إلى سبتة في سنة ...[1]، حيث طرح أمامهم بعد وصولهم إلى المدينة اختيار المكوث بها طيلة فصل ... أو الاستمرار نحو بجاية وتونس لقضاء نفس الفصل بها. وثمة بعض التجار ...يين الذين جعلوا من بلاد المغرب وجهتهم الوحيدة، ولم يتعاملوا مع المشرق. ومن ...لات الجنوية التجارية التي كانت حاضرة ببلاد المغرب وغائبة بالمشرق ...تكوني" Stancone و"دي كروشي" Di Croce و"لكريللا" Lacarella ...كريمالدي" Grimaldi...[2]

د-تعاطي النساء الجنويات للتجارة مع بلاد المغرب:

سجلنا ممارسة الجنويات للتجارة مع بلاد المغرب منذ القرن 12م/ 6هـ[3]. ...خلال الفترة المدروسة تزايد عدد النساء الجنويات المتعاملات مع بلاد المغرب. ...تطلعنا الوثائق ببعض الأسماء، منهن "روكسيا" Roxia و"ألدا" Alda أرملة ...برنثو" Embracio و"أننا" Anna أم "Ricio Marzoco Agnesia." والملاحظ أن ...هن ساهمن في علميات قراض باعتبارهن صاحبات رؤوس الأموال[4]. وكانت ...'Giacomina" زوجة "Giacomo" وStefania" أم "Giovanni" و"Adelina" ...أرملة "Simone" كلهن من نساء جنوة اللائي استثمرن أموالهن في التجارة مع ...بجاية[5]. وتحدث"شياسكا" عن مساهمة بعض النساء الجنويات في التجارة مع أسفي ...في القرن 14م/ 8هـ.

غير أن حضور النساء الجنويات في التجارة مع بلاد المغرب، لم يقتصر على ...تمويل العمليات التجارية انطلاقا من جنوة فحسب، بل انتقلن للتجارة مع بلاد ...المغرب. وتكشف عقود الموثق "باتفليو" عن حضورهن بتونس، بالرغم من أنه لم يكن ...منتظما. ولعل هذا لا يتفق مع ما ذهب إليه "برنشفيك" من تحريم وجودهن بالفنادق[6]. ...بالدلالة على ذلك نسوق حالة معبرة. فبشهادة الجنويين "Ugo" و"Alberto" بفندق ...الكطلانين بتونس، قدمت الجنوية "كطلنينا" DE Catalina ابنة "فرسرريو"

[1]- Valerian, Bougie, p 578.
[2]- Balard, Notes, p 377.
...نتاك الجنويتان "اديلا" Adela زوجة "سبينولا" Oberto Spinola وزوجة جنوي أخر يدعى وليلم "De Fontana "مع سبتة أنذاك، أنظر .Schaube, p 347
[4]- Balletto, Da Genova,op,cit.
[5]- Valerian,Bougie,p 581.
[6]- Ciasca, Un centro, p 453.

Freserario Guido شكوى ضد مواطنها" بوبيو" باعتبارها حاملة منه في شهرها الثالث، والتزمت بأن تسلم المولود إلى والده، أكان ذكرا أم أنثى[1]. وبعد دراسة عميقة لوضعية المرأة بجنوة خلال القرن 13م، خلص "بستزنو" إلى أنها كانت حاضرة بمختلف الأسواق التي تعامل معها التجار الجنويون، وأنها لم تكن مجرد زوجة وأم قابعة بالمنزل، بل كانت امراة أعمال" Donna d'affari "[2].

هـ-هل غاب يهود جنوة عن التجارة مع بلاد المغرب؟:

لم نعثر- من خلال الوثائق المطلع عليها- على إشارة تفيد تعاطي يهود جنوة للتجارة مع بلاد المغرب في الفترة المدروسة. ولعل هذه الملاحظة تنسجم مع ما ذهب إليه "رونوار" بصدد غياب اليهود عن التجارة الكبرى للمدن الإيطالية، بحكم سيطرة المسيحين عليها[3]. ويعلل "اشتور" ضعف الحضور اليهودي بجنوة بسياستها في الحد من استقرارهم بها لمدة طويلة. ذلك بأنها لم تسمح لهم بالإقامة بها لأكثر من ثلاثة أيام، ويستند في رأيه على ما لاحظه الرحالة اليهودي بنيامين الطليطلي من ضعف وجود اليهود بجنوة عند زيارته لها[4]. وتجدر الإشارة إلى أن يهود أراغون تعاملوا مع بلاد المغرب[5]. ولعل نشاط يهود جنوة قد تركز أكثر على أعمال الصيرفة والعمليات الربوية التي حرمتها الكنيسة[6]. وتجب الإشارة إلى أن "بايرن" تتبع أنشطة الجنوي ""بلانكردو" الذي استثمر أمواله في التجارة مع المشرق وبلاد المغرب في القرن 12م/6هـ ورجح أصله اليهودي.[7] كما أن "موسكرا مرينو" ترجح أن يكون " Ottobonus " ابن "Nicolas de La Cruz" الذي يظهر اسمه في" معونة" سبتة من أصل يهودي[8].

[1]- Jebel, Les Génois, p 404.

[2]- Pistarino, Notai, n°29.

[3]- Pistarino, La donna d'affari a Genova nel secolo XIII, Miscellanea di storia italiana e mediterranea, Genova, 1978, p 168.

[4]- Ashtor Eliahu, Gli Ebri nel commercio mediterraneo nell' alto medioevo(10-16 sec),in Gli Ebri nell' alto medioevo, Spoleto,1980, p 73.

[5]- Renouard, Etudes, T1, p 420.

[6]- Dufourcq, l'Espagne.op.cit.

كما أنه كانت ليهود بلاد المغرب علاقات تجارية مع مملكة أراغون، وتكشف وثيقة إسبانية عن وجود علاقة تجارية مباشرة في 1 يونيو 1319 بين ملك أراغون جاك الثاني ويوسف كوهن "Jucef Coffen" من يهود سبتة، أنظر:
Dufourcq, Chretiens, op cit, p 222.

[7]-Byrne(H), Easterners in Genoa,Journal of the American Oriental Society,38/1,1918,p 181.

[8]- Mosquera Merino, La Senoria, p 421.

3- التفاعل الحضاري بين جنوة وبلاد المغرب:

سمحت العلاقات بين جنوة وبلاد المغرب بمختلف صيغها، أكانت سلمية بفعل الدبلوماسية والتجارة، أم بالاصطدامات العسكرية، بتبلور تمظهرات حضارية يؤثر من خلالها كل طرف بالطرف الآخر،علما بأن التأثر الجنوي بالمعطيات المغربية، يبدو واضحا أكثر من تأثر بلاد المغرب بالمعطيات الحضارية الجنوية. وفي هذا تأكيد مرة أخرى على أن مبادرة الفعل في العلاقات بين جنوة وبلاد المغرب، كانت تأتي غالبا من الجنويين. ويبرز في هذا المضمار اسم "بلغريني" الذي خصص مجموعة من الدراسات لمراقبة التأثيرات الحضارية العربية في منطقة ليغوريا التي تنتمي إليها جنوة[1].

لعل من أهم الخلاصات التي تسمح بها تلك الدراسات، أنه يصعب تحديد المصدر العربي الذي انطلقت منه التأثيرات العربية إلى ليغوريا. ومن المعلوم أن الإشعاع التجاري للجنويين غطّى معظم مناطق الحوض المتوسطي، إذ احتكوا بالعرب في الأندلس وصقلية وبلاد المغرب والمشرق الإسلامي، كما هو في جبيل التي كانت شبه مستعمرة جنوية، فضلا على أن الجنويين ساهموا في الحروب الصليبية التي لم تكن مجرد مواجهات عسكرية ، بل إنها سمحت لهم بنهل بعض مظاهر الحضارة الإسلامية.

وكيفما كان الأمر، فإن مختلف قنوات الإتصال، من سفارة وتجارة وارتزاق،..التي جمعت بلاد المغرب بجنوة ،لاشك في أنها ساهمت في تسرب بعض التأثيرات الحضارية المغربية إلى جنوة. ولعل أهمها تجلى في المجالات التالية:

أ- الأسماء العائلية: يرى "بلغريني" أن عشرين اسما عائليا من أصول عربية – على الأقل – وجد بجنوة أواخر العصر الوسيط. وبعد تفحص هذه الأسماء، يبدو أن بعضها كان متداولا ببلاد المغرب آنذاك. ومنها:

-Marzuccus (مرزوق): يظهر هذا الاسم بالوثائق التي حررها الموثق "جيوفاني سكريبا" في القرن 12م/ 6هـ ثم في الوثائق التي جمعها "فريطو" عن الأنشطة التجارية للجنويين في القرن 13م / 7هـ وكذلك بالجزء الخاص بالنصف الثاني من القرن نفسه بالحوليات الجنوية. كما جمعت "ايرلدي" لائحة طويلة بالأسماء

[1]- Pellegrini (G B)- Contributo allo studio arabe in Liguria, in Miscellanea storica Ligur Milano, 1961.

- L'élement arabo nelle lingue neolatine con riguardo alla Italia, in Occidente e l'Islam ne alto medioevo, Settimane di studio del centro di sudi sull'alto medioevo, 2 vol, Spoleto 1965

العربية السائدة ما بين القرنين 11و14م، وبالضبط بوثائق تغطي سنوات 1260-1261 – 1262-1367-1386 بمنطقة "لونجيانا" وهي إحدى المناطق المشكلة لضواحي جنوة.

– Marruffus (معرف أو معروف): نجده ببعض الوثائق الجنوية التي تغطي القرنين 12و13م.

Bufarus– أو Bufarius (أبو فارس): ورد بالوثائق التي حرّرها الموثق "جيوفاني سكريبا" وبالحوليات الجنوية (الجزء الثاني) وبالوثائق التي جمعها "فريطو" عن أنشطة الجنويين التجارية للقرن 13م.

هذه بعض الأسماء العربية التي انتشرت بجنوة أواخر العصر الوسيط، والتي لا تستبعد مرجعيتها المغربية. وثمّة أسماء عربية أخرى من الصعب تحديد الجهة التي دخلت منها إلى جنوة، مثل "Alcherius" (الخير) و"Alfalchinus" (الفقيه) و"Calefus" (خليفة).

ب– الكلمات الحضارية: تدوولت بجنوة بعض الكلمات في الحياة اليومية ذات المرجعية العربية، مثل"Fullano" و"Agibbo" و"Cazibba" (فلان وعجيب وكذبة). وإذا كانت هذه الكلمات قد تسلّلت إلى الوسط الجنوي بفعل تعامل الجنويين مع المناطق العربية بالحوض المتوسطي، فإن كلمة Bezzefe "بزاف" (بالجزاف) التي تعني الكثرة، تستمد مرجعيتها أكثر من التداول اليومي ببلاد المغرب.

وثمّة كلمات حضارية أخرى استعملت بجنوة أواخر العصر الوسيط، لا نستبعد أن دخولها إليها ناتج في جزء منه عن تفاعل علاقاتها مع بلاد المغرب. ومن هذه الكلمات:

– Garbo أو Garbino، وهي الريح التي تهب على جنوة من الجنوب الغربي، وقد وردت بالوثائق الجنوية للمرحلة المدروسة للدلالة على جهة بلاد المغرب، أو أحيانا على المغرب الأقصى أو الجهة الشمالية الغربية منه.

– Darsena (دار الصناعة): لعل أول ذكر لها جاء بالحوليات الجنوية بمناسبة الحديث عن أحداث سنة 1147، واستعملت بها للدلالة على نفس ما تعنيه في المصادر العربية، أي دارصناعة السفن.

Cafino- (القفة): وردت بالوثيقة التي تحدثت عن النشاط الذي قام به ...جر السبتي محمد بن المعلم بجنوة سنة 1222م.

Arbara- أو Albara (البراءة): هي عبارة عن وصل كانت الجمارك المغربية ...ه للتاجر الإيطالي، ليشهد على أنه صفىّ كل حساباته تجاهها، وقد ترد بالوثائق ...وية أيضا باسم" Carta" أو"instrumentum".

Maona – أو Mahona : وردت كثيرا بالوثائق التي أرخت للحملة الجنوية ...ى سبتة سنة 632هـ/ 1234م. وقد كتب "دي توتشي" دراسة خاصة عن معونة ...ة، وهي أول معونة أشارت إليها الوثائق الجنوية. والمعونة عبارة عن أسلوب مالي ...جاري أصبحت كومونة جنوة تلجأ إليه، كلّما عجزت عن توفير الموارد المالية القمينة ...ن سيطرتها على أحد المراكز البعيدة أو إدارتها، فتوكل إلى بعض الأفراد أو الأسر ...فير الموارد المالية، حتى تتأتى الأهداف التجارية والمالية والعسكرية للكومونة.[1] وقد ...بحت معونة سبتة بمثابة أنموذج لتجارب أخرى أخذت بها جنوة في مستعمراتها ...بحر الأسود سنة 1362.

Calega – (الحلقة): هي طريقة البيع بالحلقة، أي بالمزاد العلني. ورد ذكرها ...حوليات الجنوية بمناسبة الحديث عن أحداث سنة 1236م، وكانت الحلقة تتم ...جمارك تحت إشراف دلال وبحضور بعض الشهود والمفتشين التابعين لنفس ...ؤسسة.[2]

Scucizzu – أو Scucusu (الكسكس): أشار "بلغريني" إلى وجود هذه ...أكلة بإيطاليا أواخر العصر الوسيط[3]. وإذا كنا نقر بأن الكسكس أكلة مغربية بامتياز، ...ه من الصعب تحديد فترة دخولها إلى جنوة.

Marabetinius – (المرابطي): شاع استعمال العملة المرابطية بالحوض الغربي ...متوسط إلى ما بعد سقوط إمبراطورية المرابطين. وقد جاء ذكر هذه العملة بالحوليات ...جنوية في سياق الحديث عن أحداث سنة 1146م[4]. كما يشير أحد العقود المؤرخة ...سنة 1163 إلى عملية تجارية اعتمدت العملة نفسها، وفي عقد آخر مؤرخ ب22

1- Sayous(A), Aristocratie et noblesse à Gênes, in A.H.E.S, 1937, pp 336-381.
2- De Mas Latrie, Traités, p : 193.
3- Pellegrini, Contributo, p 45.
4- AG, T2.

يوليوز 1263 ورد تعامل الجنوي "بوشيوس" بالمغرب الأقصى على أساس عملة "messemutin" (الموحدين).

إن من أصعب المطالب في دراسة المؤثرات الحضارية العربية التي دخلت إلى جنوة، وإلى إيطاليا بصفة عامة، تحديد مصادرها والفترة التي دخلت فيها إليها، علما بأن صقلية التي كانت قد خضعت للعرب، شكلت أهم مصدر لدخول المؤثرات الحضارية العربية إلى جنوة، وإلى باقي المناطق الإيطالية. وتحقيق هذا المطلب يبقى رهينا بتظافر الجهود بين المهتمين المغاربة والإيطاليين، وبالإستفادة من تخصصات عدة، كالتاريخ والانتربولوجيا واللسانيات... ونكتفي - هنا- ببسط بعض العينات التي تحتاج إلى مراقبة، مثل Butinus(البطة) Giarra(الجرة) وCantar(القنطار) و Caratus (القيراط) وRubus (الربع) وRotulos (الرطل) وGarabus(الغراب) وTarida (الطريدة) وButana (البطانة) وGamara (الخمار) وGiporus (الجب) وCafesso (القفيز) وZurro (السرة وتستعمل لزنة الفلفل والأصواف) وCabella (القبالة) وCubeba (الكبابة) وArcadi (القاضي) وTrafic (ترافق) وAlcaitus (القائد) وTurcimanus (الترجمان) وTare (الطرحة) وragazzo (الرقاص)، وقد تطور معناها ليدل على الولد، وAmmiraglio (أمير الرحل) وmagazzino (المخزن لحفظ السلع) وRisma (الرزمة) وZimin (سمين) وZibibo (الزبيب) وZerbino (وهو نوع من اللباس له علاقة بجزيرة جربة).....

لقد دخلت بعض الكلمات الواردة أعلاه إلى القواميس الأوروبية في الفترة المعنية بالدراسة، فالقبالة دخلت إليها في سنة 1330م، وTare (الطرحة) سنة 1318م، وTrafic (ترافق) سنة 1339.

ظلت بلاد المغرب تستقطب الجنويين إلى ما بعد الفترة المدروسة، والذين لم يقتصروا على التعامل مع المناطق الساحلية، بل وجدوا بالمناطق الداخلية أيضا. ومن المفيد الإشارة إلى ما أورده الوزان عن العصر الوطاسي الذي هو امتداد للعصر المريني، إذ تعامل الجنويون مع بني فنزكار بجبال الهبط لاقتناء الشمع وجلود البقر منها باتجاه جنوة[1]. كما أن القناة التي كانت تأتي من بني عمير باتجاه فاس، بنيت في عهد الملك الوطاسي سعيد عثمان بإشراف "معلم" جنوي[2]. وخلال القرن 16م/ 10هـ، عاش

1- الوزان، وصف افريقيا، ج1، ص 248.
2 - نفسه، ج1، ص 220.

المتصوف الشهير أبو النعيم رضوان بن عبد الله الجنوي(912-991هـ)، وهو كان أبوه من مسيحيي جنوة، وانتقل إلى الإسلام بعد هجرته إلى المغرب سنة ...د[1]. وأصبح الجنويون يتعرفون أكثر على الحضارة المغربية الإسلامية، وتشير ... إلى وجود مسجد بجنوة منذ أواخر القرن 9هـ/ 15م[2]. كل ذلك يؤشر على أن ...عل الحضاري، ظل مستمرا في العلاقات بين بلاد المغرب وجنوة، ولم يكن ...لاف الديني ليقف أمام التلاقح بين شعوب الحوض الغربي للمتوسط.

ولا شك في أن الخريطة التي وضعها مجهول جنوي في القرن 14 م وأدرج بها ...وعة من المراسي ببلاد المغرب، يثبت أن معرفة الجنويين بالمنطقة كانت آخذة في ...ني. وفيما يلي مراسي المغرب الأقصى التي وردت بتلك الخريطة :

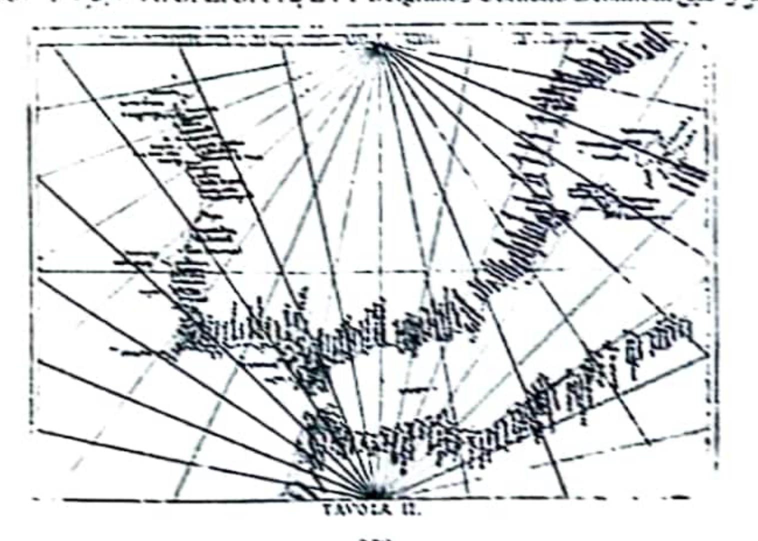
المرسى بالخريطة	المقصود منه
Salle	سلا
Marmo	المهدية
Moxamar	?
Laraquis	العرائش
Tagonixi	?
Arcilla	أصيلا
Sparteli	?
Tancer	طنجة
Mitar	?
Marxamusa	مرسى موسى
Sebta	سبتة
Gomera	غمارة
Tarfoneli	رأس تطوان
Netigara	رأس نتاغورا

1- لمزيد في الموضوع، يمكن الرجوع إلى: لطفي بوشنتوف، صورة عالم من القرن 16م/10هـ رضوان الجنوي، أمل، ع4 صص29-52.
2- Airaldi(G), Un moschea a Genova in eta barbaresca,in Liguria,T 39,September,197... 13-14.

Cricer	?
Cassa	?
Ellis	إليش
Bedis	بادس
Bourentor	بوزكور
Molcemar	المزمة
Tarforcirat	?
Fetis	أوفتيس
Larcudia	الكدية (غساسة)
C. de Tre force	رأس المذرات الثلاث
Millela	مليلة
Saline	?
Zafarine	جزر الشفارين
Meluina	ملوية

وفيما يلي نسخة من خريطة الجنوي المجهول،

نشر وتحقيق Cornelio Desimoni و L . T Belgrano بـ A. S. L. S. P.، الجزء 5، 1867م:



لقد وجدت السلطة المغربية في التجارة مع الجنويين مصدرا مهما لتمويل
...ه، سواء من خلال العلميات التجارية، أم من خلال الضرائب الجمركية.
...ه أنه لم يكن ثمّة ما يعكر العلاقات الجنوية المغربية أكثر من عمليات القرصنة،
لا يبالغ إذا اعتبرنا القرصنة أم المشاكل التي عانت منها العلاقات الدولية بالحوض
المتوسط أواخر العصر الوسيط. فما هي مظاهرها بالعلاقات الجنوية المغربية،
وفي انعكاساتها عليها، وما هي إجراءات الطرفين للحد منها؟

الفصل السابع:

ممارسة القرصنة بموازاة التجارة المغربية الجنوية

1-ملاحظات أولية:

القرصنة ظاهرة قديمة قدم ركوب الإنسان للبحر. وقد احتدت خلال الفترة المدروسة بفعل عدة عوامل أهمها:

-آثار الحروب الصليبية: إذ إن الفترة لا تبتعد كثيرا عن زمن هزيمة المسيحيين بالمقدس أمام جيوش صلاح الدين الأيوبي، كما أنها شهدت حملة صليبية على تونس، أسهمت فيها جنوة إلى جانب جيوش مسيحية أخرى، يقودها ملك فرنسا لويس القديس (لويس التاسع).

-تزايد عمليات القرصنة بفعل تنامي قوة الأسطول الأوربي أمام تراجع البحرية الإسلامية ببلاد المغرب، ولا سيما بعد انهزام جيوش أبي الحسن بريو دي سالادو (طريف)، وبعد فقدان الأسطول المغربي لستمئة قطعة عند عودته من حملته الفاشلة على القيروان.

-اعتبرت الدول القرصنة أسلوبا مشروعا أثناء الحروب الصليبية. وظل هذا الاعتبار ساري المفعول فيما بعد هذه الحروب.

-افتقار الدول الأوربية لأسطول "وطني" قوي بإمكانه الحد من انتشار أعشاش القرصنة[1]. وقد ساهم غياب نظام حكم مركزي قوي لدى الجمهوريات الإيطالية –بعد فشل إعادة تاسيس النظام الإمبراطوري- يمتد مجاله على نطاق واسع، في احتداد علميات القرصنة عند بحاريها. تذهب إحدى الدراسات إلى أن القرصنة تنشط حينما تضعف السلطة المركزية، وحينما تشرعن هذه الأخيرة عمليات القرصنة

[1]- Mas Latrie, Traités, p 176.

...يلة لمحاربة العدو [1]، وإن كان من الصعب الحديث عن جدلية العلاقة بين تزايد ...يات القرصنة و ضعف السلطة – كما لاحظ الباحث الفرنسي فالريان-.[2]

كل هذه العوامل وغيرها، أذكت عمليات القرصنة بالبحر المتوسط الذي ...بح بحق بحرا للمغامرين[3]. وقد تعوّد الجنويون – شأنهم في ذلك شأن باقي ...أوربيين- على مباغتة سكان المناطق الساحلية لبلاد المغرب لإلقاء القبض على ...بعضهم وسوقهم إلى جنوة ، حيث يطالبونهم بالفدية مقابل فك أسرهم . ويلخص عبد ...باسط – كان حيا أواخر القرن 9هـ/ 15م- حالة الهلع التي كانت تنتاب سكان ...المناطق الساحلية بفعل عمليات القرصنة بعد أن شا هدوا إحدى السفن الجنوية بقوله : "...رأتنا طائفة من البربر في تلك الناحية... وظنوا السفينة لبعض قرصان الفرنج غيروا ...بهم حيلة لأخذ المسلمين، فصار التجار ينادونهم من البعد باللغة العربية ويقرؤونهم ...المهادنين والبربر لا يلتفتون إليهم..."[4]. وبما أن منطق الربح هو الذي كان يحرك ...القراصنة في الغالب، فإن علمياتهم لم تكن محط تبادل بين المسيحيين والمسلمين ...بحسب، بل وتبادل المسيحيون عمليات القرصنة، وأمكن لكل قائد بحري أن يصبح ...زمانا يهاجم الأصدقاء والأعداء على حد سواء[5]. ولم تكن عمليات القرصنة تراعي ...في بعض الحالات ديانة الأطراف التي يقع عليها الهجوم، ولنا في إحدى الحالات ...وإنها متأخرة قليلا عن الفترة المدروسة – أحسن تعبير عن ذلك. ففي سنة 1381م، ...هاجم اليورقيون الجنوي "Onofrio di Piccamiglio" بتعاونه مع سلطة بجاية في عملية ...قرصنة طالتهم [6]. ولعل هذه الملاحظة تجعلنا نستبعد فكرة روّج لها بعض الباحثين ...الذين جعلوا القرصنة، من مسؤولية المسلمين وحدهم، فالواقع أنه كان لكل شعوب ...الحوض الغربي للمتوسط قراصنتها[7]، بل إن تفوق الأسطول الأوربي على الأسطول ...المغربي، جعل عدد عمليات القرصنة الأوربية ، يفوق نظيره لدى المغاربة.

لقد أصبحت ممارسة القرصنة عملية مشروعة لدى الأوربيين كما سبقت الإشارة- وتقدم لنا جنوة نموذجا حيا عن ذلك. فكلّما تأهب أحد القراصنة المعروفين

[1] - Simbula(Pinuccia Franca), Iles,corsires et pirates dans la Méditerranée médiévale. Médiévales, N 47, 2004, p 18.
[2]- Valerian, Bougie, p 453.
[3]- Dufourcq, l'Espagne, pp 573-574.
[4]- ابن شاهين الظاهري زين الدين عبد الباسط، الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم، ص 312.
[5]- Bresc,Un monde, T1, p 338.
[6]- Lopez Peres (Maria Dolores), La Corona de Aragon y el Magreb , p p 728-729
[7]- Mas Latrie,Traités, p 175.

بها للإبحار، كان التجار الكبار يسارعون إلى استثمار أموالهم في علمياته. وقد جرت العادة لدى القراصنة "Ad consvetudinem" على أن تؤول نسبة تتراوح ما بين 25 و100٪ من الأرباح لفائدة المستثمرين، وذلك حسب فرص النجاح المفترضة[1]. وتتحدث العقود بشكل واضح عن عمليات "Cursin". ولعل هذا ما دفع بعض الباحثين، وخاصة منهم "Mollat"، إلى التمييز ضمن الأدبيات البحرية الأوربية بين مفهوم "Piraterie"، وهي عبارة عن علميات يقوم بها قطاع الطرق بالبحر لصالحهم الخاص، فهي بذلك عمليات لصوصية "Bandisme"، ومفهوم "Course" وهي عمليات بحرية تتبناها الدولة وترعاها[2]. وقد ذهب أحد الباحثين المعاصرين إلى اعتبار ممارسة القرصنة مصدرا للربح، مثلها في ذلك ممارسة التجارة، والفارق بينهما أن التجارة كانت تمارس في أجواء هادئة، بينما تمارس القرصنة في أجواء العنف[3].

بعد موافقة الدولة على القيام بعلميات القرصنة، كان القراصنة يستعملون مختلف السفن، وبدون استثناء، انطلاقا من القارب ووصولا إلى الشواني[4]. غير أنه رغم هذا التميز بين المفهومين، والذي يمكن أن نستنبطه من خلال عقود الموثقين، حيث الإشارة أساسا إلى" Course"، "Cursin"، فإن الهدف في كل العلميات كان واحدا، ويصعب أن نضع حدودا فاصلة بين ما يسميه البعض بالقرصنة والبعض الآخر "بالجهاد البحري" لأنه في كلتا الحالتين، فإن العمليات تروم السيطرة على السفن وحمولتها ومن يوجد عليها من أشخاص[5].

وتذهب الباحثة الإيطالية "باليطو" إلى أن الحرب على البحر، كيفما كانت بواعثها، فإنها استهدفت إضعاف القوة الاقتصادية للعدو ومنعه من المواد الأولية[6]. ولعل هذا يدفع إلى التساؤل عن مدى إمكانية تميز الحدود بين مفهومي "Course" و"Piraterie" بالمصادر الأوربية، بل إن السؤال يمكن أن يطال المصادر العربية بدورها، إذ تقف عند الحديث عن "غزاة البحر". وإذا ما استحضرنا كل هذه

1- Byrne. Genoese. p 62.
2- Mollat. Essai d'orientation pour l'étude de la guerre de course et de piraterie. 13-15 siècle. in AEM. T10. 1980. p 744.
3- Valerian. Bougie. p 421.
4- Byrne. Genoese. p 62.
5- Mollat. Essai. op cit. p 744.
6- Balletto. Genova nel duecento. Uomini nel porto e uomini sul mare. Gênes. 1983. p 79.

المعطيات، قد يكون من الصعب وضع حدود بين ما هو شرعي وما هو غير شرعي في المجهات البحرية التي كان يشنها كل طرف على الطرف الآخر[1].

لقد توزعت أعشاش القرصنة بالحوض الغربي للمتوسط بعدة مناطق. غير أن المصادر تشير إلى كثرة عمليات القرصنة بمناطق معينة، لاشك في أنها قدمت للقراصنة فرصا أكبر للنجاح. وتتمثل هذه المناطق في الجزر المتناثرة بالحوض، مثل جزر البليار وصقلية وكورسيكا وساردينيا، حيث عرفت ما يسميه "هيرس" ب" صناعة القرصنة" نشاطا حيويا[2]. كما شكل "المانش المتوسطي" بؤرة مهمة من بؤر القرصنة سواء بضفته الجنوبية[3]، أم بضفته الشمالية[4]. وعلى طول سواحل بلاد المغرب، عرفت بعض المراسي بنشاط القرصنة كسبتة، وبادس[5] وبجاية التي قال الغبريني بأنها "بلدة غزاة، وكان غزاة قطعها يدخلون إلى دواخل الجزر الرومانية وغيرها ويسوقون السبي الكثير منها"[6]، كما برزت في هذا المجال تونس، وجزيرة جربة[7].

كانت القرصنة أهم خطر يتهدد التجارة الجنوية المغربية، وقد ساهم فيها القراصنة المغاربة والقراصنة الجنويون على حد سواء، كما أن المنافسة التي واجهتها جنوة من لدن بعض الدول الأوربية الأخرى، وما أنجر عنها من علميات قرصنة، شكلت تهديدا مباشرا للتجارة الجنوية المغربية، أو إنها أسهمت في تكدير صفو العلاقات بني الطرفين. غير أن هذا لا يمنع من القول بأن القرصنة كانت مصدرا مهما للأرباح لممارسيها، ولا يتردد "فالريان" في اعتبار القرصنة نشاطا موازيا للتجارة[8]. كما استفادت الدول منها باحتضانها للقراصنة وفرض نسب معينة من الضرائب على القراصنة، ثم إن القرصنة سمحت بحركة دائبة بين ضفتي الحوض الغربي من أجل افتكاك من سقطوا بيد القراصنة لدى الطرف الآخر، وتحولوا إلى وضعية عبودية.

ونظرا لتعدد أعمال القرصنة، يمكننا ان نميز ضمنها بين ما يلي:

1 - Valerian(D). La course et la piraterie en Mediterranée occidentale à la fin du Moyen âge.entre activité économique et instrument politique . in Les territoires de la Mediterranée .Presses universitaires de Rennes. 2013. p 45.
2 - Heers. Gênes. p 304.
3- نقل ابن بطوطة نجا بأعجوبة من أسر القراصنة عند مروره بمضيق جبل طارق.
4- ألقى القراصنة الأوربيين القبض على بعض الأشراف السبتيين بالجزيرة الخضراء، وافتداهم أبو سعيد بسبعة آلاف دينار ذهبي. ابن مرزوق. المسند، ص150.
5- ثم قراصنة أوربيون تجارا مغاربة انطلقوا من بجاية . انظر التجيني، المصدر، ص95 و ص ص 74-75.
6- عنوان الدراية، ص 45.
7- ذكر ابن بطوطة أن القراصنة النصارى استولوا على المركب في طريقه من جربة إلى تونس، ج2، ص754.
8- Valerian. Bougie. p 495.

2-عمليات القرصنة المتبادلة بين الجنويين والمغاربة

أ-القرصنة المغربية:

الملاحظ أن معظم عمليات القرصنة المتبادلة بين الطرفين كانت صادرة عن الجنويين، ولا تقدم المصادر سوى حالات نادرة عن علميات القراصنة المغاربة الموجهة ضد الجنويين، وأمكن لنا التقاط حادثتين – انطلاقا من المصادر الجنوية- عن هذه العمليات، ففي سنة 1219، لاحق بعض قراصنة بلاد المغرب الجنوي "Donodeobos" إلى حدود ساردينيا[1]. وفي سنة 1223 ألقى حاكم وهران "Orano" القبض على شيني جنوي أجبر على الرسو بميناء المدينة[2].

ب-القرصنة الجنوية:

فاقت عمليات القرصنة الجنوية الموجهة ضد المغاربة نفس العمليات التي وجهها البنادقة والبيزيون ضدهم. ويبدو أن ذلك مرتبط بأهمية النشاط التجاري الجنوي ببلاد المغرب، وبالحوض الغربي المتوسط عموما. ويعتبر "لوبيز" في هذا الشأن أن ثمّة تلازم بين القرصنة والتجارة، إذ إن نشاط القرصنة يشكل مؤشرا على أهمية النشاط التجاري[3]. وتتمثل أهم محطات القرصنة الجنوية ضد المغاربة – من خلال المادة المصدرية المطلع عليها- في ما يلي:

- في سنة 1223 شحن الجنوي "أركانتو" Rainaldo Arcanto سلعا من مرسى تونس باتجاه إسبانيا، وأسهم أحد أمراء تونس بمبلغ مالي في تمويل هذه العلمية التجارية، غير أنه أثناء السفر، حوّل أركانتو تجاه الرحلة نحو مارسيليا، وهناك اتفق مع أحد المارسليين للتخلص من المسلمين الموجودين على متن السفينة، والاستيلاء على سلعهم. وقد أدى تنفيذ العملية إلى توتر العلاقات بين تونس وجنوة، كما أودت بأركانتو إلى السجن[4].

[1]- A .G , T 13, p108.
[2]- Schaube, p 347.
[3]- Lopez, L'importanza del mondo islamico nelle vita économica europea, in l'occident e l'Islam nelle' alto medio evo, Settimana di studio sull'alto medioevo XII, Spoleto, 1965, T1, p 452.
[4]- A.G. T2, pp 189-192.
-Schaube, p 351.

- في سنة 1273 حطّم الجنويون بميورقة مركبا يوجد على متنه أحد المغاربة من فاس، في الغالب كان تاجرا.[1]

- كما جعل القراصنة الجنويون أنفسهم رهن إشارة بعض القوى التي أبدت عداء للدولة المرينية في كثير من الفترات، ونخص بالذكر الدولتين القشتالية والنصرية. ففي سنة 1291م استعان ملك غرناطة وسانشو ملك قشتالة المتحالفان بخدمات الأميرال الجنوي "زكرياء" Zaccaria Benedetto الذي أسهم في هزيمة الجيوش المرينية بمرسى موسى" Marzamosa" على السواحل المتوسطية المغربية[2]. وفي سنة 1342م قاد الجنوي "غوبيو" Bosone di Gubbio حملة على مراكب مغربية بعرض السواحل المتوسطية.[3]

ورغم أن الحدثين يدخلان في إطار المواجهة العسكرية بين جنوة وبلاد المغرب، فلا شك في أنهما أثرا في تحركات التجار المغاربة. وقد نص الاتفاق الذي أبرمه الجنويون مع أبي عنان على أن يكف القراصنة الجنويون عن مهاجمة المغاربة.[4]

إن المبادلات التجارية بين الطرفين تأثرت بشكل أو بآخر بعلميات القرصنة المتبادلة فيما بينهما. غير أن هذه العمليات ظلت محدودة بالنسبة لجنوة، مقارنة مع تلك التي طالت تجارتها، جراء الصراع التجاري الذي دار بينها ومنافسيها من الأوربيين. وقد تجلت تأثيرات هذا الصراع في عرقلة التجار الجنويين المتعاملين مع بلاد المغرب، أو إقحام بلاد المغرب في تلك التشنجات، والتي لم تنج من تبعاتها. وقد تمثل ذلك الصراع في منافسة بيزة والبندقية وأراغون.

3- منافسة بيزة:

يمكن اعتبار التنافس بين بيزة وجنوة من أكثر الصراعات حدة بغرب الحوض المتوسطي أواخر العصر الوسيط، ويرى أحد الدارسين أن الصراع ضد "العدو البيزي"

[1]- Dufourcq, l'Espagne, p 164.
تحدث "دو ماس لاتري" عن خطر [illegible] التي قام بها القرصان الجنوي "هري" [illegible] في القرن 13م بالحوض الغربي للمتوسط [illegible] Mas Latrie, traités, p 405 وفي [illegible] الجنوي
[2]- A.G. TV, pp 136-137.
[3]- Jehel, Les Génois, p 331.
[4]- [illegible]، ص ص 30-31

رحلاتها التجارية من بلاد المغرب، كما أن السلطة المغربية وجدت نفسها متورطة في الصراع ومتأثرة بذيوله. فقد ردّ الجنويون على الهجومات البيزية[1]، وهو ما أثر سلبا في المراسي المغربية، وعرقل تجارة بلاد المغرب مع باقي الأطراف الأوروبية. ثم إن السلطة الحفصية كانت مجبرة على تقديم تعويضات للجنويين، إذا ما تعرضوا لهجومات القراصنة بمراسيها. ولنا في هجوم القراصنة البيزيين على سفينة الجنوي "Di curlo " أحسن مثال عن ذلك. ولم نقف على حجم التعويضات التي قدمتها السلطة الحفصية بعد هذا الحادث. ويمكننا على سبيل الاستئناس، أن نقدم معطى إحصائيا عن قيمة هذه التعويضات التي طولبت بها السلطة الحفصية جراء الصراع البيزي الجنوي، من خلال مطالبة بيزة لها ب 20393 دينارا فضيا، عقب عملية القرصنة التي قام بها أحد الجنويين في حق سفينة بيزية بتونس.[2]

وكما سبقت الإشارة، فإن بلاد المغرب وجدت نفسها متورطة في الصراع الإيطالي / الإيطالي ومتأثرة بذيوله. ونستدل على ذلك بما حدث سنة 1286 لما طالبت جنوة السلطة الحفصية بتسليمها البيزيين المأسورين لديها. وقد رفض السلطان الحفصي الطلب الجنوي لأنه لا يتوافق والقاعدة الشرعية الإسلامية. ولذلك التزم بأن يعيد النظر في هذا الطلب، إلى حين انتهاء الحرب بين البيزيين والجنويين[3].

ب-مرحلة ما بعد ملوريا:

شكلت هذه الحرب بداية لضعف الحضور البحري البيزي بالحوض الغربي للمتوسط، ومن مظاهر هذا الضعف أن الجنويين عوضوا البيزيين بعدة مراكز تجارية ببلاد المغرب مثل جيجل، وتعددت عمليات القرصنة التي قام بها الجنويون ضد البيزيين بالمنطقة[4].

[1]- سجلنا هذه الردود في نفس السنوات التي هاجم فيها البيزيون السفن الجنوية، وهي سنوات 1242 و1245 و 1283 و1284.
-Schaube. p 350 p 363.
-A.G.T8. p 101 et p 102.

[2]- Pistarino. Notaï. acte 6 mars 1289.N°21.
وللمقارنة ، نشير إلى أن البنادقة طلبوا ابن مكي حاكم طرابلس بتعويضات قدرت ب 1500 دوبلون جراء تعرض البندقي" Marco Vernier " لعملية قرصنة سنة 1358 من طرف الجنويين. Doumerc. p 55.

[3]- A.G. T8. p 167.

[4]- يمكن أن نقدم هنا بعض الحالات فقط:
- في نفس سنة ملوريا هاجم الجنويون سفينة بيزية كانت عائدة من تونس تدعى" Tartarino" وقادوا السفينة إلى جنوة A.G.T8. p 106.

غير أن منافسة بيزة لجنوة بالحوض الغربي للمتوسط، لم تتوقف نهائيا بعد هزيمة ملوريا. وشهدت بلاد المغرب عدة عمليات قرصنة للبيزيين في حق الجنويين، حتى إن السفير الجنوي "بنيولو" Lucheto Pignolo إلى السلطة الحفصية، تقدم لديها بشكاوى بفعل المضايقات التي وجدها مواطنوه نتيجة القرصنة البيزية[1]. وتطلعنا الحوليات الجنوية بأن البيزيين لاحقوا سفينة الجنوي "سلفتكو" Balino Salvatico بمرسى "Malo" ويعتقد محقق الحوليات أن الأمر يتعلق بمرسى مليلة-، وهي تحمل زيوت من إسبانيا، وتدخلت السلطة المغربية لاسترجاع السفينة من البيزيين مقابل دفع الجنويين لـ1000 دوبلون للبيزيين[2].

وقد استمر البيزيون في المنافسة التجارية للجنويين ببلاد المغرب ما بعد ملوريا، فمن خلال عقود الموثق "باتفليو"، يتضح أن16 بيزيا – على الأقل- تاجروا مع تونس خلال سنة 1289[3]. كما أن البيزيين زاحموا الجنويين في تجارة بلاد المغرب مع مملكة أراغون وميورقة[4]. ويدل توقيع بيزة على معاهدتي 1313 و1353 مع تونس، ومعاهدة 1358 مع أبي عنان، على استمرارية الحضور البيزي ببلاد المغرب.

لقد أثر الصراع البيزي الجنوي بدون شك في الحضور التجاري للجنويين ببلاد المغرب، والتي عانت بدورها من ذيوله. وتذهب إحدى الدراسات الحديثة إلى أن بلاد المغرب كانت غنية بمواردها، إلا أن التنافس بين مختلف الجمهوريات البحرية الإيطالية، والذي اتخذ من سواحل المنطقة مجالا له، عرقل التبادل والتعاون بين بلاد المغرب وتلك الجمهوريات[5].

- في سنة 1285 هاجم الجنوي "سبينولا" Bissa Spinola سفينة بيزية بعد عودتها من بلاد المغرب A.G.T8. p 155.
- في 27 يوليوز 1285 استولى أسطول جنوي بقيادة" رولندو" Rolando Ascherio خمس سفن متجهة إلى ميناء تونس. A.G.T7. p 66.
- في 1286 هاجم أسطول جنوي بقيادة "زكريا" Benedetto Zaccaria سفنا بيزية بقناة المقش ولاحقها إلى حدود خليج تونس حيث استولى على مركب من نوع " ساجيتا " يدعى "Leopardo". A.G.T7. p 138.
- في سنة 1292 لاحق أسطول جنوي سفينة بيزية. A.G.T7. p 138.

[1]- Pistarino. Notaï. acte n° 21.

[2]- A.G.T9. p 67.

[3]- Pistarino. Notaï. op cit.

[4]- قام البيزي "فشنتوس" Sanctus Vicentius بعدة رحلات تجارية ما بين ابيزا وبونة، كما أن التاجر البيزي "مرملي" Raynero Marmelli هو الذي قاد مفاوضات أراغونية جرت مع مملكة بجاية في ماي 1298 لأنها كانت قد انفصلت عن الدولة الحفصية منذ 1284 أنظر:
Dufourcq. l'Espagne. p 411 note 5 et p 48.

[5]- Mascarello. p 67.
-Schaube. p 363.

4-منافسة البندقية:

اهتمت البندقية بحكم موقعها الجغرافي بالأسواق المشرقية بالدرجة الأولى. غير أن حاجتها إلى بعض المواد الحيوية، مثل الملح، دفعها إلى التجارة مع بلاد المغرب كذلك. وقد وصلت سفنها في القرن 13م إلى حدود سبتة[1]. كما أن البندقية كانت مجبرة على التعامل مع بلاد المغرب للحد من هيمنة جنوة على التجارة المتوسطية. ولا غرابة أن تكون معظم الحروب التي خاضتها البندقية في القرنين 13 و14م، قد وقعت ضد بيزنطة وجنوة[2]. وفضلا عن المنافسة التجارية بين جنوة والبندقية، فإن هذه الأخيرة كثيرا ما اتهمت جنوة بتمويل مسلمي بلاد المغرب بالمؤونة والأسلحة[3]. وبعد هزيمة بيزة بملوريا، برزت البندقية كثاني منافس للجنويين وراء أراغون في التجارة مع بلاد المغرب.

وتحدثنا الحوليات الجنوية عن بعض العمليات التي قام بها القراصنة البنادقة ضد الجنويين المتعاملين مع بلاد المغرب.

ففي سنة 1215، هاجم أسطول للبنادقة مدعم بالبيزيين والبروفانسيين أربع سفن جنوية كانت عائدة من سبتة[4]. وفي سنة 1245 تعرضت سفينة جنوية لهجوم بندقي وهي في رحلة تجارية من إسبانيا إلى تونس. وقد أفضت هذه العملية إلى انتقال الصراع بين الجنويين والبنادقة إلى سواحل بلاد المغرب[5]. وفي عام 1265 نظم البنادقة حملة بحرية على تونس تحت قيادة "دندولو" Jacopo Dandolo، أدت إلى تحطيم سفينة جنوية ونهبها[6]. وبينما تساءل "كارو" عمّا إذا كان هذا الهجوم البندقي يشكل حادثة ظرفية في العلاقات بين البندقية وجنوة[7]، أدرجه "برنشفيك" ضمن خطة للبندقية من أجل منافسة جنوة، ومحطة من محطات الصراع المستمر بينهما[8]. وجاء عند

---

[1]- Dufourcq, La question, p 71.
[2]- Hocquet, Le capitalisme,A.E.S.C, p 287.
[3]- Doumerc, p33.
[4]- A.G.T3, p 89.
[5]- A.G.T3, pp 161-162.
-Schaube, p301.
[6]- A.G.T4, pp 89-90.
[7]- Caro, Genova, T1, p 181.
[8]- برنشفيك، ج1، ص83. ولعل ما يؤكد رأي "برنشفيك "أنه مباشرة بعد يوم واحد من هذا الحدث، استولى أسطول بندقي على سفينة جنوية صغيرة عائدة من سافونا محملة بالخمور.
وقد قدرت خسائر الجنويين جراء هذا الحادث بحوالي 6000 ليرة .A.G.T4, pp 89-90

ابن قنفذ أن البنادقة هاجموا سفنا جنوية راسية بميناء تونس، واستولوا على إحداها، أواخر شهر ذي الحجة 696هـ/ منتصف أكتوبر 1267[1]. وفي سنة 1271، ألقى مركب جنوي كان عائدا من رحلة تجارية لتونس القبض على مركب للبنادقة قرب" Copocorso"- بكورسيكا-.[2]

ودون أن نسترسل في ذكر بعض حالات القرصنة التي قام بها البنادقة ضد الجنويين ببلاد المغرب – وأساسا بتونس لأن تونس الحفصية كانت أهم منطقة تاجر معها البنادقة لتوفرها على مادة الملح التي كانوا بحاجة إليها- يعنينا الأمر أن نؤكد – مرة أخرى- على أن التجارة الجنوية مع بلاد المغرب تأثرت بهذه العمليات. كما أن بلاد المغرب تأثرت بدورها بالصراع بين جنوة والبندقية سواء من خلال ما تعرضت له بوانئها من عمليات نهب وتخريب، أم من خلال تعطيل تجارتها الخارجية، أو من خلال إرغامها على دفع تعويضات لصالح التجار الإيطاليين المتضررين بفعل عمليات القرصنة التي تعرضوا بها بالسواحل المغربية.

والواقع أن جنوة قامت بردود فعل على كل العمليات التي استهدفت تجارتها ببلاد المغرب. ونكتفي بالإشارة إلى أن البندقية تقدمت بشكوى لدى السلطة الحفصية في سنة 1275 بفعل التجاوزات الجنوية المتمثلة في استيلاء الجنويين على سفينة للبندقية محملة بالسبائك الفضية وبالمنسوجات والمواد المصنعة والأسلحة بمرسى تونس[3]. كما تورد الحوليات الجنوية عدة حالات للقرصنة الجنوية في حق البنادقة المتعاملين مع بلاد المغرب[4]. ونذكر – على سبيل الاستئناس- أن الخسائر التي مني بها البنادقة بعد حادثة قرصنة قام بها الجنويون ضدهم بمرسى تونس في ماي 1291، قدرت ب 1695 دينارا فضيا[5]، ولا يستبعد أحد المتخصصين في علاقات البندقية بتونس الحفصية أن تكون المنافسة الشديدة لجنوة إحدى العوامل التي تفسر عدم تجديد البندقية لمعاهدتها مع تونس، بعد أن انتهى العمل بها سنة 1317. كما أن توقيع البندقية معاهدة 28 ماي 1350 مع الحفصيين، أملته حاجتها إلى إضعاف المنافسة الجنوية ببلاد المغرب[6]. ومن

---

[1]- ابن قنفذ، الفارسية.م س.
[2]- Ferretto,Codice,T1 p 250.
[3]- Balletto, Genova nel duecento, op cit, p 119.
[4]- مثل حادثة قرصنة في 17 أبريل 1284، .A.G.T5, p51
وفي ماي 1291، A.G.T9, p 40
[5]- Cessi, La tregua fra Venezia e Genova nelle seconda meta del XII secolo, in archivio veneto tridentino IV, 1923, p33.
[6]- Doumerc, p 53.

غير المستبعد ان يكون تدهور العلاقات بين ابن مكي حاكم طرابلس والبندقية سنة 1358، قد ساهم فيه الهجوم الجنوي الذي تعرضت له سفينة البندقي " Marco Vernier"، بعد أن شحنت بالملح بمرسى طرابلس، وقد طالب البنادقة ابن مكي بتعويضات عن ذلك قدرت ب15000 دينارا ذهبيا[1].

5-منافسة أراغون:

غدت مملكة أراغون قوة كبرى بالحوض الغربي للمتوسط خلال الفترة المدروسة، إن على المستوى التجاري، أم على مستوى التحكم في عدة مراكز استراتيجية بالمنطقة، الشيء الذي دعا "ديفورك" إلى الحديث عما أسماه "بالامبريالية الأراغونية". فقد تحكمت في جزر البليار سنة 1231 وصقلية في 1282 وجزيرتي جربة وقرقنة في 1284 وساردينيا في 1324[2]. وكانت "قناة المانش" وسواحل بلاد المغرب إحدى الفضاءات التي حظيت باهتمام مملكة أراغون، ما جعل مصالحها تصطدم مباشرة بمصالح الجمهوريات الإيطالية البحرية، وفي مقدمتها جنوة.

وقد لا نبالغ إذا قلنا بأن هاجس منافسة الجنويين وباقي الإيطاليين ببلاد المغرب، كيّف إلى حد كبير نوعية العلاقات التي كانت بين أراغون وبلاد المغرب، وطبيعة الوسائل التي استعملتها برشلونة في الحفاظ على مصالحها بهذه المنطقة. ويمكن أن نتبين مظاهر تدخل مملكة أراغون ببلاد المغرب لعرقلة الحضور الجنوي بها، من خلال دخول أراغون في تحالفات مع قوى الحوض الغربي للمتوسط، وفي تدخلها بأهم مراسي تصريف البضائع على الساحل المغربي، ولاسيما بسبتة. ثم في محاولة احتواء "مؤسسة" الارتزاق المسيحي ببلاد المغرب. وتبدو هذه المظاهر في المحطات التالية:

أ- المظاهر السياسية والعسكرية للمنافسة التجارية الأراغونية

شكّل مرسى سبتة أحد أهم المراكز المغربية التي تبلور بها الصراع التجاري بين جنوة وأراغون. والظاهر أنه من الصعب الحديث عن الأحداث التي عرفتها المدينة سنة 1234، وما استتبعها من تدخل جنوي عسكري بها، دون استحضار رغبة

1- Ibid, p55.

2- معظم أعمال" ديفورك " تعرضت لتوسع مملكة أراغون، والوسائل التي اعتمدتها في ذلك. وأنظر بصفة خاصة حول مظاهر توسع هذه المملكة:
Dufourcq, L'orientation de l'Europe occidentale vers le Maghreb au temps d'ibn Khaldoun, colloque d'ibn khaldoun, Rabat, 1979, p 470.

الجنويين في الهيمنة على تجارة هذا الميناء المهم، ومزاحمة النشاط الأراغوني به، خاصة وأن تراجع الأنشطة التجارية للجنويين بسبتة ما بين 1212 و1235، تفسره إلى حد كبير -حسب باليطو- المنافسة الكطلانية[1]. وتدخلت أراغون في شؤون المدينة سنة 1274، بأن بادرت إلى تقديم مساعدات بحرية للمرينيين للسيطرة عليها. وفي الغالب أن الرغبة في مزاحمة الجنويين والهيمنة على المبادلات بالمضيق، كانت وراء المبادرة الأراغونية[2].

وقد تماطل "جاك الثاني" ملك أراغون في تقديم مساعدات للمرينيين للتحكم في مدينة سبتة، بعد أن توترت علاقتهم بالنصريين، لأن المصلحة السياسية الأراغونية اقتضت آنذاك، أن تدخل في علاقات ودية مع غرناطة ومع "فردناند الرابع" ملك قشتالة. فقد رأى الملك الأراغوني أن كل مبادرة طائشة منه ضد سبتة، قد تسمح لمنافسيه من الجنويين وغيرهم، باستغلال الوضعية السائدة[3].

واعتمدت أراغون في منافستها للجنويين بمملكة تلمسان بصفة خاصة على محاولة احتواء "مؤسسة" المرتزقة المسيحيين العاملين بالدولة العبدوادية، فقد بادر ملك أراغون إلى إرسال مرتزقته لخدمة السلطان العبدوادي الذي فقد الثقة في خدمة المرتزقة القشتاليين سنة 1254، ونتساءل مع" ديفورك "عمّا إذا لم يكن هذا الإجراء، يروم إعطاء سلطات أوسع لقائد "Alcayt" الجيوش الأراغونية على كل المسيحيين بمملكة تلمسان، بما في ذلك التجار الإيطاليين، وذلك بهدف إضعاف منافستهم[4]؟

ومهما يكن من أمر، فإن الهدف الأراغوني تحقّق حسب ما يفصح عنه نص مؤرخ ب21 مارس 1265، لما أصبح القائد الأعلى للجيوش الأراغونية العاملة بالدولة العبدوادية، مشرفا على جميع المسيحيين المدنيين والعسكريين الموجودين بالدولة[5]. وشكل هذا الإجراء – بدون شك- ضربة مباشرة للحضور الجنوي والبيزي بها[6]. ولا نعلم طبيعة ردود فعل الجنويين وغيرهم من الإيطاليين تجاه هذا الإجراء، ولا نستبعد أن يكونوا قد قاموا بتحركات لدى السلطة العبدوادية في اتجاه إعادة النظر فيه.

1- Balletto, Da Genova al Magrib, p 307.
والترجمة العربية لنفس المقال بمجلة أمل، م س، ص6.

2- Kably, Société, p 77.

3- Dufourcq , l'Espagne, p 382.

4- Ibid, p 151.

5- Ibid.

6- Lawless, op cit.

وسندنا في ذلك أن الملك الأراغوني سرعان ما أعطى أوامره لحصر مسؤولية القائد الأعلى للجيوش الأراغونية بالدولة العبدوادية في الإشراف على مواطنيه فقط[1]. والظاهر أن محاولة احتواء "مؤسسة" الارتزاق المسيحي بالدولة العبدوادية، كانت في نظر الملك الأراغوني أسلوبا ناجعا لإضعاف الحضور الجنوي، والإيطالي عموما ببلاد المغرب، ولذلك حاول أن يضغط على السلطان العبدوادي للعمل به. وقد تُوجت محاولته بالتوقيع على معاهدة 1286، والتي نصّت في بندها الأول على أن يحصل مشرف أراغون المقيم بوهران على نصف مداخيل دولة بني عبد الواد الناتجة عن الضرائب المفروضة على السلع التي ينقلها إليها الأوروبيون، كما نصّ البند الثالث على أن يتقاضى كل الأوروبيين المقيمين بالدولة العبدوادية لدى القائد الأعلى للجيوش الأراغونية العاملة بها[2]. الشيء الذي ساهم في تكريس الحضور الأراغوني بالدولة العبدوادية على حساب المصالح التجارية لباقي الأوروبيين، ومنهم الإيطاليون[3].

ومن أهم المظاهر السياسية التي تؤشر على هاجس المنافسة الجنوية، ليس فقط بالنسبة لأراغون، بل وكذلك بالنسبة لجارتها قشتالة، أن ملك أراغون فكّر سنة 1314 في منع رعاياه من التعامل مع مملكة تلمسان، ردّا على عمليات القرصنة العبدوادية، غير أن "سانشو" ملك قشتالة، حذر ابن عمه من مغبة تنفيذ هذا القرار لأنه يقوي حضور المنافسين الإيطاليين بمملكة تلمسان على حساب الحضور القشتالي والأراغوني[4]. وتفصح رسالة مؤرخة ب17 يناير 1315 عن تخوف الأراغونيين والقشتاليين من تزايد أهمية الحضور الجنوي ببلاد المغرب، وقد بعثها "سانشو" إلى ابن عمه "جاك الثاني"، ومما جاء فيها:

"في كل مناسبة نمنع رعايانا من التجارة مع الدولة العبدوادية، يسارع تجار باقي الدول إلى تكثيف تجارتهم معها، فيحصلون فضلا عن أرباحهم المعتادة على أرباحنا وأرباحكم، بينما لا تنخفض أرباح السلطان"[5]. وتشير الرسالة إلى الجنويين والبيزيين باعتبارهم أهم المنافسين ليس فقط بالأسواق العبدوادية، بل وبالأسواق المرينية والحفصية كذلك. وقد شكّلت – فعلا- الدولة الحفصية مجالا آخر للمنافسة الأراغونية الجنوية. واستخدمت أراغون هناك مختلف الوسائل لمنافسة الجنويين. ولا

[1]- Dufourcq, l'Espagne, p 152.
[2]- Dhina, les Etat, op cit, pp 484-485.
[3]- Lawless, op cit, p 61.
[4]- Dufourcq, l'Espagne, p 478.
[5]- Ibid, p 451.

ريب في ذلك، لأن الدولة الحفصية تبوأت الصدارة ضمن دول بلاد المغرب في التجارة مع جنوة.

لقد نصّب ملك أراغون "جاك الثاني" نفسه حاميا لإفريقية الحفصية حوالي سنة 1246 ضد أي تدخل مسيحي[1]. ولمّا كان "الفونسو العاشر" ملك قشتالة يتأهب للقيام بحملة صليبية على بلاد المغرب سنة 1260، دعّمه ملك أراغون بالجيوش، وطالبه بعدم محاربة الحفصيين. وحاولت أراغون أن تحافظ على علاقاتها الودية مع إفريقية حفاظا على مصالحها بها، ولكي لا تتيح الفرصة للمنافسين الإيطاليين لتكريس حضورهم التجاري بها[2]. وحدث أن توترت العلاقات الحفصية الأراغونية سنة 1274، وبادر ملك أراغون إلى منع رعاياه من التعامل مع إفريقية الحفصية. واعتبر "ديفورك" هذا الإجراء غير ناجع، لأنه فتح المجال للإيطاليين، ولا سيما للجنويين، لتكثيف علاقتهم التجارية مع الدولة الحفصية[3].

ولجأت أراغون من أجل إضعاف الحضور الجنوي بإفريقية الحفصية – على غرار ما قامت به بالدولة العبدوادية- إلى الضغط على السلطان الحفصي ليعترف سنة 1287 بأحقية القائد الأعلى للجيوش الأراغونية العاملة لديه، بالإشراف على كل المسيحيين الموجودين بدولته. غير أن المحاولة – فيما يبدو- أثارت الإيطاليين، ولذلك وافق المفوض الأراغوني "Conrad Lancia" المبعوث إلى الدولة الحفصية على أن تقتصر سلطة القائد الأعلى الأراغوني على الرعايا الأراغونيين فقط، وعلى ألاّ تشمل باقي الأوروبيين الذين تجمع بلدانهم معاهدات مع تونس[4].

والظاهر أن فترة الربع الأخير من القرن 13م والنصف الأول من القرن 14م، لم تكن في صالح التجارة الأراغونية ببلاد المغرب. فقد فقدت أراغون صقلية سنة 1295، ومرت العلاقات الأراغونية المغربية بمرحلة توتر ما بين 1285 و1295، وتجدّد هذا التوتر في بدايات القرن 14م/ 8هـ، حتى إنه حوالي سنة 1319، كان ملك أراغون على علاقة سيئة مع كل سلاطين دول بلاد المغرب[5]. ومقابل ذلك، ازداد الحضور الجنوي قوة بالمنطقة حسب ما تكشف عنه بعض النصوص. ففي رسالة بعث

[1]- Ibid, p 98.
[2]- Ibid, p 113.
[3]- Ibid, p 278.
[4]- Ibid, p 278.
[5]- Ibid, p 585.

بها ملك أراغون "جاك الثاني" إلى السلطان الحفصي في يناير 1306، طالبه بأن يقدم للرعايا الأراغونيين نفس الامتيازات التي تمتع بها التجار الجنويون بدولته: Grazia com sono los special alle genti del re d'Aragon que sien franches en Tunis axi Genovises «[1]. وعاودت اراغون نفس الطلب في معاهدة وقعتها مع الحفصيين سنة 1323[2]، ورغم أن الأراغونيين وقعوا معاهدتين سنة 1309 مع المرينيين ومع مملكة بجاية، فإنهم لم يصلوا إلى مستوى الحضور التجاري للجنويين ببلاد المغرب.

غير أن اراغون ظلت دائما منافسا قويا للجنويين ببلاد المغرب، وحاولت بمختلف الوسائل عرقلة حضورهم بالمنطقة، واعتمدت – كما لاحظنا سابقا- على أسلوب التحالفات والضغط على سلاطين بلاد المغرب لإقصاء الجنويين، كما اعتمدت على وسائل الدعاية النفسية التي جعلت من الملك الأراغوني "أقوى حاكم على البر والبحر"[3]، وأخيرا اعتمدت على مهاجمة التجار الجنويين المتعاملين مع بلاد المغرب. بل إنها أصبحت تقدم مراكبها للتجار الجنويين الذين يرغبون في التعامل مع بلاد المغرب. ويمكن أن نسوق في هذا السياق الرحلة التجارية التي قام بها الجنويان "Ludovico Embriaco" و"Giacomo Serrallo" على متن مركب ميورقي للتجارة مع بجاية سنة 1330[4].

ب-القرصنة الأراغونية:

ظل الملك الأراغوني يحلم دائما بأن يجعل من البحر المتوسط "بحيرة كطلانية"[5]، وقد كان تبني القرصنة باعتبارها عمليات مشروعة ، من الأساليب التي عوّلت عليها أراغون لتنفيذ مشاريعها، ولضرب منافسيها بالبحر المتوسط. ولم يسلم الجنويون من علميات القراصنة الأراغونيين بسواحل بلاد المغرب أو بمياه البحر المتوسط. فقد جاء في شكوى رفعها السلطان الحفصي إلى "جاك الثاني" ملك أراغون ما يلي: "وصل للحضرة العلية غراب وشيطيان للقطلانيين، فأخذوا (الأراغونيون) في

[1]- Balbi. Il trattatto. op cit. p 301.
[2]- Ibid.
[3]- جاء ذلك في رسالة حملها "Bondari" مبعوث الملك الأراغوني إلى السلطان العبدوادي سنة 1293، أنظر:
Dufourcq. l'Espagne. op cit. p 335 et p 475.
[4]- Dufourcq. Aspects internationaux de Majorque durant les derniers siècles du moyen age. Mayurqa. n11. 1974. p 10.
[5]- Ibid. p 383.

المرسى بها طريدة للبيشانيين بالصوف قيمتها بما فيها ثلاثون ألف دينار وأخذوا شيطيا للجنويين قيمته بما فيه عشرة آلاف دينار"[1].

وكانت صقلية إحدى أهم أعشاش القرصنة الأراغونية، فانطلاقا منها، هاجم الأراغونيون التجار الجنويين طيلة الفترة الرابطة ما بين 1280 و1360[2]. ونستحضر في هذا الصدد عمليات القرصنة الخطيرة لـ "روجي دي لوريا "Roger de Lauria" الذي ظل يهدد السفن الجنوية وغيرها من سفن الجمهوريات البحرية الإيطالية.[3]

وقد بلغت القرصنة الأراغونية مستوى حادا لما هاجمت سفن أراغونية سنتي 1330-1331 سواحل جنوة، ومنعت الجنويين من التعامل التجاري مع بلاد المغرب[4]. والواقع أن هذه مجرد محطات للتوتر ضمن ما يسميه"بوتييه" "بالمنافسة الطويلة" ما بين أراغون وجنوة[5]، والتي شهدت ردود فعل قوية من جانب الجنويين[6].

لقد اقتصرنا على منافسة بيزة والبندقية وأراغون لجنوة في تجارتها مع بلاد المغرب، لأنها كانت أهم الأطراف التي أثرت في العلاقات الجنوية المغربية. ويحسن بنا أن نشير إلى وجود أطراف أخرى هددت بدورها هذه العلاقات، ونخص بالذكر مملكة صقلية على عهد "فريدرك الثاني"، ومملكة موناكو. ونشير في هاذا السياق إلى الخطر الذي شكّله على التجار الجنويين "روجي دي فلور" Roger De Flor القائد الكطلاني الشهير الذي دخل في خدمة "فريديرك الثاني" ملك صقلية[7]. كما أنه بعد صلح "Caltabellotta" سنة 1302، أصبح عدد من الفرسان الكطلانيين في حالة عطالة، تحوّلوا إلى قراصنة في خدمة ملك صقلية. كما لم تسلم السفن الجنوية من هجمات

[1]- Alarcon, Los Documentos, op cit, p 259.
[2]- Bresc, Un monde, T1, p 340.
[3]- Predelli, Libri commemorial della Repubblica di Venizia. T1. Venise. 1876. p31.
[4]- La Méditerranée et le Maghreb du 13 au 16 siècle. R.H.C.M. 1977. p78.
[5]- Bautier, Sources pour l'histoire du commerce maritime en Méditerranée du 12 au 15 siècle, in S.E.V.P.E.N. 1962. p 156.
[6]- نشير إلى أن السلطان الحفصي احتفظ بالسفن الجنوية الراسية سنة 1232 بموانئ دولته لمواجهة أراغون التي كانت قد نجحت قبل عامين في السيطرة على ميورقة، Dufourcq. l'Espagne, p93. وتحتفظ الحوليات الجنوية ببعض الإشارات عن عمليات القرصنة الجنوية ضد الأراغونيين المتعاملين مع بلاد المغرب. ففي سنة 1285 استولى الأميرال الجنوي "Henri Spinola" على مركب كطلاني يحمل الصوف من تونس A.G.T8.p140. وفي سنة 1291 ، هاجم الجنوي "Raffo de Gualtero" "سفينة كطلانية بميناء تونس A.G.T5, p 132 ، وفي سنة 1321 أغرق الجنويون سفينة كطلانية بميناء تونس.انظر:
Dufourcq, l'Espagne, p 575.
[7]- نذكر - مثلا- هجومه على سفينة جنوية محملة بملح بلاد المغرب، Dufourcq, l'Esapgne, p 420.

المراكز اللاتينية بالقسطنطينية، ومن تلك الهجمات ما شهدته سنة 1215، لما هاجم قراصنتها بمياه المانش المتوسطي أربع سفن جنوية بعد عودتها من رحلة تجارية ببستة[1].

أما بخصوص قراصنة موناكو، فنشير إلى ما قاموا به سنة 1336 لما هاجموا شينيا في ملكية الجنوي "سبينولا"، وقد عاد من الشرق وتوقف ببجاية لشحن بعض السلع. واقتيد إلى نابولي حيث دفع الجنويون فدية لافتكاك أسر مواطنيهم[2].

6- الجهود الجنوية والمغربية للحد من أخطار القرصنة

لا تكاد أي معاهدة أبرمت بين جنوة وبلاد المغرب تخلو من الإشارة إلى ضرورة تكثيف جهود الطرفين للحد من أخطار القرصنة. فقد حرمت معاهدة 1272 على الجنويين القيام بعلميات القرصنة على السواحل الحفصية، وألحّت معاهدة 1343 في ثلاثة بنود متالية (البنود 34 و35 و36)[3] على ضرورة التنسيق بين جنوة وإفريقية الحفصية لمواجهة القرصنة. كما التزم الجنويون من خلال المعاهدة التي عقدوها مع أبي عنان بالحد من قرصنتهم على سواحل الدولة المرينية[4]. وقد نصّت مختلف المعاهدات على ملاحقة سفن القراصنة الذين يهددون تجار الطرفين الجنوي والمغربي، وعلى مصادرة ممتلكاتهم ومنعهم من بيع ما سلبوه، كما نصّت على أن يتبادل الطرفان أسراهما الذين وقعوا في قبضة قراصنتها[5]. ولجأ الطرفان إلى بعض الوسائل العملية للحد من عمليات القرصنة، والتي يمكننا ان نجملها ضمن ما يلي:

أ- الرحلات التجارية الجماعية:

تتحدث المصادر عن قيام الجنويين برحلاتهم التجارية إلى بلاد المغرب على شكل قوافل، وإن لم يكن عدد السفن مرتفعا. ويبدو أن لجوء الجنويين إلى الرحلات الجماعية باتجاه بلاد المغرب، قد سبق بكثير لجوء البنادقة إلى الأسلوب نفسه في تجارتهم مع هذه المنطقة[6].

[1]- Schaube, p 347.
[2]- A.G.T10, p19.
[3]- Balbi, Il trattatto, p 310.
[4]- ابن الحاج النميري، فيض العباب، ص ص 30-31.
[5]- Mas Latric, Traités, p 179.
[6]- أول رحلة جماعية رعتها البندقية باتجاه بلاد المغرب أو ما يعرف ب "Muda de Barbaria" تمت في 10 شتنبر1436، أنظر:

ب- اشتراك المغاربة والجنويين في الرحلات التجارية:

سبقت الإشارة إلى أن تفوق الأسطول الجنوي فرض على المغاربة استعمال السفن الجنوية في رحلاتهم. وبغض النظر عن منطق الربح الذي دفع ملاكي السفن الجنوية إلى نقل المغاربة، فإن العملية مثّلت بالنسبة لهؤلاء وسيلة لدرء أخطار القرصنة الأوربية. ونشير كنموذج عن ذلك إلى انتقال مجموعة من التجار التونسيين سنة 1223 إلى الأندلس على سفينة جنوية يقودها "أركانتو" Raindaldo Archanto[1]. وتوخيا للسلامة، فإن التجار المغاربة كانوا يفضلون ركوب المراكب الأوربية، بالرغم من إضافة مسافات أخرى برحلاتهم، ويمكن أن نستأنس –هنا- بحالة أحد تجار غساسة الذي كان يتاجر مع بجاية، ففضّل أن يسافر على متن مركب ميورقي إلى ميورقة، ومنها يتوجه إلى بجاية[2]. على أن تفوق أسطول الجنويين لم يمنعهم من الإنتقال على بعض المراكب المغربية. ونسوق هنا حالة بعض التجار الجنويين الذين توجهوا سنة 1274 من جنوة إلى تونس على متن مركب مكون من 28 مجذافا في ملكية بعض التجار التونسيين[3].

ج-إنشاء جنوة لمكتب القرصنة أو : "l'officium Robarie"

يشكل إنشاء هذا المكتب تجربة فريدة من نوعها في تاريخ الحوض المتوسطي خلال العصر الوسيط. وهو عبارة عن "مؤسسة" أقيمت بجنوة في الفترة المدروسة لتقديم تعويضات للعناصر التي تطالها عمليات للقراصنة الجنويين، شريطة ألا تكون دولهم في حالة حرب عند تعرضهم لتلك العلميات. وكان "دو ماص لاتري" –حسب ما أشار إليه في دراسة له عن هذا المكتب- أول من أثار وجوده بجنوة في مقالة مستقلة[4]. واعتمد في ذلك على ما كتبه أحد الدومنكان سنة 1328، وهو "Guillaume Adam" الذي استهجن وجوده بجنوة لأنه موجه "ضد إرادة الله وقوانين الكنيسة" « Officium quod contra Deum et bonum christianitatis et contre statua exxlesie militat in hac parte" فهو في نظره وسيلة تزيد من إضعاف المسيحين، بينما

Stockly (Gattkon). Les premeirs convois de galères commerciales venitiènnes en direction de la Barbarie au milieu du 14 sècle. C.T. 1991. p 482.
[1]- Schaube, p 351.
[2]- Unali(Anna), Marinai, pirati e corsari catalani nel Basso Medioevo. Bologna, 1983, p 43.
[3]- Pistarino. Notaī, pXIV
[4]- Mas Latrie. L'officium Robarie ou l'office de la piraterie à Gênes au Moyen âge. B.E.C.T.L III, 1892, p270.

تزيد في ثروة المسلمين[1]. ومنذ صدور دراسة "دو ماص لاتري"، تتالت الدراسات حول هذا المكتب، حتى إنه لدينا حاليا بعض المتخصصين في دراسته بجامعة جنوة، وفي دراسة باقي المكاتب التي أنشأتها جنوة لمحاربة القرصنة وتشجيع مبادلاتها التجارية مثل "l'officium Gazarie" و"L'officium Romani".[2]

ويختلف الدارسون حول تاريخ بداية العمل بهذا المكتب بجنوة. يحدده "دو ماص لاتري" في سنة 1296، وذلك بالاعتماد على الكتابات المنقوشة التي عثر عليها "Charles Cuneo" محافظ أرشيف سان جورج بجنوة، بنفس القاعة التي احتضنت المكتب المذكور. فقد ورد بها[3]:

« Capsiata de Robarius que appelatur Salvaterra MCCLXXXXVI, kalendis Marcci » (أي مارس 1296)

وإلى نفس الرأي ذهب "لوبيز"[4]، وأما" قدار" فربط بين تاريخ نشوء المكتب وتاريخ التوقيع على المعاهدة الجنوية المملوكية سنة 1290[5]. ومن خلال وثيقة محفوظة بأرشيف "سفونا" Savona أرجع" كارو" بداية المكتب إلى سنة 1301[6]. وذهب "دي توتشي" إلى أن جنوة كانت مجبرة على إنشاء المكتب لضمان مبادلاتها مع بلاد المغرب، ورجح – دون أن يقدم مصدره– أن يعود ذلك إلى بدايات القرن 13م[7]. وأثبت "جيهل" أن العمل بهذا المكتب بجنوة، يعود على الأقل إلى سنة 1264، حيث يشير عقد مؤرخ بهذه السنة إلى اسم المكتب، ويحتمل أن يكون وجوده سابق لهذه السنة، لأن

---

[1]- Ibid, p 264.
ويجاريه "ملس لاتري" في رأيه إذ يؤاخذ المصادر الجنوية والأوربية عموما على عدم تنديدها بوجود هذا المكتب بجنوة.

[2]- نخص بالذكر الباحثة الإيطالية "روكتليتا" A.Roccatagliata الذي اصدرت عدة كتب ومقالات تهم هذا الموضوع مثل:
- Alle origini delle'ufficio « pro robarius » del commune di Genova, i saggi e documenti VII, T2, Civico Istituto Colombiano, Studi e testi, Serie Storica a cura di Geo Pistarino, (N) 9, Genova, 1986.
- L'officium Robarie del commune di Genova, T1, Genova 1989.
-L'officium Robarie del commune di Genova, da ufficio della pirateria a ufficia dei ribelli. Genova, 1990.

[3]- Mas Latrie, L'officium, p 269.
وقد شرح كلمة "Salvaterra" بمعنى التأمين.

[4]- Studi, p 16.

[5]- Kedar B, L'officium Robarie di Genova, un tentativo di coesistere con la violenza, in AS I, N°525, juillet, septembre, 1985, pp331-336.

[6]- Caro, Genova, pp309-310.

[7]-Di Tucci, Documenti, p 274.

الشكاوى رفعت آنذاك إلى كومونة جنوة بفعل ممارسات قراصنتها[1]. وكيفما كان الأمر، نعتقد مع "باليطو" أن جنوة كانت مجبرة على إنشاء هذا المكتب في النصف الثاني من القرن 13م/ 7هـ بموازاة مع تزايد تجارتها و تطورها. ففي التسعينيات من هذا القرن، بلغت أنشطة ميناء جنوة أقصى مستوى لها، إذ وصلت القيمة الإجمالية للسلع التي صدرتها واستوردتها مبلغ 3.822.000 ليرة، بينما بلغت سنة 1274 مجموع 936000 ليرة، وفي سنة 1334 بلغت قيمة قدرت ب 1.806.000 ليرة.[2]

وتقدم المصادر إشارات مهمة عن طريقة عمل المكتب. ففي حالة تعرض أي شخص، أكان مسيحيا أم يهوديا أو مسلما لعملية قرصنة من جانب الجنويين، ولم تكن دولته آنذاك في حالة حرب ضد جنوة، كان عليه أن يضع –أو يكلف من ينوب عنه– شكوى بصفة سرية في صندوق وضع خصيصا لاستقبال شكاوى المتضررين بقصر الكومونة في "سان جورج"، وتتم حراسة هذا الصندوق باستمرار. ويجب أن تتضمن الشكوى تاريخ العملية وطبيعة الخسارة التي مني بها المتضرر وتوقيعه، وإن أمكن أسماء القراصنة الجنويين. وخلال بعض الأيام المحددة من السنة، يفتح الصندوق، ويبث في شأن الشكوى أربعة حكماء. ويعتبر حكمهم إلزاميا، إذ لا يقبل الاستئناف. ولا يستبعد "لوبيز" أن يكون المكتب قد توصل بشكاوى المسلمين من بلاد المغرب، وإن كان يعتبرها قليلة مقارنة مع شكاوى مسلمي المشرق.[3] وقد كان الحكم الصادر مثلا في الغالب في مصادرة سفن القراصنة الجنويين الذين تثبت في حقهم ممارسة القرصنة ضد الأشخاص الذين لم تكن دولهم في حالة حرب ضد جنوة، كما كان المكتب يقدم تعويضات لهؤلاء الأشخاص بغض النظر عن ديانتهم[4].

إن إنشاء مكتب القرصنة لا يشكل مؤشرا على ضعف جنوة، بل يعبر عن نضجها التجاري، بأن غلّبت الوسائل التفاوضية على حساب وسائل العنف في حل مشاكل تجارتها البحرية[5]، وبدون شك، فإن هذا الإجراء ساهم في تنشيط التجارة الجنوية وفي تلميع صورتها لدى باقي الدول، وإن ظل مشكل القرصنة يؤرق كل دول الحوض المتوسطي آنذاك.

---

[1]- Jebel, Les Génois, p 276.

[2]- Balletto, Magistrature medievali Genovesi per il Levante, Atti dell'accademia Ligure di scienza e lettere, Vol XLVIII, Genova ,1992, p 564.

[3]- Lopez, Studi, p17.

[4]-Balletto, Magistrature, op cit, p 565.

[5]- Lopez, Studi, p 17
-Balletto, Magistrature, op cit, p 565.